صفحات من

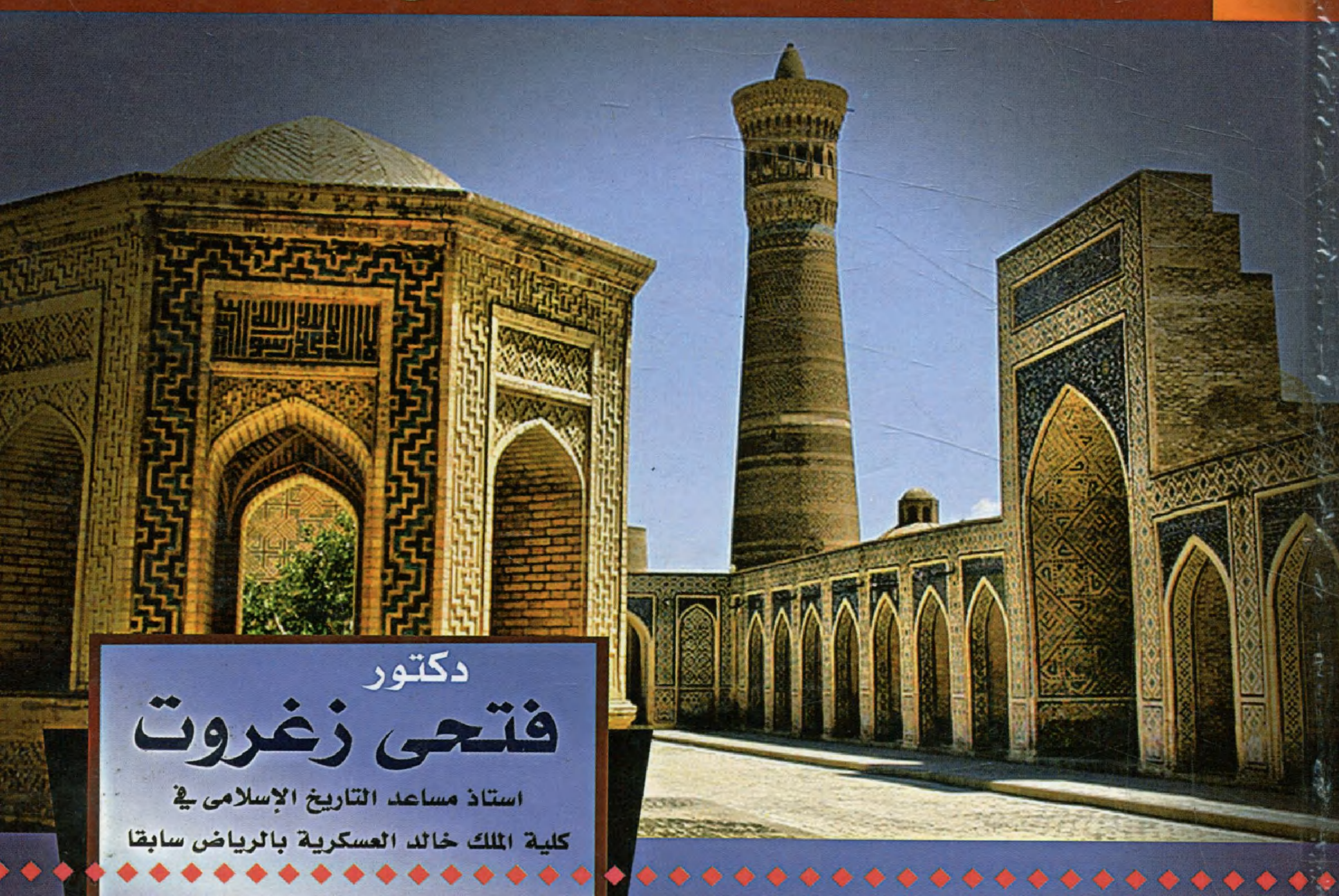
جهاد الأمة المسلمة ضد الصليبيين

العثمانيون

ومحاولات إنقاذ مسلمى الأندلس

٨٩٨ هـ - ١١١٥هـ = ١٤٩٢م - ١٦٠٩م

منذ سقوط غرناطة حتى الخروج النهائى



دكتور

فتحى زغروت

استاذ مساعد التاريخ الإسلامى في

كلية الملك خالد العسكرية بالرياض سابقا

صفحات من جهاد الأمة المسلمة ضد الصليبيين

العثمانيون
ومحاولات إنقاذ مسلمي الأندلس

[٨٩٨هـ - ١١١٥هـ] = [١٤٩٢م - ١٦٠٩م]

منذ سقوط غرناطة حتى الطرد النهائي

تأليف

دكتور/ فتحي زغروت

الطبعة الأولى للناشر

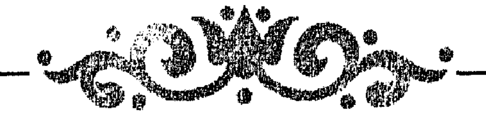
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٧٩٦٤

الترقيم الدولى: I.S.B.N.

978-977-456-320-9





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

[المؤمنون: ٥٢]

على سبيل التقديم

يشكل موضوع هذه الدراسة قضية من أهم القضايا التى مر بها تاريخ أمتنا العربية المسلمة، فقد اتسعت حقبته الزمنية والتى تقدر زهاء قرنين من الزمان تقريبًا يبدأ منذ سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م وحتى الطرد النهائى لمسلمى الأندلس المتنصرين سنة ١٦٠٩م. وتعود خطورة تلك الحقبة أنها شهدت صراعًا صليبيًّا محتدمًا نشأت بوادره الأولى على أرض الأندلس بعد سقوط غرناطة ومحاولة الغرب تصفية الوجود الإسلامى واقتلاع جذوره لا من الأندلس فقط وإنما من الدول المواجهة لبر الأندلس وهى دول الشمال الإفريقى التى تدين للإسلام وتساند إخوانهم المسلمين فى الأندلس.

والعجيب آنذاك أن تتعصب الكنيسة المسيحية ويدعو البابا الى حروب صليبية ضد الإسلام والمسلمين فنشطت الجيوش والأساطيل البرتغالية والإسبانية تباشر نشاطها الوحشى بالاعتداء على المسلمين فى الأندلس وخارجها، فأقيمت فى الأندلس محاكم التفتيش لتنصير مسلمى الأندلس قسرًا، وهم الذين أطلق عليهم آنذاك أكثر من مسمى فقد أطلق عليهم بعض المؤرخين (الأندلسيين المواركة) ويقصد بهم العرب الذين بقوا فى قشتالة وغرناطة بعد صدور مرسوم التنصير سنة ١٥٠٢م، وكلمة «المواركة» تعريب لكلمة (moriscos) القشتالية التى تعنى «النصارى الجدد» أو «النصارى الصغار»، وسبب اختيارهم لكلمة «المواركة» هو محاولة التفريق بينهم وبين الأندلسيين الذين سكنوا شبه الجزيرة الأندلسية قبل سقوطها طوال عدة قرون. واستخدم بعض المؤرخين وصف «المتنصرين» على الأندلسيين الغرناطيين ولكن هذا الوصف لا يتمشى مع واقع الأمور كما سنبين بعد. وأطلق البعض الآخر عليهم «المورسيكيين» ولكن هذا الوصف أيضًا يعطى الانطباع بأن الحديث يتناول شعبًا لا يمت إلى العرب بصلة، كما أطلق عليهم الإسبان (المدجنين) احتقارًا لشأنهم فهم فى نظرهم كالطيور الداجنة.

واعتباراً من منتصف القرن الخامس عشر، كانت التطورات المحلية والدولية تتفاعل لتحديد مستقبل مملكة غرناطة، آخر معاقل المسلمين بالأندلس، فقد أدى تمكن السلطان العثماني محمد الفاتح من احتلال القسطنطينية الى دفع البابوية للبحث عن وسيلة للانتقام من المسلمين فراحت تحث قشتالة على تجديد الحرب ضد غرناطة وإقامة محاكمة متعسفة لمن يثبت عليه تمسكه بالإسلام أو بتقاليده أو عباداته، وكان يعذب عذابًا شديدًا إلى درجة القتل، ومصادرة الأموال، والممتلكات وإزهاق أرواح الأبرياء ظلمًا.

والحقيقة أن سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م سبب جرحًا عميقًا فى قلب أمتنا المسلمة صعب اندماله أو شفاؤه على مر العصور، بل اشتد ألمه واستمر نزفه لما أصاب أمتنا من ويلات الحروب الصليبية التى باتت تترى، وقد شملت الجبهة الإسلامية كلها المشرق الإسلامى ومغربه، فى وقت ضعفت فيه أمتنا المسلمة، وتمزقت كلمتها، وتبعثر صفها ووهنت كلمتها أمام هؤلاء المعتدين من الغرب رافعى الصليب.

وقد قصدت بهذه الدراسة أن تكون دراسة تاريخية شاملة لأمتنا المسلمة، وأن تمتد امتدادًا واسعًا يشمل جناحيها معًا فى حقبة زمنية واحدة تفرض علينا أن نقرأ تاريخها قراءة واعية ذات منهجية مميزة، ولن يكون ذلك إلا بربط تاريخ المشرق الإسلامى بمغربه فكل منهما يؤثر فى الآخر باعتبار أمتنا المسلمة أمة واحدة هى خير أمة أخرجت إلى الناس، أما إذا درس تاريخ العثمانيين دراسة إقليمية منفصلة ضيقة، فإن ذلك لن يعطينا الصورة الصادقة لكفاح أمتنا السياسى والعسكرى والاقتصادى والحضارى، ولكنه سيكون تاريخًا مشوهًا وناقصًا.

وقد قيض الله لتلك الأمة الضعيفة الممزقة التى يتربص لها أعداؤها -أقول: قد قيض الله لها إخوة مسلمين رفعوا لواء الجهاد فى سبيل الله للدفاع عن ديار الإسلام وهم (الأتراك العثمانيون)، ولا غرو فى ذلك فقد كانوا القوى الكبرى فى المشرق الإسلامى آنذاك والتى حملت لواء الإسلام نيابة عن الخلافة العباسية التى خمدت أنفاسها بعد الغزو المغولى وسقوط بغداد، فإن جيوش العثمانيين

وأساطيلهم قد حملت لواء الخلافة وانسابت فى البر والبحر لتنشر الإسلام فى دول البلقان وشرق أوربا؛ وامتدت جيوشها الى أوربا الغربية ثم توج ذلك بفتح القسطنطينية على يد سلطانها المؤمن محمد الفاتح.

وقد رأى الحكام العثمانيون لكى تكتمل قوتهم ويتفرغوا لأعمال الجهاد فى سبيل الله أن تتوحد جهود العرب المسلمين مع جهودهم فى جبهة واحدة، وهذا يفسره الفتح العثمانى لمصر والشام على يد السلطان سليم الأول والذى تنازل فيه آخر الخلفاء العباسيين بالخلافة لسلاطين بنى عثمان على اعتبار أنها القوة الكبرى للمسلمين آنذاك، وبهذه الوحدة الإسلامية اطمأن العثمانيون على أمن جنوب البلاد العربية الإسلامية وعلى حماية الحرمين الشريفين من أن تمتد إليهما يد البغى والشر لنبش قبر الرسول ﷺ وحمل جسمانه الشريف الى أوربا، ومن هذا المنطلق ظهرت وحدة العالم الإسلامى بشموليتها (العراق، الجزيرة العربية، سوريا، فلسطين، مصر، طرابلس الغرب، الجزائر، المغرب، تونس، كل تلك الدول فى جبهة واحدة مع شبه جزيرة البلقان، الأناضول، معظم أوربا الشرقية).

وبهذه الجبهة القوية واجه العثمانيون الهجمة البرتغالية والإسبانية التى كانت تحدق بالوطن العربى، وخاصة إبان الكشوفات الجغرافية التى قامت بها هاتان الدولتان والتى بارك البابا حركتهما الاستعمارية، من هنا أدرك العثمانيون ذلك الخطر مبكرًا فقاموا بصده وعملوا على مطاردة البرتغال والإسبان، والحركات الصليبية فى البحر الأحمر والأبيض، ولم تكتف بذلك بل من الإنصاف والعدل أن نقول إنها ظلت تنازل أوربا الصليبية وتجاهدها فى سبيل الله زهاء ستمائة عام منذ القرن السابع الهجرى وحتى أواخر القرن السادس عشر، فقد كانت تلك الدولة الإسلامية العظيمة بحق سداً منيعًا فى وجه الأطماع الأوربية التى جاءت من بلادها فى حركة همجية رافعة لواء الصليب طامعة فى ثروات العالم الإسلامى وفى خيراته ومقدراته.

- إن تلك القوة العثمانية الإسلامية الناشئة آنذاك، قد عول عليها المسلمون كثيرًا، وبنوا عليها الآمال فى أن تعود للأمة المسلمة مكانتها وهيبتها، كما كانت عليها إبان دولة

الإسلام الأولى الممتدة (الأموية والعباسية)، وقد استشعر المسلمون بالأمن والطمأنينة فى ربوع تلك الدولة وتحت لوائها الذى يخفق دائمًا بالقوة ونصرة الحق والجهاد فى سبيل الله فانتظم أبناء العروبة بجانب إخوانهم فى جيوش العثمانيين ليشكلوا قوة واحدة مسلمة تصون الإسلام وتحمى أهله وحرماته، وبذلك نستطيع القول بأن دولة العثمانيين دولة مسلمة مجاهدة، وليست دولة استعمارية، كما يشاع حولها.

ولما كان سلاطين بنى عثمان مجاهدين فى سبيل الله، وموكل إليهم حماية الأمة المسلمة آنذاك فلا عجب، أن تتجه إليهم وفود أهل الأندلس من المسلمين المتعرضين للتنصير القسرى ومحاكم التفتيش وقد استبد بهم الإسبان وحاولوا تشريدهم وطردهم، أقول اتجهت الوفود لطلب النجدة والإنقاذ ومد يد العون من العثمانيين إخوانهم فى الإسلام وخاصة أنهم القوة المسلمة الوحيدة فى المشرق الإسلامى آنذاك. فهل مد العثمانيون لهم يد العون؟ وماذا كان مستوى ذلك العون على الصعيد السياسى والصعيد العسكرى؟

إن هذا التساؤل يشكل القضية الرئيسية لموضوع البحث، والذى سوف يتتبعه القارئ المسلم ليقف بنفسه على الصواب، وعلى حقيقة تلك القضية الملحة والشائكة، والتى أثارت جدلاً كبيرًا ونقاشًا حاداً بين المؤرخين والكتاب من المسلمين ومن غيرهم، وكان مبعث هذا الجدال ذلك الصراع العسكرى، الذى امتد ليشمل البر وسواحل البحر الأبيض المتوسط، شرقه ووسطه وغربه، حيث شهدت تلك المنطقة صراعًا بحرياً شاركت فيها أساطيل العثمانيين، وأساطيل الصليبيين المتعصبين من الغرب الأوربى، كما ساهمت الأنشطة السياسية فى عقد معاهدات بين القوى المتصارعة أثرت فى مصير أهلها تأثيرًا بالغًا. والذى أود أن أشير إليه هنا والمتعلق مباشرة بموضوع البحث:

- لقد كانت شكوى المؤرخين فى تناولهم لتلك القضية وهى قضية إنقاذ العثمانيين لمسلمى الأندلس أن الوثائق والمصادر والمراجع التاريخية شحيحة فى هذا الجانب، وعلى ما يبدو فإن الأمر خلاف ذلك فقد وقع تعتيم على مصادر ووثائق تلك الدولة فى عصرنا الحديث لأسباب سنذكرها بعد، ولكن تجلت قدرة الله فى

أن يخرج الكثير من تلك الوثائق من مخازن الأتراك وأرشيفاتهم الوثائقية، وقد نهض بعض الباحثين فى إظهار تلك الوثائق متكبداً العناء والتعب حتى وفقه الله إلى جمع تلك الوثائق ونشرها فى كتابه العظيم،هذا الباحث هو الدكتور عبد الجليل التميمى فى كتابه القيم (الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين) وهو من منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية والتوثيق والمعلومات بزغوان سنة ١٩٨٩م جزاه الله خيراً عما قدمه من جهد فى هذا المجال.

- الحقيقة الأخرى التى ينبغى أن يدركها كل قارئ للتاريخ الإسلامى وبخاصة القراء المسلمون، أن تاريخ الدولة العثمانية قد تعرض للتشويه والتزوير والتجاهل والتجهيل من المستشرقين المؤرخين، وبخاصة اليهود منهم والمتعصبون من مؤرخى الغرب، ومما يؤسف له أن أقوالهم وأكاذيبهم، قد انطلت على الكثيرين من أبناء أمتنا المسلمة، وخاصة الدارسين على أيدى هؤلاء المستشرقين ليس هذا فحسب، بل دست أقوالهم فى مناهج مدارسنا وجامعاتنا وصارت تدرس لأبنائنا وتتردد على ألسنة الكثيرين من المعلمين والأساتذة القائمين على منهجية التاريخ وتدريسه إلى وقتنا هذا، وهم الذين يعتبرون الفتح العثمانى لبلاد العرب استعماراً تركياً، وهذا أمر مزعج وغير سوى سواء فى ثقافتنا المعاصرة أو فى تنشئة الناشئة المسلمة، وذلك للأسباب التالية:

أ- التعتيم على الصورة المشرقة والصفحات النيرة للدولة العثمانية، قد خلق فجوة عميقة بين شبابنا، وبين تاريخهم المشرق الوضاء، الذى كان فيه دولة العثمانيين تنشر الإسلام للإنسانية فى كل مكان حلت فيه جيوشها وأساطيلها، إذ كانت هى دولة الخلافة الإسلامية آنذاك وفى يدها قيادة البشرية جمعاء، فهم خلفاء بنى العباس والموكول إليهم حماية الدين وأهله كما جاء فى بعض الروايات.

ب- وبعد التعتيم، يأتى دور التشكيك فى تاريخ تلك الدولة، وفى تصرفاتها مع الشعوب. والهدف من ذلك واضح،وهو ليس تشكيكاً فى دور سلاطين العثمانيين الجهادى بقدر ما هو تشكيك فى دين الله عقيدة وشريعة ومنهاجاً،

إنه الدين الذى ارتضاه الأتراك ودافعوا عنه بكل ما يمتلكون من غالٍ ونفيس وافتقدوا من أجله زهرة شبابهم.

ج- إنهم أرادوا من وراء ذلك التهوين من قدر الدور الذى قام به الأتراك العثمانيون فى هداية البشرية بعد دور بنى العباس وإحكام قبضتهم على الشعوب، وتوجيهها وجهة الخير التى يريدها الإسلام، فالحانقون عليهم يهدفون من وراء ذلك التهوين كره شبابنا لهؤلاء السلاطين وفقد الثقة بهم من ناحية، وصرف الناس عن الاقتداء والاهتداء بالدور الإسلامى الذى تقوم به الخلافة الإسلامية التركية من ناحية أخرى، بهدف أن يظل العالم كله فى جاهليته المظلمة وتكتنف شعوبه الفوضى من كل ناحية، فالدول الكبرى تلتهم الصغرى وتستحوذ على مقدراتها، وهذا ما نلمسه اليوم فى تصرف القوة الوحيدة ذات القطب الواحد والتى تلعب بالعالم كله، وتشيع الفوضى فى كل مكان، وتنشر الإرهاب وتوزعه كما تريد، وفق أهدافها ومراميها التى لا نهاية لها. كل هذا يتم فى غياب القوى الإسلامية (والخلافة الإسلامية) التى أرداها المشرع المسلم من أجل إقامة العدل ونشر الطمأنينة والسلام فى ربوع الأرض.

د- كما يهدف هؤلاء المشككون من وراء تشكيكهم فى تاريخ العثمانيين تغييب شبابنا المسلم عن التصدى والمواجهة لمن ارتكب خطيئة إسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية عام ١٩٢٤م، تلك الخطيئة التى شاركت فيها جماعات اليهود من الاتحاد والترقى، ودهاة الاستعمار الغربى وبخاصة إنجلترا التى عقدت صفقة بيع الخلافة مع مصطفى كمال أتاتورك، أقول: إن تغييب شبابنا عن الصورة الحقيقية لهؤلاء الأعداء، قد يتيح لهم فرصة إشعال المؤامرات السياسية والاقتصادية والعسكرية، والتى أخطرها جميعًا تلك المؤامرات الفكرية التى تمت حياكتها على أيدى أصحاب فكرة العلمانية والتى حلت محل الإسلام فى تركيا المسلمة إبان القرن الماضى ثم انسابت منها وتسللت بجراثيمها الخبيثة إلى مصر قلب العالم العربى، ومن ثم إلى باقى دوله، وشاء الله أن يعود إلى تركيا

اليوم وجهها الإسلامي المشرق مرة أخرى، وأخذت العلمانية في الذبول والانزواء وسوف يلقى بها في مزابل التاريخ .

هـ- والأمر المهم الذى لا شك فيه، أن سلاطين بنى عثمان، كان أغلبهم سلاطين مجاهدين في سبيل الله، يقودون الجيوش الجرارة والأساطيل البحرية لنشر دين الله في الأرض ونصرة الشعوب المظلومة المهدور حقها ، ومن أروع الصور المشرقة في تاريخ تلك الدولة هو السلطان محمد الفاتح الذى فتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ- ١٤٥٣م وغير اسمها إلى مدينة (إسلامبول)، وهذا الفتح العظيم هو الذى بشر به نبى الإسلام محمد ﷺ والذى شرف به السلطان العثمانى محمد الفاتح ومن السلاطين الأقوياء أيضًا الذين ساهموا في نشر دين الله السلطان مراد الأول الذى فتح أدرنة عام ٧٦٣، والسلطان بايزيد الذى هيمن على شمال بلغاريا والأفلاك واقترب من المجر، كما قام السلطان مراد الثانى بفتح (سالونيك وألبانيا).

و- إن البحث في هذه القضية يجب أن يقترن بتطور الخلفية الدينية للصراع الإسبانى العثمانى وذلك بعدم فصل الدين عن السياسة، حيث كان الدين هو الخلفية الموجهة والملونة لكل الفاعليات والتحركات السياسية، إذ كانت الكنيسة تتدخل في كل شيء، وغنى عن البيان أن المناخ السياسى لإسبانيا عند سقوط غرناطة، كان يترجم عن مدى عمق التأثير الدينى، الذى سيطر على المسئولين آنذاك والذى حفز الإسبانيين على محاربة الإسلام.

- وكما أن الغرب اعتمد على خلفية دينية في صراعهم العسكرى فإن العثمانيين هم أيضًا اعتمدوا على خلفية دينية وجهت تحركاتهم، وحددت مواقفهم التى ظهرت أثناء تدخلهم في الولايات المغربية خلال القرن السادس عشر، إذ كان التوسع العثمانى ذات طابع دينى ولكنه ليس متعصبًا، والمتتبع لعملية التوسع العثمانى بالأناضول منذ فتح القسطنطينية ثم توغلهم في القارة الأوربية فسوف يتضح له تلك الظاهرة الدينية في تحركاتهم في بادئ الأمر، وبمرور الوقت وبسبب التنظيمات الإدارية والسياسية لدى العثمانيين فقد اكتسب الطابع الدينى طابعًا آخر،

وهو طابع متعدد الجوانب ظهر فيه اللون السياسى والجبائى والتجارى والتأمينى، حيث كانت مصر والشام بمثابة جبهة لتأمين الضفة الجنوبية للدولة العثمانية السنية والمضادة للديانة الشيعية آنذاك، وكان من نتائج تعدد تلك الألوان التى اكتسبها الطابع الدينى اعتبار الإسلام دين حياة من ناحية، وبسبب العداء البرتغالى الإسبانى للبلاد العربية، والذى وصل إلى درجاته القصوى، جعله يأخذ شكل الصراع العسكرى من جهة أخرى.

إن نظرة العثمانيين للموقع الإستراتيجى للشام ومصر على أنها منطقة ذات أهمية حساسة للبلاد العثمانية جعلهم يتخذوا منها خطوطًا عسكرية لصد خطر التحالف الأوربى المسيحى الذى بات يهدد البلاد الإسلامية، ولا ننسى فى هذا الصدد أن الزحف العثمانى على أوربا هو الذى جعل أوربا تتراجع فى حروبها الصليبية عن البلاد العربية حينًا من الزمان.

ز- كما أنه ينبغى عند دراسة هذه القضية -محاولات إنقاذ العثمانيين للأندلس- أن نربطها بالتاريخ العثمانى وخاصة بعدما عثر على وثائق مهمة فى الأرشيف العثمانى، وقد ألقت الضوء على الحملات الإسبانية المسيحية على السواحل والموانى المغربية الإسلامية، كما أظهرت تلك الوثائق العنف الذى بدا من ملاحقة الإسبان لكل تحرك عثمانى فى البحر الأبيض المتوسط، وعلى الجبهات الأوربية. وكذلك المعارك الكبرى، والمعاهدات السياسية التى عقدها السلاطين العثمانيون مع ملك فرنسا ودوق البندقية وغيرهما من ملوك أوربا بهدف تأمين مسلمى الأندلس فى بلادهم ورفع التنصير القسرى عنهم، ومعاملتهم أيضًا معاملة طيبة كالمعاملات الطيبة التى يتلقاها النصارى فى المشرق الإسلامى.

- إن روح التسامح التى أبداها العثمانيون مع الشعوب الأوربية المغلوبة كانت روحًا مثالية حيث تركوا لهم حرية العبادة والمعتقد، ولم يجبروا أحدًا على ترك دينه وأقاموا لهم المحاكم المختصة بأمورهم وبشريعتهم التى يدينون بها. وهذا خلافًا لما فعله الإسبان فى مسلمى الأندلس، حيث أجبروهم على التنصير وأقاموا لهم محاكم التفتيش التى أدت بهم إلى حد القتل ومصادرة الممتلكات، وخلافًا

أيضًا لما تفعله اليهود اليوم فى فلسطين، وكذلك ما فعله النصارى فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود.

وقد يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل الذى يثار بين الحين والحين هل يعقل أن دولة العثمانيين تلك الدولة الفتية القوية الحامية لديار الإسلام والمسلمين، تمتنع عن مد يد العون عن إخوانهم المسلمين المعذبين فى الأندلس والذين يلاقون حملات الاضطهاد والتنكيل من أجل التنصير الإجبارى؟ هل يستقيم هذا المعنى مع ما ذكرناه عن عظمة دولة العثمانيين؟ بطبيعة الحال لا يستقيم هذا المعنى فإن تلك الدولة العثمانية المسلمة الراعية لشئون المسلمين قد وضعت فى إستراتيجيتها العسكرية خدمة القضية الموريسكية (مسلمى الأندلس المتنصرين)، وذلك بعد فتح جزيرة قبرص مباشرة، فسوف يباشرون عملية الإنقاذ بطريقة آمنة قد تمكنهم من إعادة فتح الأندلس مرة أخرى -كما كانوا يظنون- رغم مزاحمة الأساطيل الإسبانية والبرتغالية لهم. وهل يعقل مرة أخرى أن يستغيث هؤلاء المتنصرون بالخلفاء العثمانيين الأقوياء أمثال محمد الفاتح وبايزيد وغيرهما ثم يتقاعسون عن نصرة إخوانهم المسلمين فى الأندلس؟ وهل إنقاذهم وإعادة فتح تلك الجزيرة أصعب من فتح القسطنطينية؟

لقد امتلك الأسطول العثمانى قادة حققوا النجاح تلو النجاح أمثال عروج وخير الدين بربروسا وكمال رايس وغيرهم، وشددوا الرقابة لإنقاذ الأقليات الإسلامية فى إسبانيا، وقد نشط خير الدين فى هذا المضمار نشاطًا قويًا، وبفضل المساندة المعنوية والعسكرية (من السلطان سليمان القانونى إلى خير الدين)، استطاع فى أواخر أكتوبر سنة ١٥٤١م أن يوجه ٣٦ بارجة إلى السواحل الإسبانية، مكررًا لها سبع مرات، حيث تمكن من نقل ٧٠ ألف موريسكى. وقد كانت لهذه الانتصارات أثرها على البابا والإمبراطور شارل الخامس، وكانوا يخافون كل الخوف من أن تمتد يد العون بين الموريسكيين والعثمانيين، ومن هنا كانوا يقومون بمحاولات يلاحقون فيها الموريسكيين من ناحية، والقوات العثمانية من ناحية أخرى.

كل هذا الاهتمام من العثمانيين بهذه القضية الملحة آنذاك يجعلنا نؤيد الدور العثمانى وجهوده المتتابعة لمحاولة إنقاذ مسلمى الأندلس. وإن كانت قد ظهرت بعض الصعوبات فى سبيل الإنقاذ لم تمكن العثمانيين من افتتاح الأندلس مرة

أخرى، مثل بعد المسافات بين المشرق الإسلامى مقر العثمانيين وبين إسبانيا فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، فهى بلا شك مسافات واسعة حاول العثمانيون التغلب عليها بإقامة مراكز حربية متقدمة فى طرابلس الغرب والجزائر وتونس والمغرب، ولكن على ما يبدو كان عناد الإسبان والكتلة الصليبية الأوربية أشد وطأة، إذ تجمعت قوى الشر الصليبية المتعصبة ضد الدولة العثمانية يصارعونها ويقاومونها فى كل الاتجاهات: السياسية والاقتصادية والعسكرية حتى الجوانب الفكرية والثقافية، ولم يمكنوا دولة العثمانيين من هدفها الرئيسى فى إعادة فتح الأندلس وشغلوها بحروب متواصلة وصراعات دائمة بينها وبين دويلاتها من ناحية، وبينها وبين الأوربيين الغربيين وبخاصة روسيا من جهة أخرى.

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث ومنهجيته أن يقسم الى مقدمة وخاتمة وأربعة أبواب على النحو التالى:

الباب الأول: غروب دولة المسلمين فى الأندلس

ويتفرع من هذا الباب الأفكار التالية:

أولاً: تصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس بعد سقوط غرناطة.

ثانيًا: التنصير القسرى ومحاكم التفتيش.

ثالثًا: مسلمو الأندلس يطلبون العون من المشرق الإسلامى.

الباب الثانى: مجابهة قوات العثمانيين لقوات إسبانيا وأوربا

(البداية والتمكين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط)

ويتفرع من هذا الباب الأفكار التالية:

أولاً: سيطرة البحرية العثمانية على حوض البحر المتوسط.

ثانيًا: مسلمو الأندلس وشمالى إفريقية يستغيثون بالدولة العثمانية.

ثالثًا: العثمانيون يعيدون تونس إلى رحاب الجبهة الإسلامية.

رابعًا: أهل طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا.

خامسًا: الصراع للسيطرة على مضيق جبل طارق.

الباب الثالث: جهاد العثمانيين البحرى فى حوض البحر المتوسط

(بهدف الإنقاذ واسترداد الأندلس)

ويتفرع من هذا الباب الأفكار التالية:

أولاً: إعداد البحرية الجزائرية الضاربة فى البحر المتوسط.

ثانيًا: تنظيمات البحرية العثمانية ومصطلحات الأسطول الحربى.

ثالثًا: النشاط الحربى للأسطول العثمانى.

رابعًا: نبذة مختصرة عن أمراء البحرية العثمانية فى حوض البحر المتوسط.

الباب الرابع: أحوال موراكة الأندلس بين العثمانيين والإسبان

ويتفرع من هذا الباب الأفكار التالية:

أولاً: العثمانيون ومأزق الإنقاذ.

ثانيًا: أثر الموريسكيين فى المغرب العربى.

ثالثًا: يهود الدونمة وتآمرهم على الخلافة العثمانية.

رابعًا: الموريسكيون بين الطرد وأمل العودة.

خامسًا: ماذا خسرت إسبانيا بعد رحيل الموريسكيين.

هذا هو جهدى المتواضع فى هذه الدراسة المهمة التى ربطت بين جناحى أمتنا المسلمة، والتى سجلت تفاعل المسلمين وتحركاتهم فى حقبة بالغة الأهمية والتى تقدر بقرنين من الزمان، داعيًا الله العلى القدير أن يتقبله منى وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، إنه على كل شىء قدير، نعم المولى ونعم النصير.

تم بحمد الله كتابة هذا الكتاب فى أول يونيو سنه ٢٠١٠م

كتبه

دكتور: فتحى زغروت

فاقوس/ شرقية



غروب دولة المسلمين فى الأندلس

أولاً: تصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس بعد سقوط غرناطة.

ثانياً: التنصير القسرى ومحاكم التفتيش.

ثالثاً: مسلمو الأندلس يطلبون العون من المشرق الإسلامى.

أولاً: تصفية الوجود الإسلامى في الأندلس بعد سقوط غرناطة

عاشت دولة المسلمين فى الأندلس منذ قيامها سنة ٩٢هجرية تتقلب فى أطوار مختلفة بين قوة وضعف ووحدة وتفرق وعزة وذلة حتى تكاثرت عليها الخطوب وأحاط بها الأعداء من كل مكان، وأخذت تتساقط مدنها فى أيدى المسيحيين واحدة بعد أخرى حتى سقطت غرناطة آخر مدنها عام ٨٩٧هـ؛ أى أنها ظلت قائمة حية طيلة ثمانى قرون من العمل والعطاء الثقافى والحضارى من جهة والمكابدة والمجاهدة من جهة أخرى، وهى بذلك تعتبر أطول دول الإسلام عمراً، إن حادثة سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس لأشد أثراً فى نفوس المسلمين جميعًا؛ فهى تسامى حادثة سقوط بغداد على أيدى التتار ثم الأمريكان. وسقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين ثم فى أيدى اليهود. وإذا كان لسقوط الأندلس حينذاك صدى كبير آلم المسلمين؛ فإنه لم يكن الفصل المؤلم والأخير فى حياة المسلمين بالأندلس بعد سقوط غرناطة، فقد جاءت بعد ذلك أحداث وخطوب أشد قسوة وأكثر إيلامًا لتلك الأمة المنكوبة.

فقد تجرع الأمير أبو عبد الله آخر أمراء غرناطة كئوس الذل والهوان، وانخرط فى البكاء كالنساء؛ يزرف دموع الحسرة والندم وهو يسلم مفاتيح قصور الحمراء بغرناطة لملكى إسبانيا النصرانية «فرناندو» و«إيزابيلا»، لم تكن هى الدموع الأخيرة التى أزرفت على بلاد الأندلس، إنما أعقبها الكثير والكثير من دموع المسلمين ودمائهم، فعلى الرغم من العهود والأيمان المغلظة التى قطعها ملك إسبانيا «فرناندو» على نفسه ووقع عليها فى وثيقة استلام غرناطة الشهيرة، إلا أنه غدر بالمسلمين ولم يوف بعهده ولم يرع للمسلمين حرمة وأمنًا[1]؛ وقد تحقق فيه قوله تعالى: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠]، وقال تعالى أيضًا: ﴿إن

---

(١) آخر أيام غرناطة: مؤلف مجهول، دار حسان دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ [الممتحنة: ٢].
فأبت على فرناندو غريزته الصليبية أن يفى للمسلمين بشىء من العهود والمواثيق، وكانت هذه الوثيقة ستارًا للغدر والخيانة وإيذانًا بما سيقترف بالمسلمين فى الأندلس من نكبات ومصائب عهد بها إلى الكاردينال «خمنيس» مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية ويتمثل ذلك فى مهمة تنصير مسلمى الأندلس، وكان هذا الرجل من أشد أهل الأرض قاطبة عداوة للإسلام والمسلمين، بل إن البغضاء المشحونة فى قلبه كانت مضربًا للأمثال لعصور طويلة، فأنشأ ما يسمى بديوان التحقيق أو بما عرف تاريخيًّا بمحاكم التفتيش وذلك سنة ٩٠٥هـ، فكان أول عمل لهذه المحاكم أن جمعت كل المصاحف وكتب العلم والفقه والحديث وأحرقت فى ميدان عام كخطوة أولى لتنصير المسلمين؛ وذلك بقطع الصلة عن تراثهم وعلومهم الشرعية ولغتهم العربية وثقافتهم الإسلامية.

بدأت حملة تنصير المسلمين بعد ذلك بتحويل المساجد إلى كنائس ثم جمع من بقى من الفقهاء وأهل العلم وتم إجبارهم على التنصر، فوافق البعض مكرهًا وأبى الباقون فقتلوا شر قتلة، وكان التمثيل بجثث القتلى جرس إنذار لباقى المسلمين؛ إما التنصير وإما الموت والقتل والتنكيل وسلب الأموال والممتلكات، وكانت عملية التنصير مركزة على إقليم غرناطة ومنه انتقلت حمى التنصير إلى باقى بلاد الأندلس؛ حيث كان هناك الكثير من المسلمين تحت حكم النصارى خاصة فى وسط الأندلس وفى شرقه[1].

هب المسلمون بما بقى عندهم من حمية وغيرة على الدين للدفاع عن هويتهم وعقيدتهم، فاندلعت الثورة فى عدة أماكن من غرناطة وغيرها، واعتزم المسلمون الموت فى سبيل دينهم، ولكنهم كانوا عزلاً بلا سلاح ولا عتاد، فقمع الصليبيون الثورات بكل غلظة فقتل الرجال وسبيت النساء وقضى بالموت على مناطق بأسرها ما عدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة حيث تم تنصيرهم، وبعد قمع الثورة بمنتهى العنف والقسوة، أصدر «فرناندو» منشورًا بوجوب اعتناق المسلمين

(١) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس ص٣٥٤، ٣٥٥.

للنصرانية، وذلك سنة ٩٠٦ هجرية، ومن يومها ظهر ما يعرف فى تاريخ الأندلس المفقود باسم «الموريسكيين» وهى كلمة إسبانية معناها المسلمين الأصاغر الذين يشبهون الدواجن أو العرب المتنصرين، ومحنتهم تفوق الخيال وما لاقوه وعانوه من إسبانيا الصليبية لا يخطر على بال.

أما تلك الطائفة المسماة بالموريسكيين وهم المسلمون الذين اضطروا للبقاء بالأندلس وأجبروا على إظهار النصرانية وترك الإسلام، أقول إن هذه الطائفة رغم البطش والتنكيل الشديد الذى نكل بها لتجبر على التنصر، إلا إنها ظلت مستمسكة بدينها فى السر، فأخذوا يصلون سراً فى بيوتهم، ويحافظون على شعائرهم قدر استطاعتهم وذلك وسط بحر متلاطم من الاضطهاد والتنكيل والشك والريبة. وكانت العداوة الصليبية المستقرة فى قلوب الإسبان تجاه مسلمى الأندلس أكبر من مسألة الدين أو غيرها، فقد كانت هناك رغبة جامحة عند قساوسة ورهبان إسبانيا لاستئصال الأمة الأندلسية المسلمة استئصالاً لا يبقى أثرًا بعده للإسلام والمسلمين.

وظل الموريسكيون موضع ريب وشك من جانب الكاردينال «خمنيس» وديوان التحقيق، فعمل «خمنيس» على الزج بآلاف الموريسكيين إلى محاكم التفتيش، حيث تنتظرهم آلات التعذيب والتنكيل التى تقشعر لها الأبدان ويشيب منها الولدان، وذلك للتأكد من صدق تنصرهم وخالص ارتدادهم عن الإسلام، وكانت أدنى إشارة أو علامة تصدر من الموريسكيين وتدل على حنينهم للإسلام كفيلة بإهدار دمائهم وحرقهم وهم أحياء، واستمرت إسبانيا الصليبية فى سياسة الاضطهاد والقمع والتنكيل بالموريسكيين، وبلغت المأساة مداها بعدما أصدر «شارل الخامس» قرارًا بمنع سفر الموريسكيين خارج إسبانيا باعتبارهم نصارى، ومن يخالف يقتل وتصادر أملاكه، وعندها اندلعت ثورات أصحاب الصدور المحترقة فى بلاد الأندلس.

وكان تولى الإمبراطور «فليب الثانى» عرش إسبانيا بداية حملة اضطهاد غير مسبوقة للموريسكيين الذين كانوا موضع شك دائم من قبل الكنيسة ورهبانها الذين

كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم أن الموريسكيين ما زالوا على إسلامهم ومازالت تفيض به قلوبهم ومشاعرهم، وكان «فليب الثانى» ملكًا شديد التعصب، كثير التأثر بنفوذ الأحبار، فأصدر حزمة من القرارات جاءت بمثابة الضربة القاتلة لبقايا أمة العرب بالأندلس، حتى يتم تجريدها من أهم مقوماتها القومية وذلك بتحريم استخدام اللغة العربية كأداة للتفاهم أو التخاطب أو التعليم، ولم يكتفوا بذلك بل جردوهم من كل مظهر عربى يمت للعروبة والإسلام بصلة؛ فجردوهم من الملابس العربية وحرموا عليهم العادات والتقاليد العربية والإسلامية والصلاة وصلاة الجمعة والأعياد والاستحمام والختان، ولم يطق المسلمون ذلك وتطلعت أنفسهم إلى ثورة شاملة للخلاص، وعندما قامت الثورة الشاملة، كان مركز الثورة فى منطقة جبل «الشارات» واندلع لهيب الثورة منها إلى أنحاء الأندلس ودوت صيحة الحرب القديمة وأعلن الموريسكيون استقلالهم، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت، واختار الثوار أميرًا لهم اسمه «محمد بن أمية» يرجع أصله إلى خلفاء بنى أمية كإشارة على استعادة الخلافة ودولة الإسلام فى الأندلس مرة أخرى.

حقق الموريسكيون عدة انتصارات متتالية، اهتزت لها عروش النصرانية فى إسبانيا وأوربا، فأعدت إسبانيا حملة عسكرية ضخمة يقودها أمهر قادتهم هو «الدون خوان»، وجاء المجاهدون المسلمون من المغرب العربى، وانضمت فرقة عسكرية عثمانية للثوار جاءتهم من تونس، وقد اشتد حنق الإسبان وفاحت الكراهية فى أعمالهم، فأخذوا يقتلون من يقع فى أسرهم ويمثلون بجثثهم أبشع تمثيل حتى الأطفال والنساء لم تسلمن من القتل، وزاد ذلك الثوار يقينًا بحتمية الاستمرار فى الثورة والقتال حتى الموت، وقويت العزائم وتقاطر المجاهدون المغاربة على الأندلس، وهنا امتدت أيدى الغدر والخيانة فى الظلام لتغتال حلم الأندلسيين بمكيدة شريرة انتهت بقتل الأمير «محمد بن أمية» قبل أن يحقق هدفه المنشود.

لم تكن هذه الثورة لتقف أو تنتهى بموت زعيمها، فاختار الثوار أميرًا جديدًا هو ابن عم القتيل واسمه «مولاى عبد الله محمد»، وكان أكثر فطنة وروية وتدبرًا، فحمل الجميع على احترامه ونظم جيش الثوار وجعله على الطراز الدولى بل

ويفـوق فى تنظيمـه الجيش الصليـبى الإسبـانى، واستطـاع «مولاى عـبد الله» أن يستولى على عدة مـدن مهمة مثل مدينة «أرجبة» التى كانت مـفتاح غرناطة والتى كـان سقـوطها شـرارة اندلاع ثورة الموريسكيـين وذيوع شـهرة «مـولاى عبـد الله محمد». وقد حشدت إسبانيا أعـدادًا ضخمة من مقاتليها يقودهم «الدون خوان»، فحاصر هـذا الجيش الجرار الثوار فى بلدة «جليرا» وكان مع الثـوار فرقة من الجنود العثـمانيين، ودارت رحى معـركة فى منتهى الشراسـة أبدى فيها المسلمـون بسالة رائعة، ولكن المدينة سقطت فى النهـاية ودخلها الإسبان دخول الضـوارى المفترسة وارتكبوا مذبحـة مروعة شنيعـة؛ لم يتركوا فيهـا صغيرًا ولا كبـيرًا ولا طفلا ولا امرأة، وحاول «الدون خـوان» مطاردة فلول الثوار ولكنه وقع فى كمـين للثوار فى شعب الجبال عند مـدينة «بسطة»، وأوقع الثوار هزيمة فادحة بالصليبـيين الإسبان، جعلت الحكومة الإسبانية تفكر فى مصالحة الثوار المسلمين.

عرضت الحكومة الصليبية الإسبانيـة على المسلمين الثائرين معاهدة سلام لإنهاء القتال، فبـعث «الدون خوان» إلى أحد الثائرين واسمه «الحبـقى»، وقد لمحت فيه إسبانيا الصليبية بعض المؤهلات التى ترشحه للتفاوض وقبول شروطها المجحفة فى السلام، وكانت شروط المعـاهدة تتضمن وقف انتفاضة المسلمـين فورًا، وفى سبيل ذلك يصدر وعد ملكى بالعفو عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم فى خلال عـشرين يومًـا من إعلانه، ولهم أن يقـدموا تظلمهم وشكـاواهم مع الوعد بالبحث فيها ودراستها..! وكل من رفض العفو والخضوع للسلطة الصليبية سيقتل ما عدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة والسبب فى ذلك بالقطع معروف فالنساء تقعن سبايا والأطفال ينصرون.

كانت شـروط السلام الصليـبى المعروض على الموريسـكيين كفـيلة بأن يرفض الأمير مولاى عبد الله محمد هذه المعاهدة الجائرة التى لا تفيد المسلمين شيئًا وليس لها سوى هدف واحد وهو إيقاف ثورة المسلمـين فقط لا غير، وأيقن المسلمون أن الإسبان الصليبـيين لا عهد لهم ولا ذمة، فانقلب النصـارى يفتكون بكل المسلمين فى أنحاء إسـبانيا سـواء من اشترك فى الثـورة أو من لـم يشترك، واشـتبك الدون

خوان مع قوات مولاى عبد الله فى عدة معارك ولكنها غير حاسمة، وفى الوقت نفسه أبقى الإسبان على خط التفاوض مع الزعيم «الحبقى» الذى رأى فيه النصارى السبيل لشق صف الثوار المسلمين، من ثم سار مجرى القتال فى غير صالح المسلمين؛ لانعدام التكافؤ بين الطرفين، اللهم إلا الإيمان بالله عز وجل، ورأى مولاى عبد الله أن أتباعه أخذوا يتساقطون من حوله تباعًا، وتعقد الموقف وصارت القوة الغاشمة تجتاح كل شيء.

فبدأ يفكر فى الصلح والسلام ولكن بغير الشروط السابقة، وتدخل بعض زعماء الإسبان ممن له عقل وتدبير لإجراء الصلح، ولكن «الحبقى» استبق الجميع وشق صف الثورة وخرج عن طاعة مولاى عبد الله ومن معه، وذهب بسرية من فرسانه إلى معسكر الصليبيين، وقدم الخضوع والذلة إلى قائدهم «الدون خوان»، وقد كانت هذه الخطوة الذليلة من «الحبقى» محل سخط كل المسلمين وخاصة زعيمهم مولاى عبد الله، إذ إن الصف المسلم أخذ يتصدع بمحاولات «الحبقى» وأراجيفه، خاصة بعدما لمح المسلمون نية الصليبيين فى نفيهم تمامًا عن الأندلس، وهذا يجعل الهدف والداعى الذى قامت من أجله الثورة فى الأصل هباءً منثورًا وكيف سيعيدون دولة الإسلام فى الأندلس مرة أخرى إذا طردوا من أوطانهم، لهذه الأسباب كلها قرر مجلس قيادة الثورة إعدام «الحبقى» الذى ظهر منه ما يدل على عمالته وولائه للصليبيين.

أعلن مولاى عبد الله أن الثورة لن تتوقف وأن الموريسكيين سيجاهدون حتى الموت؛ وأن حلمهم بإعادة دولة الإسلام فى الأندلس لم يمت فى قلوبهم، وأنه يؤثر أن يموت مسلمًا مخلصًا لدينه ووطنه. ولم يلتفت إلى ما بذلوا له من وعود معسولة وأمانٍ كاذبة، وكان لهذا الموقف الشجاع من مولاى عبد الله فعل السحر فى نفوس المسلمين فى جميع أنحاء إسبانيا، فاندلعت الثورة كالنار فى الهشيم، وقابل الإسبان ذلك بمنتهى القسوة والشدة بل والحقد الدفين، حيث مضوا فى القتل والتخريب لكل ما هو مسلم، وهدموا القرى والضياع والحقول حتى لا يبقى للثوار مثوى أو مصدر للقوت.

كانت لهـذه القسوة المفزعة أثر كـبير على نفوس المـوريسكيين، حيث فر كـثير منهم من البـلاد كلهـا إلى إخـوانهم المسلـمين فـى إفريقـيـة، وفى ٢٨ أكـتـوبر سنة ١٥٧٠م أصدر فليب الثانى قراراً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البـلاد الأخرى بإسـبانيـا، ويوزعون على سـائر الولايات الإسبـانية وأن تـصادر أملاكهم وأموالهم، ووقع تنفيذ القرار فى مـشهد يندى له جبين البشرية من الخزى حيث السفك والنهب والاغتصاب، وسيق مسلمو غرناطة كالقطعان لمسافات طويلة حيث الجوع والعطش والمرض ثم وضعوا بعد ذلك فيما يشبه المعسكرات الجماعية، حيث بقوا رهن المتـابعة والرقابة الدائمة، وعين لهم مـشرفًا خاصاً يتـولى شئونهم ووضعت لهم جملة من القيود من يخالف أدناها يقتل شر قتلة.

بعد هذه الـوحشيـة منقطعة النظيـر وبعد سلسلـة من المذابح والمجازر البـشرية المروعة فى حق مـسلمى الأندلس وبعد فرار الكثـير من الموريسكيين إلى إفريقـية، وبعد نفى بقـيتهم داخل إسبـانيا لم يبق أمام الإسـبان سوى آخر فـرسان الأندلس مولاى عبـد الله وجيشه الصغيـر، الذى ظل مقاومًا للصليبـيين معتصمًـا بأعماق الجـبال، رافـضًـا للصلح أو المهـادنة أو الخضـوع لسلطة الصليب مـهـما كـانت التضـحيات، وهو فى هذه الأثناء يقوم بحـرب عصابات ضد الحـاميات الإسبـانية المنتشـرة بغرناطة، وأوقـعت هذه الحرب خسـائر فادحة بالإسـبان، ولكنهـا أيضًا أنهكت قوة جيـش مولاى عبد الله. ولأن هذا العصـر وتلك الأيام كانت توصف بالخيانة والعـمالة وحب الدنيا وكراهية الموت والخـوف على النفس والمال والعيال، فقد استطاع أعداء الإسلام أن يستقطبوا ويجندوا أحد ضباط مولاى عبد الله محمد ويغروه بالأموال والمنح والوعود والعفو الشـامل إذا استطاع أن يسلمهم مولاى عبد الله محمـد حيّاً أو ميتًـا، وكان الإغراء قوياً ومشـيراً والنفوس ضعيـفة، فدبر هذا الضابط الخائن خطته لاغتـيال آخر أبطال الأندلس، وفى ذات يوم هجم الخائن مع بعض ممن أغواهم على البطل مولاى عبد الله الذى قـاومهم قدر استطاعته، ولكنه بعد معركة غير متكافئة سقط شهيداً، فقام الخونة بفعلة شنيعة حيث ألقوا جثته من فوق الصخـور لكى يراها الجميع، ويعلم أسـيادهم الإسبان بنجاح مـخطط الغدر

والخيانة، وهكذا تدفع الأمة من جديد ثمن خيانة بعض أبنائها وتفقد رجلاً باراً وبطلاً عظيمًا قام بنصرتها والدفاع عن عرضها وشرفها وحاول استعادة مجدها؛ ولكنه ماذا يفعل وللأسف الشديد كانت الخيانة أكبر وأفدح!

هكذا يفعلون فى أبطالنا، إن ميراث الحقد والعداوة الدفين فى قلوب أعداء الإسلام ضد كل ما هو مسلم ليدعو كل مسلم صادق وغيور لأن يكون على استعداد دائم للمعركة التى يخطط لها أعداء الإسلام، وأن يتيقن أن الصدام الوشيك بين الحق والباطل، سنه من سنن الحق والحياة، وما فعله الإسبان بجثة البطل الشهيد مولاى عبد الله يدل على مدى الحقد الأعمى المشتعل فى قلوب أعداء الإسلام، حيث قام الإسبان بحمل الجثة إلى غرناطة وهناك استقبلوها فى حفل ضخم حضره الكبار والصغار من الرجال والنساء، ورتبوا موكبًا أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل وعليها ثياب كاملة كأنه إنسان حى، ومن ورائها أفواج كثيرة من الموريسكيين الذين سلموا عقب اغتيال زعيمهم، ثم حملت الجثة إلى النطع وأجرى فيها حكم الإعدام، فقطع رأسها ثم جرت فى شوارع غرناطة مبالغة فى التمثيل والتنكيل ومزقت أربعًا وأحرقت بعد ذلك فى الميدان الكبير ووضع الرأس فى قفص من الحديد، رفع فوق سارية فى خاصة المدينة تجاه جبال البشرات معقل الثورة ومنشأها، وهكذا يفعلون فى أبطالنا -ولا حول ولا قوة إلا بالله[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) للإطلاع أكثر يرجع إلى المرجعين السابقين: آخر أيام غرناطة لمؤلف مجهول ونهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

ثانيًا: التنصير القسرى ومحاكم التفتيش

لقد اطمأن المسلمون فى غرناطة إلى وعود ملك قشتالة حيث سرح لهم الجواز إلى بر العدوة المغربية وأتاهم بالمراكب إلى الساحل، وصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره وكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة المعتبرة بالثمن القليل، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه بأقل الأثمان بل بأقل من ثمن الغلة التى كانت فيه؛ ومنهم من اشتراه من المسلمين الذين عزموا على الدّجن[1] ومنهم من اشتراه من النصارى، وبعدما يتم البيع يرحلون إلى الساحل بما معهم فيرفعهم النصارى فى البحر محترمين مكرمين مؤمنين ويجوزونهم إلى عدوة المغرب فى أمن واطمئنان، ويقول شاهد عيان لهذه الفترة؛ كان ملك قشتالة قد أظهر للمسلمين فى هذه المدة العناية والاحترام، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيدًا، ذلك ليغررهم ويثبطهم عن الجواز إلى البحر، فوقع الطمع لكثير من المسلمين، وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعة أنيقة وعزموا على الجلوس مع النصارى[2].

وقد أصاب عدوة المغرب فى: فاس وإغمات وتلمسان فى ذلك الوقت شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع مؤلم وطاعون مستشرٍ، واشتد الأمر بمدن هذه العدوة حتى فر كثير من الناس من شدة هذا الأمر، ورجع بعض المسلمين من الذين جازوا إلى الأندلس، فأخبروا بتلك الشدة فامتنع مسلمو غرناطة عن الجواز، وعزم أغلب المسلمين على الإقامة والدجن كما أن النصارى من جهة أخرى قد رجعوا فى عهودهم، وامتنعوا عن حمل المسلمين والجواز بهم إلا بالكراء والمغرم الثقيل وعشر المال، فلما رأى ملك قشتالة أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الدجن والاستيطان والمقام فى غرناطة؛ أخذ فى نقض الشروط التى أخذها على نفسه ولم

---

(١) الدجن أو التدجن: هو مصطلح أطلق على المسلمين الذين بقوا فى غرناطة تحت حكم الإسبان ثم تنصروا بعد ذلك بالإكراه.

(٢) آخر أيام غرناطة مرجع سابق ص١٢٧.

يزل ينقضها شرطًا شرطًا إلى أن نقضها جميعًا، وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين، وأدركهم الهوان والذلة واستطال النصارى عليهم وفرضت عليهم الفروضات، وثقلت عليهم المغارم وقطع لهم الآذان من الصوامع، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرباض والقرى؛ فخرجوا أذلة صاغرين ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصير وأكرههم عليه وكان ذلك سنة ٩٠٤هـ فدخلوا فى دينه كرهًا وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق من يقول فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله جهرًا إلا من يقولها فى نفسه وفى قلبه أو خفية من الناس(١).

وقضية التنصير القسرى كانت من أقسى القضايا الشائكة التى تبرز غدر النصارى بالمسلمين وقد انتدب ملك قشتالة الكردينال «خمنيس» لملاحقة الموريسكيين(٢).

وقد أساء ذلك الرجل معاملتهم وانتهك حرماتهم وحملهم على التنصير القسرى، وحظر عليهم كل ما لهم من حقوق فى معاهدة التسليم، وظل هكذا إلى أن أدت أعمال هذا الكردينال فى نتيجتها إلى استفزازات الموريسكيين وهبوا بانتفاضات عدة كما وضحنا من قبل.

وجعلت النواقيس فى الصوامع بدل الأذان، وأدخلت فى المساجد الصور والصلبان مكان ذكر الله تعالى والقرآن(٣)، ويصف شاهد عيان المسلمين الذين دجنوا وبقوا فى الأندلس لعدم مقدرتهم على الرحيل أن «قلوبهم تشتعل نارًا ودموعهم تسيل سيلا غزيرًا مدرارًا وينظرون أبناءهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب»(٤).

وقد تولى خمنيس مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية كما قلنا مهمة تنصير

(١) آخر أيام غرناطة ص١٢٩، ١٣٠.
(٢) هم المسلمون المدجنون الباقون تحت ظل دولة قشتالة وأرغون الموحدة.
(٣) آخر أيام غرناطة ص١٣.
(٤) المصدر السابق.

مسلمى الأندلس كما قلنا سابقًا، وكان من أشد أهل الأرض عداوة للإسلام والمسلمين، فأنشأ هذا الرجل ما يسمى بديوان التحقيق وهو ما عرف بمحاكم التفتيش وذلك سنة ٩٠٥ هجرية. والتى عانى منها المسلمون أشد المعاناة وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا ويفضل أن نشير إليها مجملة مرة أخرى:

١- كل المصاحف وكتب العلم والفقه والحديث أحرقت فى ميدان عام كخطوة أولى لتنصير المسلمين، وقطع صلتهم عن التراث العربى الإسلامى وعن علومهم الشرعية.

٢- كانت العداوة الصليبية المستقرة فى قلوب الإسبان تجاه مسلمى الأندلس أكبر من مسألة الدين أو غيرها؛ فقد كانت هناك رغبة جامحة عند قساوسة ورهبان إسبانيا لاستئصال شأفة الأمة الأندلسية المسلمة.

٣- ظل الموريسكيون «وهم المسلمون الذين اضطروا إلى البقاء، وأجبروا على إظهار النصرانية وترك الإسلام والذين يسمون أيضًا بالمدجنين» موضع ريب وشك من جانب الكردينال خمنيس وديوان التحقيق؛ فعمل هذا الطاغية على الزج بآلاف الموريسكيين إلى محاكم التفتيش حيث آلات التعذيب والتنكيل التى تقشعر لها الأبدان.

٤- كانت أدنى إشارة أو علامة تصدر من الموريسكيين يظهر من خلالها حنينهم إلى الإسلام أو اللغة العربية يتم تعذيبهم وحرقهم وهم أحياء.

٥- بلغت المأساة مداها بعدما أصدر شارل الخامس قرارًا بمنع سفر الموريسكيين خارج إسبانيا باعتبارهم نصارى ومن يخالف يقتل وتصادر أملاكه.

اندفعت إسبانيا فى محاولة لتصفية المسلمين فارضة أقسى الإجراءات عليهم لتنصيرهم بالجملة خلال عشر سنين، وقد اعترف ملوك إسبانيا خلال القرن السادس عشر بحتمية الاستمرار فى تطبيق هذا القانون، وبذلك خيرت الأقلية الإسلامية الأندلسية التى عرفت شتى ظروف التتبع والملاحقة عن طريق ديوان التحقيق بين التنصير أو الرق مدى الحياة، وصودرت أملاكهم وحرم عليهم التكلم

باللغة العربية، وارتداء الألبسة الوطنية والتردد إلى الحمامات، وفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات والجمعة والسبت[١]، وإقامة الشعائر الدينية، والتسمية بأسماء عربية، كما حولت جميع المساجد إلى كنائس[٢]، ومُنع المسلمون من حمل السلاح كما فرض عليهم العيش فى أحياء خاصة وارتداء ألبسة معينة، وأن يحملوا شارة زرقاء على القبعة إذا ما بقوا على دينهم، كما حرم عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة، وأمروا أن يسجدوا فى الشوارع متى مر كبير الأحبار[٣]، وسلطت عليهم أقسى أنواع العقوبات، إذا لوحظ عليهم بعض الولاء إلى ماضيهم أو التعلق بدينهم فى أبسط مظاهره وعاداته.

وقد كان المسلمون آنذاك يشكلون سيطرة على الاقتصاد الأندلسى فى غرناطة؛ بفضل نشاطهم وذكائهم وخبرتهم فى تصريف شئون التجارة والزراعة وازدهارها على أيديهم، وقد أثار نجاحهم هذا حقد النصارى عليهم الذين اتهموهم بالتآمر ضد أمن الدولة خصوصًا وهم الحلفاء الطبيعيون لإخوانهم قراصنة «شمال إفريقيا» كما كانوا يعتبرونهم آنذاك.

ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن يتجه الموريسكيون إلى الثورات والانتفاضات فى أغلب المدن التى بها أقلية إسلامية وخاصة فى غرناطة وبلنسية، وقد أقمعت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة، واتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد على هذه الطائفة، ومن جهة أخرى كان من الطبيعى أن يلتجئ الموريسكيون إلى ملوك الإسلام فى المشرق والمغرب لاستنجادهم، وأن تتكرر دعواتهم وإرسال وفودهم برسائل إليهم للعمل على إنقاذهم مما يعانونه من الظلم وخاصة من رجال الكنيسة وديوان التحقيق الذى أصدر ضدهم قرارات ظالمة.

وقد أرسل أهل غرناطة فى منتصف سنة ١٤٧٧ سفارة إلى إستانبول ملفتين نظر السلطان العثمانى محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس، طالبين تدخله لإنقاذهم، وكما أرسل أهل غرناطة سفارة إلى أحد سلاطين المماليك فى مصر

(١) محمد عبدالله عنان «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين» ص٣٥٤، ٣٥٥ الطبعة الثالثة. القاهرة.

(٢) المصدر السابق ص٣٥١، (٣) المصدر السابق ص٢٥٣، ٣٥٤.

«الملك الأشرف» فى أواخر القرن الخامس عشر، مستنجدة إياه فى التدخل لإنقاذهم مما يعانونه على أيدى ملوك النصارى، وقد بعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بكل الحريات، فى حين أن أبناء دينه فى مدن إسبانيا يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعاياه من المسيحيين إذا لم يكف ملك قشتالة وأراكون وغرناطة عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم[١].

أما السلطان العثمانى بايزيد الثانى فقد وصلت إليه قصيدة من أحد الموريسكيين يصور له مأساة المسلمين ويستنجده لنصرتهم وإنقاذهم.

كما أن نداءاتهم لملوك المغرب قد تعددت مع مرور الأيام، غير أن الأوضاع الداخلية التى كان عليها المغرب وخضوع بنى وطاس لإسبانيا وعقد معاهدة ١٥٣٨م معهم، وازدياد النفوذ الإسبانى من جهة والنفوذ البرتغالى من جهة أخرى على السواحل المغربية، قد جعل من المستحيل القيام برد فعل حازم وفعال، وسوف يأتى الحديث عن رسائل أهل غرناطة إلى المشرق الإسلامى لنوضح من خلالها علاقة هذا المشرق بالموريسكيين فى تلك الفترة.

كانت هناك شروط موثقة عند تسليم غرناطة على الإسبان، ولكن لم يلتزم بها النصارى الإسبان مطلقا، وكانت هذه الشروط تقضى للمسلمين بالحرية التامة فى الدين واللغة وحقهم فى المحافظة على أموالهم وتقاليدهم، وأن تحسم قضاياهم من قبل قضاة مسلمين، وكذلك السماح للمؤذنين بالأذان فى أوقات الصلاة. ويُمنع المسيحيون من دخول بيوت المسلمين من غير إذن.. إلى غير ذلك، ولكن النصارى الإسبان لم يحافظوا على عهودهم التى قطعوها على أنفسهم، ولم يرعوا حرمة للشرف الملكى القشتالى، وقد عرف المسلمون ذلك فارتفع صوت من بين أهالى غرناطة يحذر المسلمين أن يستسلموا لتلك الشروط التى يتستر وراءها خداع الملك ونفاقه، إن هذا الصوت هو صوت الفارس الشجاع موسى الذى خطب فى

---

(١) راجع ابن إياس فى تاريخ مصر ص٢٤٦، وكذلك نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان ص٢١٢.

قومه قبل الاستسلام وتسليم غرناطة؛ محذرًا إياهم من مغبة الاستنامة لوعود الإسبان، ولما لم يجد آذانًا مصغية غادر قومه قائلاً: «إنّه يفضل الموت بالسيف على أن يموت صبرًا بيد لئام الإسبان، أو يُجرع الذل والهوان على يد الشرك». وعندما خرج موسى من غرناطة اعترضته قوة من فرسان الإسبان، فدارت معركة غير متكافئة قتل فيها عدة منهم وسقط أخيرًا من على فرسه مثخنًا بالجراح فقاتل بسيفه قائمًا على ركبتيه، ولما تكاثر الإسبان عليه ليفتكوا به رمى بنفسه من علو إلى النهر، ولما كان مثقلاً بالدروع غاص موسى إلى قاع النهر ولم يعثر له على أثر. فضرب هذا الفارس المثل الأعلى فى الإباء والعزة والكرامة والشجاعة.

وقد صدق ظن موسى -رحمه الله- فلم يمضِ وقت قصير إلاّ والعهود قد نكثت الواحد تلو الآخر من قبل الإسبان؛ حتى لم يبقَ منها شيء يذكر، وإذ بالمرحلة العصيبة الأخرى تمر على مسلمى الأندلس لتسدل الخاتمة على هذا التاريخ إلى يومنا هذا.

لقد عرفنا سابقًا الشروط التى أبرمت فى معاهدة الصلح والتسليم التى تخص المسلمين من حيث إقامة شعائرهم وصلواتهم والبقاء على ديانتهم إلى غير ذلك من شروط؛ ولكن ملك إسبانيا قد حافظ على هذه العهود فترة من الزمن لشيء فى نفسه، فلما رأى المسلمين متمسكين بعقيدتهم وبدورهم وبأعمالهم نراه يسارع لإلغاء تلك المعاهدة بندًا بندًا ويصدر القوانين التالية:

١- إجبار من بقى فى الأندلس من المسلمين على أن يتنصر أو يغادرها، وبناء على ذلك أصدر فرديناند عام ٩٠٥هـ بيانًا بإغلاق المساجد، وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم فى أى مكان، ومن ثم زاولت الكنيسة الكاثوليكية أساليبها لتنصير المسلمين.

٢- وفى عام ٩٣٥هـ أصدر الملك قانونًا يحرم على المسلمين التكلم باللغة العربية ومن ينطق بها يقتل، وبذلك حُرِم المسلمون من قراءة القرآن الكريم، وحرموا أيضًا من الاتصال بإخوانهم المسلمين بالخارج.

٣- وفى عام ٩٧٤هـ صدر قانون يحذر على المسلمين الاغتسال، فالنصارى لا يغتسلون؛ وبذلك أوجبوا على المسلمين ألا يغتسلوا فهدموا ما يزيد على ثلاثمائة حمام من الحمامات العامة فى غرناطة وغيرها من الحمامات العامة فى مدن الأندلس، ومن اغتسل وشهد عليه شاهد فإنه يقدم إلى محاكم التفتيش لتعاقبه على جنايته.

٤- ثم صدر قانون بمنع الزى العربى من أن يتزىّ به من بقى عندهم من العرب، وجعل القتل جزاء لمن يخالف هذا البند من القانون.

محاكم التفتيش وإبادة المسلمين:

لدينا قضية ينبغى أن يدركها الغرب الأوربى جيدًا وهى:

إن حكم العرب والمسلمين فى الأندلس لم يكن احتلالا أو فرض وصاية أو حماية على الشعوب كما توصى به اليوم الأمم المتحدة فى معاملة الشعوب الواقعة تحت الاحتلال، وإنما كان رسالة حق ونور وهدى للعالمين قام بها المسلمون هناك، هذه الرسالة هى رسالة الإسلام التى جاء بها النبى محمد ﷺ وهى رسالة إنسانية عامة، كان من نصيب أولئك المسلمين فى الأندلس أن يحملوا شرف الدعوة لها، وتوصيلها إلى شعوب أوربا كما كان لهم الشرف العظيم والأجر الجزيل على صبرهم أمام محاكم التفتيش؛ الذين نصّروهم بالقوة وأطلقوا عليهم المدجنين، فما أقبحه من لفظ فى الوجود، وللأسف الشديد فإن هذا اللفظ القبيح أطلقوه على هؤلاء المسلمين الشرفاء وفيهم الدعاة إلى الله والفقهاء والعلماء والأطباء.

وكانت مأساة المسلمين فى الأندلس من أفظع مآسى التاريخ، حيث شهدت تلك الفترة وحشية فظة ارتكبتها محاكم التفتيش بهدف تطهير إسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين ومن تراثهم الذى ازدهر فى هذه البلاد زهاء ثمانية قرون، ومن ثم هاجر كثير من مسلمى الأندلس إلى الشمال الإفريقى بعد سقوط مملكتهم فرارًا بدينهم وحريتهم من اضطهاد النصارى الإسبان، وعادت إسبانيا إلى دينها القديم أما من بقى من المسلمين؛ فقد أجبروا على التنصر أو الرحيل كما قلنا ، وأفضت

هذه الروح النصرانية إلى مطاردة وظلم وترويع المسلمين العزل، وقد انتهى ذلك الصراع بإعدام أمة ذات ماضٍ عريق وحضارة إنسانية ملموسة على أرض إسبانيا، وانطلقت منها إلى العالم الأوربى بأكمله كما أوضحنا.

وكان لا بد أن ينشط ديوان التحقيق أو الديوان المقدس الذى يدعمه العرش والكنيسة فى ارتكاب الفظائع ضد «الموريسكيين» المسلمين المتنصرين؛ وصدرت عشرات القرارات التى تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم، وقد أحرق الكردينال خمنيس عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية، وصدر أمر ملكى فى يوم ٢٢ ربيع أول ٩١٧هـ يلزم جميع السكان الذين تنصروا حديثًا أن يسلموا سائر الكتب العربية التى لديهم، ثم تتابعت المراسيم والأوامر الملكية التى منعت التخاطب باللغة العربية، وانتهت بفرض التنصير الإجبارى على المسلمين.

وحمل التعلق بالأرض والخوف من الفقر كثيراً من المسلمين على قبول التنصير ملاذاً للنجاة، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهداً للكفر، وفر آخرون بدينهم، وكتبت نهايات متعددة لمأساة واحدة هى رحيل الإسلام عن الأندلس، وتوفى فرناندو الخامس ملك إسبانيا فى ١٧ذى الحجة سنة ٩٢١هـ، وأوصى حفيده شارل الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة؛ فنهض يختار المحققين ذوى الضمائر لكى يعملوا فى حزم لخدمة الدين الكاثوليكى من ناحية؛ وأن يعملوا على سحق طائفة محمد من ناحية أخرى، وقد عاش المسلمون زهاء عشرين عامًا ينزل بهم العذاب والاضطهاد الذى تم على أيدى محاكم التحقيق «محاكم التفتيش» التى أنشئت بمرسوم بابوى صدر عام ٨٨٨هـ وعين بمقتضاه القس «طوماس دى تركيمادا» محققًا عامّاً لهذه المحاكم الجديدة التى نظم لوائحها وأصدر العديد من قرارات الظلم والإبادة.

ولما رأى الموريسكيون هذا التطرف وتلك الإجراءات الصارمة من ديوان التفتيش استغاثوا بالإمبراطور شارل الخامس؛ وبعثوا وفدًا منهم، إلى مدريد ليشرح مظالمهم فندب شارل محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة والقضاة للنظر فى شكوى

المسلمين وتقرر إذا ما كان التنصير الذى وقع على المسلمين بالإكراه أم باختيار منهم حينئذ يعتبر صحيحًا ملزمًا أى يحتم عقاب المخالف بالموت، وقد أصدرت المحكمة قرارها بأن التنصير الذى وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة؛ لأن هؤلاء الموريسكيين سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه، فكانوا بذلك أحرارًا فى قبوله، ومن هنا صدر أمر ملكى للذين تنصروا يجبرهم على البقاء فى إسبانيا باعتبارهم نصارى، وأن ينصر كل أولادهم، فإذا ارتدوا عن النصرانية قضى عليهم بالموت أو المصادرة.

وكان قدر هؤلاء المسلمين أن يعيشوا فى تلك الأيام الرهيبة التى ساد فيها إرهاب محاكم التحقيق، وكانت لوائح الممنوعات تزداد تباعًا واشتملت على أوامر غريبة منها، على سبيل المثال حظر الختان وحظر الوقوف تجاه القبلة وحظر الاستحمام والاغتسال، وارتداء الملابس العربية. وقد نفذت هذه القرارات بكل قسوة، وقد أقبلت محكمة التفتيش فى غرناطة على ضبط بعض المخالفات وبناءً على ذلك أُحرق اثنان من المخالفين فى شوال ٩٣٦هـ فى احتفال دينى.

وكان المسلمون الموريسكيون يحاولون بكل وسيلة إزاء تلك القرارات المتعسفة أن يستبقوا دينهم وتراثهم فى نفوسهم، فكان على الرغم من دخولهم فى النصرانية يتعلقون سراً بالإسلام، وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية وكانوا يحافظون على لغتهم العربية، ولما فطنت الحكومة الإسبانية إلى ذلك وأدركت أن إحياء اللغة العربية فى ذلك الوقت هو تدعيم للروح العربية الإسلامية، لذلك أصدر الإمبراطور شارل الخامس سنة ٩٣٢هـ أول قانون يحرم التخاطب بالعربية على الموريسكيين؛ مما اضطر الموريسكيون إلى أن يدفعوا لهذا الملك مائة ألف دوقه: حتى يسمح لهم بالتحدث بالعربية. ولكن لم يدم ذلك طويلا إذ أصدر الإمبراطور فيليب الثانى سنة ٩٦٤هـ قانونًا جديدًا يحرم التخاطب بالعربية، وفرضت القشتالية بديلا لها كلغة تخاطب بين الموريسكيين، ومع ذلك لم يعدم هؤلاء المسلمون وسيلة للتخاطب ولتفكيرهم، فاخترعوا لغة جديدة حيث كتبوا اللغة القشتالية سراً

بأحرف عربية، وأسفر ذلك عن خلق لغة جديدة هى «أليخميادوا» وهى تعريف إسبانى للكلمة الأعجمية، وظلت هذه اللغة قرنين من الزمان سراً مطموراً؛ وبذلك تمكن هؤلاء المسلمون أصحاب العقيدة الحية أن يحتفظوا بعقيدتهم الإسلامية، وألف بها بعض الفقهاء والعلماء كتبًا عما يجب أن يعتقد المسلم ويفعله حتى يحتفظ بإسلامه، وشرحوا آيات القرآن باللغة الأخميادية، وكذلك سطروا بها سيرة النبى ﷺ وكان من أشهر كتاب هذه اللغة الفقيه المسمى «فتى أميرالو» وهو مؤلف لكتب التفسير وتلخيص السنة، ومن الشعراء «محمد ربدان» الذى نظم كثيراً من القصائد والأغنيات الدينية، وبذلك تحصن الموريسكيون بمبدأ التقية وصمدوا فى وجه مساعى المنصرين الذين لم تنجح جهودهم التبشيرية والتعليمية والإرهابية فى الوصول إلى تنصير كامل لهؤلاء الموريسكيين، فجاء قرار الطرد بعد هذه الإخفاقات[١].

وتشير الروايات السابقة إلى أساليب شنيعة للتعذيب اتبعها رهبان محاكم التفتيش منها حرق ضحاياهم وهم أحياء وشيهم كما تشوى الأنعام، أو يوضع الرجل فى حفرة ثم يأتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعله نصفين، وقد كانت هناك حجرات للتعذيب لم يعرفها أحد، وقد اكتشفت مؤخراً، لها أبواب خفيه تفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقه صغيرة، قد تم اكتشافها على أيدى الجنود الفرنسيين الذين كانوا فى إحدى الدوريات لحفظ الأمن، إذ بهم يكتشفون تلك الحجرة فقد ظهر لهم فجأة سلم يؤدى إلى باطن الأرض، وعندما هبط الضابط الفرنسى هو وجنوده على درج السلم حتى وصلوا إلى آخر الدرج؛ فإذا بهم يجدون غرفة كبيرة مرعبة، وهى قاعة المحكمة فى وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها، وأمام هذا العمود كانت المصطبة التى يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهوا بعد ذلك إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية؛ التى امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.

(١) محاكم التفتيش وإبادة المسلمين فى الأندلس. موقع موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة.

يقول ذلك الضابط الفرنسى: «رأيت فيها ما يستفز نفسى ويدعونى إلى القشعريرة والتقزز طيلة حياتى، رأينا غرفًا صغيره فى حجم جسم الإنسان بعضها عمودى وبعضها أفقى، فسجين الغرف العمودية يبقى واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يموت، أما سجين الغرف الأفقية فيبقى فيها ممددًا حتى الموت، وتبقى الجثث فى السجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى، فتحوا نافذة صغيرة فى الفضاء الخارجى».

وقد عثر الجنود فى هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت فى أغلالها، وكان السجناء رجالا ونساء تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشر والسبعين، وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم وهم فى الرمق الأخير من الحياة، وكان بعض هؤلاء السجناء قد أصابه الجنون من كثرة ما عاناه من عذاب، وكان السجناء جميعهم عرايا، ثم انتقل الجنود بعد ذلك إلى غرف أخرى؛ وجدوا فيها ما تقشعر له الأبدان إذ عثروا على آلات رهيبة للتعذيب منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشرى، وكانت البداية بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيّاً حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الأخر كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء[1].

ومن وسائل تعذيبهم أيضا هو ذلك الصندوق وهو فى حجم رأس الإنسان تمامًا يوضع فيه رأس الذى يراد تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل حتى لا يستطيع الحركة وفى أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس ذلك المسكين بانتظام، وقد جن الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ومن وسائل التعذيب أيضا تابوت تثبت فيه سكاكين حادة يسمى تابوت السيدة الجميلة؛ حيث يلقى فيها الشاب ثم يطبق عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مزق جسم المسكين وقطعه إربًا إربًا، كما عثر هؤلاء الجنود الفرنسيون على آلات

(١) محمد عبد الله عنان. نهاية الأندلس ص٣٥٤ وما بعدها.

كالكلاليب تغرز فى لسان المعذب ليخرج اللسان معها ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس فى أثداء النساء وتسحب بعنف حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين، إلى غير ذلك من آلات تعذيب تقشعر لها الأبدان، وتتفتت لها الأكباد، وقد وصل خبر هذه الآلات إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب، فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه فى آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقاً وسحقت سحقًا، وأمسكوا بكاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة؛ وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شر ممزق، وهكذا فعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان[1].

ثبات مسلمى الأندلس على الإسلام والتضحية فى سبيله:

وعلى الرغم من ذلك الاضطهاد الذى مارسه النصارى ضد مسلمى الأندلس «الموريسكيين» إلا أنه كان منهم فئات عضت على دينها بالنواجذ وامتنعت عن التنصير، ودافعوا عن أنفسهم دفاع المستميت، فقاموا بالثورات ضد نصارى قشتالة، ويروى شاهد عيان إبان تلك الفترة أن أهل قرى ونجر والبشرة وأندراش وبلافيق قاموا بثورة عنيفة، إلا أن ملك قشتالة جمع جموعه وأحاط بهم من كل ناحية حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد؛ فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم ونصرهم واستعبدهم[2].

أما ثورة غرب الأندلس فقد كانت عنيفة، وقد تمسك بها المسلمون ممتنعين عن التنصير، فصمدت وكبدت القشتاليين خسائر فادحة، فيروى ذلك الشاهد الذى عاصر تلك الأحداث أن هؤلاء النفر قد انحازوا إلى جبل منيع وعر، واجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه، فجمع عليهم ملك قشتالة جموعه وطمع فى

(١) انظر التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام للشيخ محمد الغزالى، محمد عبدالله عنان. نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المتنصرين - ليونارد باترك هارفى، تاريخ الموريسكيين السياسى والاجتماعى والثقافى. نبيل عبد الحى رضوان. جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده. مكتبة الطالب الجامعى. مكة المكرمة طبعة أولى. اعتمدنا فى الحديث عن وسائل التعذيب على موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم. محاكم التفتيش وإبادة المسلمين فى الأندلس إعداد فراس نور الحق // : http ar.wikipedia

(٢) آخر أيام غرناطة ص١٣٢.

الوصول إليهم كما فعل بغيرهم؛ فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه بعد أكثر من ثلاث وعشرين معركة؛ لأنهم اعتصموا بدينهم والتمسوا النصر من الله، على الرغم من قلتهم، ويقول الراوى: إن هذه الفئة المسلمة قتلت خلقًا كثيرًا من رجال وفرسان وكونتات قشتالة، وتذكرنا الفئة المسلمة المتمسكة بدينها بأصحاب الأخدود حيث يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١- ١٠] كما تذكرنا تصرفات هؤلاء النصارى بغدرهم وخلفهم للوعد وكرههم الشديد للمسلمين، حيث يقول تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٨، ٩].

إن هؤلاء الموريسكيين قد صبروا كثيرًا على الأذى وتحملوا فى سبيل دينهم الكثير والكثير وواجهوا جرائم محاكم التفتيش التى فتكت بأجسامهم وأهليهم وابتلوا ابتلاء شديدًا، وإنى بهم لأتذكر قول النبى ﷺ فى الحديث المروى عن خباب قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فجلس محمرًا وجهه فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ثم يؤتى بالمنشار فيجعل على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء وحضرموت ما يخاف إلا الله تعالى والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون**»(١).

---

(١) صحيح وأخرجه البخارى ومسلم.

وهكذا ابتلى مسلمو الأندلس وصبروا واستنصروا الله فلم يستطع ملك قشتالة هزيمتهم أو القضاء عليهم؛ فقد قتل من جنده الكثير والكثير، فلما رأى أنه غير قادر على تلك الفئة المسلمة طلب منهم أن يعطيهم الأمان ويجوزهم لعدوة المغرب مؤمَّنين، فوافقوا على طلبه وقام بنقلهم إلى عدوة المغرب، إلا أنه لم يصرح لهم شيئًا من متاعهم غير الثياب التى كانت عليهم، وبعد هذه الفعلة النكراء خمد أمر المسلمين ولم يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الإسلام آنذاك، وعم الكفر جميع القرى والبلدان وانطفأ من الأندلس نور الإسلام والإيمان! فعلى هذا فليبكِ الباكون ولينتحب المنتحبون. فإنا لله وإنا إليه راجعون[1].



(١) انظر آخر أيام غرناطة ص١٣٢ .

ثالثا: مسلمو الأندلس يطلبون العـون من المشـرق الإسلامـى

تطورت الأحداث فى شبه الجـزيرة الأيبرية بعد سقوط غرناطة، فـأصبح اهتمام الإسبان ينحصر فى توحيد أراضيهم، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصًا بعدما خضـعت لسلطة واحدة بعـد زواج إيزابيلا ملكة قشـتالة وفرديـناند ملك أراغون، فاندفعت المـالك الأسبانية المتحدة فـى تصفية الوجود الإسلامى فى كل إسـبانيا، اندفاعًا عجيبًا فى جميع النواحى الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية(١).

وفرضت إسبانيا أقسى الإجراءات التعسفية على المسلمين فى محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبة الجزيرة الأيبرية.

نتيجـة لذلك لجأ المسلمون -الموريسكيـون- إلى القيام بثورات وانتـفاضات فى أغلب المدن الإسبـانية، والتى يوجد بهـا أقلية مسلمـة، وخاصة غرناطة وبلنسـية وأخمدت تلك الـثورات بدون رحمة ولا شفـقة من قبل السلطات الإسبـانية التى اتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد للمـسلمين، ومن جهة أخرى كان من الطبيعى أن يرنو الموريسكيون بأنظـارهم إلى ملوك المسلمين فى المشرق والمغـرب لإنقاذهم، وتكررت دعـوات وفودهم ورسائـلهم إليهم للعـمل على إنقاذهم مما يعـانونه من ظلم، وخاصـة من قبل رجال الكنيسـة ودواوين التحقـيق التى عاثت فى الأرض فسادًا وأحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم(٢).

وكانت أخـبار الأندلس قـد وصلت إلى المشرق فـارتج لها العـالم الإسلامى، وبعث الملك الأشـرف بوفود إلى البـابا وملوك النصرانيـة؛ يذكرهم بأن النـصارى الذين هم تحت حمايتـه يتمتعون بالحرية، فى حين أن أبناء ديـنه فى المدن الإسبانية يعانون أشـد أنواع الظلم، وقد هدد باتبـاع سياسـة التنكيل والقصاص تجـاه رعايا

(١) انظر جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس. د. نبيل عبد الحى ص١٢٥.

(٢) انظر رسالة من مسلمى غرناطة للسلطان سليمان القانونى عبد الجليل التميمى. المجلة المغربية العدد ٣ ص ٢٨.

المسيحيين، إذ لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء، وترحيل المسلمين عن أراضيهم ووعدهم بعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم، ولم يستجب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف، ومارسوا خطتهم في تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس.

ووجهت إحدى الاستنجاد إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني، وقد بدأت هذه الرسالة بتعظيم وإكبار للسلطان ثم إبراز شكواهم التي يتمثل في: توضيح شعور المسلمين المتنصرين نحو الدولة العثمانية، ثم يطلب الموريسكيون بعد ذلك تدخل السلطان بايزيد لإمدادهم وإنقاذهم مما هم فيه، وأن يتوسط لدى السلطان في روما للتخفيف عنهم، ويشير المسلمون المتنصرون من ناحية أخرى إلى أن سلطان مصر قد توسط لدى المسيحيين ليخففوا عنا ولكنهم لم يغيروا شيئًا وظلوا في تشددهم وتعنتهم ومع هذا العذاب وتلك المحنة الشديدة، فقد صمموا على البقاء على دينهم الإسلامي الحنيف، وينهي الشاعر قصيدته التي تضمنت الرسالة بأن يجدد الاستغاثة بالدولة العثمانية ويرجو منهم إنقاذهم وإجلاءهم من تلك البلاد[١].

وعلى الرغم من حدة تلك الرسالة وحاجة أهلها للإنقاذ إلا أن السلطان بايزيد لم يفعل شيئًا، وقد كان لديه من المشاكل ما يعوق إنقاذ هؤلاء الناس، ومع ذلك فقد قام السلطان بايزيد بالاتصال بالسلطان الأشرف المملوكي سلطان مصر؛ لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقًا بموجبه يرسل السلطان بايزيد أسطولا على سواحل صقلية باعتبارها تابعة لمملكة إسبانيا، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية إفريقيا، وبالفعل أرسل السلطان بايزيد أسطولا عثمانيًا تحول إلى الشواطئ الإسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذي أدخل الفزع والخوف والرعب في الأساطيل النصرانية في أواخر القرن الخامس عشر[٢]، كما شجع السلطان بايزيد المجاهدين في البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم، وكان المجاهدون العثمانيون قد بدءوا في التحرك لنجدة إخوانهم المسلمين،

(١) الدولة العثمانية. د علي الصلابي ص٢١٥.
(٢) خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب أرسلان ص٢١٣.

وفى الوقت نفسه كانوا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة حصولها من النصارى، كذلك وصل عدد كبير من هؤلاء المجاهدين المسلمين أثناء تشييد الأسطول العثمانى، ودخلوا فى خدمته، بعد ذلك أخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة في غرب البحر المتوسط بتشجيع من هؤلاء المجاهدين[١]. وهذا الذى كان فى وسع السلطان بايزيد الثانى فعله آنذاك.

لا شك أن الأسرة الحاكمة آنذاك كانت تعانى قلقًا واضطرابًا فى الحكم ومنها تصرفات السلطان السابق لبايزيد المشينة التى كانت سببًا فى إعاقة حركة التوسع الإقليمى وعرقلة السلطان بايزيد عن العمل الخلاق، وأصبح اهتمام السلطان منصباً على تعقب أخبار أخيه والعمل على التخلص منه بكافة الوسائل[٢].

وعلى العموم فقد استطاع بايزيد أن يحرز نصرًا بحريّاً على البنادقة فى خليج لبانيوا لبلاد اليونان عام (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م) وفى العام التالى استولى على مدينة لبانتو، وباستيلاء العثمانيين على مواقع البنادقة فى اليونان، أقام البابا (إسكندر السادس) بناء على طلب البنادقة - حلفًا ضد العثمانيين مكونا من فرنسا وإسبانيا، وتعرض العثمانيون لهجوم الأساطيل الثلاثة: الفرنسى، والإسبانى والبابوى واستطاعت الدولة العثمانية أن تعقد صلحًا مع البنادقة[٣].

وكان بايزيد ميالا للسلام، ونشطت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وأوربا، وكانت من قبل مقصورة على البلاد الواقعة على حدودها، ولكنها أقيمت بينها وبين البابوية وفلورنسا ونابلى وفرنسا وعقد صلحًا مع البنادقة والمجر[٤].

وقد كان عهد السلطان سليمان القانونى يمثل رأس الهرم بالنسبة إلى قوة الدولة العثمانية ومكانتها بين دول العالم آنذاك؛ ويعتبر عصر السلطان هو العصر الذهبى للدولة العثمانية، حيث شهدت سنوات حكمه من (٩٢٦- ٩٧٢هـ/ ١٥٢٠-

(١) عبد العزيز الشناوى. الدولة العثمانية دولة مفترى عليها. الجزء الثانى ص٩٠٤ وما بعدها.
(٢) انظر الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث. إسماعيل أحمد ص٥٢، ٥٣.
(٣) انظر الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث. المرجع السابق.
(٤) الدولة العثمانية. د على الصلابى ص٢١٧ .

١٥٦٦م) توسعًا عظيمًا لم يسبق له مثيل، وأصبحت أقاليم الدولة العثمانية منتشرة في ثلاث قارات عالمية.

وكان لهذا البروز أثره على دول العالم المعاصرة آنذاك؛ وبالأخص على دول أوربا التي كانت تعيش انقسامات سياسية ودينية خطيرة، ولهذا تنوعت مواقف الدول الأوربية من الدولة العثمانية حسب ظروف كل دولة، وكان تشارلز الخامس ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة ينافس فرانسوا الأول ملك فرنسا على كرسي حكم الإمبراطورية الرومانية، وكان البابا ليو العاشر منافسًا للراهب الألماني مارتن لوثر زعيم المقاومة البروتستانتية.

وكانت بلغراد تعاني من اضطرابات داخلية بسبب صغر سن ملكها لويس الثاني مما أدى إلى نشوب النزاع بين الأمراء.

ولهذا رأى فرانسوا الأول أن يستغل مكانة الدولة العثمانية وقوتها ويكسبها صديقًا له، فوقف منها موقف التودد والرغبة في الوفاق معتقدًا أن الدولة العثمانية هي التي ستحد من طموحات تشارلز الخامس وتوقفه عند حده، ومما يثبت هذا التوجه الفرنسي ما ذكره للسفير الفرنسي عندما قال: (سعادة السفير لا يمكنني أن أنكر أنني أرغب بشدة في أن أرى الأتراك أقوياء جداً ومستعدين للحرب، ليس فقط لمصلحة السلطان العثماني الذاتية، بل لإضعاف قوة الإمبراطور تشارلز الخامس وتكليفه غاليًا، وإعطاء جميع الحكومات الأمن والأمان ضد عدو عظيم كهذا الإمبراطور تشارلز.

وبدأت مفاوضات فرنسا مع الدولة العثمانية بعد معركة (بافيا) التي أسر فيها ملك فرنسا (فرانسوا الأول) عام ١٥٢٥م، فأرسلت والدته والوصية على العرش مبعوثها (جون فرانجبياني) ومعه خطاب منها وخطاب من الملك الأسير يطلبان فيهما مهاجمة قوات عائلة الهابسبرج وإطلاق سراح الأسير[١].

وعلى الرغم من أن الأسير أطلق بموجب معاهدة تم عقدها في مدريد بين

(١) انظر موقف أوربا من الدولة العثمانية. د. يوسف الثقفي ص٤٧.

فرنسا وأسرة الهابسبرج سنة ١٥٢٦م، إلا أن فرانسوا بعد إطلاق سراحه أرسل فى عام (٩٤١هـ/ ١٥٣٥م) سكرتيره (جان دى لافوريه) إلى السلطان سليمان بهدف عقد تحالف فى شكل معاهدة[1]، سميت فيما بعد (بمعاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية) ونظرًا لما ستكون عليه هذه المعاهدة من أهمية كبرى نورد هنا أهم نصوصها:

١- حرية التنقل والملاحة فى سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة.

٢- حق التجارة والمتاجرة فى كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة إلى رعايا ملك فرنسا.

٣- تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة فى الدولة العثمانية.

٤- الضرائب التى يدفعها الفرنسيون فى الدولة العثمانية هى نفسها التى يدفعها الرعايا الأتراك.

٥- حق التمثيل القنصلى مع حصانة للقنصل ولأقاربه والعاملين معه.

٦- من حق القنصل الفرنسى النظر فى القضايا المدنية والجنائية التى يكون أطرافها من رعايا ملك فرنسا، وأن يحكم فى هذه القضايا وإنما للقنصل الحق فى الاستعانة بالسلطات المحلية لتنفيذ أحكامه.

٧- فى القضايا المختلفة التى يكون أحد أطرافها رعية من رعايا السلطان العثمانى، لا يستدعى ولا يستجوب رعية الملك الفرنسى ولا يحاكم إلا بحضور ترجمان القنصلية الفرنسية.

٨- إفادات رعية الملك فى القضايا مقبولة ويؤخذ بها عند إصدار الحكم.

٩- حرية العبادة لرعايا الملك.

١٠- منع استعباد رعية الملك.

وكان من نتائج هذه المعاهدة زيادة التعاون بين الأسطولين الفرنسى والعثمانى، وشن الأسطول العثمانى هجمات قوية على شواطئ مملكة نابولى التى كانت تابعة

(١) المصدر السابق.

لـ (شـارت كنت) وفى عـام (١٥٤٣م) تجمـعت وحـدات الأسطولين العـثمـانى والفرنسى وهاجمت (نسير) التابعة لدوق سافوى حليف شارل كنت[١].

واستفادت فرنسـا من تقاربها مع الدولة العثمانية عسكرياً واقتصـادياً وسياسياً، واتخذت من المعاهدة السـابقة وسيلة لفتح أبواب التجارة من المـشرق دون الخضوع للاحتكار التجارى الذى فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح، كما حصلت بموجبها على الحق الكامل فى الحماية تحت علمها رعايا الدول الغربية الأخرى مما جعل لها مكانة مرموقة بين دول الغرب الأوربى.

هذه المعاهدة بكل أسف لم يستفد منها رعايا الدولة العثمانية وكأنها عقدت فقط لتلبية المطالب الغربيـة، وتحقيق مصالح الأعداء دون مقـابل يذكر، وقد كانت هذه المعاهدة الأساس الذى بنى عليه وسار على نهجه الكثير من المعاهدات التى عقدت فيما بعد بين الدولة العثمانية والدول الأوربية بصفة عامة.

لم يستطع ملك فرنسـا أن يلتزم بالعهود مع الدولة العثمانـية بسبب الرأى العام النصرانى، فيضطر إلى التراجع ونقض العهود ثم يعود من جديد فيستجدى عطف وتأييد العثـمانيين فيثور عليه الرأى الـعام، والحقيقة التاريخـية تقول: إنه لا يمكن للصليبييـن أعداء الإسلام أن يتخلى بعضهم عن بعض أمـام التحدى القوى لهم، وإن كانوا مختلفين ظاهرياً تبعًا للمصالح والأهواء.

وإن أعداء الإسـلام من الصليـبيـين الحاقـدين لا أحلاف ولا مـواثيق لهم فى تعاملهم مع المسلمين كما بين لنا الله عز وجل فى كتابه الكريم، وحينما تتبين لهم بادرة ضعف عند المسلمين فإنهم سرعان ما يقوى ساعدهم كى يجهزوا عليهم وهم فى الوقت نفسه لا يسمحون لحاكم منهم مهـما كان اتجاهه أو وضعه أن يتعاون مع المسلمين، وأنه مهمـا اختلفت المصالح، فهم جميعًا يتفـقون فى محاربة هذا الدين وتقتيل أهله فى كل زمان ومكان[٢].

---

(١) انظر موقف أوربا من الدولة العثمانية ص٤٧.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية د. على حسون ص٧٥.

لقد كـانت تلك الامتيازات التى أعطيـت للدولة الفرنسية أول إسـفين يدق فى نعش الدولة العثمانية ظهرت آثاره البعيدة فيما بعد.

وفى أواخر أيام الدولة العثمانية صارت دول أوربا الـنصرانية تتدخل فى شئونها تحت حمـاية الامتـيازات، وللدفـاع عن نصارى الدولة الذيـن كانوا يعـدون رعايا للدول الأجنبية وخاصة فى بلاد الشام.





مجابهة قوات العثمانيين لقوات إسبانيا وأوربا

[البداية والتمكين]

أولاً: سيطرة البحرية العثمانية على حوض البحر المتوسط.

ثانيًا: مسلمو الأندلس وشمالى إفريقية يستغيثون بالدولة العثمانية.

ثالثًا: العثمانيون يعيدون تونس إلى رحاب الجبهة الإسلامية.

رابعًا: أهل طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا.

خامسًا: الصراع للسيطرة على مضيق جبل طارق.

أولاً: سيطرة البحرية العثمانية على حوض البحر المتوسط

من الخدمات الجليلة التى أسدتها الدولة العثمانية للإسلام والعروبة؛ أنها حافظت على إسلام وعروبة سكان شمال إفريقية من أخطار الغزو الصليبى الاستعمارى الأوربى، الذى حملت لواءه البرتغال وإسبانيا والمنظمة الصليبية التى اشتهرت باسم فرسان القديس يوحنا، وكانت قد اتخذت لها فى نهاية المطاف من جزيرة مالطة مستقراً ومقامًا. وكان من أهداف هذا الغزو أيضًا إنشاء ممالك مسيحية تتناثر على الساحل الشمالى لإفريقية تكون خطوطًا متقدمة لتثبيت أقدامهم فى تلك البلاد، وبذلك يغدو البحر المتوسط فى المدى البعيد بحيرة مسيحية أوربية، ويعقب ذلك فى مرحلة أخرى تغلغل صليبى أوربى جنوبًا فى داخل القارة الإفريقية. ولكن تصدت الدولة العثمانية لهذه المشروعات الصليبية الاستعمارية فأصبحت أحلامًا وغدت هباء منثورًا[١].

بسطت الدولة العثمانية سيادتها على ثلاثة أقاليم فى شمالى إفريقية فى القرن السادس عشر. وكانت حسب ترتيب دخولها تحت السيادة العثمانية: الجزائر وطرابلس، وتونس. ولم تمد الدولة نفوذها إلى مراكش -المملكة المغربية حالياً- لأسباب سنعرض لها فى موضع آخر.

كان سكان تلك الأقاليم وبخاصة طرابلس والجزائر، قد استنجدوا بالدولة العثمانية على أساس أنها أكبر وأقوى دولة إسلامية اكتسحت دولا أوروبية عديدة وفتحت مصر والشرق العربى الآسيوى. وطالب سكان شمالى إفريقية بإنقاذهم من الزحف الصليبى الاستعمارى الأوربى الذى كان خطره يتفاقم يوما بعد يوم. واستجابت الدولة لاستغاثاتهم. ولذلك لم يكن دخول العثمانيين إلى شمالى إفريقية نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة العثمانية ضد أهالى البلاد أو تدخل مباشر من حكومة إستانبول على غرار ما حدث فى الشام أو مصر أو العراق، ولكنهم فتحوها منقذين للسكان من أخطار القضاء على دينهم وطمس

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. د/ عبد العزيز محمد الشناوى ج٢ ص٨٦٤.

عروبتهم وتحويل بلادهم إلى جزء من العالم المسيحى. أما تونس فكان الوضع فيها يختلف اختلافًا جزئيًا عن الوضع فى الجزائر وطرابلس. اشتد الصراع عليها بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة وكان على رأسها الإمبراطور شارل الخامس. تبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار أكثر من مرة. وفى إحدى المرات التى انتصر فيها الإمبراطور أقامت البابوية فى روما احتفالات رائعة ابتهاجًا بانتزاع تونس من المسلمين. ونجح الإمبراطور فى أن يصنع من أحد الأمراء، وهو مولاى الحسن الحفصى، عميلاً للاستعمار وقبل أن يحكم تونس باسم الإمبراطور وتحت حمايته[1].

ولما انتزعت الدولة العثمانية تونس عام ١٥٦٩م وأعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية دفعت الدولة العثمانية ثمنًا باهظًا. فقد تكون تحالف دولى صليبى ضدها أوقع بها هزيمة بحرية فادحة فى معركة ليانت البحرية عام ١٥٧١م، وشجعت هذه الهزيمة إسبانيا على إعادة غزو تونس وإعادة حكم الحفصيين إليها. ولكنهم لم يحتفظوا بمركزهم سوى عام واحد وعاد إليها العثمانيون سنة ١٥٧٤م ليستقر حكمهم فيها وليؤسسوا النيابة الثالثة والأخيرة فى شمالى إفريقية.

كان من الطبيعى أن يقوم الأسطول العثمانى بدور رئيس فى هذا الصراع الذى احتدم بين الجانبين الصليبى والإسلامى فى شمال إفريقية. فالقوات الصليبية كانت تأتى من أوربا عبر البحر المتوسط إلى الأقاليم الشمالية للقارة الإفريقية. وكانت الأساطيل الإسبانية وقوات فرسان القديس يوحنا فى رودس أولاً ثم فى مالطة ثانيًا وغيرها من القوى البحرية تتردد على القواعد العسكرية التى أنشأها الصليبيون وتناثرت على طول الساحل الشمالى لإفريقية من مراكش حتى طرابلس. وكان الأسطول العثمانى فى القرن السادس عشر يعمل متعاونًا مع القوات البحرية التى كان يقودها قادة محليون نشأوا فى خدمة الأسطول العثمانى.

وقد كان البرتغاليون والإسبانيون يشنون حروبًا متصلة على أقاليم شمالى

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٨٦٥.

إفريقية باعتبارها بلاداً إسلامية تحوى رصيداً بشرياً إسلامياً هائلاً يشد أزر مسلمى الأندلس فى جهادهم الدينى. فكان هدفهم العاجل احتلال شمالى إفريقية للفصل بين المغاربة المتمركزين على الساحل الشمالى للقارة الإفريقية وبين المسلمين فى الأندلس. أما أهدافهم الصليبية التالية فكان من بينها تحويل المغاربة إلى المسيحية وطمس عروبتهم. وقد دل هذا الهدف المزدوج على أن أحلام اليقظة كانت تراود البرتغاليين والإسبانيين. لأن تنصير مسلمى شمالى إفريقية وطمس عروبتهم كانا أمرين فى حكم الاستحالة تنفيذهما. كان دخول الإسلام وانتشاره فى شمالى إفريقية عاملين مهمين فى تعريب الجماعات التى تقطن هذه الأرجاء الشاسعة.

وكان انتشار الإسلام فيها قد بدأ مبكراً. ولم تلبث القيروان أن أصبحت منذ أواخر القرن الأول الهجرى أى القرن السابع الميلادى مركزاً مهماً للثقافة الإسلامية العربية يتلقى فيه الدراسون مبادئ الشريعة الإسلامية ويدرسون اللغة العربية والأدب العربى، ثم يخرجون إلى جماعات البربر فيعلمونهم أصول الدين ويقرءونهم القرآن الكريم وينشرون بينهم اللغة العربية. واقترنت تلك الأهداف الصليبية بهدف اقتصادى هو انتزاع التجارة الإفريقية من أيدى المسلمين والاستيلاء على موارد الثروة الطبيعية فى البلاد والتوغل جنوباً فى الداخل. وكانت كفة البرتغاليين راجحة فى هذا الصراع الصليبى، إذ احتلوا عام ١٤١٥م مدينة سبتة فى أقصى الساحل الشمالى لإفريقية من ناحية الغرب فى مواجهة بوغاز جبل طارق.

وكان احتلالهم لهذا الموقع الإستراتيجى المهم أمراً بالغ الخطورة، لأن احتلال البرتغاليين لهذه المدينة كان من بين الأسباب التى أعاقت سكان شمالى إفريقية عن تعزيز القوات الإسلامية فى الأندلس عن طريق بوغاز جبل طارق. ولذلك حرص البرتغاليون والإسبانيون من بعدهم على الاحتفاظ بهذا الموقع. ثم احتل البرتغاليون سنة ١٤٢٨م مدينة طنجة فى غربى سبتة لإحكام الحصار حول المعبر الجنوبى لشبة جزيرة أيبريا عن طريق بوغاز جبل طارق. وأقام البرتغاليون مؤسسة تجارية لهم فى وهران (١٤٨٣ - ١٤٨٧م).

وعلى الرغم من هذا التوفيق الذى لازم البرتغاليين فى صراعهم الصليبى ضد مسلمى شمالى إفريقية، كان خطرهم أقل من خطر الإسبانيين؛ لأن البرتغاليين اتجهوا بعد فترة نحو الساحل الغربى لإفريقية حيث ركزوا نشاطهم وأنشأوا لهم قواعد عسكرية. وهو الاتجاه الذى أسفر فى النهاية عن وصولهم بحرًا إلى رأس العواصف -رأس الرجاء الصالح- وانتهى بهم إلى الوصول بحرًا إلى هذا الموقع. وخاضوا صراعًا صليبيّاً ضاريًا ضد الكيانات الإسلامية على ساحل ملبار ومنطقة الخليج العربى وجنوبى شبه الجزيرة العربية وغيرها.

أما الإسبانيون فكانوا ينفذون وصية الملكة إيزابيلا الأولى التى كتبتها قبل وفاتها عام ١٥٠٤م، وكان مما جاء فيها: (إنى أرجو من الأميرة ابنتى والأمير زوجها، وآمرهما بطاعة وصايا الكنيسة أمنا المقدسة. فعليهما أن يقوما بحمايتها وألا يكفا عن المضى فى فتح إفريقية ومحاربة الكفار)، وكانت تقصد المسلمين واليهود بكلمة الكفار. وكانت هذه الملكة لشدة تعصبها للمذهب الكاثوليكى قد عرفت فى التاريخ باسم (الملكة إيزابيلا الأولى الكاثوليكية) وكان زوجها على شاكلتها وعرف باسم فرناندو الخامس الكاثوليكى. وقد توفى عام ١٥١٦م. وقد أطلق الإسبانيون على الحرب بينهم وبين مسلمى شمالى إفريقية حرب الاسترداد(١). وهى تسمية تنطوى على التحدى والمغالطة، لأنه لم يسبق لهم الاستيلاء على أقاليم شمالى إفريقية.

احتل الإسبانيون عام ١٥٠٥م المرسى الكبير فى غربى الجزائر وقتلوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف آخرين، واحتلوا مليلة ومدينة الجزائر(٢) وفى عام ١٥٠٨م احتلوا حجر باديس. وفى العام التالى استولوا على بجاية وفى سنة ١٥١٥م احتلوا ميناء طرابلس وقاموا بتدمير منشآت المدينة، كما استولوا على وهران وغيرها من المدن الساحلية(٣). وعلى هذا النحو تناثرت على طول الساحل الشمالى لإفريقية ابتداء من طرابلس إلى المغرب الأقصى محطات عسكرية اتخذها الإسبانيون ومن قبلهم البرتغاليون جيوبًا صليبية.

---

(١) دكتور محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال. ط١ سنه١٩٦٩ ص١٣.
(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩٠١.
(٣) دكتور جلال يحيى: المغرب الكبير وهجوم الاستعمار ج٣ ص١٥.

ثانيًا: مسلمو الأندلس وشمالى إفريقية يستغيثون بالدولة العثمانية

وفى ذلك الوقت -قبل سقوط الحكم الإسلامى فى الأندلس وفى أثناء الحروب الصليبية الضارية التى أشعلها البرتغاليون والإسبانيون، فى شمالى إفريقية- ترامت إلى مسامع المسلمين فى هذه الأقطار الانتصارات الباهرة التى أحرزتها الدولة العثمانية إلى ذلك الوقت فى أوربا وآسيا وما تخللها من نجاح السلطان محمد أبى الفتوح أو السلطان الفاتح محمد الثانى فى فتح القسطنطينية؛ فاشرأبت أعناق أهل الأندلس إليه وإلى خلفائه ودارت اتصالات بين الجانبين ناشد فيها مسلمو الأندلس وشمالى إفريقية سلاطين الدولة تقديم معونات عسكرية لهم فى نضالهم ضد الصليبية الأيبرية. واتجهوا أيضًا إلى دولة المماليك الشراكسة فى مصر وإلى مراكش من أجل هذا الهدف كما سنوضح الآن.

(أ) أهل غرناطة يستنجدون بالسلطان محمد أبى الفتوح:

أرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ١٤٧٧م - أى قبل سقوطها بإحدى عشرة سنة كآخر معقل إسلامى فى الأندلس - سفارة إلى إستانبول وجهوا فيها نظر السلطان محمد أبى الفتوح إلى تدهور أحوال المسلمين فى الأندلس وناشدوه التدخل لإنقاذهم[١]. ولكن كان فى حكم الاستحالة أن يستجيب السلطان محمد أبو الفتوح لهذه الاستغاثة، لأنه كان هو الآخر كما سبق أن ذكرناه منصرفًا إلى مواجهة تحالف صليبى يهدد دولته بأفدح الأخطار. وقد ضم هذا التحالف البابا سكست الرابع (١٤٧١-١٤٨٤م) وجمهورية البندقية، وحكام نابولى، والمجر، وترانسلفانيا، وفرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودس، وعددًا من الزعماء الألبانيين الذين كانوا لايزالون يضمرون عداء شديدًا للدولة العثمانية. واستولت القوات المتحالفة على أزمير، وحالت دون استيلاء العثمانيين على ليانت وكان تابعًا

(١) دكتور عبد الجليل التميمى. بحث عنوانه: من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى سنة ١٤٥١م منشور فى المجلة التاريخية المغربية تونس. العدد الثالث ص٣٧ وما بعدها.

لجمهورية البندقية. ولم تضع الحرب أوزارها إلا سنة ١٤٧٩م. وشرع السلطان محمد أبو الفتوح لتوه يعد مشروعًا لفت روما عاصمة البابوية الكاثوليكية، واتجه بقوات إلى أوترنت فى مملكة نابولى عام ١٤٨٠م ليتخذ منها قاعدة للزحف على روما. ولكنه جاز إلى ربة فى اليوم الثانى من شهر مايو -آيار- عام١٤٨٠م[١].

وإلى ناحية أخرى اتجه مسلمو غرناطة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى إلى السلطان الملك الأشرف قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٦م) سلطان دولة المماليك الشراكسة يرجون تدخله لإنقاذهم من الملوك المسيحيين. وقد أرسل الأشرف قايتباى وفودًا إلى البابا وإلى ملوك الدون الأوربية يذكرهم بأن المسيحيين فى أرجاء دولته يتمتعون بكافة الحريات، فى حين أن إخوانه فى الدين فى مدن إسبانيا يتعرضون لألوان شتى من الظلم. وهدد على لسان مبعوثيه بأنه سوف يتبع سياسة المعاملة بالمثل، وهى التنكيل بالمسيحيين إذا لم يكف حكام قشتالة وأراجون وغرناطة عن هذه السياسة الحمقاء وعن طرد المسلمين من أراضيهم وطالب بعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم[٢]. ولكن لم يكن لهذا التهديد أو الوعيد أى أثر فى تغير الموقف العام للإسبانيين والبرتغاليين تجاه المسلمين سواء فى الأندلس أو فى شمالى إفريقية.

(ب) أهل الأندلس يستنجدون بالسلطان بايزيد الثانى:

واستنجد مسلمو الأندلس مرة أخرى بعد وفاة السلطان محمد أبى الفتوح بابنه السلطان أبى يزيد الثانى (١٤٨٠ - ١٥١١م) ولكن تزاحمت على السلطان الجديد الأزمات الداخلية والخارجية مثل مشكلة نزاعة على العرش مع أخيه الأمير جم وما أثاره هذا النزاع من مشكلات مع البابوية فى روما وبعض الدولة الأوربية، ثم هجوم البولنديين على مولدافيا - جزء من رومانيا حاليًا - والحروب فى ترنسلفانيا والمجر وجمهورية البندقية وتكون تحالف صليبى آخر ضد الدولة من البابا «جيل الثانى» وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا وما أسفر عنه هذا التحالف من حرب

(١) الدولة العثمانية دولة عثمانية مفترى عليها ج٢ ص٩٠٣.

(٢) دكتور عبد الجليل التميمى بحثه السابق العدد الثالث لعام ١٩٧٥.

تنازلت الدولة العثمانية فى نهـايتها عن بعض ممتلكاتها. وانتهى حكم السلطان أبى يزيد بصراع مع أبنائه أسفر عن خلعه وقتله مسمومًا[١].

وتوالت نداءات أهل الأندلس لملوك المغرب، غير أن الأوضاع الداخلية التى كان عليهـا المغرب وخضـوع ابن وطاس لإسبانيـا وعقد مـعاهدة سنة ١٥٣٨م معـها، وازدياد النفـوذ الإسبـانى البـرتغالى على السـواحل المغـربية، كل هذا جـعل من المستحيل القيام بإجراء حازم وفعال لنصرة أهل الأندلس، وإنقاذهم من المأساة التى تعرضوا لها فسقطت غرناطة عام ١٤٩١م وطويت صفحة الحكم الإسلامى فى شبه جزيرة أيبريا.

نخلص من هاتين الاستغاثتين المتلاحقتين للسلطان محمد أبى الفتوح والسلطان أبى يزيد الثـانى إلى أن الدولة العثمـانية لم تسـتطع لظروفهـا الداخلية من ناحـية والقـوات الصليبـية التى واجـهتـها من ناحـية أخـرى أن تمد يد المساعـدة لمسلمى الأندلس لإنقاذهم من الوقوع فى براثن الصليـبية الإسبانية. وبقى مـسلمو شمالى إفريقية يواجهون ضراوة الصليبية الإسبانية بالذات.

ج- سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول:

قام الأستاذ الدكتور/ عبد الجليل التميمـى بترجمة وثيقة تركية محفوظة فى دار المحفوظات التـاريخية بإستانبول -طوب قـابى سيراى- تحت رقم (٤٦٥٦)، وهذه الوثيقة عبـارة عن رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر على اختـلاف مستوياتهم، ومؤرخة فى أول شهـر ذى القعدة عام ٩٢٥هـ فى الفترة من ٢٦ من شـهر أكتوبر تشرين الأول إلى ٣ من شهر نوفمبر تشـرين الثانى عام ١٥١٩م، وكتبت بأمر من خيـر الدين لربط الجزائر بالدولة العثـمانية، وجـاء فى الرسالة أن خيـر الدين كان شديد الرغبة فى أن يذهب بنفسه إلى إسـتانبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصياً أبعـاد قضية الجزائر، ولكن زعماء مدينة الجزائر توسلوا إليـه أن يبقى فيها كى يستطيع مواجـهة الأعداء إذا تحركوا، وطلبوا منه أن يرسل سفـارة تقوم بالنيابة

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى: أوربا فى مطلع العصور الحديثة الطبعة الأولى ص٦٦٩- ٦٧٩.

عنه، وكانت الرسالة التى حملتها البعثة موجهة باسم القضاة والخطباء والفقهاء الأئمة والتجار والأعيان وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة وهى تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية، وكان الذى يتزعم السفارة (الفقيه العالم الأستاذ أبو العباس أحمد بن قاضى) وكان من أكبر علماء الجزائر، كما كان قائدًا عسكريًا وزعيمًا سياسيًا؛ وكان بمقدوره أن يصور أوضاع بلاده والأخطار التى تحيط بها من كل جانب

لقد أشاد الوفد بجهاد بابا عروج فى مدافعة الكفار؛ وكيف كان ناصرًا للدين وحاميًا للمسلمين، وتكلموا عن جهاده حتى وقع شهيدًا فى حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان، وكيف خلفه أخوه المجاهد فى سبيل الله أبو التقى خير الدين، وكان له خير خلف، فقد دافع عنا، ولم نعرف منه إلا التعظيم والإجلال، ويكرس نفسه وماله للجهاد لإرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله ومناط آماله سلطنتكم مظهرًا إجلالها وتعظيمها، وأهالى إقليم بجاية والشرق والغرب فى خدمة مقامكم العالى وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالتكم ما يجرى فى هذه البلاد من الحوادث والسلام.

إن مضمون الرسالة السابقة تبين للباحث آراء الجزائريين تجاه الدولة العثمانية، وكانت من تلك الآراء:

- أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمثل فى شمال إفريقية، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الإسلامية ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجًا له فى الحكم.
- أن نشاطه يتركز فى قيادة عمليات الجهاد ضد النصارى.
- أنه يكن للدولة العثمانية وسلطانها كل تقدير واحترام.
- تدل الرسالة على تماسك الجبهة الداخلية، ووضوح الهدف أمام مسلمى الجزائر.
- تكشف الدراسة التحليلية للرسالة التى بعث بها أهالى مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول عن آراء واتجاهات خير الدين باربروس تجاه الدولة العثمانية، وكان من بينهما:

أولاً: أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمثل فى شمالى إفريقية، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الإسلامية، ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجًا له فى الحكم.

ثانيًا: أن نشاطه يتركز فى قيادة عمليات الجهاد الدينى الإسلامى.

ثالثًا: أنه يكن للسلطان كل تقدير، وللدولة العثمانية ولاء بدون حدود.

رابعًا: أنه شديد الرغبة فى الحصول على مساعدات عسكرية فى المقام الأول من الدولة العثمانية.

خامسًا: سلامة وتماسك الجبهة الداخلية مع وضوح وحدة الهدف أمام المواطنين.

نجحت البعثة الجزائرية فى تحقيق أهدافها. فقد سارع السلطان سليم الأول إلى منح رتبة بكلر بك إلى خير الدين باربروس. وهى رتبة تخول صاحبها اختصاصات إدارية واسعة ومتشعبة كما تجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة فى إقليمه ممثلا للسلطان. وكان من مدلولات منح هذه الرتبة الرفيعة[1] أن بلاد الجزائر أو المنطقة التى كان يحكمها خير الدين فى ذلك الوقت والتى قد يمتد إليها نفوذه ونفوذ خلفائه فى قابل الأيام تصبح تحت السيادة العثمانية، وأن أى اعتداء خارجى على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية. ودعم السلطان سليم هذا القرار بقرارات تنفيذية، إذ أرسل إلى خير الدين قوة من سلاح المدفعية العثمانية. وكان هذا السلاح من أقوى أسلحة الجيش العثمانى كفل له الانتصار على جيش دولة المماليك الشراكسة فى معركة مرج دابق (١٥١٦م)، كما أرسل ألفين من الجنود الإنكشارية. وكانت الفيالق الإنكشارية، كما نعرف- تعد من خيرة الجنود البيادة - المشاة - فى القوات المسلحة العثمانية. ومنذ ذلك الوقت (١٥١٩م) بدأ الإنكشارية يظهرون فى الحياة السياسة والعسكرية فى الأقاليم العثمانية فى شمال إفريقية بحيث أصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثراً فى سير الأحداث بعد أن كثر إرسالهم إلى تلك الأقاليم؛ عندما استبان للسلاطين بوادر تمردهم، وأنهم غدوا مركزاً خطيراً من مراكز القوى فى الدولة.

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص ٩١١.

وأذن السلطان سليم أيضًا فى ذات الوقت لمن يشاء من رعاياه المسلمين فى السفر إلى الجزائر والانخراط فى صفوف المجاهدين، وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلى الجزائر الامتيازات المقررة للفيالق الإنكشارية[1]؛ تشجيعًا لهم على الانضمام إلى كتائب المجاهدين. وقد أقبل سكان الأناضول على السفر إلى الجزائر والتطوع فى عمليات الجهاد. سواء أكان الدافع لهم هو النزعة الدينية الجياشة والمتأصلة فى نفوسهم انتصاراً لدينهم أم الرغبة فى الحصول على نصيبهم من مغانم وفيرة.

فقد ترتبت على القرارات التى اتخذها السلطان سليم الأول عدة نتائج مهمة كان من بينها:

- اعتبرت الجزائر رسميّاً تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩م ودعى للسطان سليم على المنابر فى المساجد وضربت العملة باسمه.
- لم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحًا عسكريّاً ضد رغبة أهل البلدة؛ لأن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم.
- إن إقليم الجزائر كان أول أقليم من أقاليم شمالى إفريقية يدخل تحت السيادة العثمانية. وأصبحت الجزائر ركيزة حربية للدولة العثمانية لتمد نفوذها بعد ذلك إلى إقليمين آخرين هما طرابلس وتونس إنقاذًا لأقاليم إسلامية عربية تعرضت لغزو صليبى منظم وعنيف من سكان شبه جزيرة أيبريا.

وهكذا بدأ السلطان سليم الأول يمد نفوذه إلى الجزائر للحفاظ على هوية ذلك البلد العربى المسلم ، لكن السلطان سليم قضى نحبه فى اليوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠م تاركًا لابنه السلطان سليمان المشرع مهمة توطيد السيادة العثمانية على إقليم الجزائر ومد هذه السيادة إلى إقليمين آخرين هما طرابلس وتونس.

---

(١) دكتور أرجمند كوران السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر ص١١.

صعوبة موقف خير الدين:

كان أمام خير الدين باربروس في وضعه السياسي والعسكرى الجديد أن يحارب في جبهتين:

أولاً: الجبهة الإسبانية لطرد الإسبانيين من الجيوب التى أقاموها على ساحل الجزائر. وقد أصاب في هذه الجبهة نجاحا كبيرا فضم إليه عنابة وقالة في شرقي الجزائر، ثم حقق انتصارًا باهرًا على الإسبانيين حين استولى عام ١٥٢٩م على حصن بينون الإسبانى المقام على الجزيرة المواجهة لبلدة الجزائر؛ وقد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يومًا حتى تداعت جوانبه، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل وأسر قائد الحصن مارتين دى فرج مع كبار ضباطه؛ واقتيدوا إلى قصر خير الدين حيث تعرضوا لمهانة إذ أمر بضربهم بالعصى ضربًا مبرحًا.

ثم أقام خير الدين حاجز أمواج يصل أطلال الحصن والجزيرة بالساحل ويستخدم من ناحيته الداخلية كرصيف للسفن؛ وبذلك أوجد ميناء حصينا وآمنا ترفأ إليه السفن. وإذا كانت سنة ١٥١٩م تعد بداية وصول النفوذ العثماني رسمياً إلى شمالى إفريقية، فإن استيلاء خير الدين على البينون سنة ١٥٢٩م يعد بداية ما عرف باسم نيابة الجزائر. فمنذ ذلك التاريخ تحول ميناء الجزائر إلى عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل ولكل شمالى إفريقية العثمانية بنياباتها الثلاث. وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم المغرب الأوسط[1]. ولكن ظلت وهران قاعدة إسبانية تهدد الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر (١٧٩٢م).

ثانيًا: الجبهة الداخلية وكانت تتمثل في محاولة توحيد المغرب الأوسط، وقد تعرض كما ذكرنا لمؤامرات بنى زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة. ولكنه استطاع مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية. ورأت الكيانات العربية في دخولها تحت السيادة العثمانية سياجًا يحميها من تعرضها للأطماع الصليبية الإسبانية ومن

(١) دكتور صلاح العقاد: المغرب العربى فى بداية العصور الحديثة. مكتبة الأنجلو. طبعة ثالثة ص٢٢.

قهرها على اعتناق المسيحية، ولهذا أعلنت تبعيتها للدولة العثمانية. وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثمانى إلى بعض المدن الداخلية المهمة مثل قسنطينة .

وقد نجح خير الدين باربروس نجاحًا بعيدًا فى إنشاء هيكل دولة قوية فى الجزائر بفضل المساعدات العسكرية التى كان يتلقاها من السلطان سليمان المشرع، واستطاع أن يوجه ضربات قوية للسواحل الإسبانية. وكانت جهوده مثمرة فى حركة إنقاذ آلاف المسلمين فى إسبانيا -الموريسكيين- من الإفلات من قبضة الحكومة الإسبانية وللجوء إلى شمالى إفريقية. فقام فى سنة ١٥٢٩م بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف مسلم[١] مما جعل مسلمى غرناطة وبلنسية وغيرهما يستنجدون بخير الدين لإنقاذهم[٢]. واستطاع أن يجعل الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسبانى.

ولما كان خير الدين يتوجس خيفة من ازدياد مطامع الفيالق الإنكشارية وتطلعهم إلى الاستئثار بالنفوذ، استقدم إلى الجزائر ثمانية آلاف جندى ألبانى ليوازن بهم قوة الإنكشارية، وكون لنفسه حرسًا خاصًا من المهاجرين المسلمين الأندلسيين. وغدا خير الدين باربروس الحارس الأمامى للدولة العثمانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، وكانت تسانده قوات هذه الدولة ومواردها فى صراعه ضد شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وكانت تضم وقتذاك إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا.

وكانت هناك عدة عوامل بالغة الأهمية أملت على السلطان سليمان المشرع الاهتمام بمد نفوذ الدولة إلى تونس فى الصراع الذى احتدم بينه وبين الإمبراطور شارل الخامس كما سنوضح[٣].



(١) دكتور عبد الجليل التميمى: رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١م. بحث سبق ذكره.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩١٤.

ثالثًا: العثمانيون يعيدون تونس إلى رحاب الجبهة الإسلامية

- السلطان سليمان يعهد إلى خير الدين بفتح تونس:

تتداخل بل تترابط أحداث دخول الجزائر وتونس تحت السيادة العثمانية بحيث يصعب الفصل بينهما، على عكس الأحداث الخاصة بطرابلس. وحرصا على تسلسل الأحداث السياسية، المحلية والدولية، فيما يتصل بالجزائر وتونس فى ذهن القارئ، كان من المناسب عدم الالتزام بالترتيب التاريخى لدخول هذه الأقاليم الثلاثة تحت السيادة العثمانية، وهو الترتيب الذى سبق أن ذكرناه: الجزائر، ثم طرابلس، ثم تونس.

استدعى السلطان سليمان المشرع إليه فى إستانبول خير الدين باربروس عام ١٥٣٣ فذهب إليه مع بعض وحدات من الأسطول. وعهد إليه السلطان بإعادة تنظيم الأسطول وبالإشراف على بناء عدد من السفن فى الترسانة، ثم طلب منه أن يستولى على تونس وإعلانها ولاية تابعة للدولة العثمانية قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل الخامس فى الاستيلاء عليها. وفضلا عن ذلك كانت هناك عدة عوامل أملت على السلطان سليمان الاهتمام بمد النفوذ العثمانى إلى تونس. كان من بينها:

١- توسطها بين الجزائر وطرابلس.

٢- موقعها الجغرافى فى منتصف الساحل الشمالى لإفريقية تقريبًا.

٣- قربها من إيطاليا التى كانت أحد جناحى الإمبراطورية الرومانية المقدسة وقتذاك (وكان الجناح الآخر إسبانيا).

٤- مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا الخلفاء الطبيعيين للإمبراطور شارل الخامس وأشد الطوائف المسيحية لددًا فى عداء الإسلام والمسلمين.

٥- الإمكانيات الهائلة التى تتيحها موانى تونس وهى التحكم فى المواصلات البحرية فى

البحر المتوسط. وهكذا تضافرت عدة عوامل أدت إلى إضفاء أهمية عسكرية على تونس في هذا الصراع الحربي بين السلطان سليمان والإمبراطور شارل الخامس.

غادر خير الدين باربروس إستانبول على رأس قوات تتكون من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي، واتجه رأسًا إلى تونس وظهر أمام ميناء تونس في شهر أغسطس -آب- عام ١٥٣٤م واستولى عليها، وأعلن تبعيتها للدولة العثمانية وإنهاء الحكم الحفصي فيها، كما سقطت في يده المدن الساحلية وتوغلت قواته جنوبًا في الداخل وأعلنت القبائل ولاءها للدولة العثمانية.

- سقوط تونس أمام شارل الخامس:

كان لنجاح خير الدين في احتلال تونس أصداء بعيدة في أوربا. وكان تصميم شارل الخامس على الاستيلاء على تونس يرجع إلى عدة عوامل من خلال النظرة الأوروبية؛ فإن الإمبراطور شارل الخامس كان يدرك الأهمية العسكرية لموقع إقليم تونس في السيطرة على الملاحة في حوض البحر المتوسط، ونظر إلى هذا النجاح الإسلامي العثماني على أنه تهديد مباشر للمواصلات البحرية بين إسبانيا وإيطاليا، جناحي الدولة الرومانية المقدسة في ذلك الوقت. ونظر إليه أيضًا على أنه انتصار للإسلام وهزيمة للمسيحية، وتشجيع لمجاهدي شمالي إفريقية على مواصلة الهجوم على السواحل الإسبانية وإنقاذ المرويسكيين[(١)].

لهذه الأسباب قرر شارل الخامس غزو تونس. وأعد حملة جرارة خرجت من برشلونة في أوائل يونيو - حزيران - عام ١٥٣٥م وكانت هذه الحملة هي الحملة الأولى له على شمالي إفريقية. وتمكن من الاستيلاء على تونس في ذات السنة بسبب التفوق العددي، والخيانة العربية التي حمل لواءها مولاي الحسن الحفصي وأتباعه، وبسبب سوء الأوضاع الداخلية في تونس ووجود عدة آلاف من الأسرى المسيحيين في مدينة تونس قاوموا الحراس وكسروا أبواب السجون وانتشروا في شوارع المدينة يرتكبون أعمالاً تخريبية، ويمهدون السبيل أمام القوات الإمبراطورية

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩١٦.

لدخول العاصمة. وأقامت البابوية فى روما احتفالات كبرى ابتهاجًا بسقوط تونس فى يد الإمبراطور شارل الخامس (عاهل العالم المسيحى)[١].

كان ضياع تونس صدمة للدولة العثمانية ولمجاهدة شمالى إفريقية بلا شك، ومما زاد الطين بلة أن مولاى الحسن الأمير الحفصى قد وافق على أن يحكم تونس باسم شارل الخامس وتحت حمايته، كما تنازل له عن ميناء حلق الوادى حيث أقام الإسبانيون قاعدة بحرية صليبية عسكرية. ورد خير الدين على انتصار شارل الخامس بغارة مفاجئة على جزر البليار واستولى منها على ستة آلاف أسير مسيحى وعاد بهم إلى قاعدته فى الجزائر[٢]. ووصلت أنباء هذه الغارة وحصيلتها الآدمية الدسمة من الأسرى المسحيين إلى روما وسط احتفالات البابوية بانتزاع تونس من المسلمين.

وكان السلطان سليمان المشرع قد أراد مكافأة خير الدين باربروس على خدماته التى أداها للإسلام؛ فعينه قبودان باشا أى قائدًا عامًّا للأسطول العثمانى وعين فى منصبه فى الجزائر ابنه حسن باشا وشهرته حسن أغا[٣]. وركز خير الدين نشاطه فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط أولا ثم فى الحوض الغربى بينما واصل حسن أغا جهود والده فى الجزائر، فلم تنقطع جهوده عن مهاجمة الإسبانيين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط.

- ظهرت الأهداف البعيدة من استيلاء الإمبراطور شارل الخامس على تونس. فقد أعد حملة جرارة لغزو الجزائر. وكان من أهداف هذه الحملة اجتثاث النفوذ العثمانى من البحر المتوسط، وعزل فرنسا بمنع النجدات العسكرية عنها عن طريق حليفتها الدولة العثمانية، وهو التحالف الذى أطلق عليه فى أوربا فى ذلك كما ذكرنا (التحالف المدنس) لأنه يقوم على تحالف الصليب مع الهلال. وكان شارل الخامس يعتقد أنه لولا الوجود العثمانى فى شمالى إفريقية لاستطاع إنشاء مملكة

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص ٩١٧.

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق.

مسيحية هناك لإسبانيا. وكان هذا الإمبراطور يتوجس خيفة من احتمال قيام الدولة العثمانية بحملة على إسبانيا. وقد نوقش هذا الاحتمال فى بلاط مدريد[1].

وقد أذاع شارل الخامس على جميع الدول المسيحية فى أوربا أن عزيمته قد استقرت على الانتصار للمسيحية والثأر من غارة المسلمين على جزر البليار. وجمع أسطولا كان من أقوى التجمعات البحرية المقاتلة التى ظهرت فى القرن السادس عشر. وكان يتكون من خمسمائة وست عشرة سفينة من السفن الحربية وناقلات الجنود. وعهد بقيادة هذا الأسطول إلى عدد من كبار القادة البحرين كان من بينهم أندريه دوريا وفرناند كورتيز. وكانت الحملة تضم ٣٦,٢٥٠ من الجنود الألمان والإيطاليين والإسبانيين وفرسان القديس يوحنا من مالطة والقوات البابوية. وجعل من نفسه القائد الأعلى للحملة. وقد اختار لإنزال حملته مدينة الجزائر بصفتها مقر القوة الإسلامية العثمانية فى المغرب.

وتمكنت الحملة من النزول بسهولة إلى البر فى جهة مجاورة لميناء الجزائر فى الثالث والعشرين من شهر اكتوبر -تشرين أول- عام ١٥٤١م.

كان شارل الخامس يعتقد أن الله سبحانه وتعالى سيؤيده بنصر من عنده؛ طالما كان القسيسون والرهبان ومن ينتسب إليهم من رجال الدين المسيحى فى إسبانيا يدعون الله أن ينصره نصراً عزيزًا على المسلمين. والحق أن من فضائل هذا الإمبراطور إيمانه العميق بالله جل علاه، وشدة تدينه، وإن كان من مساوئه فى ذات الوقت اللدد فى عداء الإسلام وأنه كان يحمل كراهية وبغضاء للمسلمين. لم يضع هذا الإمبراطور فى تقديره للموقف الحربى التغيرات العنيفة فى الجو فى فصل الخريف فى بلاد الجزائر. كان الجو صحوًا حين هبط بقواته إلى أرض الجزائر. وما إن تمت عمليات الإنزال بسلام حتى اكفهر الجو وهطلت السماء هطلانًا متتابعًا وهبت ريح عاصف استمرت عدة أيام؛ واقتلعت خيام جنود الحملة، وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثير منها، وقذفت الأمواج

---

(١) دكتور عبد الجليل التميمى: رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١م بحث سبقت الإشارة إليه.

الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ وهجم عليها المدافعون المسلمون واستولوا على أدواتها وذخائرها، أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود.

وفى وسط هذه الكوارث حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل. وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة قوات الغزو مستغليين تلك الكوارث الطبيعية التى حلت بها، فأفنوا جزءًا كبيرًا منها. واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ما تبقى لهم من سفن واتجه بهم إلى إيطاليا بدلا من إسبانيا. وكان من العوامل التى ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور التفاف الجزائريين حول حسن أغا باشا، وأهم من ذلك النجدات العسكرية التى بعث بها السلطان سليمان المشرع إلى حسن أغا والتى نظر إليها أهل الجزائر ومسلمو إسبانيا على السواء باعتبارها تعزيزًا لشوكة المسلمين[1].

وكانت الهزيمة التى منى بها الإمبراطور أكبر هزيمة بحرية حاقت به فى حياته. وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فقالوا فى رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان المشرع مضمونها أن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده (بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم ريحًا عاصفًا وموجًا قاصفًا، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل)[2].

رسالة من ٣٦٤ ألف من مسلمى الأندلس الفارين إلى الجزائر إلى السلطان سليمان المشرع:

ومما يذكر فى هذا الصدد أن سكان الجزائر - سواء كانوا أهل الإقليم الأصليين أو مسلمى الأندلس الذين فروا بدينهم إلى الجزائر - بعثوا برسالة فى الشهر التالى لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان المشرع مؤرخة فى أوائل شهر شعبان عام ٩٤٨ - أواخر شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥٤١م. وقد أوضحت هذه

(١) دكتور عبد الجليل التميمى: رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١م.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩٢٠.

الرسالة الأحوال المؤلمة والمفجعة التى تحيط بالمسلمين الذين احتفظوا بدينهم فى إسبانيا بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامى فى الأندلس، وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش - وإحراقهم. ووصفتهم الرسالة بأنهم (عبيدك الفقراء المساكين المنقطعون بجزيرة الأندلس، وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفًا) وأنهم يشكون إلى السلطان سليمان (ما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكابدة الكفار). وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التى أدها للإسلام خير الدين باشا (المجاهد فى سبيل الله، وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين)، ومضت الرسالة تقول: إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغاثهم (وكان سببًا فى خلاص كثير من المسلمين من أيدى الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام). وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين. وحددت الرسالة مطلبين أساسيين:

أولاً: إرسال نجدات عسكرية (لنصرة الجزائر، لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهى موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة).

ثانيًا: إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق - بكلر بك الجزائر - (فهو الممتثل لأوامر مولانا، لأنه أحيا هذا الوطن، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار المردة والفجار، . . . . وإنه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر).

وقد وصفت الرسالة السلطان سليمان بألقاب عديدة لها دلالتها السياسية والدينية والحربية العميقة).

- تحرك الإسبانيين نحو تونس:

بعد الهزيمة الفادحة التى نزلت بالإمبراطور شارل الخامس أمام مدينة الجزائر فى أواخر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٤١م كف الإسبانيون عن مهاجمة

الجزائر، ولكنهم نقلوا الصراع بينهم وبين القوى الإسلامية العثمانية والمغربية إلى تونس. فقد استطاع أندريا دوريا القائد البحرى الإسبانى الاستيلاء على عدة مدن فى إقليم تونس مثل صفاقس، وسوسة، ومناستير، مما أثار سخط السكان على بنى حفص لتخاذلهم أمام القوى الصليبية. واندلعت ثورات داخلية ضدهم فى بقاع شتى واضطر مولاى الحسن إلى الرحيل إلى أوربا التماسًا لمساعدتها. وفى هذه الأثناء ظهر قائد بحرى من العثمانيين هو دراجوت باشا ليملأ الفراغ السياسى والحربى فى تونس على نحو ما فعل الأخوان عروج وخير الدين. وغدا منافسا خطيرا لأندريا دوريا فى البحر المتوسط. واستطاع دراجوت باشا أن يتخذ من طرابلس، التى أصبحت نيابة عثمانية، قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الدينى البحرى حتى بلغ القيروان واحتلها، وأقام فيها حامية عام ١٥٥٨م.

ولكن ظل الإسبانيون يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم بنى حفص، ورأى السلطان سليمان المشرع أن يستولى على جزيرة مالطة نظرًا لأهميتها فى الصراع الحربى والدينى الذى ازداد احتدامًا بين الدولة العثمانية وإسبانيا حول تونس، فأرسل أسطولاً ضخمًا بلغ عدد قطعه مائة وخمسًا وتسعين وحدة مختلفة الأنواع والأحجام تحمل ثلاثين ألف جندى تحت قيادة مصطفى باشا.

وبدأ الأسطول حصاره للجزيرة فى ١٩ من مايو -آيار- عام ١٥٦٥م، واستمر الحصار أربعة أشهر، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة فى الرجال والسفن. وبلغ عدد القتلى والغرقى والمفقودين عشرين ألفًا، وكان من بينهم دراجوت باشا الذى قتل فى إحدى العمليات الحربية فى ١٦ من يوليو -تموز- عام ١٥٦٥م واستعصت الجزيرة على العثمانيين فانسحبوا منها فى ١١ من سبتمبر - أيلول عام ١٥٦٥م، وظلت جزيرة مالطة معقلا لفرسان القديس يوحنا أكثر من قرنين إلى أن أطاح بحكمهم بونابرت حين استولى على مالطة فى شهر يونيو - حزيران - عام ١٧٩٨م والحملة الفرنسية بقيادته فى طريقها إلى مصر.

العلج على يواصل غاراته على سواحل إسبانيا لإنقاذ مسلمى الأندلس:

وإذا كان دراجوت باشا قد قضى نحبه شهيداً فى معركة جزيرة مالطة قبل أن يحرر تونس تمامًا من الصليبية الأوربية والاستعمار الأوربى ومن العملاء العرب (بنى حفص)، فإن هذا العبء وقع على عاتق نيابة الجزائر. ولمعت أسماء عدد من القادة البحريين ممن تولوا نيابة الجزائر بعد خير الدين باربروس، مثل ابنه حسن باشا، وصالح ريس، والعلج على. وقد اتخذ العلج على خطوات عملية سنة ١٥٦٩م لتنفيذ مشروع خطير للغاية هو إعادة الحكم الإسلامى فى إسبانيا[١].

وتصر المراجع الأوربية على أن العلج على كان فى مطلع حياته مسيحياً[٢] ومن مواليد إقليم كالابريا فى جنوبى إيطاليا، ثم وقع أسيرًا فى إحدى الغارات العثمانية على الموانى الإيطالية، وأجبر على العمل بإحدى السفن الحربية ذات المجاديف التابعة للأسطول العثمانى ثم تحول إلى الإسلام... بينما تقرر المراجع التركية أنه كان عثمانياً إسلامى المولد ولم يكن قط مسيحياً ولا إيطالياً.

والتحق بخدمة الأسطول وتدرج فى مناصبه. واشترك مع دراجوت باشا فى صد حملة الإمبراطور شارل الخامس على جزيرة جربة فى تونس، وقد أخفق الإمبراطور فى احتلال الجزيرة ثم رقى إلى منصب بكلر بكى طرابلس ثم بكلر بكى الجزائر. وقد اشترك فى معركة ليانت البحرية حيث كان قائداً للجناح الأيسر للأسطول العثمانى. ورقى بعد هذه المعركة إلى منصب قبودان باشا تقديرًا لبطولته فى المعركة، لأنه استطاع أسر سفينة القيادة الخاصة برئيس فرسان القديس يوحنا، كما نجح فى الخلاص بجزء من الأسطول وإعادته سالما إلى إستانبول، بعد أن حلت الهزيمة بالأسطول العثمانى. وقد ظل يشغل منصب قبودان باشا طيلة خمسة عشر عامًا حتى توفى فجأة؛ فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٥٨٧م فى مسجده الخاص (طوب خانه) الذى أقامة فى جالاطة فى ضواحى إستانبول. وأبدى نشاطًا كبيرًا فى حركة إعادة بناء الإسطول العثمانى بعد كارثة

(١) دكتور جلال يحيى: المغرب الكبير مرجع سابق ص٢٨.

(٢) الدكتور عبد العزيز الشناوى. الدولة العثمانية جـ٢ مرجع سابق ص٩٢٣.

ليانت. واشترك فى استرداد تونس وحلق الوادى سنة ١٥٧٤ م. وكان للعلج على نشاط بحرى موفور إذا أقبل فصل الربيع خرج مع رجاله فى سفن حربية كبيرة إلى أعالى البحار، ويتعرض للسفن الإسبانية فى رحلاتها فى البحر المتوسط، ويعرقل خطوط المواصلات البحرية بين إسبانيا والدولة الخارجية، ويعرض التجارة الإسبانية للخسائر الجسيمة. كما كان يهبط فى سفن خفيفة وسريعة على مواقع معينة على السواحل الإسبانية مسترشداً بإشارات ضوئية يبعث بها إليه مسلمو إسبانيا أو بناء على معلومات مسبقة يتلقاها منهم. وكان يقوم بتدمير المنشآت فى هذه الأماكن ويأسر سكانها. ولذلك كان الإسبانيون أهل السواحل يتقلون إلى الداخل مسافة تتراوح بين خمسة وستة فراسخ إذا أقبل الربيع تجنبًا لكوارث يتعرضون لها[١].

ومن المؤكد أن العلج على، قبل أن يقدم على مشروع إعادة الحكم الإسلامى فى إسبانيا، كان على علم تام بالجهود الجبارة التى بذلتها الدولة العثمانية إبان وجود خير الدين باربروس فى الجزائر للقضاء على الزحف الصليبى الاستعمارى على شمالى إفريقية، كما كان يعلم تمامًا مدى النجاح الذى حققه خير الدين فى طرد الإسبانيين من بعض قواعدهم وتحطيم حصن بينون وفى تشجيعه بل وفى إسهامه فى حركة إنقاذ آلاف المسلمين فى إسبانيا من الإفلات من قبضة المحكمة الإسبانية واللجوء بهم إلى شمالى إفريقية. فهذه الحقائق لا تخفى على شخصية حاكمة فى نيابة الجزائر ونعنى بها شخصية العلج على.

بقى سؤال يفرض نفسه فى هذا الموطن: هل كان مشروع إعادة الحكم الإسلامى فى إسبانيا بتوجيه من السلطان العثمانى سليم الثانى الذى كان يتبوأ عرش الدولة فى ذلك الوقت؟ أم كان هذا المشروع بوحى من العاطفة الدينية لدى العلج على أو من تفكيره السياسى[٢].

من المستبعد تمامًا الأخذ بالسبب الأول، لأن الحياة الخاصة للسلطان سليم الثانى (١٥٦٦ - ١٥٧٤م) كانت تتشح بالقاذورات. إذ أدمن تناول الخمور حتى أطلق عليه

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩٢٤.
(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩٢٥.

السكير، وأسرف فى ارتكاب أقذر أنواع الموبقات الجنسية، وكان ينتمى إلى مجموعة السلاطين المعروفين فى تاريخ الدولة باسم السلاطين التنابلة. وأهم من ذلك كله، أنه فى ذات السنة التى اتخذ فيها العلج على الخطوات الأولى لتنفيذ مشروع إعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا كانت الدولة مشغولة بالحملة التى أرسلتها بقيادة سنان باشا لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن، ثم انصرفت فى العالم التالى إلى فتح جزيرة قبرص وانتزاعها من جهورية البندقية (١٥٧٠-١٥٧١م)[1].

وكان محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم قد اقترح على السلطان سليم الثانى أن توجه الدولة حملة قبرص إلى إسبانيا لمحاربة مليكها فليب الثانى (١٥٥٦-١٥٩٨م) إذ كانت المتاعب تحيط بهذا الملك من يمين ويسار، وهو فى وضعه المحفوف بالأخطار لا يستطيع للقوات العثمانية المسلحة دفعًا. ولكن لم يأخذ السلطان باقتراح الصدر الأعظم؛ لأنه كان متأثرًا برأى صديق يهودى من البرتغال اسمه جوزيف نانسى اتخذه السلطان صفياً له.

تضاف إلى هذه الحقائق حقيقة أخرى هى أن الدولة تعرضت لكارثة كبرى حين تحطم أسطولها فى معركة ليانت البحرية فى السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٧١م. فلم يكن فى إمكانية السلطان سليم الثانى - سواء قبل عام ١٥٦٩ أو بعده - أن يفكر فى مشروع خطير مثل إعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا.

ولم يبقَ بعد هذا التحليل إلا السبب الثانى وهو أدنى إلى الحقيقة. كان العلج على آنذاك يفكر فى مشروعين: طرد الإسبانيين من تونس، وإعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا. وفى تقديره للموقف الحربى رأى أن يجعل الأسبقية فى التنفيذ للمشروع الثانى على أساس أن نجاحه فى تحقيقه يؤدى إلى انكماش الوجود المسيحى فى إسبانيا وبذلك يضع حداً للتهديد الصليبى الإسبانى المستمر لشمالى إفريقية، ويسهل علية طرد الإسبانيين والبرتغاليين نهائياً من المراكز التى كانت لا تزال فى أيديهم فى شمالى إفريقية، وتنفيذاً لهذا البرنامج الحربى عقد العلج على اتفاقًا سرياً فى مطلع سنة

(١) المصدر السابق ص٩٢٥.

١٥٦٩ م مع الثوار المسلمين الذين اعتصموا بجبال الأندلس حيث تم الاتفاق بمقتضاه على أن يقوموا بثورة هادرة فى الوقت الذى تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مراكز معينة على الساحل الإسباني. ونجح العلج على فى إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الإسبانى فى عام ١٥٦٩م. وفى هذا الوقت ترامت إليه الأنباء عن استعداد دون جوان أمير النمسا لغزو الجزائر، فعدل عن مشروعه مؤقتًا ورأى أن يبدأ بالتخلص من المراكز الإسبانية فى تونس ومع ذلك فإن مشروع فتح إسبانيا لإعادة الحكم الإسلامى فيها ظل حيا فى أذهان الحكام الذين تعاقبوا على نيابة الجزائر فى الفترة الباقية من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر.

وكانت هذه المشروعات تقوم على التعاون الوثيق بين نيابة الجزائر ومسلمى إسبانيا. وقد ذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان طرفًا منها[١].

تونس تعود إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية:

كان إخفاق العثمانيين فى فتح جزيرة مالطة وتحطيم الأسطول العثمانى فى معركة ليانت دافعين قويين للإسبانيين على معاودة الهجوم على تونس؛ فقد هاجمها دون جوان النمساوى بقوات بلغ عددها ٢٧,٠٠٠ مقاتل واحتل تونس سنة ١٥٧٣م. وقد رد العلج على ردًا سريعًا على الصليبيين فهاجم تونس على رأس قوات قفز تعدادها إلى ستين ألف مقاتل، وكان معه قوجة سنان باشا، وأباد الحاميات الإسبانية على بكرة أبيها ودخل تونس عام ١٥٧٤م، ومعنى هذا الانتصار أن العلج على وسنان باشا استطاعا بعد ثلاث سنوات من كارثة ليانت أن ينتزعا تونس من أيدى الإسبانيين. وكان الأوربيون المعاصرون ينظرون إلى استيلاء الإسبانيين على تونس على أنه من أبهى الصفحات فى تاريخ الإمبراطور شارل الخامس ومفخرة من مفاخر حكمه، ولكن عادت تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية واستقرت النيابة الثالثة والأخيرة فى شمالى إفريقية[٢].

---

(١) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس مرجع سابق ص٣٨٢ - ٣٩٠، وانظر أيضًا الدولة العثمانية دولة مسلمة مفترى عليها ص٩٢٦.

(٢) المصدر السابق ج٢ ص٩٢٧.

رابعًا: أهالى طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا

- استولت إسبانيا على مدينة طرابلس عام ١٥١٥م على عهد الإمبراطور شارل الخامس لتتخذها جيبًا صليبياً بجانب الجيوب الصليبية التى أقامتها وتناثرت على طول الساحل الشمالى لإفريقية. وظلت طرابلس تحت الحكم الإسبانى المباشر زهاء عشرين عامًا. ثم أراد هذا الإمبراطور أن يلقى عبء مكافحة الإسلام فى طرابلس على عاتق فرسان القديس يوحنا[١]. وكانوا قد نقلوا مقر قيادتهم ومركز نشاطهم الصليبى إلى جزيرة رودس بعد طردهم من بلاد الشام مع فلول الصليبيين سنة ١٢٩١م على عهد دولة المماليك البحرية، فلما استولى السلطان المشرع على جزيرة رودس فى أواخر عام ١٥٢٢م انتقلوا إلى جزيرة مالطة وأسهموا إسهامًا حربياً ومباشرا فى المخالفات الصليبية التى تكونت من البابوية فى روما ومن دول أوربية ضد الدولة العثمانية، وكانوا يمتلكون عددًا من السفن تجوب البحر المتوسط بحثًا عن سفن المسلمين فى أعالى البحار؛ يستولون على شحناتها ويأسرون ركابها، ويزجون بهم فى غيابات السجون إلى أن يدركهم الموت. فعهد الإمبراطور شارل الخامس إلى هؤلاء الصليبيين العتاة بحكم طرابلس عام ١٥٣٥م كى يتفرغ لمواصلة الحرب الصليبية ضد سكان الجزائر وتونس. وليتفرغ لمواجهة المشكلات المتصاعدة بينه وبين السلطان سليمان المشرع الذى لم يكن يعترف به إمبراطور للدولة الرومانية المقدسة. بل كان يرى أنه ملك إسبانيا فقط كما كان فى مطلع حياته. وأراد الإمبراطور أيضًا أن يكرس جزءًا من وقته لمواجهة تفاقم حركة مارتن لوثر فى ألمانيا بعد صلح كانبراى أو صلح السيدات ١٥٢٩م وكيف زج فرنسوا الأول ملك فرنسا فى هذا النزاع لمساعدة البروتستانت على الرغم من أنه كاثوليكى نكاية فى الإمبراطور.

ويهمنا هنا أن نذكر أن فرسان القديس يوحنا أخذوا ميناء ومدينة طرابلس غنيمة[٢]

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية الدكتور الشناوى مرجع سابق ص٩٢٨ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق.

باردة وجعلوا من ميناء طرابلس جيبًا صليبياً ينطلقون منه لاصطياد السفن الإسلامية على نحو ما كانوا يفعلون. وأقاموا حكومة مسيحية دينية مسرفة فى تعصبها استهدفت تغيير الوجه الإسلامى العربى لهذا الإقليم، ولكنهم اصطدموا بالشعور الدينى الإسلامى المتأجج فى نفوس السكان. وكان الإسبانيون قد نجحوا فى احتكار التجارة لأنفسهم بعد أن حرموها على الوطنيين والأجانب، فتحولت تجارة جمهورية البندقية وتجارة السودان إلى مصراته[١].

عمد أهالى طرابلس إلى مقاومة الاحتلال الصليبى سواء على عهد الإسبانيين أو على عهد فرسان القديس يوحنا ودأبوا على مهاجمتهم ابتغاء استرجاع مدينة طرابلس وميناءها، ولكن أخفقت جهودهم فى هذا السبيل لأن إمكانياتهم الحربية والبشرية ومواردهم المالية كانت ضعيفة، فرأوا أن ينهجوا نهج أهل الجزائر، فاستنجدوا بالدولة العثمانية وكانت قد بلغت إبان حكم السلطان سليمان المشرع الأوج فى ازدياد قوتها، وتصاعد نفوذها واتساع رقعتها فى أوربا وآسيا وإفريقية.

وقد أرسل أهل تاجوراء وفدًا إلى السلطان سليمان المشرع يلتمسون تدخله حربيا لتحرير بلادهم من الحكم الصليبى ويعلنون ولاءهم له ودخول بلادهم تحت السيادة العثمانية. واستجاب السلطان سليمان لطلبهم. وأرسل (مراد أغا) مع قوة صغيرة إلى مدينة طرابلس، ولكنه لم يتمكن من احتلالها، فاستقرت هذه القوة العثمانية فى تاجوراء، وانصرفت إلى إقامة تحصينات عسكرية حول هذا الموقع وإنشاء طريق يبدأ من تاجوراء ويتجه نحو مدينة طرابلس.

ثم طلب مراد أغا إلى الباب العالى إرسال قوات برية وبحرية لتعزيز القوة التى تحت قيادته ابتغاء إنهاء الحكم الصليبى فى طرابلس. فأصدر السلطان سليمان أوامره إلى قوجه سنان باشا الصدر الأعظم بالتوجه إلى طرابلس على رأس الأسطول. واستطاع ضرب منشآت الميناء ودخل المدينة عام ١٥٥١م، وكان دراجوت باشا ممن أعان سنان باشا فى عملياته الحربية.

وصدر فرمان من السلطان بتعيين مراد أغا واليًا على طرابلس فى ذات العام،

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩٢٨.

فكان أول الولاة العثمانيين عليها . ثم خلفه دراجوت باشا الذى استطاع أن يقضى على فلول فرسان القديس يوحنا من إقليم طرابلس، ومد النفوذ العثمانى بحيث شمل السواحل الليبية كلها تقريبًا . وهكذا زال حكم فرسان القديس يوحنا فى طرابلس بعد فترة بلغت ست عشرة سنة . وأصبحت طرابلس منذ سنة ١٥٥١م ولاية عربية تحت السيادة العثمانية .

وقد نجح دراجوت باشا فى الحصول على موافقة الباب العالى على إرسال فيالق إنكشارية لتعزيز الحماية العثمانية لمنع أى اعتداء صليبى قد يقع عليها سواء من جانب الإسبانيين أو من جانب فرسان القديس يوحنا . وهذا الحذر يفسر حقيقة هامة هى أن اهتمام السلطات العثمانية كان أغلبه موجهًا إلى سواحل طرابلس والنواحى العسكرية اكثر من النواحى المدنية . فانصرفت هذه السلطات إلى تحصين المدن الساحلية فى ولاية طرابلس. أما أفراد فيالق الإنكشارية فقد تزوجوا بالنساء العربيات فى الولاية واهتموا بامتلاك الأراضى الزراعية وأشجار النخيل . وكانت حصيلة هذه الزيجات المختلفة نشاة طوائف عرفت باسم القولوغلية[1] .

وتطورت الأحداث فى هذه الولاية حين قام أحد الإنكشارية، ويسمى أحمد القرمانلى بإعلان نفسه حاكما عليها سنة ١٧١١م منتهزًا فرصة غياب خليل باشا والى طرابلس الذى كان قد هرب إلى مصر لاجئًا سياسيًا عقب ثورة ألم بها أهل الولاية بسبب ضياع سفينتين فى جنوبى البحر الأدرياتى تصدت لهما سفن تابعة لفرسان القديس يوحنا واضرمت فيها النار . واستطاع أربعمائة رجل من السبعمائة الذين كانوا فيهما النجاة من النيران واقتيدوا أسرى إلى جزيرة مالطة وأصدر السلطان أحمد الثالث فرمانًا سنة ١٧١١م بتعيينه واليًا على طرابلس على أن يكون حكمه فيها وراثيا فى أسرته ومنحه لقب الباشوية . وأرسل إليه سفينتين حربيتين بكامل طاقمهما ومعداتهما، وكانت الأولى تحمل ثلاثين مدفعًا أخذت من فرسان مالطة، والثانية تحمل أربعين مدفعًا أخذت من البندقية . ووصلت هاتان السفينتان فى الوقت المناسب؛ لأن القوات البحرية التى كانت تحت تصرف أحمد باشا

(١) المرجع السابق والصفحات نفسها .

القرمانلى تضاءلت إلى حد بعيد بسبب سوء حالة السفن، وعدم كفاية استعداداتها.

وقد استطال حكم أسرة القرمانلى مائة وأربعة وعشرين عامًا (من أواخر يوليو - تموز- عام ١٧١١م حتى أوائل يونيو - حزيران - عام ١٨٣٥م ثم عادت طرابلس إلى الحكم العثمانى المباشر حتى عام ١٩١١م حين وقعت فريسة للاحتلال الإيطالى. فكانت فى آواخر عزل السلطان عبد الحميد الثانى بسنتين[1]. أما الحديث عن سيطرة الاتراك على المغرب الأقصى (مراكش)، فقد يتساءل البعض عن الأسباب التى جعلت الدولة العثمانية تمد نفوذها إلى ثلاثة أقاليم فى شمالى إفريقية وهى الجزائر وطرابلس وتونس وتدخلها تحت السيادة العثمانية. ولم تنتهج هذه السياسة فيما يتعلق بالإقليم الشقيق الرابع المتبقى وهو مراكش، وبخاصة أن هذا الإقليم كان يعانى كزملائه من الوجود الصليبى الاستعمارى المتمثل فى البرتغال وإسبانيا. والواقع أن الدولة العثمانية لم تغفل عن هذا الموضوع. وبرز هذا الاهتمام على عهد السلطان سليمان المشرع بالذات. كان هذا السلطان يدرك أهمية وحدة الصف الإسلامى فى الصراع المحتدم بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية فى شمالى إفريقية بعد أن وحدت وحدة الهدف بين الأغلبية العظمى والساحقة بين جماهير مسلمى شمالى إفريقية وانضمام الدولة العثمانية إلى صفوفهم.

وكان هذا السلطان يدرك أيضًا الأهمية البالغة لموقع مراكش من الناحية العسكرية، فهى دولة متوسطة ومحيطة فى ذات الوقت؛ بمعنى أن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى، كما أنها تقترب جداً من إسبانيا من جهة بوغاز جبل طارق. وكان فى استطاعة السلطان سليمان، لو قدر له أن يبسط السيادة العثمانية عليها، أن يتخذ من الموانئ المراكشية قواعد عسكرية لضرب السواحل الإسبانية. وكانت تابعة للإمبراطور شارل الخامس مما يعطيه ثقلاً حربياً

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩٣١.

إسلامياً ومـزيدًا من الفرص والقوة فى صراعه الضارى مـع هذا الإمبراطور. وكان أحدهمـا عاهل العالم الإسـلامى، والآخر عاهل العالم المـسيحى. كمـا كان هذا السلطان يرى أن دخول مراكش تحت السـيادة العثمانيـة يساعده على المضى بخطى سريعة فى تصفية الوجود الصليبى فى شمالى إفريقية[١].

استطاع محمد المهدى السـعدى أن يؤسس فى مراكش دولة الأشراف السعدية، وأن يحكم البـلاد بدلا من أسـرة بنى وطاس التى فشـلت فى الدفاع عن مـراكش حتى سقطت جميع ثغورها فى أيدى البرتغاليين والإسبانيين. وكان محمد الوطاس قد تقدم بعـرض إلى محمد المهدى السعـدى يحكم الأخير بمقتضـاه مدينة مراكش عاصمة الجنوب باسم الأسرة الوطاسـية. ولكنه رفض هذا العرض لأنه كان يتطلع إلى توحيـد جمـيع أنحاء مراكش تحت سـلطته وشتت شـمل الأسرة الوطاسـية، ودخل مدينة فاس عام ١٥٤٩م واتجه إلى تحرير بعض الموانئ الشمالية كما فعل فى الجنوب من قـبل، واسترد أصيلة والقصـر الصغيـر (١٥٤٩ - ١٥٥٠م) ولم يبقَ للبرتغـاليين سوى سبـته وطنجه ومـزغان. وحدث أن هرب أحد أفـراد أسرة بنى وطاس، وهو أبو حسون على الوطاسى من مراكش وذهب يلتـمس مساعدة حكام البرتغال وإسبانيا لإعادة أسرته إلى الحكم.

ولكن لم تسفر مـساعيه عن نتـيجة عملية، فـولى وجهة شطر إستـانبول حيث قابل السلطان سليـمان المشرع الذى أصدر أمرا إلى صـالح ريس بكلر بكى الجزائر بإعداد حملة لفـتح مراكش بالتعاون مع أبى حسون الـوطاسى وتعيينه سلطانا تحت السيادة العثمانيـة. واستطاع صالح ريس دخول فاس سنة ١٥٥٤م وغدا أبو وطاس حاكما، وبذلك امتد نفوذ الدولة العـثمانية إلى مراكش. ولكن لم يطل أمده سوى بضعة أشـهر، لأن محمد المـهدى السعدى استطاع أن يسـترد فاس من العثـمانيين والوطاسيين وأن يبعد عنها النفوذ العثمانى والجزائرى[٢].

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩٣٣.

(٢) المرجع السابق ص٩٣٤.

كان من المتوقع أن يحدث نوع من التضامن أو التعاون بين الدولة العثمانية والدولة السعدية بعد أن استقرت لها الأوضاع فى مراكش نظرًا لوحدة الهدف بينهما؛ فالدولة السعدية قامت أساسًا لتصفية الجيوب البرتغالية فى مراكش. وكان السلطان سليمان المشرع يفكر فى تكوين اتحاد إسلامى ومجاهد يواجه أخطار الزحف الصليبى الاستعمارى الإسبانى والبرتغالى على أقاليم شمالى إفريقية، بل كان يطمع فى دخول الدولة السعدية فى تبعية الدولة العثمانية طوعًا على غرار جاراتها الشقيقات.

وقد أرسل السلطان سليمان سفارة إلى محمد المهدى السعدى للوصول إلى اتفاق يحقق وحدة الصف الإسلامى بعد أن تحققت وحدة الهدف. ولكن رفض محمد المهدى الفكرة من حيث المبدأ رفضًا باتًا، ورفض الاعتراف بالسلطان العثمانى كأكبر قائد فى حركة المجاهدين بالمسلمين فى شمالى إفريقية وحوض البحر المتوسط، ورفض الاعتراف بالخلافة الإسلامية العثمانية على أساس أن العثمانيين ليسوا عربًا وإنما هم أعاجم.

كان محمد المهدى يعتز بنسبته إلى أسرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فهو ينحدر من سلالة على بن أبى طالب. وكان لفكرة الشرافة فى مراكش أهمية كبيرة فى حياتها السياسية والدينية والاجتماعية. وتعمقت هذه الأهمية منذ أن وصل إدريس بن عبد الله إلى مراكش فى عام ١٧٢هـ (٧٨٨ - ٧٨٩م) قادمًا من الحجاز وأسس دولة الأدراسة وبنى مدينة فاس. وكان سكان مراكش يعتزون بحكامهم بصفتهم حفدة وذرارى البيت النبوى الشريف.

وتبوأ هؤلاء الحكام مكانًا عاليًا فى قلوب أهل البلاد، وأصبحت أضرحتهم أماكن زيارة وتبجيل، وكان هذا الانتماء إلى آل رسول الله ﷺ من أسباب تفوق الأسرة السعدية على القيادات المنافسة الأخرى.

ومما ساعد على ترسيخ هذه الفكرة فى أذهان أهل مراكش انتشار الطرق الصوفية ولاسيما الطريقة الشاذلية التى تفرع عنها كثير من الطرق الصوفية فى شمالى إفريقية، وأصبحت مراكش الإقليم الوحيد من أقاليم المغرب الكبير الذى اعتز بحسب ونسب قيادته السعدية واحتفظ لنفسه بشخصية قائمة بذاتها، ورفض دخوله

تحت السيادة العثمانية على الرغم من استمرار الصلات والروابط وتشابه المصالح بين شعوب شمالى إفريقية. وإمعانًا من محمد المهدى السعدى فى اعتزازه بنسبة وفى تحدى الدولة العثمانية، أطلق على شخصه لقب (أمير المؤمنين). ولما أدرك السلطان سليمان إصراره على موقفه عهد إلى صالح ريس بإعداد حملة أخرى لفتح مراكش. وبينما كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق توفى صالح ريس، فأمر السلطان خلفه حسن باشا خير الدين الذى أعيد تعيينه فى منصب بكلر بكى الجزائر بأن يمضى فى مشروع فتح مراكش ولكن لم تصادف الحملة توفيقًا. ثم جاءت مشكلة تلمسان فأضافت عنصرًا جديدًا من عناصر النزاع بين العثمانيين والسعديين[1].

والحقيقة أن تلك الصراعات التى اشتد أوارها فى حوض البحر المتوسط بين الأساطيل العثمانية وأساطيل الصليبيين المتمثلة فى القوى البحرية المتعصبة من أساطيل إسبانيا وأوربا مجتمعة بهدف استئصال شأفة الأتراك من السيطرة على حوض البحر المتوسط وخاصة الركن الغربى منه. أقول أنه بعد ذلك بدأت حدة الصراع تخف وطأتها، فما أسباب ذلك؟

من المعلوم تاريخيًا أن تراخى اهتمام إسبانيا بشمالى إفريقية منذ أواخر القرن السادس عشر يرجع إلى قلب الأوضاع السياسية التى نجمت عن تدخل الدولة العثمانية وإنشاء النيابات الثلاث وذلك لعدة أسباب منها:

١- المصاعب الداخلية التى واجهها فيليب الثانى ملك إسبانيا.

٢- تركيز هذا الملك اهتمامه على المستعمرات الإسبانية التى تأسست عقب حركة الكشوف الجغرافية فى المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية مثل جواتيمالا، وسلفادور، وهندوراس، ونيكارجوا، وبيرو، وما نجم عن هذه الكشوف والمستعمرات من تدفق الفضة على الموانئ الإسبانية. وانتهى الأمر فى أيام فيليب الثانى إلى أن أصبحت إسبانيا (القناة) التى تجرى منها الفضة إلى بقية أوربا. وفى ذلك الوقت بدأت عصر الفضة فى أوربا وظلت الفضة خلال

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص ٩٣٥.

الخمسين سنة التالية تسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فى أوربا[١].

٣- الأعباء المالية المتزايدة التى كانت تتحملها خزانة حكومة مدريد فى تموين الحاميات الإسبانية المرابطة فى المدن الساحلية فى شمالى إفريقية، لأن الاهالى فيها امتنعوا عن التعاون مع قادة هذه الحاميات، فكانت الحكومة الإسبانية ترسل مواد التموين وغيرها عبر البحر المتوسط إليها، وقد أدى هذا الوضع إلى إنقاص حجم الحاميات الإسبانية.

٤- قيام منازعات مستمرة بين العسكريين والمدنيين فى إدارة هذه الجيوب العسكرية.

أما الدولة العثمانية فقد فتر اهتمامها هى الأخرى بشمالى إفريقية بعد أن أسست النيابات الثلاث، وبعد أن اطمأنت إلى إبعاد أخطار الزحف الصليبى الاستعمارى عن تلك الأقاليم إلى حد بعيد، ولأن الدولة كانت قد بدأت تدخل فى دور الاضمحلال منذ حكم السلطان سليم الثانى السكير، وتعاقب سلاطين ضعاف من بعده على العرش، ورؤساء شغلوا منصب الصدارة العظمى لم يكونوا على مستوى المسئولية، وظهور مراكز قوى فى الدولة استبدت بمقدرات الدولة وبخاصة إصدار القرار. وقد طلب فيليب الثانى ملك إسبانيا توقيع هدنة مع الدولة سنة ١٥٨١م على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤- ١٥٩٦م) واستجاب الباب العالى لهذا الطلب الذى كان معناه أن إسبانيا قد قبلت الأوضاع السياسية التى نجمت عن تدخل الدولة العثمانية فى شمالى إفريقية وإنشاء النيابات الثلاث تحت السيادة العثمانية. ولكن كان النزاع يتجدد بين إسبانيا ونيابة الجزائر طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر بسبب استمرار احتلال الاسبانيين مدينة وهران، وقد تم جلاء الإسبانيين عنها عام ١٧٩١، وأصر حسان باشا داى الجزائر على تسليم مفاتيح المدينة إلى الباب العالى.

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٩٣٢.

الدولة تمنع انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية:

إن هذا الموضوع ذو حساسية لأهل الشيعة، ولذلك فإننا نمسه بحذر وبقدر احترامًا منا لمشاعرهم. من المعروف أن المذهب الرسمى للدولة العثمانية كان المذهب السنى واعتبرت نفسها حامية لهذا المذهب. وتأسيسًا على هذه الحقيقة فإنها منعت انتشار المذهب الشيعى إلى ولاياتها العربية فى آسيا وإفريقية. ويشذ العراق عن هذه القاعدة العامة، لأن الدولة العثمانية لما فتحت هذا الإقليم العربى وجدت أن الدولة الصفوية فى فارس كانت قد سبقتها إلى نشر المذهب الشيعى فى أرجائه، حيث لجأ الشاه إسماعيل الصفوى إلى أساليب العنف بل والإرهاب فى نشر المذهب الشيعى، وقام بقتل أئمة السنة على الرغم من أن المذهب الشيعى كانت له جذور عميقة فى قطاعات مهمة وكبيرة فى المجتمع العراقى نظرًا لوجود العتبات المقدسة فى النجف وكربلاء وسامراء وغيرها من الأماكن التى توجد فيها مقابر من حيث تعدادهم.

وقد أبقت الدولة العثمانية على هذا الوضع، وذهبت إلى أبعد من ذلك فاحترمت مشاعر أهل الشيعة واهتمت بتعمير مناطق العتبات المقدسة، ويسرت زيارتها أمام شيعة العراق وفارس والهند وأفغانستان وغيرها على النحو الذى بسطناه من قبل. وقد وجدت الدولة العثمانية أقليات شيعية فى أجزاء من بعض الولايات العربية فأبقت عليها مثل طائفة العلويين والدروز فى لبنان. وكان أهل اليمن يعتنقون مذهبًا شيعياً هو الإمامية الزيدية ووصلت إلى اتفاق بينهم يجمع بين الاعتراف بمذهبهم ومقتضيات السيادة العثمانية على اليمن. ولذلك فإن أهل السنة ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها أسدت خدمة جليلة بحصر المذهب الشيعى فى فارس، بحيث لم تسمح بتسريبه إلى الأقاليم العربية التى دخلت تحت السيادة العثمانية، ولا تزال إيران إلى اليوم هى المعقل الأول للشيعة فى العالم الإسلامى.

❀❀❀

خامساً: الصراع للسيطرة على مضيق جبل طارق

١ - الصراع قديماً:

وتوالى على عرش غرناطة والمغرب قبل سقوط المدينة الأولى عدد من ملوك بنى مرين، لم تكن لهم قوة أسلافهم ولا حذرهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر المحدق بهم، فعاشوا عيشة ترف ولهو. ومن تصاريف القدر العجيبة أنه فى الوقت الذى أخذ الضعف فيه يدب إلى كل من غرناطة وفاس، كانت القوة قد بدأت تتجمع فى كل من إسبانيا والبرتغال.

فالبرتغال قد سرت فيه نهضة حربية وملاحية كبيرة وخاصة منذ عهد الملك خوان الأول (١٣٨٥- ١٤٣٣م) مؤسس أسرة أفيس التى حكمت البرتغال بعده. ولقد أبدى هذا الملك اهتمامًا خاصًا بالبحرية والأساطيل، واحتلال القواعد والمراكز البحرية التى تسيطر على منافذ البحار وطرق التجارة فى منطقة المضيق(١).

وانتهز هذا الملك فرصة اضطراب الأحوال فى المغرب، وهاجم بنفسه مدينة سبتة بأسطول كبير من مائتين وعشرين سفينة، واستولى عليها وعلى منطقة جباله فى أغسطس سنة ١٤١٥م (٨١٨هـ)، وفر حاكمها المدعو صلاح بن صلاح، وأقام مكانه حاكمًا من قبله اسمه بدور منسس.

وذكر محمد القادرى فى كتابه نشر المثانى، قصة فى كيفية استيلاء البرتغاليين على سبتة، تشبه قصة قيصر مع الزباء قال: رأيت بخط من يظن به التثبيت والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلمًا وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمانى عشرة وثمانمائة، وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد(٢) .

(١) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. دكتور أحمد مختار العبادى ص ٤٥٥.

(٢) السلاوى: الاستقصا ج٤ ص ٩٢.

وحاول المسلمون استرداد هذه القاعدة المهمة سنة ١٤١٩م-٨٢٢هـ فهاجمها سلطان المغرب أبو سعيد المريني من البر، بينما هاجمها سلطان غرناطة محمد الثامن من البحر، ولكن البرتغاليين تمكنوا من إحباط هذه المحاولة[١].

وولي بعد خوان الأول ابنه الأكبر إدوارد سنة ١٤٢٣م الذي حاول احتلال طنجة، وأرسل لهذا الغرض حملة بقيادة أخويه دون فرناندو، ودون هنري سنة ١٤٣٧م-٨٤١هـ ونزلت الحملة في مدينة سبتة ثم اتجهت إلى طنجة، وهاجمها هنري من ناحية البر بينما هاجمها أخوه فرناندو من البحر. وخشي المسلمون أن تتكرر مأساة سبتة من جديد فدافعوا عن المدينة دفاع المستميت.

وكان سلطان المغرب في ذلك الوقت طفلاً صغيراً يدعى عبد الحق بن أبي سعيد المريني، ويدير شئون دولته وزيره أبو زكريا يحيى الوطاسي المعروف بأبي ذكرى. ولم يتردد هذا الوزير حينما بلغته أنباء طنجة في إرسال الإمدادات إلى المدينة المحاصرة واضطرت القوات البرتغالية أمام شدة المقاومة إلى الانسحاب إلى سبتة، ولكن الجيوش المغربية تمكنت من اللحاق بها وتطويقها وأسر الأمير فرناندو وعدد كبير من البرتغاليين. واشترط المغاربة في مقابل إطلاق سراح الأسرى، أن ينسحب البرتغاليون من سبتة. ورأى ملك البرتغال أن تسليم سبتة تضحية كبيرة لا تقدر بثمن، ولهذا رفض هذا العرض، وبقي أخوه فرناندو في الأسر إلى أن مات بفاس في ٥ يونيو سنة ١٤٤٣م[٢].

وفي خلال ذلك الوقت ولي عرش البرتغال الملك ألفونسو الخامس الذي سار على سياسة أسلافه التي ترمي إلى السيطرة على مضيق جبل طارق واحتلال القواعد المطلة عليه. واتجهت أنظار هذا الملك الجديد نحو ميناء القصر الصغير أو قصر مصمودة الذي يقع بين سبتة وطنجة.

وكان هدفه من احتلال هذا الموقع هو التمهيد لاحتلال طنجة بالإضافة إلى تدعيم النفوذ البرتغالي في سبتة.

---

(١) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٥٦ المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٧.

وفى أكتوبر سنة ١٤٥٨م خرج الملك ألفونسو الخامس على رأس حملة مكونة من ٢٨٠ سفينة و٢٥ ألف جندى، واستولى على القصر الصغير بدون صعوبة كبيرة وعين عليها حاكمًا من قبله .

ثم رأى الملك البرتغالى أن يحاول من جديد احتلال طنجة، فوجه إليها ثلاث حملات فيما بين سنتى ١٤٦٣-١٤٦٤م قاد بعضها بنفسه، ولكنها فشلت كلها ولاسيما الحملة الثالثة التى قتل وأسر فيها عدد كبير من خيرة رجاله حتى صارت طنجة، على حد قول دى كاشترى، مقبرة للنبلاء البرتغاليين.

على أن المغرب لم يلبث بعد قليل أن قتل سلطانه عبد الحق المرينى فى رمضان سنة ٨٦٩هـ (مايو سنة ١٤٦٥م) وبموته انقرضت الدولة المرينية فى المغرب، وقام نزاع على الملك بين الشريف الإدريسى محمد بن على وبين قائد مدينة أصيلا محمد بن الشيخ الوطاسى وهو ابن الوزير السابق أبى زكرى.

وامتد الصراع بين الطرفين عدة سنوات (١٤٦٥-١٤٧٢م) اضطر خلالها محمد الشيخ إلى ترك أصيلا ومحاصرة خصمه فى فاس.

وانتهز ملك البرتغال ألفونسو الخامس هذه الفرصة، وهاجم مدينة أصيلا بأسطول ضخم من ٤٧٧ سفينة عليه ٣٠ ألف مقاتل، وذلك فى أغسطس سنة ١٤٧١ م، وبعد مقاومة عنيفة تمكن من احتلال المدينة وأسر عدد كبير من أهلها، من بينهم زوجتان وابن لمحمد الشيخ كانوا معتصمين بقصبتها[١].

وعندما علم محمد الشيخ بأنباء هذه الحملة ترك جزءًا من جيشه لمواصلة حصار فاس، واتجه نحو أصيلا لنجدتها ولكنه ما كاد يصل إلى مدينة القصر الكبير حتى بلغته الأنباء بسقوط أصيلا ووقوع أسرته فى أسر البرتغاليين.

ورأى محمد الشيخ أن الاتفاق مع ملك البرتغال هو الحل الوحيد للخروج من هذه الأزمة والتفرغ لمحاربة خصمه فى فاس. وعلى الرغم من أن نصوص هذه

(١) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. دكتور أحمد مختار العبادى ص ٤٥٩.

الهدنة لم تصل إلينا، إلا أنه يوجد فى المدونة الخاصة بعصر ألفونسو الخامس بعض شروطها، وهى تنص على أن يمتد أمد الهدنة عشرين سنة، وأن يحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا، وأن يطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته.

على أن ملك البرتغال، رغم شروط هذه الهدنة، اتجه بقواته وأساطيله نحو مدينة طنجة التى خاف أهلها أن يكون مصيرهم مثل مصير أهل أصيلا، فأخذوا فى الجلاء عنها مما سهل على الجيش البرتغالى مهمة احتلالها فى ٢٩ أغسطس سنة ١٤٧١م أى بعد خمسة أيام من احتلال أصيلا.

وكان محمد الشيخ فى خلال ذلك الوقت منهمكًا فى محاربة خصمه الشريف محمد بفاس ثم انتهى الأمر بفرار هذا الأخير إلى تونس بعد أن تخلى عنه أتباعه، ودخل محمد الشيخ العاصمة فاس فى سنة (٨٧٧هـ - ١٤٧٢م) مؤسسًا بذلك دولة بنى وطاس[(١)].

ولقد أثار احتلال البرتغاليين لمدينة طنجة أثناء الهدنة المبرمة، غضب السلطان محمد الشيخ. فاتفق مع ملك أراجون فرناندو الكاثوليكى الذى كان فى حالة حرب مع البرتغال، على أن يقوم المغاربة بمهاجمة سبتة من البر، بينما يهاجمها الإسبان من البحر. على أن هذا الهجوم المزدوج لم يلبث أن فشل أمام مقاومة حاكم المدينة البرتغالى وانتهى الأمر برفع الحصار عن المدينة سنة ١٤٧٦م.

ثم جاءت بعد ذلك معاهدات الكاثوفاس فى ٤ سبتمر سنة ١٤٧٩، وطليطلة فى ٦ مارس سنة ١٤٨٠ التى أبرمت بين إسبانيا والبرتغال، مخيبة لآمال السلطان محمد الشيخ، إذ إنها أنهت حالة الحرب بين هاتين الدولتين، كما أنها نصت على اعتراف إسبانيا بحقوق دولة البرتغال فى المواقع التى احتلتها فى مملكة فاس، مثل سبتة وطنجة، والقصر الصغير، والعرائش، وأصيلا[(٢)].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

وهكذا نجد أن البرتغال فى خلال القرن الخامس عشر الميلادى قد احتلت سواحل العدوه المغربية وتحكمت فى منطقة المضيق. ويبدو أن الملك ألفونسو الخامس أراد أن يتوج هذه الفتوحات التى حققت آماله، فاتخذ لقبًا جديدًا ورثه خلفاؤه من بعده وهو لقب (ملك البرتغال والغربيين المصاقبين للبحر).

كذلك أطلقت عليه المصادر البرتغالية لقبًا آخر يدل على أعماله التوسعية فى المغرب وهو (ألفونسو الإفريقى).

على أن المغاربة، رغم كل ذلك، ولا سيما الشيوخ المستقلين منهم فى شمال المغرب، لم يكفوا عن مهاجمة هذه الحاميات البرتغالية وشل حركتها حتى قيل إنها كانت تعيش فى حالة استعداد دائم للحرب ومن هؤلاء الزعماء المغاربة نذكر الشريف العلمى على بن راشد، الذى أسس مدينة شفشاون سنة ٨٧٦هـ (١٧٤١م) على ارتفاع ألف متر فى جبال الريف بالقرب من تطوان، لتكون قاعدة لعملياته العسكرية ضد الاحتلال البرتغالى. كذلك نذكر القائد المندرى قائد تطوان الذى كان شوكة فى جنب المواقع البرتغالية المجاورة فى سبتة وطنجة.

إذا انتقلنا إلى إسبانيا فى خلال القرن الخامس عشر الميلادى، فنجد أنها عرفت هى الأخرى نبضة حربية كبيرة، ووحدة سياسية شاملة، بدات طلائعها باحتلال جبل طارق سنة ١٤٦٢م فى عهد هنرى الرابع ملك قشتالة، ثم بعد ذلك بزواج الملكين الكاثوليكيين فرناندو ملك أراجون وإزابيل ملكة قشتالة سنة ١٤٦٩م. وبهذا الزواج اتحدت هاتان المملكتان اللتان كانتا فى منازعات وحروب مستمرة؛ لهذا أثارت هذه الوحدة فى إسبانيا موجه كبيرة من الفرح ما زال صداها يتردد فى الأغانى الشعبية. أى مهما ارتفعنا فسوف نجد فى الذروة دائمًا إزابيل وفرناندو. ولا شك أن هذا الاتحاد كان معناه فى الواقع انتهاء مملكة غرناطة العربية، لأن بقاء هذه المملكة الصغيرة كان راجعًا إلى حد كبير إلى العداء القائم بين هاتين الدولتين كما سبق أن أشرنا.

وبالفعل كان أول شىء اهتم به هذان الملكان الكاثوليكيان، هو تصفية مملكة غرناطة وإزالة الحكم العربى من إسانيا نهائيّاً. وقد اتبعا فى ذلك سياسة مزدوجة

تقوم على القوة العسكرية من جهة، وإثارة التفرقة والفتن الداخلية بين المسلمين من جهة أخرى.

ولما شعر سلطان غرناطة أبو الحسن على (٨٦٦-٨٩٠هـ = ١٤٦١ - ١٤٨٥م) بهذه النية المبيتة ضد مملكته، امتنع عن دفع الإتاوة التى كان يؤديها لملوك إسبانيا فى كل سنة وقال لرسول الملك فرناندو: (قل لمولاك إن سلاطين غرناطة الذين اعتادوا أداء الإتاوات قد ماتوا، وإن دار الضرب بغرناطة لا تطبع الآن ذهبًا أو فضة، وإنما سيوفًا ورماحًا). وقد أثارت هذه الإجابة غضب الملك فرناندو، فصاح قائلا: (غرناطة غرناطة، سوف أنتزع حباتك واحدة واحدة).

ويلاحظ أن المعنى هنا مجازى لأن كلمة غرناطة معناها بالإسبانية الرمانة، ولهذا فهو يقصد بانتزاع حباتها أى حصونها واحدًا بعد الآخر.

وبدأت الحرب باستيلاء الغرناطيين على حصن الصخرة فى الأراضى القشتالية سنة ١٤٨١م. ورد الإسبان باحتلال مدينة الحمة على مقربة من مدينة غرناطة نفسها سنة ١٤٨٢م. وحاول السلطان أبو الحسن استرداد هذا الموقع المهم ولكنه لم يقدر، واستمرت الحرب بين الجانبين عشر سنوات تخللتها ثورات وحروب داخلية بين المسلمين زادت من ضعف قوتهم. فتروى المصادر أن السلطان أبا الحسن كان متزوجًا بابنة عمه عائشة وله منها ولدان: أبو عبد الله محمد ويوسف. ثم اصطفى على زوجته امرأة إسبانية كان قد أسرها فى إحدى غزواته اسمها إزابيل دى سوليس، وكان أبوها ضابطًا فى الجيش الإسبانى يدعى سانشو خيمينت دى سوليس ثم اعتنقت إزابيل الإسلام واتخذت اسمًا عربيًا وهو ثريا. وقد أثار حب السلطان لها غيرة زوجته الأولى، فوقع نزاع بينهما، واضطرت الأميرة عائشة إلى مغادرة قصر الحمراء بولديها والإقامة فى حى البيازين ثم لم يلبث الولدان بعد ذلك أن فرا إلى مدينة وادى آتش وأعلنا الثورة على أبيهما، وقامت حرب ضروس بين الأب وولديه مات فيها ابنه يوسف ثم انضمت العاصمة غرناطة إلى ابنه الآخر أبى عبد الله محمد، وكانت عائلة بنى السراج هى عماد هذه الحركة، فاستدعت

الأمير محمد وأقامته سلطانًا بعد أن طردت أباه من العاصمة سنة ١٤٨٢م. ولجأ السلطان المخلوع أبو الحسن إلى مدينة بسطة حيث انضمت إليه عائلة الثغريين أعداء بنى السراج.

وحدث بعد ذلك أن وقع السلطان أبو عبد الله محمد أسيرًا فى يد الإسبان أثناء قيامه بغارة فى أراضيهم سنة (١٤٨٣م -٨٨٨هـ) وكان أسره ضربة شديدة لحكم المسلمين لدى ملك الكاثوليكيين؛ إذ استطاع أن يستذله ويرجع إليه ملكه وملك أبيه مرة بالتهديد ومرة بالوعود والأمانى حتى ذل عنقه، وأصبح آلة فى أيديهما، ثم أطلق سراحه، فعاد إلى غرناطة ليواصل حرب أبيه الذى استرد عرشه. وما لبث أبو الحسن أن مات هماً وكمداً بعد أن أصيب بالعمى والصرع، وخلفه فى الملك أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد الملقب بالزغل سنة ١٤٨٥م (٨٩٠هـ)[١].

ولقد استغل الإسبان فرصة انشغال المسلمين بالحرب التى قامت بين الزغل وابن أخيه أبى عبد الله، واستولوا على الأجزاء الغربية من مملكة غرناطة مثل رندة ولوشة ومالقة، فيما بين سنتى (١٤٨٥-١٤٨٧م) (٨٩٠-٨٩٢هـ).

ورأى المسلمون أن يعرضوا على الزغل وابن أخيه اقتسام ما بقى من بلاد خوفًا من تمادى العدو فى احتلالها. وتم الاتفاق على أن يستقر الزغل فى مدينة وادى آش وتتبعه الأجزاء الشرقية من غرناطة، بينما تكون العاصمة وأعمالها لابن أخيه أبى عبد الله.

غير أن الإسبان لم يكفوا عن بث دسائسهم، فأرسلوا إلى الزغل من يعرض عليه وعلى قواده مالاً كثيرًا فى مقابل تسليم الأجزاء الشرقية من غرناطة التى تحت سلطانه. وأثر ذلك الإرهاب والترغيب فى نفس الزغل لا سيما بعد أن تخلى عنه قواده، فآثر التسليم والرحيل إلى فاس. ولكن سلطان المغرب محمد الشيخ نقم عليه فسجنه وصادر أمواله وسمل عينيه.

---

(١) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. دكتور أحمد مختار العبادى ص ٤٦٦.

أما أبو عبد الله محمد، فإنه ظن فى بادئ الأمر أن الجو قد صفا له بذهاب عمه، ولكنه سرعان ما تكشفت له الحقيقة عندما طالبه الملك فرناندو بتسليم عاصمته غرناطة، عندئذٍ صمم على القتال حتى النهاية وأيده فى ذلك أهل غرناطة[1].

ولجأ الملك فرناندو إلى سياسة الحرب الاقتصادية ضد أهل غرناطة كى يجبرهم على التسليم أو يميتهم جوعًا. فحاصر المدينة سنة ١٤٩١م (٧٩٦هـ)، وأفسد مروجها؛ وبنى أمامها مدينة أطلق عليها اسم شنتفى أى الإيمان المقدس لتكون قاعدة لعملياته العسكرية ويقول السلاوى فى هذا الصدد: (وعلى الرغم من ذلك كله كان الطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرفق، والطعام يأتى من ناحية جبل شلير إلى أن تمكن فصل الشتاء، وكلب البرد، ونزل الثلج، فانسد باب المرافق، وانقطع الجانب، وقل الطعام، واشتد الغلاء، وعظم البلاء ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات، ثم اشتد الأمر فى شهر صفر سنة (٨٩٧هـ - ديسمبر ١٤٩١م)، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم كأبى عبد الله الموافق شارح (المختصر) وغيره، وقالوا: (انظروا لأنفسكم وتكلموا مع سلطانكم) فأحضر السلطان أبو عبد الله بن أبى الحسن أهل دولته وأرباب مشورته، وتكلموا فى هذا الأمر، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا، فانظروا لأنفسكم وأولادكم فاتفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد فى إسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس، ثم عددوا مطالب وشروطًا أداروها وزادوا أشياء على ما كان فى صلح وادى آش، منها: أن صاحب رومة (البابا) يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوه من حمراء غرناطة، ويحلف على عادة النصارى فى العهود. وتكلم الناس فى ذلك، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام فى ذلك، امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة

(١) كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر ص ٣٧.

فانـقادوا إليـها؛ واستـولى النصـارى عليهـا فى ربيع الأول سنة (٨٩٧هـ - يناير ١٤٩٢م)، ولا حول ولا قوة إلا بالله[١].

والجدير بالذكر أن غرنـاطة اتجهت إلى مصر تلتمس معونتـها أمام الخطر الواقع بها، ومثال ذلك السفارة التى أوفـدها سلطان غرناطة محمد بن يوسف الأيسر إلى سلطان مصر الظاهر سنة(١١٤٠م-٨٤٤هـ) كذلك تذكر سفارة الفقيه الأندلسى أبى على بن محمد بن الأزرق الذى حاول أن يستنهض عزائم السلطان الأشرف قايتباى (١٤٦٨-١٤٩٥م) لاسترجاع الأندلس[٢].

والواقع أن مصر لم يكن فى مقدورها القيـام بعمل عسكرى فى إسبانيا وعذرها فى ذلك واضح كما يقول أحد الكتاب المعاصـرين، لحيلولة البحر مع بعد المسافة، والاحتياج لكثرة المراكب من ناحية. ولم يكن لملوك مصر عناية بأمر الشحنة لأنهم أصحاب خيل، فقوتهم برية وليست بحرية من جهة أخرى، ولكن على الرغم من ذلك، فـإن بعض سـلاطين مـصـر حـاولوا إنقـاذ غـرناطـة عن طريق الضـغط الدبلومـاسى، ومثـال ذلك تلك السـفارة التى أرسلهـا السلطان قـايتبـاى فى سنة ١٤٨٩م إلى الملكين الكاثوليكيـين يهدد فـيهـا باضطهاد المسـيحين المـوجودين فى الشـرق إن لم يكفا عن مـهاجـمة غـرناطة. غيـر أن هذه المحاولة باءت بالفـشل وسقطت غـرناطة سنة(١٤٩٢م-٨٩٧هـ) ولم يفت الملكان الكاثوليكيـان أن يبعـثا بسفارة إلى سـلطان مصر قنصوة الغـورى سنة ١٥٠١م واستطاع السفيـر الإسبانى بدور مارتير أن يسترضى سلطان مصر ويزيل التوتر السياسى بين مصر وإسبانيا.

هذا والجدير بالذكر أن هذه الأحـداث المتعلقة بنهاية الحكم العربى فى إسـبانيا، قـد اقتـرفت بحركـة الاستكشـافات الجـغرافـية الكـبرى. فـفى نفس تلك السنة (١٤٩٢م) التى سقطت فيـها غرناطة، اكتشف كـرستوفر كولمبس أمـريكا بمساعدة ملكى إسبانيا، ولم تلبث البرتغال بـعد خمس سنوات أن اكتشفت طريق الهند من رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧م على يد فاسكودى جاما.

(١) السلاوى: الاستقصا ج٤ ص١٠٣، ١٠٤.

(٢) عبد العزيز الأهوانى: سفارة سياسية من غرناطية إلى القاهرة سنة ٨٤٤هـ.

وقد استعان كل من الرحالتين بالمغرب ليهتدى طريقه فى مجاهل المحيط الأطلنطي والمحيط الهندى. وفى نفس تلك السنة ١٤٩٧م تظاهر الأسطول الإسبانى بأنه يعد العدة فى جبل طارق لرحلة كرستوفر كولمبس الثانية إلى أمريكا، ثم أبحر سراً إلى القاعدة المغربية مليلة واستولى عليها فى سبتمبر سنة ١٤٩٧م تحت قيادة دوق مدينة سدونيا دون خوان دى جثمان.

وهكذا لم تعد أهمية مضيق جبل طارق قاصرة على البلاد المطلة عليه من الشمال أو الجنوب، بل صار ممراً حيوياً بين الشرق والغرب أو بين العالم القديم والعالم الجديد، وبهذا يدخل النزاع فى دور جديد[١].

٢- تطور الصراع حول المضيق والمناطق المجاورة:

أ- بداية الوجود العثمانى فى الجزائر:

حينما كان الإسبان يغزون الشواطئ الجزائرية فى مطلع القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى، كانت طلائع غزاة البحر العثمانيين، ممثلة فى الإخوة باربروس[٢] عروج وخير الدين وإسحاق، وآخرين، قد وصلوا إلى الحوض الغربى للمتوسط، وأخذت تجوبه بكل قوة ملحقين بالسفن والشواطئ المسيحية خسائر كبيرة، متخذة من الموانئ التونسية التى أذن لهم السلطان الحفصى أبو عبد الله محمد، باستعمالها مقابل دفع الخمس من الغنائم وشروط أخرى[٣]، وانطلقوا يحققون انتصارات متعددة فذاع صيتهم، وانتشرت أخبار بطولاتهم فى الغزو البحرى، فتوجهت إليهم أنظار المجاهدين الجزائريين، وفى مقدمتهم أبو العباس أحمد بن القاضى الزواوى الذى لما رأى قوة شوكة النصارى الكفار، وانتشارها فى المغرب، وضعف المسلمين وعدم القدرة عن مقاومتهم، كاتب الترك، الذين عرفهم بما يسمع عنهم من شدة البلاء فى المعارك، ونجدتهم فى الحروب والمضايق، وإرهابهم للكفرة فقصدهم أبو العباس بحسن نيته، أن يرفعوا من عزة الإسلام ما انخفض، ويقووا من أمره ما ضعف، وقال: «إن بلادنا بقيت لك ولأخيك أو

(١) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. دكتور أحمد مختار العبادى ص٤٧٠.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢، ص٩٠٨.

(٣) المصدر السابق نفسه.

للذئب»، فأقبل الترك نحوه مسرعين، وجعل هو يحث الناس على اتباعهم، والانخراط فى سلكهم، والسمع والطاعة لأميرهم عروج التركمانى، الذى هو الباى فيهم، فدخل الترك الجزائر وتلمسان.

من هذا النص نستخلص أن البدايات الأولى لتدخل العثمانيين فى الجزائر، كان استجابة لطلب الجزائريين، ونجدة لهم، ومشاركة فى الدفاع عن بلادهم، وتحرير ما وقع منها تحت الاحتلال الإسبانى. ولكن عروج وجماعته من الأتراك، وغيرهم قبل أن يدخلوا إلى الجزائر أو إلى تلمسان، قاموا فى سنة ٩١٨هـ - ١٥١٢م بمحاولة لتحرير بجاية، لم تكلل بالنجاح، وفيها فقد عروج ذراعه. ولما شفى من إصابته وجدد بناء قوته خلال سنة ٩١٩ هـ ١٥١٣م، هاجم فى السنة التالية (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) بجاية مرة أخرى، ولما باءت محاولته بالفشل، توجه إلى بلدة جيجل، التى استولى عليها الجنويون بقيادة أندرى دوريا فى سنة ٩١٩/ ١٥١٣م، لتحريرها بالتعاون مع أهاليها وسكان المنطقة المجاورة لها وأبى العباس بن القاضى المذكور. وقد تمكن عروج من القضاء على حصن الجنويين، وتحرير البلدة التى أصبحت منذ ئذ قاعدة له. ومنها وجه هدية ثمينة إلى السلطان العثمانى سليم الأول. وبذلك ابتدأت الصلة الرسمية مع العثمانين، والنفوذ العثمانى فى الجزائر.

ب- عروج وباربروسا يدعمان الوجود العثمانى فى الجزائر:

فقد شرع عروج وخير الدين ثم من تلاهما فى توسيع نفوذهم فى الجزائر انطلاقا من جيجل أول حاضرة لهم فى الجزائر، ثم من مدينة الجزائر ثانى المدن التى خضعت لهم. فعروج لم يلبث فى جيجل مدة طويلة حيث تلقى دعوة من أهالى مدينة الجزائر، وأميرهم سالم التومى فى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م لتخليصهم من الحامية الإسبانية، التى كانت تضايقهم، وتشل حركتهم، وتحول دون ممارستهم للغزو البحرى، فاستجاب لطلبهم، وهاجم الحصن الإسبانى، بعد أن استولى على بلدة شرشال المجاورة، ولكن مدفعيته لم تستطع التأثير على الحصن القوى على الرغم من قربه من المدينة، إذ لم يكن يبعد عن المدينة بأكثر من ١٠٠م، وأنه ظل يقصفه ثلاثة أسابيع.

ولكن العلاقة بينه وبين سالم التومى لم تلبث أن ساءت بعد فشل هذا الأخير فى القضاء على الحصن الإسبانى. وتمكن عروج من قتله بعد أن استمال إليه العديد من أعيان المدينة بالهدايا وأعلن نفسه حاكمًا على الجزائر، ثم تمكن من إحباط مؤامرة حاكها ضده بعض أهالى المدينة مع عرب المنطقة المجاورة (عرب متيجة، الموالين لسالم التومى) فأذعن سكانها. ولكن الإسبان لم يرتاحوا إلى الوضع الجديد فى المدينة، فجهزوا حملة ضخمة فى نفس السنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م للقضاء على خطر عروج قبل استفحاله، وإعادة الإمارة إلى ابن سالم التومى، كانت تتألف تلك الحملة من ٨٠٠٠ مقاتل نقلتهم ٨٠ سفينة، بقيادة دييجو دوفيرا، ولكن تلك الحملة باءت بالفشل أمام خطط عروج الهجومية، التى مكنته من القضاء على ٣٠٠٠ مقاتل ممن نزلوا إلى الأرض، وأسر ٤٠٠ منهم. وتضافرت العاصفة معه، فقضت على معظم قطع الأسطول بمن فيها غرقًا فى البحر[1].

وساعد هذا الانتصار الباهر الذى حققه عروج وجماعته، بالتعاون أيضًا مع سكان المدينة وعرب المنطقة المجاورة، على استقرار الأمر لحاكم الجزائر الجديد، وعلى مد نفوذه إلى مدن أخرى، ساحلية وداخلية، فى مقاطعة الجزائر وخارجها، كدلس، والمدية، ومليانة، وغيرها. ثم توجهت أنظاره إلى الغرب الجزائرى للقضاء على الحكام الزيانيين فيه، الموالين للإسبان، كسلطان تنس وسلطان تلمسان.

وقد تمكن من الانتصار على قوات سلطان تنس الكبيرة، فى المعركة التى جرت بين الطرفين على مقربة من نهر الشلف، فى صيف ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م وذلك بفضل السلاح النارى الذى كان بحوزة قواته، والذى لا مثيل له لدى قوات سلطان تنس، فاضطر هذا الأخير إلى الفرار إلى قاعدة ملكه. ولما وجد نفسه ملاحقًا فر منها إلى أقصى الجنوب الجزائرى، فدخلها عروج ثم تقدم إلى تلمسان، حيث كان السلطان أبو حمو الزيانى الثالث الموالى للإسبان قد اغتصب الملك من ابن أخيه أبى زيان وأودعه السجن، وذلك بعد أن تلقى دعوة من بعض أعيان تلمسان يرجونه فيها المسير إلى مدينتهم لتخليصهم من أبى حمو، وإعادة أبى زيان إلى الملك، وتمكن

(١) خير الدين بربروسا، بسام العسلى ص١٠٠- ١٠٢، وانظر أيضًا الدولة العثمانية للشناوى ص٩٠٨- ٩١٤.

عروج من تحقيق النصر على أبى حمو فى المعركة التى دارت بين الطرفين، ففر هذا الأخير إلى فاس ثم إلى وهران، ومن هذه الأخيرة توجه إلى بلاط ملك إسبانيا شارل الأول، لطلب عونه. ودخل عروج تلمسان فى رمضان ٩٢٣ هـ/ سبتمبر١٥١٧م، واستحوذ على الملك فيها، وقتل أبازيان بعد أن أعاد له الملك بضعة أيام وكذلك كل أفراد الأسرة المالكة إلا من فر منهم، والمتعاطفين معهم من التلمسانيين وذلك حسمًا لمؤامراتهم، ثم جد فى توطيد سلطته فى المدينة، وتحصينها. وكان قد أقام وهو فى طريقه إلى تلمسان-حامية فى قلعة بنى راشد، التى تتوسط الطريق بين تلمسان ومدينة الجزائر لتأمين خط الرجعة إلى هذه الأخيرة، ووصول الإمدادات إليه منها أو من الجزائر أسند قيادة تلك الحامية إلى أخيه إسحاق. وسعى إلى إقامة تحالف دفاعى وهجومى بينه وبين سلطان فاس محمد البرتغالى الوطاسى ضد النصارى، العدو المشترك، فرحب هذا الأخير بالعرض ووافق عليه. وبهذه الخطوات اطمأن عروج، وبقى فى مدينة تلمسان الداخلية[١].

جـ- التدخل الإسبانى فى تلمسان ونهاية عروج:

لم ينظر الإسبان بعين الارتياح إلى النجاحات التى حققها الإخوة باربروس والخطوات الكبيرة التى خطوها فى طريق توحيد أجزاء الجزائر تحت سلطتهم، لأن خطرهم المتزايد سوف لا يتوقف عند تهديد مراكزهم على ساحل المغرب الكبير فقط بل وعلى شواطئ إسبانيا نفسها؛ ولذلك فقد كان رد فعلهم التدخل السريع الى جانب السلطان المخلوع أبى حمو الثالث، فقطعوا أولاً خط الرجعة إلى الجزائر، بقضائهم على حامية قلعة بنى راشد بما فى ذلك إسحاق شقيق عروج وخير الدين، ثم حاصروا عروج فى تلمسان. وكان هذا الأخير يأمل فى وصول المدد إليه من حليفه السلطان الوطاسى، ولما طال انتظاره حاول الفرار فى اتجاه الغرب مع القليل من الأتراك الذين بقوا، واستطاع الإسبان بعد معركة عنيفة من القضاء عليه وعلى رفاقه فى مايو ١٥١٨م وفى بنى يزناسن. وأعاد الإسبان الملك فى تلمسان إلى أبى حمو الثالث الذى قبل أن يدفع ضريبة سنوية لهم مقدارها

(١) المرجعان السابقان. ونفس الصفحات.

١٢٠٠٠ دوكاتو، ١٢ من الخيل و٦ من إناث الصقور، كعلامة عن التبعية. وبمقتل عروج وأخيه إسحاق والقوات التى كانت معهما كما سنوضح بعد، تعرض الوجود العثمانى إلى هزة قوية كادت تقضى عليه، وتقلصت من جديد أرجاء الدولة التى أخذ عروج فى إنشائها بعودة أبى حمو إلى مملكة تلمسان وحميدة العبد إلى تنس.

لم يستكن عروج وأخذ يعد عدته، وما إن أتم استعدادته حتى اندفع بجرأة فى اتجاه (تلمسان) وهو يقود قواته عبر الهضاب الداخلية بهدف تجنب الاصطدام بالحاميات الإسبانية المنتشرة على محيط (وهران). وعندما وصل إلى (هوارة) قلعة (بنى راشد) اتخذ منها قاعدة لحماية خطوط مواصلاته، نظراً لما كان يتوافر لها من المميزات الدفاعية، ونظراً لموقعها المناسب حيث كانت تبعد مسافة (٢٥) كيلو متراً عن معسكره وتبعد عن (مستغانم) نحواً من (٥٥) كيلو متراً. ووضع فى القلعة حامية تضم ستمائة مقاتل. وكلفهم بتنفيذ عمليات صغرى لإزعاج الإسبانيين فى (وهران) وحرمانهم من حرية العمل أو التحرك. ثم مضى بالجيش الجزائرى حتى وصل (سهل أربال)، حيث كان (أبو حمو الثالث) قد أقام معسكره هناك ونظم قواته التى ضمت ثلاثة آلاف راجل -من المشاة- وستة آلاف فارس. غير أن هذه القوة على ضخامة حجمها لم تصمد لصدمة جيش الجزائر الذى يقوده (عروج) فتمزق بسرعة، ومضى (عروج) لمتابعة تقدمه بسرعة مذهلة حتى وصل (تلمسان)، التى استقبلت قوات الجزائر بالفرحة العارمة.

وخرج (أبو زيان الثالث المسعودى) وتولى سلطانه، غير أن الفتن ما لبثت أن عادت للظهور بين أطراف الزيانيين ذاتهم، وهم المؤيدون لأبى زيان وأولئك أنصار (أبى حمو) وبينهما أنصار الإسبانيين وعملائهم. وتعاظمت الفتنة إلى درجة حملت (أبا زيان) على إعلان تمرده على (عروج) الأمر الذى أرغم هذا على العودة إلى تلمسان وقتل سلطانها وجماعة من قرابته وأنصاره بالإضافة إلى قادة الفتنة وزعماء المشاغبين.

وفى تلك الفترة، كان (أبو حمو) قد جمع بعضاً من فلول قواته الممزقة، ومضى بها إلى مدينة (فاس) غير أنه لم يستقر بها طويلا، فمضى إلى مدينة

(١) خير الدين بربروسا. بسام العسلى ص١٠٢- ١٠٦.

(وهران) حيث وضع نفسه تحت حماية حاكمها العام الإسبانى، مستمداً منه العون والدعم حتى يستعيد ملكه وسلطانه. كان ملك إسبانيا الجديد (شارل الخامس- أو شارلكان) يتابع تطورات الموقف فى المغرب الإسلامى؛ فأرسل إلى الحاكم العام فى وهران يأمره باستخدام كل إمكاناته لانتزاع تلمسان من قبضة المسلمين الجزائريين وإعادة (أبو حمو- أو أبو قلمون كما كانوا يسمونه) إلى حكم إمارته (تلمسان) ودعمه بالعتاد وبقوة مقاتلة بلغ عدد أفرادها عشرة آلاف مقاتل.

خرج (أبو حمو) من وهران فى أواخر شهر كانون الثانى -يناير ١٥١٨م، ومعه جموع من الأعراب بالإضافة إلى فرقة من الجيش الإسبانى، وتمكنت هذه القوة من مباغتة قلعة (بنى راشد) بهجوم قوى لم تصمد له حامية القلعة، على الرغم مما أظهرته من المقاومة الضاربة، فاضطرت إلى الانسحاب بعد أن تم الاتفاق مع (أبى حمو) على السماح لبقية القوات بالخروج سالمة للتوجه نحو تلمسان.

تابع (أبو حمو) تقدمه نحو تلمسان، وفى هذا الوقت تم إنزال قوة إسبانية أخرى زج بها حاكم وهران، وأنزلها فى بلدة (رشقون) الساحلية لدعم الهجوم البرى. وسارت هذه القوة بسرعة نحو تلمسان على الطريق الساحلى حيث التقت مع قوات (أبى حمو) على أبواب تلمسان، وضرب حصار قوى ومحكم على المدينة.

تولى الدفاع عن تلمسان (القائد عروج) ومعه حاميته الجزائرية - التركية ووقعت معارك قاسية فى ظروف غير متكافئة، وعلى الرغم من التفوق الساحق للإسبانيين وعميلهم (أبى حمو) فقد نجح عروج وحاميته فى قيادة وخوض حرب دفاعية بائسة استمرت لمدة ستة أشهر كاملة؛ نجح الإسبانيون بعدها فى تدمير أسوار المدينة بالقصف المدفعى المستمر، وأمكن لهم بالتالى اقتحام المدينة، ولم تستسلم الحامية فانتقلت لخوض الصراع فى الأسواق والمنازل وانسحب بعدها عروج وبقية قواته إلى (قلعة المشور)، وأعادوا تحصينها وتنظيم الدفاع عنها والتمركز فيها بانتظار وصول دعم من قبل ملك فاس الوطاسى المرينى الذى كان قد اتفق مع عروج على دعمه. وقد أرسل الملك المرينى جيشًا لدعم عروج ومساعدته على تطوير الدفاع

عن تلمسان ضد الإسبانيين وأنصارهم. لكن ذلك الجيش اتبع طريق (مليلة) فى تحركه، وهو طريق طويل، فلم يتمكن من الوصول إلى ميدان المعركة فى الوقت المناسب، واضطر إلى العودة بدون أن يشترك فعلياً بالقتال[1].

وشددت القوات الإسبانية قبضة الحصار على (قلعة المشور) وتكبدت الحامية خسائر فادحة حتى لم يبق مع (عروج) أكثر من خمسمائة تركى. غير أن إرادة القتال لم تضعف لدى هؤلاء المجاهدين الذين صمموا على متابعة المعركة حتى نهايتها. وجاءت هذه النهاية سريعًا، فقد تقدمت جماعة من المسلمين إلى (عروج) فى صبيحة يوم عيد الفطر تستأذنه فى السماح لها بممارسة عادتها فى إقامة صلاة العيد بمسجد (المشور) ووافق (عروج) على ذلك، وما إن دخلت هذه الجماعة إلى الحصن، حتى انتضت سيوفها وأخرجت أسلحتها التى كانت تخفيها فى طيات الثياب. وانفضت على الحامية التركية التى بوغتت بهذه الهجمة. فسقط عدد من أفراد الحامية، وتمكن البقية من استعادة سيطرتهم على أنفسهم بسرعة، فأعادوا تنظيم دفاعهم، وانقضوا على هؤلاء الغادرين، ونجحوا فى القذف بهم إلى خارج الأسوار، وأعادوا تنظيم أمورهم، غير أن الخسائر الفادحة التى تكبدتها الحامية أقنعت عروج بضرورة الخروج من هذا المأزق. فقرر شق طريقه عبر القوات القائمة على الحصار، والوصول إلى الساحل حيث تتوافر له فرصة أفضل لجمع الأنصار وتنظيمهم.

ونظم (عروج) قوته وانطلق بها من (قلعة المشور) حيث اتجه نحو الغرب عبر الممرات الضيقة المؤدية إلى الساحل، وعندما وصل إلى (جبال بنى سناسن) أحاطت به قوة إسبانية تضم خمسين فارسًا بقيادة (غارسيادى لابلازا) ودارت مذبحة ضارية فى ظروف غير متكافئة ودافع (عروج) عن نفسه بثبات وعناد لا يمكن وصفهما مستخدمًا فى ذلك يده الوحيدة - حتى لم يبقَ معه أكثر من عشرة رجال سلكوا مسلكه، وأظهروا مثل ثباته وعناده بعد أن تحصنوا بجدران (زاوية سيدى مرسى). وعندما أبيد هؤلاء الرجال العشرة، وقف (عروج) وجهًا لوجه أمام خصمه (غارسيا) واستمرت المبارزة بينهما حتى سقط الاثنان بضربتين قاتلتين متبادلتين.

(١) المرجع السابق. ونفس الصفحات.

استشهد (عروج) كأفضل ما يكون عليه الاستشهاد، ومضى إلى حيث سبقه أخواه من قبله، وأدى واجبه فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين حتى آخر نقطة من دمه غير أن حجم الكارثة كان أكبر من كل تصور، فمضى الإسبان فى فرحتهم، وخيم الحزن والأسى على مدينة الجزائر. وكانت الصدمة قوية بصورة خاصة بالنسبة إلى خير الدين الذى عرف حياة الجهاد من خلال أخيه، غير أن شعور أهل الجزائر بالصدمة لم يكن أقل من شعور خير الدين، ذلك أنهم وضعوا آمال مستقبلهم على عاتق (عروج) كما شعروا معه بحلاوة النصر على أعداء الدين. وعرفوا قبل ذلك وبعده أهمية الدور الذى يمكن للمغرب الأوسط (الجزائر) الاضطلاع به فى قيادة الجهاد فى سبيل الله.

د- خير الدين على طريق الجهاد:

ترددت أصداء كارثة (تلمسان) بقوة فى ضمائر أبناء الجزائر الأحرار واجتمع المسئولون فيها من الشيوخ والزعماء - أهل الحل والعقد - لمناقشة الموقف بعد استشهاد (عروج) وقرروا أن يسندوا إلى (خير الدين) واجب (إمارة الجهاد) بعد أخيه، وألحوا عليه فى ذلك، لكنه اعتذر عن قبول الإمارة، وأعرض عنها، وأبلغ المسئولين فى الجزائر أنه يعتزم السفر إلى عاصمة الخلافة (إستانبول) على أمل الحصول على أسطول جديد يساعده على متابعة الجهاد فى سبيل الله فى البحر وأجابه علماء الجزائر: بأن الله يوجب عليه الجهاد فى هذه المدينة -الجزائر- لحماية المسلمين، وأن الدين لا يسمح له بتركها نهبًا للمفترسين فأجابهم عندئذٍ بقوله[1]:

(لقد بقيت منفردًا دون أخوتى - الذين استشهدوا جميعًا فوق أرض الجزائر- وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بنى زيان، واستعانته علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره. وصاحب تونس الحفصى الذى لايرى ضرورة نصرتنا وإعانتنا والذى أسلمنا للعدو بمنع البارود عنا - أثناء حملة بجاية - لولا لطف الله. فالرأى هو أن نصل أيدينا بالقوة الإسلامية - وهو السلطان سليم خان - ونعتمد عليه فى

(١) خير الدين. مرجع سابق ص١٠٧، ١٠٨..

حماية هذه المدينة، ولا يكون ذلك إلا بـبيعته والدخول فى طاعـته والدعاء له فى الخطب على المنابر، وضـرب السكة - النقـود - باسمـه، لتتفـيأ ظل حـمايتـه. فاستكانوا لذلك ورضوا به، وأعلنوا بالدعاء له على المنـابر. وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية، وبعثوا له من السكة باسمه فى الجزائر.

قرر الجزائريون بذلك أن تـكون دولتهم الفتية جـزءًا من الإمبراطورية العثـمانية الضخـمة، ووافق خيـر الدين على البقاء مـؤقتًا رئيسًـا لهذه الدولة، حتى يتـخذ السلطان العثمانى قراره فيمـا عرضه عليه أهل الجزائر. ويمدهم بما طلبوه من دعم عن طريق الوفد الجزائرى الذى ارتحل إلى القاهرة، حيث كان السلطان سليم مقيمًا لتنظيم البلاد. وقابل الوفد الذى كان يرأسه الحاج حسين السلطان سليم. وأجابهم على تسائلهم، وأعلمـوا بموافقتـه على أن يشمل دولة الجزائر برعـايته. وأن تكون مشتركة مع الدولة العثمانية فى الجهاد ضد المسيحية. وأضفى على خير الدين لقب (باى لرباى) أى (باى البايات) باعتباره الرئيس الأعلى لكل البايات الذين يتولون، أو سوف يتولون الحكم فى البلاد وأن تسك النقود باسمها، وذلك دلالة الاستقلال ضمن الإمبراطورية العثمانية[١].

عمل السلطان سليم بعـد ذلك مباشرة على إرسـال دعم إلى الجزائر يتكون من قوة بحرية محـملة بأربعة آلاف مقاتل من المتطوعين الأتراك وكميـات ضخمة من الأسلحة والذخائر والتجهيزات الحربية. ووصلت هذه الإمدادات إلى مدينة الجزائر حيث تم إنـزالها على سـاحل (باب الواد). وبدأت القوات الجـزائرية استـعدادها لمجابهة الأعمال العدوانية المتوقعة.

كـان حكم إسـبانيـا قـد انتـهى (منذ سنة ١٥١٦م) إلى الملك شـارل الخـامس (شارلكان) الذى وضع هدفه الأول بالقضاء على الدولة الجـزائرية الفتية، وإزالة ما تمثله من تهديد، وتـوطيد الحكم الإسبـانى فى المغرب العربى - الإسـلامى. وقد توافرت المعلومات عن قـرب احتمال إرسال قـوة إسبانية جـديدة للجزائر، فزادت أهلها حماسة للقتال واستعدادًا للحرب.

(١) المرجع السابق. ونفس الصفحات.

وانصرف (خير الدين) لتنظيم أمور الدولة الجديدة فى المغرب الأوسط (الجزائر) وحشد القدرات والإمكانيات كلها من أجل تأمين متطلبات الحرب التى باتت وشيكة بعد أن استثارت عملية انضمام الجزائر للإمبراطورية العثمانية حماسة أوربا كلها وحماسة إسبانيا المتعصبة منها بصورة خاصة لتطوير الحرب الصليبية.

اغتنم شارلكان فرصة استشهاد (عروج) وما أحدثه ذلك من هزة عميقة فى النفوس - بعد انتصار الإسبانيين فى (تلمسان) فاتفق مع (أبى حمو - ملك تلمسان) على أن يشترك الطرفان فى توجيه الضربة الحاسمة للجزائر، وذلك بأن تقوم القوات الإسبانية بإنزال بحرى فى الوقت الذى تتقدم فيه قوات ملك تلمسان براً. وضمت الحملة الإسبانية فى هذه المرة قوة ضخمة تتكون من أربعين سفينة تحمل على متنها خمسة آلاف من المقاتلين الإسبانيين والأوربيين، ووضعت الحملة تحت قيادة (هوغو دى منكاد) يعاونه فى قيادة الحملة (غونزالفو-مارينو-دى ريبيرا). وأبحر الأسطول من جزيرة صقلية فى أواخر تموز- سنة ١٥١٩م، وتوجه إلى (المرسى الكبير) وأخذ منها جنداً وعتاداً. ثم سار فى اتجاه بجاية، حيث انضمت إليه قوة ضخمة حملت معها المزيد من الأسلحة والاعتاد وفى النهاية وصلت الحملة إلى مياه الجزائر يوم ١٧ آب -أغسطس - وبدأت عملية الإنزال على امتداد الساحل الواقع إلى اليسار من وادى الحراش.

وقد وضع (خير الدين) مخططه للمعركة على أساس التجربة السابقة التى حالفها النجاح، فقرر إفساح الفرصة أمام القوات الإسبانية لإنزال قواتها وتجهيزاتها إلى أرض الشاطئ ثم العمل على استنزاف قدرتها القتالية وروحها المعنوية بمجموعة من العمليات الخاصة (الإغارات والكمائن)، والانقضاض بعد ذلك على القوات الإسبانية فى معركة حاسمة فى الوقت المناسب والمكان المناسب.

وهكذا تمكن الإسبانيون من إنزال أسلحتهم ووسائطهم وقواتهم دونما عناء كبير، وأقاموا قاعدتهم خلف (وادى الحراش) وبدأت الاشتباكات بين الطرفين المتصارعين، ثم ما لبث الجيش الإسبانى أن بدأ التحرك بكتلته الرئيسية فى اتجاه

المرتفعات المحيطة بمدينة الجزائر حتى وصل إلى (كدية الصابون) المشرفة على المدينة - من ورائها - وأخذت القوات الإسبانية على الفور ببناء قلعة حصينة فوق تلك الكدية أطلقوا عليها اسم (قلعة الإمبراطور) - وهي التي هدمت ورممت مرارًا وكان لها شأن عظيم في تاريخ الجزائر -ولا تزال موجودة حتى اليوم - وجهزوها بالمدافع الثقيلة، ووضعوا الجزائر فعلاً تحت تهديد مدافعهم.

وكانت القوات الإسبانية وهي تشيد معقلها تنتظر قدوم جيش تلمسان الذي كان من المفروض أن يتولى قيادته (الملك عبد الله الثاني). وانتظرت القوات الإسبانية طوال ستة أيام بدون أن يظهر ما يشير إلى احتمال تقدم هذا الجيش، وتمت عملية بناء المعقل، فيما كانت الاشتباكات المستمرة تستنزف قدرة القوات الإسبانية وتضعف من روحهم المعنوية، وإزاء ذلك قرر القائد الإسباني القيام بهجوم عام على مدينة الجزائر.

وقرر (خير الدين) تكوين قوة من خمسمائة مجاهد واجبها الإغارة على المعسكر الإسباني (المجاور لوادي الحراش) والذي لم يترك الأسبانيون لحراسته الا قوات قليلة. ومن ثم الإغارة على السفن وتدمير ما يمكن تدميره منها. وتوجهت هذه القوة - المنتقاة من خير المجاهدين - فأبادت حرس المعسكر وأشعلت النار في القوارب التي تصل الأسطول بالبر، وأخذت هذه القوة بتهديد السفن الواقفة في عرض البحر[١].

كان القائد الإسباني يتابع من موقعه في (كدية الصابون) تطور هذه العملية التي هددت خط المواصلات البحري للقوات الإسبانية. ونجحت العملية الخداعية التي خطط لها خير الدين، إذ توجهت قوة كبيرة من الإسبانيين نحو البحر في محاولة لإنقاذ القوارب والسفن. وانقسمت القوة الإسبانية بذلك إلى قسمين. ففتح المجاهدون أبواب الجزائر بصورة مباغتة، وانطلقت حشودهم كالسيل الجارف وهم يدمرون القوات الإسبانية ويجتاحونها من كل اتجاه. وهيمن الاضطراب على القوات المعادية، وفقدت قيادتها السيطرة وباتت معزولة وعاجزة عن إدارة المعركة.

---

(١) خير الدين بربروسا ص١١١.

فيما كان المجاهدون يدمرون بسيوفهم ونيران بنادقهم كل من يصادفهم، وأصبحت القوات الإسبانية ممزقة على شكل جزر مقاومة فى وسط محيط المجاهدين الواسع، بحيث لم تتمكن إلا فلول ممزقة من الوصول إلى القوارب والسفن.

واستمرت المعركة بكل قسوتها طوال يوم ٢٠ آب (أغسطس) سنة (١٥١٩م ٩٢٥هـ وأمكن لبقية القوات الإسبانية - وفلولها الممزقة ركوب البحر والوصول إلى السفن. وهنا جاءت الطبيعة من جديد لتتدخل فى مصلحة المجاهدين الجزائريين. إذ هبت عاصفة عاتية يوم ٢١ (آب) أغسطس ووصلت ذروتها فى اليوم التالى عندما تحولت إلى أعصار مدمر أرغم (٢٤) سفينة إسبانية من سفن الأسطول على اللجوء إلى الجزائر حيث وقعت هذه السفن غنيمة فى أيدى المجاهدين - بكل من فيها وما فيها من مقاتلين وأعتدة. وانتهت هذه المعركة يوم ٢٤ آب - أغسطس - بانتصار المسلمين انتصاراً كاملا.

وأغرقت مياه البحر أربعة آلاف من المقاتلين الإسبانيين، ووقع فى قبضة الأسر ثلاثة آلاف مقاتل، وقد حاول هؤلاء تنظيم صفوفهم والانقضاض على المسلمين فتمت إبادتهم إبادة كاملة وبذلك دمرت الحملة التى أرسلها شارلكان تدميراً كاملا. وخابت آمال الإسبانيين والأوربيين بهذه الحملة الصليبية.

خلال ذلك حدثت تحولات على مسرح المغرب العربى الإسلامى، فقد كان الملك الزيانى (أبو حمو الثالث) قد توفى فى سنة ٩٦٤هـ= ١٥١٨م أى فى ذات السنة التى استشهد فيها عروج وخلفه على حكم مملكة تلمسان أخوه (عبد الله الثانى) الذى اتبع سياسة جديدة قائمة على الحياد تجاه الصراع الجزائرى - الإسبانى، والاعتماد على خير الدين - لا على الإسبانيين - إذا كان لا بد من الاعتماد على أحد الطرفين. ولم تكن هذه السياسة إلا استجابة لتطلعات المواطنين فى تلمسان الذين كانوا يرفضون نصرة أعداء الدين ضد أبناء دينهم وإخوانهم من الجزائريين والأتراك العثمانيين. وانتهج (مسعود) شقيق (عبد الله الثانى) هذه السياسة ذاتها عندما طرد أخاه من تلمسان. وكان ذلك هو سبب إحجام ملك

تلمسان عن إرسال جيشه لدعم الإسبانيين عندما قاموا بتنفيذ حملتهم ضد الجزائر. غير أن انتصار خير الدين وقوات المسلمين ذلك الانتصار الحاسم، أثار قلق سلطان بنى حفص بتونس، خوفًا من القوة المتعاظمة فى المغرب الأوسط (الجزائر) وندم على ما فاته من نصرة الإسبانيين، فكتب إلى (صاحب تلمسان) يحذره من القوة المتعاظمة لخير الدين وبذلك عاد (محمد بن الحسن الحفصى) للتآمر ضد المسلمين خوفًا على نفوذه ومملكته فى تونس من أن تطالها قوة المسلمين المتحالفين فى الجزائر مع الإمبراطورية العثمانية[1].

وأعاد (خير الدين) تنظيم مملكة الجزائر، فقسمها إلى قسمين قسم شرقى يمتد من شرقى العاصمة الجزائرية حتى حدود المملكة الحفصية بتونس وتشمل بلاد القبائل الجبلية، ووضع على رأس هذا القسم أخوه فى الجهاد وصديقه (أحمد بن القاضى الغبرينى - سلطان كوكو ببلاد زواوة، حيث كانت بلدة كوكو تقع على بعد ١٨ كيلو مترًا فى الجنوب الشرقى من مدينة أربعاء بنى براثن). أما القسم الغربى، فكان يمتد من الجزائر إلى حدود دولة بنى زيان - غير المحددة بدقة - ووضع لإدارته (محمد بن على).

وظن (خير الدين) أن باستطاعته الاعتماد فى إدارة القسمين على الزعيمين المحليين لحكم البلاد. وترك لمدينة الجزائر السلطة العليا، ومباشرة أمور الحرب والسياسة. غير أن هذا التنظيم أثار نقمة (عبد العزيز) ملك قلعة بنى عباس، والعدو اللدود (لأحمد بن القاضى)، إذ إن هذا التنظيم وضع عدوه أميرًا عليه وحاكمًا فى جهته، فحمل لواء العصيان، وأعلن تبعيته للملك الحفصى بتونس. غير أن التهديد الخطير لم يظهر من (عبد العزيز - ملك قلعة بنى عباس) بقدر ما ظهر من أحمد بن القاضى الغبرينى ذاته) والذى ما إن شعر بقوته حتى انقاد لتيار المؤامرات. فأعلن تمرده على (خير الدين) وانضم إلى الحفصيين ملوك تونس معتمدًا على ما يقدمونه له من الدعم والتأييد.

وأسرع (خير الدين) فقاد قواته لقتال (ابن القاضى) وخاض ضده معارك ضارية فى جبال زواوة المنيعة الشامخة، واضطر (خير الدين) للتراجع حتى (عنابة) ثم

(١) المرجع السابق ص١١٢، ١١٣.

تلقى (ابن القاضى) دعمًا من السلطان الحفصى بتونس، فطور أعماله القتالية، وأثار سكان الجبال ضد (خير الدين) وتدهور الموقف إلى درجة خطيرة بحيث وجد (خير الدين) نفسه مرغمًا على الخروج بنفسه لقتال صديقه القديم. ولم يكن يمتلك من القوى ما يساعده على مجابهة قوات الحفصيين المتحالفة مع ابن القاضى وهكذا فعندما وقعت المعركة فى (فليسة أم الليل) وقف (خير الدين) وليس معه إلا الجنود الأتراك الذين أبيدوا إبادة تامة، ولم ينجُ (خير الدين) وبعض رجاله إلا بصعوبة كبيرة، فانسحب بهم إلى قاعدته القديمة (جيجل) ليجد فيها ملاذه الوحيد. وأرسل إلى الجزائر فطلب أسطوله وأسلحته وكنوزه. فى حين تابع (ابن القاضى) تقدمه فى سهل متيجة (متوجة). وأعمل فى القرى تدميراً ونهبًا. حتى وصل الجزائر فجعلها قاعدة له. واستمر فى حكم الجزائر مدة ستة اعوام (١٥٢١ - ١٥٢٧م).

وخلال هذه الفترة، كادت تتفتت تلك الرابطة التى أحكم (خير الدين) صنعها وشكل منها دولة الجزائر. غير أن حكم (ابن القاضى) تميز بالرعونة والقسوة، مما أثار الفوضى والاضطراب فى كل مكان، وكان فى ذلك مصرعه.

انصرف (خير الدين) لإعادة تنظيم أموره فى قاعدته (جيجل) متنقلاً ما بينها وبين (جزيرة جربة)، وقد أمكن له بما عرف عنه من كفاءة قيادية عالية، وهمة لا تعرف الفتور أو ينال منها التعب- أن يشكل قوة جديدة، وأن يتابع نشاطه البحرى بصورة ناجحة، وتعاظمت قدرة جيشه الجديدة. وهنا حدث تحول جديد إذ وجد عدوه القديم (عبد العزيز ملك قلعة بنى عباس) أن من مصلحته التحالف مع (خير الدين) ضد العدو المشترك (ابن القاضى) والذى كان فى الأصل هو سبب العداء فيما بينهما. فبرز إلى الميدان من جديد، واسترجع مدينة (القل) وانضمت إليه مدينة (قسطنطينة) وجاءته جموع الشعب المجاهد مؤيدة ومناصرة، فسار بها نحو الجزائر.

وقاد (الشيخ أحمد بن القاضى) قواته بسرعة، فغادر الجزائر لملاقاة خصمه بين مرتفعات جبال القبائل. والتقت القوتان المتصارعتان عند (ثنية بنى عائشة) فدارت الدائرة على (ابن القاضى) وتمزقت قواته حتى لم يبقَ معه إلا قلة من أنصاره الذين

أدركوا ما خسروه من خلال التمزق الذى صنعه قائدهم (ابن القاضى) فقرروا التخلص منه. وجاءت فئة منهم إلى خيمته عند غروب الشمس فقتلوه، وانتهت فى سنة (١٥٢٧م) تلك الفتنة التى أضعفت الجزائر إلى حد كبير.

لم يكن (خير الدين) بعيدا عن مسرح الأحداث، فأسرع بقيادة قواته، متوجها بها إلى الجزائر، حيث استقبلته جماهير الشعب المسلم استقبال الفاتحين. بعد أن عملت بإرادتها على تدمير (أعداء الداخل). وأقيمت الاحتفالات الضخمة بمناسبة هذا النصر. ولم يستمر الصراع طويلا بين الجانبين، إذ عملت القبائل على إعادة توحيد إرادتها من جديد. وجاء (الحسين بن القاضى - شقيق الشيخ أحمد) والذى تولى الإمارة بعد مقتل أخيه، فوضع نفسه تحت تصرف (خير الدين). واستسلم فى سنة (١٥٢٩م) استسلامًا غير مهين تقبله (خير الدين) بالتقدير والاحترام.

وانصرف (خير الدين) لتضميد الجراح التى خلفتها الفتنة الهوجاء، وعمل على إعادة تنظيم الدولة، وأعاد تشكيل الجيش وتسليحه بطريقة أفضل مما كان عليه فى السابق، وحشد أسطوله الضخم فى الجزائر بعد أن ضم إليه ما كان قد غنمه فى جهاده البحرى خلال الفترة السابقة، وما لبثت الجزائر طويلا حتى استردت قوتها، وظهرت من جديد وهى تمتلك كل القدرات الضرورية لمتابعة الجهاد فى سبيل الله، حيث توافرت لها إرادة جماهيرية -شعبية- صلبة، وجيش قوى منظم فى البر والبحر، وإدارة قيادية تعرف هدفها وتضطلع بواجبها على أفضل صورة ممكنة[١].

- خير الدين أميراً عاماً للأسطول العثمانى:

كان لا بد للأمير (خير الدين) من التوجه إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية فخلف نائبه (محمد حسن أغا) على ولاية الجزائر. وسار تواً نحو (إستانبول) على رأس جزء من الأسطول يتكون من عشرين سفينة وهناك فى دار الخلافة والسلطنة، استقبل السلطان سليمان القانونى أمير بحره (خير الدين) استقبالاً يليق بأفضل المجاهدين وأكبر قادة المسلمين[٢].

ولم يغادر (خير الدين) عاصمة الإمبراطورية، إلا وقد تولى لأول مرة قيادة

(١) المرجع السابق ص ١١٤، ١١٥.
(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ص٩١٥.

أسطول ضخم يتكون من ثمانين سفينة، علاوة على سفن الأسطول الجزائرى وبات بإمكان (خير الدين) مجابهة التحديات المتعاظمة للأسطول الصليبى - الإسبانى.

ومن جهة أخرى أخذت الأمور فى التدهور بسبب سوء إدارة الحفصيين (بتونس). وكان الملك قد انتهى فيها إلى (السلطان محمد) الذى خلف أباه (محمد ابن الحسن) على العرش الحفصى، والذى وصفته المصادر التاريخية بما يلى: (كان محمد بن الحسن مشتغلا باللهو والخمر، مهملا لأمور الملك، وترك خمسة وأربعين ذكرًا. خلفه منهم الحسن، فقتل إخوته، ولم ينج منهم إلا (الرشيد وعبد المؤمن) لغيبتهما، واشتغل - مثل أبيه - بالخمور والفجور، وجمع حوله أكثر من أربعمائة غلام أمرد فمالت عنه الأمة إلى الرشيد. ولجأ الرشيد إلى خير الدين صاحب الجزائر، واستعان به على حرب أخيه. وما كاد السلطان يطلع على حقيقة الحالة (بتونس) ويدرك أن هذه المدينة التى انحصر فيها ملك بنى حفص، هى نقطة الضعف فى التنظيم الإسلامى الجديد، وأن العدو يوشك أن ينقض عليها ليستخدمها مع طرابلس، لضرب هذا الجهاز ومحاولة تقويضه، حتى أمر خير الدين بالسير توآ نحو تونس، وإبعاد هذه الأدران عنها. وصل الأسطول العثمانى الذى تولى قيادته خير الدين إلى عنابة فى شهر آب - أغسطس - (١٥٣٣م) وأخذ منها دعما جاءه به نائبه (حسن أغا) ثم تقدم نحو (بنزرت) برآ، ونحو (حلق الوادى) بحرًا، فتمكن منهما بدون عناء، ووقف على أسوار مدينة (تونس) ففتحت له أبوابها، واستقبله أهلها استقبالا رائعًا عبر فيه الأهالى عن تطلعاتهم وآمالهم.

وجمع (خير الدين) حوله الأعراب الذين انساقوا فى تيار الفوضى وإثارة الفتن ووحدهم فى تيار الجهاد. كما كتب إلى الأعراب وحذرهم سوء عاقبة الفتنة فى الإسلام. وأجابوه إلى ذلك، غير أنهم اشترطوا عليه الإبقاء فى أيديهم على ما أعطاه لهم بنو حفص من الاقطاعات فالتزم لهم بذلك، واشترط عليهم، أن يكون مشتاهم بالصحراء. وأن يكفوا اليد العادية ثم بعث إلى نائبه بالجزائر فى إرسال عسكر وأربعمائة فارس، ولما وصلوا وزعهم بالجهات، لما رأى من حال أمر المملكة.

أثناء ذلك، كـان سلطان تونس السـابق (الحسن بن محـمـد) قد وجـد طريق النجاة، فهـرب متنقلا من بلد إلى آخر حـتى انتهى به المطاف إلى إسبـانيا، وقابل الإمبـراطور شـارلكان، واستـشاره لحـرب قومـه، ولم تكن هناك حاجـة لمثل هذه الاسـتشـارة، إذ كان (شـارلكان) قد أعـد عدته لـقيـادة حملة قـوية ضد المغـرب الإسـلامى، غيـر أنه وجد فـى شخص (الحـسن بن محـمـد) أداة جيـدة يمكن استخدامها لتنفيذ مخططه.

قاد (شـارلكان) قواته، وأبحـر من مدينة برشلونة يوم ٣١ أيار - مـايو - سنة ١٥٣٥م. وقد تولى قـيادة حـملة صليبـية حقـيقـية تضم (٣٠) ألفًا من المقـاتلين الأشداء حـملتـهم (٥٠٠) سفـينة شراعـية. ووصل هذا الأسطول إلى مـواجهـة (قرطاجنة) وسواحل مدينة (تونس) فى يوم ١٦ حزيران (يونيو).

ولم تكن القوة التى يقودها (خير الدين) كافية لإيقاف هذه الحملة الضخمة، إذ لم يكن الجيش الإسلامى يضم أكثر من سـبعة آلاف من الأتراك وخمسة آلاف من التونسـيين، وتخلف الأعراب عن الجـهاد، فكانت النتيـجة الحتـمية هى استـيلاء (شارلكان) على معـقل (حلق الوادى) وهو مرسى مدينة تونس. واستعـد لمهاجمة العاصمة الحـفصية، يتقدم صفـوفه بصفة رمزية (الحسن بن محـمد) الذى كان قد أبرم مع صاحبه (شارلكان) معاهدة رهيبة خان فيها قومه ودينه.

وتقدم الجيش الإسبانى نحـو مدينة تونس. وفى نفس تلك الساعة، وقع بتونس الحدث الذى عجل بالانهيار، والذى كـان السبب المباشر للكارثة العظمى، ذلك هو انتفاض عشرة آلاف أسيـر نصرانى كانوا محبوسين فى العاصمة الحـفصية. فعندما خلت المدينة من الجـيش الذى تقدم لقتـال العدو، وجـد هؤلاء الأسرى فرصـتهم السانحة، فخرجوا من معتقلهم، ونظموا صفوفهم. ثم هاجموا معقل القصبة الذى لم يكن به من الحرس إلا القليل. فـتمكنوا منه، ووجهـوا مدافعه فى اتجـاه جيش المسلمـين، الذى وقع بين نارين، وأوصدوا أبواب المديـنة وأقامـوا عليه الحـراسة، ليمنعوا خير الدين وجيشه من الرجوع إليـها والتحصن لمقاومة شارلكان ريثما تصل

قوات الدعم. وشعر (خير الدين) بالخطر من قبل أن يغادر مدينة تونس، وكان قد اتخذ قراره بإبادة هؤلاء الأسرى غير أن سرعة تقدم (شارلكان) أعاقته عن تنفيذ ما قرره. وهكذا أخرج خير الدين للقاء الحملة الصليبية فاستولى على (برج العيون) ثم رجع بمن معه إلى المدينة، فاضطرب عليه أهلها، بعضهم تمسك بطاعته، وبعضهم انحرف عنه وانضم إلى السلطان أبى حفص، فجمع أعيان الناس، وتحدث إليهم، فاختلفوا عليه، فتركهم وخرج بمن معه إلى الحرب. وأبلى خير الدين فى ذلك اليوم البلاء الحسن، غير أنه لم يتمكن من الصمود طويلا واضطر إلى الانسحاب إلى (القصبة).

ودخل السلطان الحفصى - الحسن - إلى تونس فى مقدمة الجيش الصليبى. ولقيهم الأعراب بالمقاومة، فقاتلهم قائد الجيش الصليبى - الصبنيول - ودخل السلطان القصبة، ووعد أهلها بالأمان، وهو لا يملك حق إعطاء الأمان بعد أن تعهد للصبنيول بالموافقة على شرطه وهو استباحة البلاد لمدة ثلاثة أيام. وما إن أمن الناس، وخرجوا من معاقلهم، وتخلوا عن أسلحتهم وانصرفوا إلى أعمالهم ومتاجرهم، حتى باغتتهم القوات الإسبانية، وأعملت فيهم قتلاً وبمتاجرهم نهبًا وببيوتهم سلبًا. وفر إلى (زغوان) من استطاع أن يجد الفرصة للفرار بنفسه وبأهله. وانتهت هذه المذبحة الرهيبة بإبادة ثلث أهل تونس ونجاة الثلث ووقوع الثلث فى قبضة الأسر والمأسور يفتدى نفسه إن كان له مال. وبلغت الفدية ألف دينار، وتغيرت البلاد وطمست أعلامها وكانت هذه النكبة التى تعرضت لها تونس فى سنة(٩٤١هـ- ١٥٣٥م) هى أقسى ما عرفته فى حياتها من نكبات وكوارث، إذ أن عدد القتلى من سكان تونس خلال الأيام الرهيبة الثلاثة قد بلغ سبعين ألفًا، ونهبت خلال ذلك ثروات المدينة وكنوزها ونفائسها وأموالها وما تراكم فيها عبر مئات السنين بفضل ما عرف عن أهلها من الجهد والنشاط. وأضيفت إلى قائمة الكوارث التى تعرضت لها المدن الإسلامية (مثل بغداد على أيدى التتار والقدس على أيدى الفرنج الصليبيين) كارثة جديدة عرفت (بكارثة تونس)[1].

---

(١) الدولة العثمانية... عبد العزيز الشناوى جـ٢ ص٩١٦، ٩١٧..

لقد استمرت معركة تونس ٣٦ يومًا مما يؤكد قسوة الصراع وعنفه، فقد نزل الإسبان فوق أرض تونس يوم ١٦ حزيران - يونيو - واحتلوا حلق الوادى يوم ١٤ تموز - يوليو - أى بعد شهر تقريبًا. واحتلوا تونس ونكبوها يوم ٢١ تموز - يوليو - وقد حاول (شارلكان) التخفيف من وقع المذبحة، والقاء تبعاتها على أهل تونس، فكتب إلى عميله حاكم مدينة (بجاية) رسالة يوم ٢٣ تموز (يوليو) ١٥٣٥م يقول فيها:

(ولكن، وبما أن سكان مدينة تونس لم يقابلوا ملكهم قبولا حسنًا، كما يستحق، وكما هو واجبهم، فقد رأينا أن تأمر بنهب المدينة انتقامًا منهم على سوء سلوكهم.

استقر السلطان (الحسن بن محمد) على عرش تونس، فوق أشلاء أمته الممزقة وعلى جثث الضحايا من رجال قومه ونسائهم وأطفالهم. وعقد مع الإسبانيين معاهدة نصت على ما يلى[1]:

١- اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الإسبانية.

٢- ملكية الإسبانيين ملكية مطلقة لمرسى (حلق الوادى) و(قرطاجنة) و(مدينة عنابة) و(مدينة المهدية).

٣- التزام السلطان بألا يَدْخل بلاده أحد من مهاجرى الأندلس، يهودياً كان أو مسلمًا. وانسحب (شارلكان) بأسطوله ومعظم جيشه إلى قاعدته فى صقلية. وعاد (خير الدين) إلى قاعدته الأساسية (فى الجزائر) بعد أن عانى وقواته من الجوع والظمأ والحر. واستقر حينًا بمدينة (قسنطينة). واستقبل أهل الجزائر رجوعه بالبهجة. وانصرف (خير الدين) لإعادة تنظيم قواته من أجل استئناف الجهاد ضد الإسبانيين، لا سيما وقد ظهر بوضوح أن (شارلكان) قد صمم على تدمير دولة الجزائر مهما بلغ الثمن؛ وقد تبين أن مخطط (شارلكان) يعتمد على انتقاص حدود الجزائر بصورة تدريجية قبل الانقضاض على قلبها (عاصمتها)، ومن أجل ذلك فقد قام بالاستيلاء على (مرسى هنين) ومدينتها.

(١) بسام العسلى. بربروسا ص١٣١، ١٣٢..

وكانت مدينة (هنين) هى المرسى الطبيعى لعاصمة تلمسان، نظرًا لقرب المسافة بينهما، إذ تقع داخل جون حسن، فى منتصف الطريق بين (بنى صاف) و(جامع الغزوات) وبينهما وبين تلمسان - على خط مستقيم - مسافة (٤٥) كيلو مترًا وكان ملك (تلمسان) قد أرسل مددًا لمرسى هنين عندما قام الإسبانيون باحتلال مدينة (وهران) فى سنة ١٥٠٩م . وقام بتحصينها وتنظيم الدفاع عنها نظرًا لما لها من أهمية اقتصادية باعتبارها مركز المبادلات التجارية مع أوروبا بصورة عامة ومع بلاد البندقية بصورة خاصة.

ووجه الإمبراطور (شارلكان) أمرًا إلى قائده (دون الفار ودوبازان) فى شهر آب (أغسطس) سنة ١٥٣١م، باحتلال مدينة (هنين) ومهاجمتها بقوة. ولم يتأخر (دوبازان) عن تنفيذ الأمر، فركب وجيشه البحر على متن ١١ سفينة حربية بالإضافة إلى سفينتين ناقلتين للجنود، وأخذ معه أعتدة ومواداً تموينية تكفيه لمدة شهرين، وخرج من مالقة فى شهر آب (أغسطس)، ثم حل بمدينة وهران حيث انضمت لقوته مجموعة من المقاتلين تتكون من (٢٥٠) جندياً، وغادرها يوم ٢٤ آب - أغسطس، ووصل إلى مدينة هنين يوم ٨ أيلول - سبتمبر - سنة ١٥٣١م. ودخل الأسطول الإسبانى المرسى واحتل المدينة والقصبة.

لم تكن المدينة تتوقع هذا الهجوم المباغت، ولم تكن قوة الحامية متمركزة فى مواقعها عندما وقع العدوان وعلى الرغم من ذلك فقد قاوم المواطنون عملية الغزو وقتلوا (٤٠) إسبانياً، بالإضافة إلى مائة جريح. وكتب راهب - أسقف - طليلطة إلى الإمبراطور - مبشرًا بالفتح، وكان فى رسالته ما يلى:

(أكد لنا الذين يعرفون البلاد، أن لمدينة هنين ومرساها أهمية بالغة، فهنين بلدة محصنة ذات أسوار منيعة، ولها قلعة عظيمة، ولا تبعد عن تلمسان أكثر من (١٢) مرحلة، وهذا أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحركة التجارية التى يمكن أن تتداولها مع العرب، كما أن امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا بصورة خاصة على أبقاء ملك تلمسان تحت قبضة أيدينا فهو لن يفكر فى مهاجمتنا عندما يرانا قد تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة وتحصنا بها)[١].

(١) بسام العسلى ص١٣٤.

أما الدكتور لبريخا ممثل الإمبراطور بوهران فقد كتب لسيده يوم ٢ أيلول - سبتمبر - ١٥٣١م ما يلي: (أعتقد أن احتلالنا لمرسى هنين إنما هو حدث عظيم جداً، ذلك أننا باستقرارنا وبتمكننا من هذه البلدة، نستطيع أن نعاقب ملك تلمسان ونجبره على القيام بتعهداته، ذلك أن الطريق من هنين إلى تلمسان، أقرب وأضمن من طريق وهران والمرسى الكبير، ونستطيع من هذه البلدة، دون كبير عناء، أن ندخل مدينة تلمسان، وأن نأخذ من مولاى عبد الله أحسن ممتلكاته.

أراد (شارلكان) استثمار الظفر الذى أحرزه فى تونس، وتنفيذ شروط معاهدته مع عميله (الملك الحسن بن محمد) والإفادة من حالة العطالة التى تعرض لها خير الدين بعد معركة تونس، فأصدر أمره إلى قائد حملته (المركيز دى مونديخار) بالاستيلاء على مدينة (عنابة) بونة، والتى كانت تابعة بصورة اسمية للسلطان الحفصى فى تونس. وهكذا تحرك الأسطول الإسبانى فى شهر آب - أغسطس - نحو عنابة. ووصلها، وقام باحتلالها، وأرسل قائد الحملة إلى الإمبراطور تقريره عن نجاحه فى تنفيذ مهمته وذلك فى يوم ٢٩ آب - أغسطس - ١٥٣٥م. وتضمن التقرير ما يلى[١]:

(كان البحر هادئًا، إنما كانت الرياح معارضة، فلم يصل الأسطول إلا بعد خمسة أيام إلى عنابة، وكان - دون الفارو دى بازان قد سبقنا اليها مع الناقلات، وما كاد يصل حتى تلقى بعض ضربات المدفعية مما يدل على أن السكان قد صمموا على الدفاع، وأنزلنا الجند، ثم شكلنا كتيبتين وأرسلناهما لمهاجمة القصر، ولم يكن العرب ينتظرون هجومنا عليه، فبادروا بالتخلى عنه، ولم نفعل ذلك اليوم شيئًا آخر، فاكتفينا باحتلال القصبة والمدينة. أما الناقلات التى منعتها مدافع العدو من الاقتراب، فإنها قد دخلت المرسى، وانصرفنا خلال الأيام الثلاثة التالية إلى إنزال المدفعية والذخائر والمؤن إلى البر، وبعد دراسة وضع المدينة والقلعة، تأكدنا أنه يجب احتلالهما معًا وفى وقت واحد. لأن الجند الذى يحتل القلعة لا يتمكن بسهولة من نجدة العرب الذين يحتلون المدينة ويدافعون عنها، ويجب علينا أن لا نترك العرب يدخلون المدينة إلا بعد التصريح لهم بذلك. فإذا دخلوها فلا يجب أن

(١) المرجع السابق ص١٣٥، ١٣٦.

يجدوها خالية من قواتنا لأنهم فى هذه الحالة قد يفكرون بالعودة إليها، أو أن يدخلها عرب آخرون مكانهم ويتصرفون فيها بصفة تجعلها غير صالحة للسكنى - ولقد تركت (٢٠٠) جندى بالقصر، و(٦٠٠) جندى بالمدينة، وإذا ما رأينا السماح للعرب بسكنى المدينة من جديد، فعلينا أن نقيم حصنًا فوق المرتفع الذى يعلو المرسى، حتى نستطيع نجدة جند القصر).

لم يكن باستطاعة (خير الدين) وهو يتابع شراسة الهجمة الصليبية، الوقوف فى حالة من العطالة أو الجمود فقرر توجيه ضربة للإسبانيين فى قواعدهم، ووقع اختياره على مدينة (ماهون) عاصمة جزائر البالينار، والمدينة الأولى فى جزيرة (مينورقة).

قاد (خير الدين) أسطوله بكفاءة، حتى إذا ما وصل إلى (ماهون) قام باحتلالها، غير أنه تجنب سفك الدماء، ولم يفعل ما فعله الإسبانيون فى تونس. واكتفى باستحواذ كل ما ضمته المدينة من الثروات، وعاد بها إلى الجزائر، حيث تم توزيعها على المجاهدين بعد تخصيص الخمس (لبيت مال المسلمين)، أما الأسرى الذين اقتادهم (خير الدين) من جزيرة (مينورقة) وعددهم ستة آلاف نسمة فقد احتفظ بهم فى الجزائر.

كان من أثر هذه الإغارة الانتقامية أن تناقصت أهمية انتصارات الإسبانيين فى المغرب الإسلامى، وأخذت الشكوك فى التعاظم حول أهمية ما تبذله القوات الصليبية طالما أن التهديد الذى تمثله الجزائر لا زال قائمًا، وطالما أن الخطر الذى يمثله (خير الدين) ما زال مستمراً. وترددت أصداء انتصار (خير الدين) كالعادة وبصورة متضادة فى العاصمتين المتصارعتين (إستانبول ومدريد) حيث كان الصراع قد وصل ذروته على كافة الجبهات، الأمر الذى دفع السلطان سليمان القانونى إلى استدعاء (خير الدين) إلى القسطنطينية لتولى قيادة الأسطول العثمانى. وعندها كلف (خير الدين) نائبه (محمد حسن أغا) بإدارة أمور المملكة الجزائرية؛ وتوجه إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية، فوصلها فى شهر كانون الأول -ديسمبر- ١٥٣٥م.

أصبح باستطاعة (خير الدين) وهو فى مركزه الجديد، أكثر قدره وأشد عزيمة لمتابعة الجهاد ضد الإسبانيين وأنصارهم، وقد عمل على إقناع السلطان سليمان بضرورة شن الحرب على البنادقة، وتم له ذلك فى سنة ١٥٣٧م، وعندها انصرف (خير الدين) إلى إدارة الحرب بكفاءة عاليه بحيث لم تمضِ أكثر من ثلاث سنوات حتى استطاع تجريد البنادقة من كل ممتلكاتهم فى بحر إيجه حتى سواحل كريت (أقريطش) وتينوس وميقونوس. ولكن اهتمامه الأكبر بقى مركزًا على (الجزائر) التى أحبته وأحبها، وأخلص لها بقدر ما أخلصت له، ومن أجل ذلك أيد بحماسة بالغة مبدأ التحالف مع ملك فرنسا (فرنسيس الأول) ضد إمبراطور الغرب (شارلكان). غير أن تصعيد الصراع على حدود أوربا البرية وفى شرق البحر الأبيض المتوسط قوبل بتحولات خطيرة على مسرح المغرب العربى الإسلامى، واعتمد (شارلكان) هنا على (أعداء الداخل) أكثر من اعتماده على (القدرة العسكرية) للوصول إلى أهداف (الحرب الصليبية الشاملة)[1].

ج- أعداء خير الدين يتحالفون مع الخونة من داخل البلاد:

عرف الإفرنج الصليبيون عامة والإسبانيون الكاثوليكيون منهم بصورة خاصة، أن ضعف المسلمين عامة إنما يكمن داخلهم أكثر مما يكمن فى قدرتهم وإمكاناتهم. وقد أثبتت تجارب الصراع فى الحروب طويلة الأمد على جبهتى الشرق والغرب، فى الشام والأندلس، أن الانتصارات التى أحرزها الصليبيون لم تكن إلا بسبب تمزق العرب المسلمين وتشتتهم. ولهذا فقد اعتمد قادة الإفرنج باستمرار على الخداع والتفرقة أكثر من اعتمادهم على قوة السلاح، وإذا ما تم استخدام قوة السلاح، فهو من أجل دعم السلاح الأول وزيادة فاعليته. وهكذا جاء (شارلكان) ليسير على سياسة أسلافه وليعمل على تطويرها، فبث جواسيسه وعملاءه فى كل مكان، وأخذ فى استثمار التناقضات المتوافرة من أجل اقتطاف ثمارها. وقد يكون من الصعب استعراض الأساليب المختلفة والطرائق المتنوعة التى تم استخدامها فى هذا المضمار، ولعل الإشارة إلى بعضها كافية لإبراز الملامح العامة لما كان عليه الموقف فى تلك الحقبة التاريخية من الصراع على جبهة المغرب العربى الإسلامى.

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٦، ١٣٧.

كان محمد السابع بن عبد الله الثانى حاكم تلمسان (١٥٢٤م) قد وصل إلى الحكم بدعم المناصرة الإسبانية، وثار عليه أخوه عبد الله الذى ناصره جده لامه عبد الرحمن بن رضوان أحد شيوخ قبيلة بنى عامر. ووقف الإسبان خلف الأخوين، يحرضانهما، ويستثيرانهما. وسوف يتضح الموقف من خلال التقارير والرسائل التالية:

١- وهذا هو تقرير كتبه الحاكم العام لوهران (بيدرو دى لودى) ورفعه للأسقف بتاريخ ٢٠ آب - أغسطس - ١٥٣١م وفيه ما يلى:

يخوض الملك عبد الله حربًا ضد أخيه، وقد أرسل مولاى عبد الله جيشه لقتال أخيه محمد، ووقعت معركة يقال إن النصر فيها كان لجماعة عبد الله، لكن قائد بنى راشد جاء على رأس خمسمائة من الرجال، فاضطر أخو الملك إلى الانسحاب، وجميع عرب المملكة قائمون اليوم: بعضهم مع الملك وبعضهم مع الأمير عبد الله. وأنا أظن أن كل العرب فى هذه الناحية الشرقية من المملكة سينضمون إلى الأمير عبد الله إذا ما حل بهذه الساحة، ونرجو أن يقع الأمر على هذا المنوال، لأن أخا الملك أصبح حليفًا، وبذلك سنمسك بجميع خيوط اللعب ويستطيع صاحب الجلالة - إمبراطور إسبانيا - أن يستفيد من الموقف حسب إرادته - وأنا أعتقد أن ذلك ممكنا، إذا ما أخذنا بهذه الطريقة: جلالة الإمبراطور يؤيد عبد الله ويعترف به ملكًا، ويسلم إليه قسمًا مهماً من الأراضى التى سننتزعها من قبضة الأتراك، لكننا مع ذلك نفوض سلطان ملك تلمسان، نترك له ما بيده من الأرض. وبهذه الطريقة سيعلن الاثنان سرورهما ورضاهما، وسيكونان معًا عونًا لنا على محاربة - خير الدين باربروس - إن ملك تلمسان، (مولاى محمد) قد دعا إليه أحد اليهود من هنا - وهران - ولا ريب أنه سيتخذه واسطة للدخول فى مفاوضات معنا. أما العرب الذين أرسلهم لنا الأمير محمد، فقد اعتبروا دعوة هذا اليهودى لتلمسان فضيحة وبذلت جهدى لتهدئة خواطرهم. وهذا ما يحدث غالبًا لمن يتعامل مع الطرفين المتصارعين فى وقت واحد[1].

(١) خير الدين باربروسا ص ١٣٩.

٢- وجاء في رسالة الدكتور (لبريخا كريجيدور) من وهران إلى الإمبراطور بتاريخ ٢ أيلول (سبتمبر) ١٥٣٢م ما يلي:

(أبذل قصارى جهدى لإقناع عرب المملكة - تلمسان - بأن ينضموا إلينا، وأعتقد أن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تمكننا من معاقبة ملك تلمسان على عدم وفائه بعهوده، وعلى عدم سماحه للعرب بأن يبيعونا المؤن كما كانوا يفعلون من قبل. ولقد دخلت فى مفاوضات مع الأمير عبد الله، مع حرصى على أن يعرف الملك - مولاى محمد - ذلك بصفته الشخصية، حتى يعلم مدى الخسارة التى تلحق به من جراء امتناعه عن خدمة جلالتكم. وقد طلب إلى الملك أن أرسل له شخصًا للتفاوض معه منذ خمسة عشر يومًا، فبعثت إليه باثنين من اليهود الحذرين الأذكياء، وهما أفضل من وجدت هنا. وسارت الامور سيرًا حسنًا فى بداية الامر، لكن الأحوال ساءت عندما حل بتلمسان مندوب من قبل التركى العظيم (سليمان القانونى) إذ أظهر مولاى محمد عندها الاعتزاز بالرسول التركى، مما جعله لا يقف عند حدود عدم استقبال المندوبين اليهوديين، بل إنه أسلمهما للقتل. وفى نسائه وأولاده والشيوخ المنضمين تحت لوائه، وأعلمنى كذلك أنه سيسلم إلى الرهائن التى طلبناها منه. وأشعر فى الواقع بالحيرة، لأننى كنت أخبرت الأمير بأنه إذا ما وضع عائلته عندنا فى مدينة وهران وحذت الشيوخ المنتمون إليه حذوه، فإن جلالتكم سوف تسلمون له العون من مال ورجال حتى يحتل مدينة تلمسان على شرط أن يكون أكثر وفاء من أخيه فى تنفيذ شروط الاتفاقية التى ستعقد معه)[1].

٣- وكتب حاكم (هنين) رسالة للإمبراطور (شارلكان) فى يوم ٢٦ تيسان - أبريل - ١٥٣٤م يصف بها حالة (الموقف) فى تلمسان؛ وجاء فى الرسالة ما يلى:

(كتبت منذ أيام لجلالتكم أعلمكم أننى اتصلت من جواسيسنا بأخبار عن مولاى محمد ملك تلمسان أنه قد استعرض يوم ٢٠ من هذا الشهر جيشًا أعده لقتالنا،

---

(١) خير الدين باربروسا المرجع السابق ص ١٤٠.

وهذا الجيش مستعـد للسفر حيثما يريد. وأخبـرنى أحد هؤلاء الجواسيس أن الملك قـد اتصل برسول من الجـزائر يحمل إلـيه رسـالة تخبـره بموت - خيـر الدين - باربروس. فحزن الملك حزنًا شديدًا. وألقى بنفسـه فوق الأرض نائحًا منتحبًا، ثم نهض وقال للشيوخ الذين كـانوا حوله، بما أن والدى باربروس قد مات. فلم يبق لنا من عمل نعمله، وطلب إليهم أن يعـودوا إلى بلادهم ريثما يحصل من الأتراك على العون والتأييد من جديد. فلما سمع الشيوخ حديثه، خرجوا من عنده وكلهم يقول فيـه سوءًا. ويقول بعض الجواسيس الآخرين أنه جـاءت بعد ذلك رسالة من الجزائر تؤكد أن باربروس لم يمت، إنما هو فى مكان مجـهولة. ويقول البعض أن الملك مولاى مـحمـد لا يريد ان يحارب النصـارى، لأنه رجل ليس له إرادة على القتال وأنه منصرف إلى ملذاته، وغارق فـيها، وأنه لا يفكر إلا فى ابتزاز المال من أية جهـة كانت. ويقولون إنه جاء من مـدينة الجزائر بزوجتين دخل بهـما فى هذه المدينة، وجاء كـذلك بزوجتين أخـذهما بمدينة (فاس) عندمـا كان محـاربًا لأبيه. وبعدمـا تولى الملك بتلمسان، تزوج ست عـشرة مرة، ولا يفـعل شيئًا إلا إقـامة الحفلات والأفراح، ويلح فى طلب المال من أهل المدينة ومن العرب واليهود).

٤- وعندما اندلعت الحـرب بين الأخوين ملك تلمـسان (محمـد) وأخيه (عـبد الله) الذى كان الإسـبانيـون يناصرونه ويناصـرون جده (ابن رضوان) انتـصر ملك تلمـسان، وكتب حاكم وهران (الكونت دى الكوديت) تقريراً بتاريخ ١٢ تموز - يوليو - ١٥٣٥م رفعه للإمبراطور شارلكان، وجاء فيه:

(إن ابن رضـوان لا يفكر إلا فى أمـر واحد ألا وهو الانتـقـام وأخذ الثـأر من مولاى مـحمـد. ولقد طلب منى الإذن بالقـدوم إلى وهران، وكذلك طلب بقـية الشيـوخ الذين بقوا على ولائهم له. وقـد منحتهم الإذن. وبمـا أنه من المهم جداً بالنسبة إلينـا أن يبقى العرب دومًا مخـتلفين، فقد حرضت ابن رضـوان والشيوخ الذين معه على مواصلة القتال.. وعلى كل فـإننى مواصل الجهود لكى يتفاقم أمر الخلاف بين الطرفين).

لقد نجحت هذه السياسة في أهدافها، وكان من بعض نتائجها تثبيت أقدام الاستعماريين الإسبانيين فوق بعض مواقع المغرب العربي - الإسلامي. وكان من بعض نتائجها اخضاع الحكام وإشاعة روح التخاذل وهي الروح التي وجدت تعبيراً لها في التحالفات التي أقامها الحكام الإسبان مع بعض الحكام (مثل المعاهدة الإسبانية مع ملك تلمسان).

لقد كانت عملية (التفتيت المادي والمعنوي) لقوى العرب المسلمين هي المرحلة التمهيدية لتطوير الأعمال العدوانية، والتي سبقتها عملية جمع معلومات دقيقة عن موازين القوى وتوزيعها وإمكاناتها (أعمال الجاسوسية)، وقد يكون من الصعب استقراء كافة البيانات والتقارير المتوافرة في هذا المجال غير أنه ليس من العيب أبداً معرفة الصورة الإجمالية للجهد المبذول خلال مرحلة الإعداد للمرحلة التالية من الحرب، عبر التقريرين التاليين:

- تقرير سري إسباني عن قوة الجزائر - سنة ١٥٣٣م [١]:

(يحكم الجزائر الآن (حسن أغا) وينوب عنه في حالة غيابه (حاج باشا) و(القائد الصوردو). ويوجد بمدينة الجزائر (١٨٠٠) تركي. أما ببقية شرشال ٣٠، في المدينة ١٥٠، في مليانه ١٠٠، في تادلس ٦٠، في بنوره - أوزنوره - ٢٠، في جيجل ٢٠، في القل ٢٠، في قسنطينة ٣٠٠، فيكون المجموع ٧٥. وهكذا يوجد (٢٦٠٠) تركي تقريبًا، وتوجد بمدينة الجزائر (٣) آلاف عائلة عربية تقريبًا و(٣٠٠) عائلة يهودية. أما القوة التي بين يدي حسن أغا، وهو مخيم الآن خارج المدينة فهي تشمل (٧٠٠) تركي وألف فارس وألفي راجل من العرب، ويشمل تسليح الجزائر ما يلي: في البرج الفوقاني ثلاثة مدافع لرمي الحجارة، و(٥) مدافع صغيرة. وفي البرج الكبير بباب البحر أربعة مدافع، ومن هذا المكان إلى الباب المقابل للجزيرة (١٧) مدفعًا، ومن هذا الباب إلى المسجد الكبير (١٧) مدفعًا من البرونز و(٤) مدافع من الحديد. وبين المسجد الكبير ودار الصناعة وباب عزون (٨٩) مدفعًا، وفوق الباب ذاته يوجد مدفعان صغيران (يرميان قنابل من الرصاص

(١) المصدر السابق. خير الدين بربروسا ص١٤٢.

تزن الواحدة منها كيلو جرام تقريبًا). وفى المرسى (٨) سفن يحتوى أكبرها على (١٧) صفاً للجذافين. ويشتغلون الآن فى المدينة بصنع الخبز المجفف (كعك أو بسكويت) بكل نشاط وكذلك فى المدية والمليانة، الأمر الذى لم نشاهده من قبل أبدًا. ويسود الانزعاج فى المدينة لأنهم سمعوا أن الإمبراطور سيعقد الصلح مع ملك فرنسا. لكن خواطرهم هدأت عندما علموا أن السلطان يجهز الآن عمارة قوية - أسطولاً).

- **وهذا تقرير سرى إسبانى آخر عن حالة الجزائر إلى صاحبة الجلالة الملكة[1]:**

من فرانسيسكو بيريز دى إيديا كابيز - حاكم بجاية؛ بجاية ٢٩ آذار - مارس - ١٥٣٦م.

(وردت إلينا معلومات من مدينة الجزائر، نقلها لنا ستة من العبيد المسيحيين الذين تمكنوا من الفرار يوم ٢٧ شباط (فبراير) وغادروا الجزائر بسفينة صغيرة أوصلتهم إلى مدينة بجاية.

يوجد الآن فى مدينة الجزائر ألفان من الأتراك وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجرى الأندلس فى مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى وزعها باربروس على الحاميات. أما حاكم الجزائر اليوم فهو من سردينيا، اسمه حسن أغا، وسكان المدينة فى قلق شديد، لأنهم اتصلوا بأنباء موثوق بها تفيد تحرك أسطول جلالتكم. وأخبرنا الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التى انهمرت فى فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة فى ثلاث جهات، وعلى مسافات شاسعة، وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة، لكن العمل لم يتم إلى الآن نظرا لعدم وجود البنائين العارفين. ويقولون هنا إنهم سيستعينون لألف وخمسمائة من العرب المحيطين بالجزائر من أجل انجاز العمل. أما مدينة قسنطينة ففيها ألف وخمسمائة من الإنكشارية يقودهم تركى اسمه (القائد كلج على) وباربروس هو الذى أرسل هؤلاء الإنكشارية وبما أن كلج على هذا تابع لحكومة الجزائر، فلا ريب أنه سيقدم إلى مدينة الجزائر بمجرد علمه بتحرك أسطول جلالتكم).

(١) المصدر السابق. خير الدين بربروسا ص١٤٣.

د - شارلكان وغزو الجزائر:

كان (شارلكان) يعمل جاهداً على خلق كتلة أوربية قوية تجابه العالم الإسلامي. وعندما توفى الإمبراطور النمساوى (مكسيميليان) طمع (شارلكان) فى ضم هذا العرش وكان ملك فرنسا (فرنسوا الأول) يطمع فى السيطرة على هذا العرش أيضًا والذى ينضوى تحت لوائه سبعة ملوك وأمراء. ومن هنا، واعتباراً من سنة ١٥١٩م، بدأ الصراع بين الملكين. واجتمع الأمراء الناخبون (الألكتر) فى مدينة فرانكفورت، وبعد المساومات المعهودة تم الاتفاق وفى ٥ تموز (يوليو) ١٥١٩م على انتخاب ملك إسبانيا إمبراطوراً للغرب وأصبح يحكم معظم إيطاليا وبلجيكا وهولندا والنمسا وبعض الشمال الفرنسى، بالإضافة إلى الممتلكات الإسبانية فى الأرض الجديدة (أمريكا الجنوبية)، ووجدت فرنسا نفسها محاطة بالأعداء وهى تكاد تفقد استقلالها، لا سيما بعد خيانة مارشال فرنسا (الأمير دى بوربون) أثناء الحرب، واتفاق الأمر على اقتسام ترابها. وبعد معارك طويلة قاسية، وقع ملك فرنسا أسيراً فى إيطاليا يوم ٢٤ شباط -فبراير- ١٥٢٥م وحمل إلى مدريد، حيث ارغم على توقيع معاهدة سلم فيها لأعدائه ما طلبوه منه، وكتب إلى أمه يقول:

(سيدتى، لقد خسرت كل شىء، ما عدا الشرف والحياة)[1]. ثم أطلق الإسبانيون سراحه بعد أن ترك ولديه رهينة عندهم. وأرسلت أمه - أو أرسل هو عن طريق أمه - رسالة يستغيث فيها بالسلطان سليمان القانونى لنجدته والتحالف معه. وأجابه سليمان إلى ما طلبه، وما كاد يذاع نبأ هذا الحلف بين سلطان المسلمين وملك فرنسا المسيحى، حتى اجتاحت أوربا موجة من النقمة، وارتفع صوت التنديد بملك فرنسا الذى يستنجد - بالكفار - أعداء المسيحية ضد ملك مسيحى وأسهم (شارلكان) بهذه الحملة من أجل تضييق الخناق على فرنسا، وأعلن إلغاءه للمعاهدة السابقة التى عقدها مع ملك فرنسا، وكان التحالف الذى تم الاتفاق عليه بين الملك الفرنسى ومندوبى السلطان العثمانى ينص على القيام

(١) المصدر السابق ص١٤٥.

بهجوم مشترك ضد إيطاليا. وفى أيار - مايو - سنة ١٥٣٨ م جمع السلطان سليمان فى ألبانيا جيشًا كبيرًا من مائة ألف مقاتل للهجوم على إيطاليا.

وكان معه ولداه (محمد وسليم) وسفير فرنسا فى إستانبول (مسيو دولانوى) وفى الوقت ذاته قام (خير الدين باشا) بإنزال قواته فى ميناء أوترنته بجنوب إيطاليا، واستعدادا لمهاجمتها من جهة الجنوب، بينما يهاجمها السلطان سليمان من جهة الشرق، وملك فرنسا من جهة الغرب، لكن ملك فرنسا أحجم عن التقدم استجابة للرأى العام المسيحى، وأدى ذلك إلى فشل المشروع، وانتهى الأمر بتوقيع هدنة بين ملك فرنسا وبين الإمبراطور (شارلكان)، ووقعا على معاهدة الصلح فى (نيس) سنة ١٥٣٨م بعد أن مارس البابا (بولس الثالث) نفوذه القوى من أجل المحافظة على الوحدة المسيحية، وصداً للتقدم الإسلامى فى بلاد إيطاليا[١].

فتحت معاهدة (نيس) المجال الواسع أمام (شارلكان) لإعادة حملته الضخمة ضد الجزائر، لا سيما وأن ملك فرنسا تعهد لشارلكان بأنه لن يحاربه ولن يقوم بأى عمل ضده، أثناء محاربته وتحطيمه لسلطان المسلمين فى مدينة الجزائر، ففرنسا والبابا وكل البلاد المسيحية كانت مشتركة فى الحملة العظمى على مدينة الجزائر.

كان نائب خير الدين فى ولاية الجزائر (محمد حسن) يتابع جهوده فى إعادة تنظيم البلاد، وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار فيها، وحشد القوى والوسائط لتطوير الصراع ومجابهة الاحتمالات المختلفة، غير أن ذلك لم يصرفه عن متابعة الجهاد فى سبيل الله فى البحر. وقاد مجموعة من العمليات كان من أبرزها إغارته على جبل طارق ومعركته البحرية ضد قوة من الأسطول الإسبانى.

ففى عمليته الأولى، جهز قوة من (١٣٠٠) مقاتل حملتهم (١٣) سفينة حربية غادرت الجزائر فى شهر أيلول (سبتمبر) ١٥٣٩ م. ووصلت هذه القوة الموانئ الجنوبية الأندلسية، وقامت بالإنزال وأغارت على جبل طارق فاحتلت البلدة، واستولت على ما فيها من غنائم، وأوغلت فى الأقاليم وهى تصادر ما يقع تحت أيدى المجاهدين وتختار من الإسبانيين جماعات الأسرى والسبايا لبيعهم فى المدن المغربية الجنوبية (تطوان خاصة) ثم تعود للميدان.

(١) المصدر السابق ص١٤٧.

وعندما تمت العملية وقفل (محمد حسن) راجعًا إلى مدينة الجزائر، اصطدم بقوة بحرية إسبانية ضخمة يتولى قيادتها (الأميرال برنارد دى موندورزا) ووقعت معركة ضارية بين القوتين أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين. وتمكنت القوات الإسبانية من تحرير سبعمائة من الجذافين النصارى الذين كانوا يعملون أسرى فوق السفن الجزائرية. لكن خسائر الإسبان خلال هذه المعركة كانت كبيرة جداً زاد عدد القتلى فيها على ثمانمائة قتيل.

وأتم شارلكان استعداداته لحملته الحربية البحرية الكبرى ضد الجزائر. وضم جيشه أفضل المقاتلين والنبلاء من إسبانيا وألمانيا وإيطاليا، بالإضافة إلى المتطوعين، وأيضًا إلى الجيش الذى أرسله البابا بقيادة حفيده (كولونا) كما أرسلت رهبنة مالطا (١٤٠) فارسا و(٤٠٠) مقاتلا من المشاة. وأصبح هذا الجيش يضم (٢٤) ألف مقاتل من المشاة - الراجلين و (ألفى) فارس. أما الأسطول فكان يشتمل على (٤٥٠) سفينة نقل ضخمة و (٦٥) سفينة حربية كبرى. وبلغ مجموع عدد أفراد البحارة (١٢) ألف رجل، وتولى (أندريا دوريا) قيادة القوة البحرية فى حين تولى (شارلكان) بنفسه قيادة الحملة[1].

وعندما أصبحت الحملة جاهزة للتحرك أصدر البابا يوحنا الثالث بيانًا نشره على البلاد الأوربية كلها، وأعلن فيه أن هذه الحملة هى حملة صليبية، وأن واجب كل مؤمن بالمسيح مخلص للنصرانية أن ينضم إليها وأن يشارك فى محاربة الكافرين.

وحاولت إسبانيا خلال ذلك إضعاف البحرية العثمانية عن طريق محاولة استمالة (خير الدين باربروس)، وذلك بأن تم إرسال جواسيس من قبل (شارلكان) إلى إستانبول للاتصال مع (خير الدين) ومفاوضته على أساس تعيينه ملكًا على الشمال الإفريقى كله، واعتراف إسبانيا بملكيته مقابل اعترافه بتبعته لشارلكان ودفع جزية سنوية محددة. ودخل (خير الدين) فى المفاوضات التى استمرت على فترات متناوبة طوال سنتين تحت إشراف (أندريا دوريا). وكان (خير الدين) يطلع السلطان

---

(١) خير الدين باربروسا ص ١٤٩.

على تطور المفاوضات فى كل مرحلة من مراحلها، وعندما وصلت مهمة وفد المفاوضات المكون من ثلاثة مفاوضين برئاسة الدكتور (أومبرو) حتى نهايتها، ووفقًا لخطة متفق عليها بين خير الدين والسلطان بادر هذا بإلقاء القبض على (الجواسيس الثلاثة) وأودع الدكتور (أومبرو) فى سجن (قلعة الحصون السبعة) بتهمة حث أحد الرعايا العثمانيين على العصيان. وكان وقع هذا الفشل مريرًا على نفس (أندريا دوريا) بقدر ما كان مزعجًا لإمبراطوره (شارلكان) الذى علق أملاً كبيرًا فى إحراز نصر كبير بثمن بخس إن هو استطاع ضم (خير الدين) لقوته.

ولم يبقَ أمام (شارلكان) غير الحرب، فتحرك بأسطوله الضخم مغادرًا (مرسى ماهون) يوم ١٨ تشرين الأول - أكتوبر - سنة ١٥٤١، ووصل إلى (جون الجزائر) فى الساعة السابعة من صباح يوم (٢٠) تشرين الأول - أكتوبر - وأخذ فى إجراء عرض قواته البحرية أمام مدينة الجزائر لإرهاب حاميتها ثم توجه بأسطوله إلى طرف الخليج المقابل لمدينة الجزائر، عند رأس (تامنتغوس - أو تامانتغوس) وخيم هناك مؤقتًا، ثم عاد مباشرة نحو الضفة اليسرى لوادى الحراش. وهناك أخذ ينزل جنده منذ فجر يوم الأحد ٢٣ تشرين الأول - أكتوبر - وفى الساعة التاسعة من اليوم ذاته، نزل الإمبراطور إلى الأرض، محاطًا بالأشراف والنبلاء ورجال الحاشية، وأقام المركز العام لأركان حربه الإمبراطورى عند (الحملة أو الحامة) شرقى مدينة الجزائر (حيث حديقة التجارب الآن)[1]. وذلك على مقربة من مركز التجمع العام الواقع بين الحمة وضفة الحراش.

فأسرع (محمد حسن) بتجميع كل ما لديه من القوى، واستعد للدفاع، وقرر مع أركان حربه تطبيق الخطة التى نجح الجزائريون فى تنفيذها خلال معاركهم السابقة مع الإسبانيين والتى مكنتهم من النصر مرتين متتاليتين. فتحصنوا فى المدينة ينظرون تطور الأحداث ويراقبون بدقة تحركات الإسبانيين ومناوراتهم.

وعلى هذا فما إن وطأت أقدام الإسبانيين أرض الجزائر، حتى انطلق المجاهدون الجزائريون للعمل تحت قيادة (المجاهد الحاج بشير) وهم يحيطون بالقوات الإسبانية

(١) خير الدين بربروسا. مرجع سابق ص١٥١.

من كل اتجاه، ويوجهون إليها ضربات مباغتة سريعة بواسطة زمر من الفرسان القليلة فى عدد أفرادها والسريعة فى انقضاضها وانسحابها بحيث لم تترك للقوات الإسبانية فرصة للراحة او النوم.

وقرر الإمبراطور البدء بتنفيذ معركته فى يوم ٢٤ تشرين الأول - أكتوبر - فتولى بنفسه قيادة التحرك نحو الأمام، على رأس الفيلق الألمانى، وترك للفريق الإيطالى وفرسان مالطة مهمة حماية المؤخرة تحت قيادة حفيد البابا (كاميل كالونا) واستمر الإمبراطور فى تقدمه واستمر المجاهدون فى الإغارة على القوات الإسبانية، وأرغموها على التوقف حينًا عند إحدى الربوات، وفى النهاية وصلت القوات الإسبانية إلى (كدية الصابون - الواقعة على مرتفع خلف مدينة الجزائر)، حيث دارت معركة قاسية مع المجاهدين، تمكن الإمبراطور بعدها من احتلال الموقع الإستراتيجى (للكدية). ووضع عتاده الثقيلة فيها واتخذ منها قاعدة للهجوم ثم بدأ على الفور بتوسيع قاعدة عملياته، فاحتل مجموعة التلال التى تصل ما بين (مدية الصابون) و(قنطرة الغفرون) قرب البحر غربى الجزائر. وبذلك باتت مدينة الجزائر مطوقة ومعزولة فى البر والبحر(١).

وعند ذلك أرسل (شارلكان) من قبله مندوبًا (هو الفارس لورنزومانويل) لإقناع حامية الجزائر بالاستسلام بعد أن باتت مطوقة، وبعد أن ظهر لها مدى التفوق الكبير فى القوى التى أحاطت بالمدينة، ووصل المندوب إلى الجزائر، وأبلغ (محمد حسن) الرسالة التى يحملها وهى كالتالى:

(أنا ملك إسبانيا الذى استولى على تونس وأخرج منها خير الدين، وتونس أعظم من الجزائر وخير الدين أعظم منك) فأجابه (محمد حسن أغا) بالرسالة التالية: (غزت إسبانيا الجزائر فى عهد عروج مرة - وفى عهد خير الدين مرة، ولم تحصل على طائل، بل انتهبت أموالها وفنيت جنودها، وستحصل المرة الثالثة كذلك إن شاء الله)(٢).

فى الليلة ذاتها، وصل إلى معسكر شارلكان رسول من قبل والى الجزائر

(١) المصدر السابق ص١٥٢.
(٢) المرجع السابق.

(محمد حسن أغا) يطلب إذنًا للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر وخاصة نساءها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الواد)، وعرف (شارلكان) أن حامية الجزائر مصممة على الدفاع المستميت، وأنه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تم تدميرها تدميرًا تامًا. ولم يكن الإمبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة، فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفى الوقت ذاته كان المجاهدون الجزائريون يوجهون ضرباتهم الموجعة إلى القوات الإسبانية، فى كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة فى تقريره عن المعركة:

(لقد أذهلتنا هذه الطريقة فى الحرب، لأننا لم نكن نعرفها من قبل)(١). وكانت أعداد المجاهدين تتعاظم باستمرار بفضل تدفق مقابلتهم من كل مكان بمجرد سماعهم بإنزال القوات الإسبانية. وكان هؤلاء يستفيدون فى توجيههم لضرباتهم من معرفتهم الدقيقة بالأرض واستخدامهم لميزاتها بشكل رائع.

ويدأ المطر الغزير فى السقوط مع بداية الليل، وكانت كثافة الأمطار وغزارتها تتزايد مع تقدم الليل. بينما هبت ريح عاتية من الشمال الغربى، فتعالت الأمواج وتشابكت، وأصبح الأسطول الذى يحمل السلاح الثقيل - المدفعية - والعتاد والمواد التموينية أمام مأزق خطير. ولم يكن للإسبانيين فى تلك الليلة خيام يحتمون فيها من وابل المطر، إذ لم يكونوا قد جاءوا بالعتاد اللازم من السفن. فكان لا بد لهم من قضاء شر ليلة بين الماء والوحل بعد أن قضوا أسوأ نهار فى المسير والاشتباك بنيران المجاهدين.

ثم أقبل الفجر أخيرًا على المجاهدين الذين لم يناموا ليلهم وهم فى مدينة الجزائر المحاصرة يستعدون للمعركة الحاسمة. وارتفع الأذان من المساجد داعيًا الناس لبيوت الله، ورددت عشرات مآذن المدينة الدعوة، فأنزلت السكينة على النفوس. وما كادت تنقضى الصلاة، حتى فتحت أبواب المدينة بصورة مباغته، وتدفقت موجات المجاهدين وهى تردد بصوت واحد صيحة الحرب: (الله أكبر).

وقاد المجاهد (الحاج البشير) الهجوم على ميمنة الخط الإسبانى، وكانت مستقرة

---

(١) المرجع السابق ص١٥٣.

أمام رأس تافورة (بين إدارة البريد المركزى اليوم والبحر). وتلقت الفرقة الإيطالية الصدمة الأولى، فلم تتمكن من الصمود لها، واستولى عليها الرعب والفزع، فتقهقرت متراجعة بدون نظام حتى وصلت إلى معسكراتها. وازداد المجاهدون إقدامًا واندفاعًا لاستثمار هذا النصر الأول. فواصلوا هجومهم فى مطاردة فلول الهاربين إلى أن اصطدموا بكامل الفرقة الإيطالية التى كانت تحتل القطاع الأوسط فى التنظيم القتالى للقوات الصليبية. وعلى الرغم من التفوق الساحق للقوى الإيطالية، فقد اندفع المجاهدون بحماسة لا توصف لقتالها. ولم تتمكن الفرقة الإيطالية من الصمود أمام الهجوم القوى للمجاهدين. واضطراب أمرها. فولت منهزمة وتشتتت إلى مجموعات صغيرة. ووجد المجاهدون الجزائريون فرصتهم لإبادة ما يستطيعون إبادته من هذه القوى الممزقة، ولم تتوقف المذبحة إلا عندما تدخلت فرقة فرسان مالطة.

كانت هذه الفرقة تقف على مسافة بعيدة من مواقع القوات الإيطالية، فما كادت ترى ضراوة المعركة، وتمزق القوات الإيطالية، مما بات يهدد الجيش الإمبراطورى كله بالدمار، حتى اندفعت بكامل قوتها، وتمركزت فى الفج الصغير الذى يقع وراء الجسر والذى يمر منه الطريق المؤدى إلى كدية الصابون، فضمنت بذلك حماية فلول القوات الإيطالية، واضطر المجاهدون الجزائريون لإيقاف هجومهم حتى لا يتعرض طريق انسحابهم للتهديد. وفى الوقت ذاته اندفع القائدان الصليبيان (كولونا والأمير صالمون) ومعهما زمرة من الفرسان لإيقاف الفرقة الإيطالية، ومنعها من التوغل فى فرارها، وأمكن لهما بعد جهد كبير إيقافها وإعادة تجميع من بقى منها بعيدًا عن أرض المعركة.

عند هذه المرحلة أصدر القائد (الحاج البشير) أمره إلى المجاهدين بالتراجع المنظم مع المحافظة على التماس مع العدو حتى الوصول إلى أسوار مدينة الجزائر وتحصيناتها، وتم تنفيذ عملية التراجع بطريقة رائعة حسبها فرسان مالطة انسحابًا من المعركة. فانطلقوا بثقل قوتهم لما حسبوه مطاردة، حتى إذا ما وصل المجاهدون بكتلتهم المنظمة إلى مسافة قريبة من حصن (باب عزون) قام رجال الدفاع الجزائريون بفتح الأبواب، ودخل المجاهدون، ثم أغلق الباب بسرعة وأحكم رتاجه

وبقيت قوات العدو مكشوفة تجاه السور، تحت سيل المطر الغزير، ولم يعد باستطاعة فرسان مالطة التقدم إلى الأسوار واقتحامها، كما لم يعد باستطاعتهم التراجع بعد أن أصبح سلاح الجزائريين يحصدهم جميعًا من وراء ظهورهم.

وامتطى الإمبراطور (شارلكان) صهوة جواده حين بلغته أنباء الكارثة التى نزلت بالقوة الإيطالية، وتقدم مع النبلاء ورجال الحاشية ومهرة الفرسان نجدة فريق مالطة واقتحم مع قواته منطقة الخطر تحت نيران الحصون الجزائرية ففقدت القوات نصف عدد أفرادها. وأثناء ذلك لم يوقف الجزئريون من عرب الداخل عملياتهم على مؤخرة القوات المعادية، وزاد الأمر سوءًا بالنسبة إلى قوات الفرنج الصليبيين عندما وقفوا عاجزين عن استخدام أسلحتهم النارية التى أفسدت السيول والأمطار بارودها وحولته إلى كتل من العجين غير المتفجر. فى حين كان المجاهدون فوق الأسوار يستخدمون أسلحتهم بكفاءة عالية القسى الحديدية لرمى السهام البعيدة المدى بدقة مثيرة للإعجاب. وتكسرت موجات الهجوم واضطرت للانسحاب بعد أن تركت فوق أرض المعركة الغارقة بالوحل أعدادًا كبيرة من القتلى.

وهكذا وبينما كانت معركة يوم ٢٥ تشرين الأول - أكتوبر - تسفر عن نصر حاسم لمصلحة القوات البرية الجزائرية، كانت العواصف تقوم بدورها لتمزيق الأسطول البحرى الإسبانى، إذ أدت الأمواج المتلاطمة إلى ضرب قطع الأسطول بعضها ببعض - وخاصة منها سفن النقل الكبيرة - لتعمل على تحطيمها والقذف بها فوق أرض الساحل. وأسفر هذا الموقف عن كارثة حقيقية نزلت بالأسطول الصليبى، عندما تجاوز عدد سفن النقل التى تحطمت على الساحل (١٥٠) سفينة، وكان المجاهدون المسلمون من عرب البلاد الداخلية يغنمون ما فيها ويأسرون رجالها[١].

أما السفن الحربية التى كانت أمتن صنعًا وأحسن قيادة فقد انسحبت من موقع الخطر، مستعملة المجاذيف، واستمرت عمليتها هذه نحوًا من أربع وعشرين ساعة. غير أن هذه السفن الحربية التى ناورت بمهارة متبعدة عن مركز الخطر، كانت تحمل فى جوفها خطرًا أكبر، إذ كان العاملون على مجاذيفها من أسرى

(١) المرجع السابق ص١٥٦.

المسلمين المستعبدين فى معظمهم، وكان هؤلاء يتابعون تطورات المعركة بحذر ويقظة، وتبين لهم أن لحظتهم المناسبة قد أزفت لتحرير أنفسهم من العبودية، ولتقديم خدماتهم لإخوانهم المجاهدين فى سبيل الله فى الوقت ذاته فتركوا المجاذيف، واندفعوا يجرون سلاسلهم وأغلالهم الثقيلة ويبغون النجاة مهما كان الثمن. وأدت هذه العملية إلى ارتطام (١٦) سفينة حربية بجدران الساحل. ونجح المجاهدون الجزائريون فى إنقاذ ألف وأربعمائة بحار منهم، وأنزلوهم بالجزائر.

وأراد الإمبراطور (شارلكان) وأركان حربه إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما قذف به الأسطول إلى ساحل البحر من سلاح وعتاد، إلى جانب إنقاذ البحارة من القتل أو الأسر أو الغرق بعد أن انقلبت سفنهم وباتوا وهم يئنون تحتها بين الأمواج المتلاطمة، فبعثوا فرقة إنقاذ إلى الساحل، غير أن هذه الفرقة وقفت عاجزة عن القيام بأى عمل، فقد سبقهم المجاهدون واستولوا على كل ما قذف به البحر، أما بقية محتويات السفن فقد أخذت طريقها إلى عمق المياه، بما فى ذلك المدفعية والمعدات والذخائر والمواد التموينية، وانتشرت قطع السفن المدمرة فغمرت مياه الساحل على امتداد مائتى كيلو متر، ما بين شرق دالس وغرب شرشال.

وكان (أندريا دوريا) يشرف على العمليات البحرية من فوق ظهر سفينته الضخمة (طومبيراس)، ويحاول الدفاع عن رجاله وحماية متاعه وكل ما قذفت به الأمواج على الساحل وذلك بمنع وصول المجاهدين إليه، فكان يتقدم من الساحل وهو يصارع الأمواج ويتابع رمى قنابل وقذائف مدفعيته، غير أن محاولاته لم تحقق هدفها، بل إنها زادت من حجم الكارثة وتسببت فى تدمير سفينة حربية أخرى[١].

لم يفقد الإمبراطور (شارلكان) رباطة جأشه، وعلى الرغم من استسلامه لقضاء الله وقدره وترديده باستمرار للعبارة التالية (فلتكن إرادتك يا رب). فقد مضى لإعادة تنظيم القوات، غير أنه كان من المحال عليه معالجة المأزق الصعب الذى وقع فيه، فقد هيمن الرعب والفزع على قواته، وفقد معظم مواده التموينية فبات جيشه مهدداً بالجوع، بالإضافة إلى أن قوة الجزائريين كانت تتعاظم باستمرار وهم يتابعون الموقف من وراء الأسوار ويستعدون للانقضاض على قواته من جديد.

---

(١) المرجع السابق ص١٥٧.

وانطلق يستشير هيئة أركان حربه وكبار معاونيه ممن أبقت عليهم المعركة. وكانت الحلول المتاحة أمامه محدودة، فإما الانسحاب ببقايا قواته وأسطوله وإما إعادة تنظيم ما بقى لديه من القوى والوسائط واختيار بقعة مناسبة للدفاع عنها فى انتظار تحسن المناخ ووصول إمدادات جديدة من أوربا. وانقسمت وجهات نظر القادة فى تأييد أحد الحلين الوحيدين.

وكان رأى قائد الأسطول (أندريا دوريا) هو العمل الحاسم فى ترجيح أحد الاحتمالين - أو الحلين - وقد حدد (أندريا) موقفه من الأزمة بوضوح فأرسل من سفينته فدائياً إسبانياً، حمله رسالته، وقد استطاع هذا الفدائى مصارعة الأمواج والتسلل من بين المجاهدين حتى وصل إلى خيمة الإمبراطور، وأبلغه رسالة قائده التى جاء فيها: (وأما من جهة البحر فإنه من المحال بقاء الأسطول فى مركز الخطر داخل الخليج، لأن بقية السفن ستتحطم حتمًا، إن هو لم يعمل على سحبها فوراً إلى جهة (تامانتغوس) المواجهة لمدينة الجزائر على الطرف المقابل من الخليج، وأما من جهة البر، فإنه يرى بأنه من المحال أيضًا البقاء أو الانتظار، وأنه من الواجب الانسحاب فوراً ببقية الرجال، وركوب سفن الأسطول الباقية للوصول إلى جهة - تامانتغوس). وأيد معظم قادة الجيش وجهة نظر قائد الأسطول، إلا القائد الإسبانى (فرناندو كوريتز) الذى كان يرى وجوب البقاء والمقاومة ووقف معه أيضًا الكونت (د. الكوديت) حاكم وهران العام. وهكذا رجحت كفة الانسحاب وبدأت المسيرة الشاقة للابتعاد عن الأسوار، واختراق ضفة البحر، للوصول إلى رأس (تامانتغوس). ونظراً لنفاد المواد التموينية، فقد أمر الإمبراطور بذبح الخيول التى كانت لدى الجيش وتوزيع لحمها لإطعام الرجال، مبتدئًا بذبح تلك الخيول العربية البديعة التى جاء بها لنفسه. وبات الجيش الصليبى فى تلك الليلة وراء (وادى خنيس). ثم استأنف الجيش تحركه فى اليوم التالى (٢٧ تشرين الأول - أكتوبر) حتى وصل وادى الحراش. ولما كانت مياه الطوفان قد ارتفعت كثيراً فقد بات من المحال متابعة المسير. وتم التوقف أمام الوادى[1].

---

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٥٩.

وفي صبيحة يوم الجمعة (٢٨ تشرين الأول - أكتوبر) استطاع الجنود صنع جسر من أخشاب السفن عبروا عليه إلى الضفة الأخرى. وتابعوا تحركهم البطيء حتى وصلوا (وادى الحميض - أو الحمير) فباتوا عنده. واستؤنفت المسيرة يوم السبت ٢٩ تشرين الأول - أكتوبر- وأمكن الوصول في النهاية إلى رأس (تامانتغوس).

لم تكن مشاق الطريق ووعورته وصعوبة التحرك هي كل ما تعرض له الجيش الصليبي أثناء تراجعه، وإنما كانت الصعوبة الحقيقة هي في رد الاغارات التي شنها المجاهدون الجزائريون والتي لم تتوقف طوال أيام المسير، في الليل كما في النهار، مما اضطر الإمبراطور (شارلكان) إلى وضع الفرقة الإيطالية في الميمنة، وعلى أبعد مسافة من الضربات المحتلة للجزائريين، في حين أسند حماية المجنبة اليسرى والمؤخرة للفرسان المالطيين والمشاة الإسبانيين. وتولى هو بنفسه قيادة المؤخرة، لرد هجمات المجاهدين، وإنقاذ من يسقط من الرجال وبذلك لم تصل القوات إلى منطقة أنقاض مدينة (رسغوليا) - المدينة الرومانية القديمة - إلا وقد استنزفت المسيرة بقية ما تمتلكه من القدرة والجهد. وقضت بتلك الأطلال يومي الأحد والإثنين، حيث استعادت بعضًا من قوتها، ثم بدأت عملية ركوب البحر يوم الثلاثاء (الفاتح من تشرين الثاني - نوفمبر) وانتهت عملية الركوب يوم (٣) تشرين الثاني، وكان الإمبراطور هو آخر رجل ركب البحر إلى مدينة بجاية، وفي الطريق ابتلع البحر الهائج بعضًا من السفن أيضًا وأصاب بعضها بالعطب، فكانت أعمال الإصلاح والترميم تتم فوق السفن بلا انقطاع وتوقف. وعندما وصلت القوات إلى بجاية وجدت أن الموقف أسوأ مما كان متوقعًا، فقد أحكم المجاهدون العرب الحصار على الحامية، ومنعوا عنها التموين، إلا ما كان يقدمه بعض العملاء بأثمان خيالية وبكميات محدودة. ومضى الإمبراطور إلى المساجد التي تم تحويلها إلى كنائس، ويمضي معظم وقته بالصلوات والابتهالات. وأصدر أمره بإبقاء الكنائس مفتوحة في الليل والنهار للعبادة. كما أعلن الصيام تذللاً إلى الله وخشوعًا. ولم يجد الإمبراطور في بجاية ما يعمله فأصدر أمره بجمع اليهود وقتل بعضهم واسترقاق الآخرين وبيعهم في أسواق أوربا.

ومكث الإمبـراطور أربعة عشـر يومًا فى (بجاية). وغـادرها يوم (١٦) تشرين الثاني -نوفمبـر -١٥٤١م بعد أن وعد حاميتهـا بالدعم السريع والإمداد العاجل، وعندما وصل إلى بلاده، رمى بتاجه إلى الأرض، وأقسم ألا يضعه على رأسه إلا بعد استيلائه علـى الجزائر. وحرم نفـسه من وضع التاج لأنه لم يـتمكن أبدًا من تحقيق هدفه وبقيت الجزائر المحروسة منيعة على المعتدين.

فـاقت نكبة الجـيش الذى قاده (شـارلكان) كل نكبـة تعرضت لهـا الحمـلات الصليبـية من قـبل، إذ بلغت خسارة هذا الجـيش (٢٠٠) سفينـة من بينها (٣٠) سفـينة حربية و (٢٠٠) مـدفع و (١٢) ألف مقاتل - بين قـتيل وغريق وأسـير- بالإضافة إلى كل عـتاد الحملة وتجهـيزها وتموينها. وكانت غنائم المسلمـين عظيمة وصفها أحد مـؤرخيهم بقوله: (وبقيت الجزائر كالعروس تختـال فى حليها وحللها من رخاء الأسعـار، وأمن الأقطار، ولم يبقَ لهم عدو يخافـون منه، وشاعت هذه القضية فى مشارق الأرض ومغاربها، وبقى رعب المسلمين فى أعداء الدين مدة من الزمن بأمن الملك الـعلام... وخلف اللـعين لأهل الجـزائر فـمـلأ أيديهم غناء، وكسبت البلاد من ذلك أموالا طائلة وفرج الله على أوليائه المسلمين).

وفى يوم ٢٥ كانون الأول (ديسـمبر) ١٥٤١ بعث الكونت (ألونزو دى قـرطبة) تقـريرًا من وهران إلى والده (الكونت د. الكـوديت) حاكم وهران. حـيث كـان ينوب عنه أثناء غيابه وجاء فى التقرير ما يلى:

(وردتنى معلومـات جديدة وموثوقة من الجـزائر تفيد بأن الأتراك أنقذوا خـمسًا من السفن - الإسبانيـة - التى سحبت أربع منها سالمة إلى الساحل، أمـا الخامسة فمصابة بعطب بسيط. كما أخرج الجزائريون من الماء ستين مدفعًا بين كبير وصغير - منها عشرون مدفعًا ضخمًا. وأرسل حسن أغا مندوبًا من قبله إلى ملك تلمسان (الملك محمـد) يسأله الإعانة استعـدادًا لتلقى صدمة الأرمادا الجـديدة. كما أرسل مندوبين عنه إلى (فليز - أوباديس) على الساحل الشمالى المغربى من أجل صناعة

سفن وابتياع أشـياء تحتاج إليها مـدينة الجزائر. كذلك استصرخ حسام أغا لنجدته القائد المنصور وكبار المرابطين بالمملكة التلمسانية)[١].

تلقى (محمـد حسن أغا) وإلى الجزائر نائب (خير الدين) لقب (البـاشا) مكافأة له على ما قدمه من جـهد، وما بذله من تضحية، ومـا أظهره من كفاءة فى إدارته للبلاد وفى إحباطه للهجمة الصليـبية التى قادها (شارلكان) والتى كان له فضل لا ينكر فى إدارة حربها. ومـضى (محمد حسن باشا) إلى حـشد الإمكانات والقوى بمجرد الانتهاء من مـعركته. وعمل على استـثمار الظفر فتقـدم على رأس جماعة قليلة من الجيش إلى (بسكرة) وغيرها من بلاد (الزيبان) ومـا يحيط بها حتى تخوم الصحراء، وأسفرت رحلته هذه عن انضـمام كل هاتيك الجهات إلى النظام الجديد الذى ثبتت جذوره فى العاصمة الجزائرية.

لكن أعداء الداخل لم يتوقفوا عن التآمـر مع أعداء قومهم ودينهم، وكان زعيم عائلة ابن القاضى فى (كـوكو) وهو (محمد بن محمـد) من أبرز المتآمرين. وكان شارلكان فى حاجة بعد هزيمته لدعم مثل هؤلاء الخونة. فدعم اتصالاته بهم.

وفى تلمسان، قـاد (أبو زيان) شقيق الملك محمـد - المرتبط بمعاهدة تحالف مع (شارلكان) حركة تمرد، ودعمه (محـمد حسن باشا) بالقوات وأمكن دحر (الملك) وإخراجـه من تلمسان. وعندئذ تحرك حـاكم وهران (الكونت. د الكوديت) لدعم (الملك محمد) ووقعت معركة بين (الملك محمد والقوات الإسبانية) من جهة وبين (أبى زيان) والقوات الوطنية الجزائرية من جهة أخرى عند (شعبة اللحم) على نحو ست كيلو مترات إلى الشمال الشرقى من (عـين تموشنت). وبعد قتال ضار انتصر المسلمون، وتمكنوا من إبادة القوة الإسبانية فى شوال ٩٥٠هـ- كانون الثانى - يناير - ١٥٤٣) وعندما عـلم شارلكان بالكارثة الجـديدة، أرسل جيـشًا من (١٥) ألف مقاتل إلى حـاكم وهران بمهمة الاستيـلاء على (تلمسان) وإخضاعـها من جديد، واستطاع السلطان محمـد حشد مثل هذا العدد. فأمكن له بذلك اسـتعادة سيطرته

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٦٢.

على تلمسان. غير أن أخاه (أبا زيان) عاد فنظم قواته، ودعمه أهل تلمسان والمسلمون، وأمكن له فى (معركة الزيتون) الانتصار بقبيلتها فظهرت خيانته وتعاونه مع أعداء الدين، فعملت على قتله هو ومن معه، وانتهت بذلك حياة أخطر أعداء الداخل وعادت تلمسان لتسهم مع الجزائر فى بناء المستقبل.

. نهاية خير الدين وتقييم أعماله الحربية:

لم يكن (خير الدين) وهو فى عاصمة الدولة العثمانية (القسطنطينية) يمارس عمله قائدًا أعلى للأسطول الإسلامى العثمانى، غافلا أو متغافلا، عما يدبره أعداء المسلمين. وقد تابع المراحل المختلفة التى أعد فيها (شارلكان) حملته. وقد اقترح منذ شهر حزيران (يونيو) ١٥١٤م تجهيز أسطول حربى من مائة سفينة، يتم إرسال خمسين سفينة منها إلى مياه الجزائر لاعتراض الأسطول الإسبانى. فى حين يتم إرسال خمسين سفينة أخرى لاعتراض هذا الأسطول وهو فى عرض البحر - غير أن المسئولين فى الديوان - الوزارة - لم يوافقوا على الاقتراح بحجة أن الجهد الحربى الذى تتطلبه الدولة فى صراعها مع الغرب يتطلب المحافظة على الكتلة الرئيسية للقوات البحرية فى مياه شرقى المتوسط. غير أنه تقرر إرسال دعم عاجل بمجرد التأكد من تحرك (شارلكان) إلى الجزائر. بحيث يقف الأسطول الإسبانى عندها محاصرًا بين القوات الجزائرية براً، والأسطول العثمانى بحرًا. وهكذا فما كادت أخبار الحملة الإسبانية على الجزائر تصل إلى الديوان حتى جهز (خير الدين) أسطولاً قوياً، وتولى قيادته بنفسه وهو ييمم شطر مياه الجزائر. غير أن معركة الجزائر لم تستمر أكثر من ١٢ يومًا - من الأحد ٢٣ تشرين الأول - أكتوبر - وحتى يوم الخميس ٣ تشرين الثانى - نوفمبر - ١٥٤١م.

وعندما وصل (خير الدين) كانت المعركة قد انتهت بالانتصار الحاسم للقوات الجزائرية. وتوقف (خير الدين) فترة قصيرة، اطلع فيها على تطورات الموقف، وشارك شعب الجزائر فرحة انتصاره. ثم انطلق بأسطوله نحو المياه الأندلسية والمياه الإيطالية متنقلا ما بين مدنها الساحلية، موجهًا الإغارات للتوغل داخل الأقاليم

حيث كان المجاهدون يندفعون بحماسة فيقتلون ويأسرون ويغنمون، وهم في ذلك كله ينتقمون لما حل بالمسلمين في تونس ووهران وتلمسان وبجاية، علاوة على ما نزل بمسلمي الأندلس، وحصل المسلمون على مغانم ضخمة، هي بعض ما غنمه الإسبانيون من ثروات العالم الجديد (أمريكا الجنوبية).

ولم يكن باستطاعة بقايا الأسطول الإسباني الخروج لاعتراض (خير الدين) بعد خسارته الفادحة في الجزائر، فمارس المسلمون إغاراتهم بحرية مطلقة.

وفي تلك الفترة حدث تحول على الساحة الأوربية. فقد تدهورت العلاقات من جديد بين ملكي إسبانيا وفرنسا. وكان الإسبانيون قد قتلوا في (لومبارديا) بإيطاليا رسولين فرنسيين، كانا يعبران البلاد الإيطالية المحتلة وهما تحت لواء السلام المنعقد بمدينة (نيس). وكان أولهما يحمل رسالة لدولة البندقية. في حين كان الثاني يحمل رسالة للسلطان (سليمان القانوني) فعادت الحرب بين الدولتين إلى سيرتها الأولى. ومد السلطان سليمان يده من جديد إلى (فرانسوا الأول - ملك فرنسا) ضد العدو المشترك (شارلكان) وتولى (خير الدين) قيادة الأسطول وهناك - في مارسيليا - باع خير الدين ورجال أسطوله الغنائم التي حملوها معهم من إسبانيا، كما باعوا فيها رقيق الإسبان من الرجال والنساء. فتداولتهم أيدي القوم. واشتراهم الفرنسيون بضاعة رابحة، ثم أخذوا يبيعونهم بأرباح طائلة إلى يهود (ليفورنو) الإيطالية، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الأرقاء إلى الإمبراطور (شارلكان) بأرباح خيالية. وانضم الأسطول الفرنسي إلى الأسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا. ووضع قائد الأسطول الفرنسي (الأمير فرانسوا دوبوربون) قواته تحت قيادة (خير الدين) باعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية - الفرنسية) وكان أول عمل قام له (خير الدين) هو قيادة القوات لمهاجمة (نيس) وطرد (حاكمها دوق سافوا) وانتزاعها من الحكم الإسباني وإعادتها لملك فرنسا. ثم استقر خير الدين بأسطوله في مدينة (طولون) وجعلها قاعدة للجيش الإسلامي والأسطول الإسلامي، بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا، وتركوها في أيدي المسلمين. ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الفرنسي.

وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوربا، ويحملها الإسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها إلى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم: (إن خير الدين قد اقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع فى طولون إلا أذان المؤذنين). وبقى خير الدين والجند الإسلامى بمدينة طولون حتى سنة ١٥٤٤م.

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقى فرنسا وانهزم تحت جدران (شاتو تييرى) ثم اضطر للذهاب إلى ألمانيا حيث كانت حركة التمرد البروتستانتى ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد أخذت أبعاداً خطيرة. وأرغمه ذلك - بعد أن هوى نجمه وذبل عوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر - إلى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم ١٨ - أيلول (سبتمبر) ١٥٤٤م فى مدينة (كريسمبى دى فالوا) ونتج عن هذه المعاهدة جلاء (خير الدين) وقواته عن مدينة (طولون) ورجع إلى العاصمة (إستانبول). وبما أن الحرب لم تتوقف بين إسبانيا والمسلمين، فقد استمر خير الدين فى ممارسة الأعمال القتالية أثناء طريق عودته، فتوقف أمام مدينة جنوة، وارتاع مجلس شيوخها، فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة مقابل عدم التعرض للمدينة بأذى، فتابع (خير الدين) طريقه حتى وصل جزيرة (ألبا) التى كانت تحت حكم إسبانيا - والتى أصبحت منفى نابليون بونابرت فيما بعد - فاحتلها، وغنم ما بها، كما احتل عدداً من المدن الساحلية، من بينهما مدينة (ليبارى) ورجع إلى العاصمة وسفنه مثقلة بالغنائم فاستقبل كأحسن ما تستقبل به الأم أبناءها البررة.

ولم يعمر خير الدين بعد ذلك طويلا، ومضى إلى جوار ربه، وكان قد سبقه رفيق جهاده - واليه على الجزائر - محمد حسن باشا سنة ١٥٤٤م. فتم تعيين المجاهد (القائد الحاج بكير) لولاية الجزائر بصورة مؤقته ريثما يتم تعيين والٍ جديد.

وتوفى (خير الدين) ولم يترك من الولد بعده إلا ابنه حسان وكانت أمه عربية من مدينة الجزائر.

واعترافًا بفضل خير الدين، وتلبية لرغبة الجزائريين أسند السلطان (سليمان القانونى) رتبة (أمير البحر - باى لرباى) إلى ابن خير الدين الوحيد (حسان) الذى ولد بمدينة الجزائر وتربى بين أهلها، وتعلم على أيدى علمائها. وكانت أمه سليلة إحدى بيوتاتها الكبيرة.

وغاب بوفاة (خير الدين) نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين فى البر والبحر، وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد فى سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة[١].

غير أن ما تركه للدنيا يبقى خالدًا فى الدنيا، وما عمله لآخرته يلقاه خالدًا مع الخالدين. وأفضل ما أقامه فى الدنيا هو تكوينه للدولة الجزائرية التى أخذت على عاتقها واجب (الجهاد فى سبيل الله) ضد كل الحملات الصليبية.

لم تكن حروب (خير الدين) فى البر والبحر إلا نوعًا من (حروب الإيمان) التى عرفها العرب المسلمون ونشروها على الدنيا كلها. ولقد أبرزت الملامح العامة لسيرة (خير الدين) وفقًا لما سبق عرضه أن هذا القائد العظيم قد جابه فى حياته صعوبات لا نهاية لها، بل إن هذه السيرة لم تكن أكثر من سلسلة من العقبات والصعوبات الآخذ بعضها برقاب بعض والتى لم يكن أقلها مجابهة قوات متفوقة على قوته بما لا يمكن قياسه أو مقارنته فى موازين القوى التقليدية، ولم يكن أقلها كذلك فقد الأعزاء - إخوته -فى الدعم وفى الجهاد فى سبيل الله حيث سقط الثلاثة فوق ثرى المغرب العربى الإسلامى.

والأمر مماثل فيما تلقاه (خير الدين) من الغدر على أيدى أعداء الداخل من الخونة والذين خذلوه، غير أن ذلك لم يضعف من تصميمه، أو ينال من عزيمته. ثم جاءت أخطار البحر والجوع والعطش والحرمان كلها لتحتل مكانتها فى جملة ما جابهة (خير الدين) من العقبات والصعوبات.

وقد كان من المحال احتمال ذلك كله - أو حتى بعضه لولا (الإيمان المطلق)

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٦٧.

ولولا ما يفرضه هذا الإيمان من فضائل كثيرة: كالوفاء والإخلاص وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها.

وكانت حروب (خير الدين) نوعًا من (حروب الإيمان) فى البر والبحر، وهو ما أكدته سيرة القائد الخالد، وهو ما تبرزه القصة التالية:

(عندما توفى عروج، وأسندت إلى خير الدين القيادة، استدعى رجاله ليتهيأوا للحرب ضد الإسبان الصليبيين، وبينما هو يعمل من أجل إخراج هذه الفكرة من حيز القول إلى حيز العمل، إذ جاءه رسول من ملك إسبانيا (شارلكان) يأمره بالتخلى عن الجزائر؛ لأنها كانت تحت تصرف الإسبان، ويستطيع الإسبانيون أن يخرجوها من أيدى العثمانين، وخير ملك إسبانيا (خير الدين) بين أمرين: أولهما أن يسلمها دون قتال، وثانيهما أن يستعد للقتال. وذكر له بأنه يجب ألا ينسى أن الإسبان لم يخذلوه فى معركة، وأنهم قتلوا أخويه الياس وعروج، وإن تمادى فيما هو عليه وركب رأسه فإن عاقبته ستكون كعاقبة أخويه. فأجاب خير الدين: (سترى غدًا، وإن غدًا ليس ببعيد، إن جنودك ستتطاير أشلاؤهم، وإن مراكبك ستغرق، وإن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة).

عند ذلك طاش عقل الملك من هذا الجواب الحاسم، وطار لبه وجهز كل ما عنده من قوة وحضر إلى الجزائر، وخرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧] وتقدم للميدان ومعه رجاله، وقال لهم: (إن المسلمين فى المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق، لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام) فصاحوا كلهم: (الله أكبر) وهاجموا الإسبان فأبادوهم عن آخرهم.

إن هذه الصورة لا تختلف أبدًا، لا فى شكلها ولا فى مضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين فى سبيل الله، والذين خرجوا من جزيرتهم فحملوا إلى الدنيا رسالة الإسلام. غير أن الموقف العام لم يكن فى عهد (خير الدين) مشابهًا لما

كان عليه أيام الفتح، فقد أخذ الضعف طريقه إلى قلب المسلمين وأنظمتهم، فقد كانوا من قبل تحت قيادة واحدة لا تسمح لأعداء الداخل بالظهور أو بممارسة دورهم فى التأثير على التيار العام. فى حين أصبح لهؤلاء دورهم فى توجيه الأحداث، وكان أخطر ما فى الأمر أن هؤلاء كانوا يحتلون مراكز قيادية تسمح لهم بممارسة دور خطير ضد مواطنيهم وإخوانهم فى الدين.

والواضح أن قضية (أعداء الداخل) هى من أخطر القضايا التى جابهت المسلمين فى عصر التحول من الهجوم الشامل إلى الدفاع الشامل، وهى الظاهرة التى سبق لها أن برزت أيام الحروب الصليبية فى المشرق، ثم تكرر حدوثها فى الأندلس الإسلامية، وجاءت لتبرز من جديد على مسرح أحداث المغرب العربى - الإسلامى، فكانت فى طليعة العقبات التى اصطدم بها (خير الدين) والتى أمكن له معالجتها بحزم أحيانًا، وباللين والإغراء فى أحيان أخرى، وفقًا لما كان يتطلبه الموقف.

وقد كان القضاء على أعداء الداخل هو المرحلة الأساسية لتحقيق الانتصار الخارجى. ومن هنا أيضًا فقد كان للانتصار الخارجى دوره بإضعاف أعداء الداخل وكشف خياناتهم، الأمر الذى ساعد على تصفيتهم. ولقد بقيت هذه العلاقة الجدلية الثابتة بين القوة الخارجية والقوة الداخلية هى العلاقة الثابتة والمميزة لقوة الأنظمة وقدرتها على البقاء والاستمرار، والأمر صحيح بالنسبة إلى العلاقة الجدلية المضادة، فالتمزق الداخلى وبروز (أعداء الداخل) ما هو إلا دليل فى الواقع على مرحلة احتضار الدول وبرهان على قرب انهيارها. ومن هنا أيضًا تظهر أهمية الدور الذى اضطلع به خير الدين فى إنقاذ المغرب العربى الإسلامى من المحنة التى كان يجابهها، والتى كان يتعرض لها. فقد أدت الهجمة الصليبية إلى ظهور الطبقة المتسلطة من (أعداء الداخل) ولم يكن هناك من أمل لتحويل التيار إلا بظهور قوة يمكن لها مجابهة القوى الصليبية، الأمر الذى يفسح المجال للقوى المؤمنة الصادقة لممارسة دورها التاريخى والاضطلاع بمسئوليتها القومية والدينية، وكانت الجزائر

بأرضها وبشعبها منبت تلك القوى التى عملت على تحويل تيار الاستسلام إلى تيار المجابهة[١].

لقد استطاع (خير الدين) مجابهة الهجمة الصليبية فى أشرس مراحلها، مرحلة تصفية الأندلس الإسلامية، واستطاعت (الجزائر المحروسة) مجابهة الهجمة الصليبية وهى فى ذروة قوتها وجبروتها. ونشأت عن هذا التلاحم الصادق بين (تيار الأحداث) و(قصة البطل) ظهور الملحمة الخالدة. ملحمة بناء الجزائر قوة لها وللعرب المسلمين فوق كل أرض العرب المسلمين. غير أنه فى مرحلة التحول الحاسم، كان من المحال إعادة العجلة إلى الوراء، والعودة بالأندلس إسلامية كما كانت أيام الفتح، فقد أظهرت مسيرة الأحداث - عبر سيرة القائد خير الدين - تلك القوى الهائلة التى تكتلت للعمل ضد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وعلى كافة الجبهات فى أوربا كما فى إفريقيا الإسلامية، وفى البر كما فى البحر. ومن هنا تظهر أهمية الدور الذى اضطلع به (خير الدين) ومن ورائه (الإمبراطورية العثمانية) فى إيقاف الهجمة الضارية، والتصدى لها، والعمل على إحباطها. ومن هنا أيضًا تظهر كفاءة (خير الدين) السياسية، وتفكيره السليم، عندما ربط جهوده بجهود المسلمين فى الجزائر - وفى المغرب العربى - الإسلامى من جهة مع جهود الإمبراطورية العثمانية من جهة أخرى.

ذلك هو موقع (خير الدين) فى التاريخ، إنه قائد التحول فى مسيرة الصراع من مستوى العمليات المحدود إلى المستوى الشامل. ومن المستوى المحلى إلى المستوى الدولى. ولقد مر هذا التحول بمراحل مختلفة، بداية من ممارسة القرصنة (الحرب الدفاعية المحدودة) إلى مستوى العمليات المحدودة لمصلحة (دولة تونس) ومنها إلى مستوى المغرب العربى - الإسلامى، ومن هذا المستوى إلى مستوى العالم الإسلامى عبر ربط الصراع بالإمبراطورية العثمانية. ولقد مر هذا التطور عبر الإدراك التام لطبيعة المرحلة وطبيعة الصراع الذى كانت تخوضه الأمة العربية الإسلامية خاصة والأمم الإسلامية عامة، وهنا نعود إلى بداية القصة.

---

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص١٧٢.

لقد خرج (عروج) إلى البحر غازيًا مجاهدا لمقاومة الظلم الذى يتعرض له المسلمون فى الأندلس وفى كل مكان من أوربا، ووقع فى قبضة الأسر، وعانى عبودية القيد، فكان لذلك دوره فى تحديد هدفه من الصراع (الجهاد فى سبيل الله) وانطلق مع إخوته، ومع فئة من المجاهدين، فى هذه الحرب غير المتكافئة، ووظف الإخوة (ذوى اللحى الشقراء) انتصاراتهم لمصلحة (سلطان الحفصيين فى تونس)(١).

غير أن هؤلاء كانوا دون مستوى المسئولية خلال تلك المرحلة التاريخية، وجاءت مسيرة الأحداث والتى دفع (الإخوة ذوو اللحى الشقراء) ومعهم الشعب المجاهد فى المغرب العربى الإسلامى ثمنها غاليًا من دمائهم وكرامتهم. وتأكد خير الدين عبر هذه التجارب الذاتية أنه من المحال مجابهة الهجمة الصليبية الشاملة بحروب محدودة ذات هدف محدود، كغنم سفينة أو الدفاع عن مدينة، أو الإغارة على جزيرة. فكان الدفاع الشامل هو الأسلوب الوحيدة لمجابهة الهجوم الصليبى الشامل.

وإذا كان (عروج) وإخوته (أصحاب اللحى الشقراء) قد اشتهروا فى أوربا بأنهم قراصنة، غير أنهم لم يكونوا قراصنة فى أساليبهم وأهدافهم. لقد خرجوا للجهاد فى سبيل الله، فكانوا زاهدين بما يحوزونه من غنائم، وما أرادوا من الغنائم إلا استنزاف قدرة العدو وزيادة قوة المسلمين، بدلالة تقديم ما كانوا يحصلون عليه إلى (والى تونس) وإلى (بيت مال المسلمين) وإلى صندوق الخزانة فى الإمبراطورية العثمانية. وأفاد الجميع من هذه الغنائم ما عدا (الإخوة أصحاب اللحى الشقراء)، غير أن فائدتهم كانت أكبر من كل تقويم عندما أمكن لهم دعم القدرات فى الجزائر بعد أن أهدر (ملك تونس) هذا الدعم ووظفه فى غير مصلحة الإسلام والمسلمين.

ولم يكن (خير الدين) يبحث عن (مجد شخصى) بدلالة عزوفه عن هذا المجد عندما عرضه عليه (شارلكان) فى حين تهاوى (أعداء الداخل) فكان فى ذلك

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٧٣.

سقـوطهم، وكان فى ذلك المجد الحقـيقى والخالد للبطل (خـير الدين) الذى ربط جهـده وعملـه ووجوده بقـضية المسـلمين. فى حـين انتهى أولئك الذين عـملوا لدنياهم، وسطروا أبشع صورة (لأعداء الوطن والدين).

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن الحروب البحرية أن ننتقل بالحديث عن فن الحرب وهى أسس فنية يمكننا أن نلمحها فى خطط وحروب خير الدين وهى التى مكنتـه من تحقيق العـديد من الإنتصـارات بلا شك. لقد كـانت تلك الأسس فى الواقع صـورة عن أسس (فن الحـرب عند العرب المسلمـين) بطرائقـهـا التقليـدية والثورية:

١- اتخذ قـاعدة قوية ومـأمونة. بدأت (بحلق الوادى) و (جزيرة جـربة) وانتهت بقاعـدة الجزائر. وقد كـان تكوين القاعـدة القوية والمأمـونة هو أول عامل من عوامل النجاح.

٢- لقد تنوعت طرق القـتال، حيث قاتـل أصحاب اللحى الشقـراء فى البر وفى البحر، واتخـذوا طريقتين: الأولى عرفت بمرحلة الاستنزاف، والثـانية مرحلة الهجوم الشامل. وتأتى المرحلة الثانيه بعد أن يتم استنزاف العدو من حيث قوته ومؤنه وتموينات وسفنه الحربية، وقد أجاد هؤلاء الإخوة إجادة رائعة فى تدويخ فريستهم ريثما يتم الانقضاض.

وفى الواقع فقـد كان من المحـال مجابهـة التفـوق للقوى الصليبيـة بغـير هذا الأسلوب الذى أكد فاعليته فى حروب الجـزائر - الثلاثة وآخرها حملة شارلكان - بقدر ما أكـد فاعليته فى الحروب البـحرية. حيث كانت تقوم مـجموعات خفـيفة الحركة، بتـوجيه ضربات عنيفـة ومباغتة ثم الانـسحاب قبل أن يستـفيق العدو من ذهول الصدمة. وقد أدى تنفـيذ هذه العمليات باستمـرار إلى استنزاف قدرة العدو المادية والمعنوية قبل مجابهة بهجوم شامل يدمـر بقية قدرته على الصمود والمقاومة. ولقد كان من المحال تحقيق النجاح فى مثل هذه العمليات لو لم تتوافر كفاءة قيادية عالية، تتولى إدارة المعركة فى كل مرحلة من مراحلها الصعبة.

وقد توافرت العوامل الثلاثة للنصر: شعب مجاهد فى سبيل الله، وتطبيق رائع للعقيدة الإسلامية، وقيادة على درجة عالية من الكفاءة. بذلك انتصر (شعب الجزائر) وبذلك انتصر (خير الدين) فكتب شعب الجزائر مع خير الدين قصته الرائعة فى الجهاد والمجاهدين.

ولم يكن (خير الدين) قادراً على تحقيق ما يريده لولا ما قام به شعب الجزائر المجاهدة، وما كان شعب الجزائر ليصل إلى هدفه لولا توافر قيادة حازمة مارس (خير الدين) دوره فى تكوينها وصنعها لتصبح على مستوى الأحداث.

لقد مضى خير الدين إلى جوار ربه راضيًا مرضياً، وبقى شعب الجزائر يردد على الدهر تلك الأسطورة الخالدة (أسطورة بابا خير الدين) الذى تولى قيادة الجزائر المجاهدة فى أصعب ظروف الجهاد. وضمن لها مصادر القوة الذاتية - قوة الإيمان وقيم الجهاد فى سبيل الله.

ومضى خير الدين إلى جوار ربه راضيًا مرضياً، وبقى المسلمون يرددون الأغنية الحلوة، أغنية القوة والكرامة: لقد نصر الله فنصره الله ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧][1].

هـ- الحكم العثمانى يصون إسلامية وعروبة الجزائر:

لقد مر الحكم العثمانى فى الجزائر بأربعة أطوار رئيسة: أولها عهد البايلربايات ١٥١٩-١٥٨٧م، وثانيها عهد الباشاوات ١٥٨٧- ١٦٥٩ م، وثالثها عهد الأغاوات ١٦٥٩-١٦٧١م، ورابعها عهد الدايات١٦٧١- ١٨٣٠م. وسوف نفرد الحديث عن العهد الأول عهد البايلربايات لتزامنه مع الفترة التاريخية للبحث من ناحية وتجنب الإطالة من ناحية أخرى.

- الجزائر فى عهد البايلربايات ١٥١٩-١٥٨٧ م:

غدت مدينة الجزائر وتوابعها منذ أواخر سنة ٩٢٥هـ- ١٥١٩م تابعة للدولة

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٧٦.

العثمانية مرتبطة بها، دون أن تتجشم هذه الأخيرة عناء غزوها، كما حدث بالنسبة إلى بلاد الشام ومصر، والعراق وغيرها وتونس أيضًا كما سنرى، وغدا خير الدين حاكمًا تابعًا للسلطان العثمانى، إلا أنه كان فى واقع الأمر يتمتع بسلطات واسعة فى الجزائر، لا تقل عن سلطات الملوك، وإن لم يكن رسمياً إلا بايلربايا، أو أميرًا للأمراء فيها وهو اللقب الذى حمله هو، وعدد من الحكام الأساسيين الذين خلفوه فى حكم الجزائر فى الفترة ١٥١٩-١٥٨٧م، التى تعرف بعهد البايلرباى. وقد كان السلطان العثمانى يعين هؤلاء لحكمها لفترة غير محدودة بزمن ويختارهم غالبا من أكفاء الرجال الذين خدموا فى الجزائر.

وغالبًا ما كان بايلربايات الجزائر يرشحون لاستلام البحرية العثمانية، وقيادة الأسطول العثمانى أى منصبه قبودان باشا. وقد نجح البايلربايات الذين تداولوا على حكم الجزائر فى:

١- **التصدى لمزيد من الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر، وشرشال ومستغانم وغيرها، وإفشالها**، وإلحاق خسائر كبيرة بها، جعلت الإسبان فى نهاية الأمر فى موقف الدفاع، لا الهجوم. ولا سيما بعد فشل حملتهم على الجزائر فى سنة ١٥٤١م التى قادها الإمبراطور شارلكان بنفسه. والقضاء على حملتهم الموجهة ضد مستغانم فى سنة ١٥٥٨م بقيادة حاكم وهران الكونت دالكوديت.

٢- **النجاح فى تحرير العديد من المواقع التى كان يحتلها الإسبان، و فى مقدمتها:**

صخرة الجزائر البنون فى سنة ١٥٢٩م، وعنابة فى سنة ١٥٤٠م، وبجاية فى سنة ١٥٥٥م. و الإخفاق فى تحرير وهران، والمرسى الكبير، لتخليص الإسبان فيها، و وصول المدد إليهم من جهة البحر.

٣- **النجاح فى توحيد أجزاء كثيرة من البلاد الجزائرية**، التى كانت تابعة للمماليك، والإمارات الحفصية والزيانية، وللأمراء وشيوخ القبائل المنشقين عنهم، وربطها بمدينة الجزائر التى اتخذوها حاضرة للبلاد كلها، بحيث غدت معظم أجزاء الجزائر الحالية من مشمولات حكمهم.

وقد وجدوا فى سبيل بسط نفوذهم عليها مقاومة ومعارضة من سلاطين بنى زيان، وبنى أبى حفص، وغيرهم، وكذلك من الإسبان، وأخيرًا من الأشراف السعديين حكام المغرب الأقصى، إلا أنهم تمكنوا من التصدى بنجاح للسعديين من الحملات الإسبانية ما تقدم، والحفصية، والزيانية، والسعدية، وغيرها، ومن التغلب على مقاومات الزعامات المحلية.

٤- القضاء نهائيّاً على نفوذ الزيانيين فى تلمسان، وتنس و كل الغرب الجزائرى وذلك فى سنة ١٥٥١م، وعلى نفوذ الحفصيين فى الشرق الجزائرى، والمساهمة فى القضاء عليه حتى فى تونس نهائيّاً فى سنة ١٥٧٤م.

٥- العمل على مد نفوذ الجزائر، والدولة العثمانية إلى المغرب الأقصى، والنجاح فى مرتين على الأقل فى ضم فاس وممتلكاتها وذلك فى سنة ١٥٥٤م ثم فى سنة ١٥٧٦م، وتنصيب سلطان موالى لهم فيها وهو أبو حسون الوطاسى فى المرة الأولى، وعبد المالك السعدى فى المرة الثانية.

٦- النجاح شيئًا فشيئًا فى إرساء دعائم الحكم العثمانى فى الجزائر، والشروع فى أحداث تنظيمات إدارية فيها، وتقسيمات إقليمية جديدة بحيث أصبح الغرب الجزائرى بايليكية قاعدته الأولى مازونة ثم معسكر ومستغانم قبل أن يستقر المقر فى وهران بعد فتحها الأول والثانى فى القرن الثانى عشر، وأصبح الشرق الجزائرى بايليكية أيضًا قاعدته مدينة قسنطينة. وغدا القطاع الأوسط من البلاد ويتشكل من بايليكية التطرى وقاعدته مدينة المدية فى قسمه الجنوبى. ومن دار السلطان فى قسمه الشمالى الممتد من دلس شرقًا و تنس غربًا. وهذا القسم كان تابعا مباشرة للإدارة المركزية فى مدينة الجزائر. وقد كان على رأس كل بايليكية باى تابع لحاكم الجزائر، البايلرباى، أو الباشا، أو الآغا، أو الداى، وهى التسميات التى حملها حكام الجزائر خلال مراحل العهد العثمانى فى الجزائر.

وقد نشأ حكام الجزائر العثمانيون مؤسسات عسكرية، وإدارية ودينية، وعملية

ساعدتهم على التحكم فى زمام الأمور فى الجزائر، وسيأتى الحديث عنها كمؤسسة ديوان الجند وطائفة الرياس والمؤسسة القضائية ...إلخ.

٧- نجحوا فى إيجاد سند لهم فى مهمتهم من بين أهالى الجزائر، و المهاجرين الأندلسيين الذين وفدوا على الجزائر بكثرة فى القرن ١٠هـ/ ١٦م. وحتى القرن ١١هـ/ ١٧م. وكان لحكام الجزائر الفضل الكبير فى إنقاذ عدد كبير منهم من جحيم الاضطهاد الذى كانوا يعانون منه فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، وتنكر الحكام الإسبان للعهود التى قطعوها لهم،كما نجحو فى استمالة كثير من الأعلاج إلى صفهم بفتح أبواب العمل أمامهم والارتفاع إلى أعلى المناصب فى الجزائر. وكان لكثير منهم الفضل فى تحقيق النجاحات المذكورة أعلاه، وأولهم حسن أغا خليفة خير الدين على الجزائر الذى كانت له أيادٍ بيضاء فى الدفاع على مدينة الجزائر ضد حملة شارلكان، وفى إعادة نفوذ الجزائر على المناطق المستولى عليها، وتوسعته إلى مناطق جديدة. والعلج على الذى مد نفوذ الجزائر فى عهده إلى تونس، وحسن فنزيانو وغيرهم.

وقد برز الأعلاج على الخصوص فى قيادة حملات الغزو البحرى الذى ازدهر منذ القرن ١٠هـ/ ١٦م والذى اشتد ظهوراً ولا سيما فى القرن ١٧م مما أرغم الدول العديدة على طلب السلم مع الجزائر، والقبول بدفع إتاوة لها، وفى المساهمة فى الحملات العثمانية والمعارك البحرية للدولة العثمانية كالحملة على مالطة، ومعركة ليباينى وغيرهما.

ويمكن القول على وجه الإجمال أن خير الدين وخلفاءه البايلربايات قد نجحوا فى إرساء دعائم الحكم الجديد فى الجزائر إلى حد كبير. وما لم يتحقق فى عهد البايلربايات، أتم تحقيقها خلفاؤهم فى مراحل الحكم العثمانى الأخرى هى عهد الباشاوات ١٥٨٧-١٦٥٩م. وعهد الأغاوات ١٦٥٩-١٦٧١ م وعهد الدايات ١٦٧١-١٨٣٠م قبل أن يخفق حسين داى آخر الدايات فى التصدى للحملة.

❁ ❁ ❁



جهاد العثمانيين البحرى فى حوض البحر المتوسط

[بهدف الإنقاذ واسترداد الأندلس]

أولاً: إعداد البحرية الجزائرية الضاربة فى البحر المتوسط.

ثانيًا: تنظيمات البحرية العثمانية.

ثالثًا: النشاط الحربى للأسطول العثمانى.

رابعًا: نبذة مختصرة عن أمراء البحرية العثمانية.

تمهيد:

كان من آثار التهجير الجماعى للمسلمين من الأندلس ونزوح أعداد كبيرة منهم إلى الشمال الإفريقى أن حدثت العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية فى ولايات الشمال الإفريقى، وكان من بين المسلمين النازحين على هذه المناطق أعداد وفيرة من البحارة، وأصبح من الضرورى أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة إلى طريق الجهاد ضد القوى المسيحية فى البحر المتوسط، ويأتى فى مقدمة هذه الأسباب الدافع الدينى بسبب الصراع بين الإسلام والنصرانية وإخراج المسلمين من الأندلس ومتابعة الإسبان والبرتغال للمسلمين فى الشمال الإفريقى[١].

وقد بدأت حركات الجهاد الإسلامى ضد الإسبان والبرتغاليين غير منتظمة حتى ظهور الأخوان خير الدين وعروج باربروسه، واستطاعا تجميع القوات الإسلامية فى الجزائر وتوجيهها نحو الهدف المشترك لصد أعداء الإسلام عن التوسع فى موانئ ومدن الشمال الإفريقى.

وقد اعتمدت هذه القوى الإسلامية الجديدة فى جهادها أسلوب الكر والفر فى البحر بسبب عدم قدرتها فى الدخول فى حرب نظامية ضد القوى المسيحية التى تألفت من إسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا، وقد حقق هؤلاء المجاهدون نجاحًا أثار قلق القوى المعادية، ثم رأوا بنظرهم الثاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين ضد النصارى الحاقدين.

وقد حاول المؤرخون الأوربيون التشكيك فى طبيعة الحركة الجهادية فى البحر المتوسط، ووصفوا دورها بالقرصنة وكذلك شككوا فى أصل أهم قادتها وهما خير الدين وأخوه عروج الأمر الذى يفرض ضرورة إلقاء الضوء على دور الأخوين وأصلهما، وأثر هذه الحركة على الدور الصليبى فى البحر المتوسط فى زمن

(١) الدولة العثمانية د. على الصلابى ص٢٥٤.

السلطان سليم والسلطان سليمان القانونى، وهذه القضية سوف نوضحها فيما بعد عند الحديث عن القرصنة.

اهتمام العثمانيين بالعمارة الحربية وبناء الأساطيل:

من المعروف أن الدولة العثمانية نشأت دولة برية فى الأناضول. ولما عبرت جيوشها البحر إلى غاليبولى عام ١٣٥٦م تبعتها حركة تهجير واستيطان[١]. فى السهل الساحلى الأوربى المطل على بحر مرمرة حتى رودستو. ومضت الدولة معتمدة على جيوشها فى محاربة الدول الأوربية مثل الصرب التى كانت تعتمد هى الأخرى على قواتها البرية. ولذلك كان فى مقدور الدولة العثمانية أن تقضى على إمبراطورية الصرب دون اللجوء إلى قوات بحرية[٢].

ونهج العثمانيون نفس النهج عندما فتحوا إقليمى الأفلاق والبغدان وبلاد المجر وغيرها من الدول والكيانات السياسية التى كانت تعتمد عى القوات البرية وحدها. أما بلاد اليونان فقد فتحها العثمانيون من الداخل وكانت ذات سواحل قليلة نسبياً، ومن هنا كان العثمانيون يختلفون عن البيزنطيين الذين كان لهم أسطول، إذ كانت ممتلكاتهم تمتد على سواحل بحرية كما كانوا يمتلكون عدداً كبيراً من الجزر. وكان العثمانيون يختلفون أيضًا عن البنادقة والجنويين الذين كانت قواتهم الرئيسية الضاربة تعتمد على السلاح البحرى. وبمضى الوقت شعر العثمانيون بالحاجة الماسة إلى إنشاء أسطول لتأمين فتوحاتهم فى البلقان وللاستيلاء على الجزر المحيطة بهذا الإقليم وفى بحر إيجة والبحر الأيونى، وللقضاء على البقية الباقية من ممتلكات البيزنطيين، ولطرد البنادقة والجنويين من المناطق المتعددة التي كانوا قد تغلغلوا فيها وامتلكوها منذ أن أتاحت لهم الحروب الصليبية عديد الفرص لتنمية تجارتهم.

ومن هنا كانت الدولة العثمانية فى حاجة ضرورية لأسطول قوى يؤمن حدودها ويحمى سواحلها، غير أن نشأة الأسطول العثمانى كانت ترجع أساسًا إلى رغبة

(١) انظر ملابسات حركة تهجير واستيطان مسلمى الأناضول، وكانت حركة حكومية وشعبية كمقدمة للتوسع العثمانى الإقليمى فى أوربا.
(٢) المصدر السابق ص٨٦٦.

الدولة العثمانيـة فى القضاء على أسطول جمهورية البندقـية. وإذا رجعنا قليلا إلى الوراء نجد أن هذه الجـمهـورية كانت قـد استحـوذت على أكثـر من ربع ممتلكات الدولة البيزنطية فى مقابل الخدمات التى أدتها البندقية للحملة الصليبية الرابعة التى غيرت وجهتها من مصر إلى القسطنطينية[١]، وأطاحت بحكم الدولة البيزنطية التى استقرت مؤقتًا فى طرابيزون على الساحل الجنوبى للبحر الأسود ومناطق أخرى.

وإذا كانت بعض الجزر والأماكن فى شبه جزيرة البلقان كانت لا تزال فى أيدى الدولة البيزنطية والدولة اللاتينيـة التى أسسها صليبيو الحملة الصلـيبية الرابعة، لم يكن فى مقدور هاتين الدولتين المتـداعيتين إنشاء وسائل دفاع قويـة أمام الهجمات العثـمانية، كمـا لم يكن فى إمكان الدولة العثمـانية قهرهمـا دون أن يكون لديها سلاح بحرى[٢].

وفى ذات الوقت كان احتلال الممتلكات البيزنـطية واللاتينية أمرًا ضرورياً لسلامة الممتلكات العـثمانيـة، ثم كان هناك عامـل مهم جداً حـمل العثمـانيين على إنشاء الأسطول، وتمثل هذا العامل فى أن جمهورية البندقية كانت هى الدولة التى تستطيع بقواتها البحـرية الضخمة والمنظمة أحسن تنظيم الوقوف أمام العـثمانيين، ونجم عن هذا الوضع أن جمهورية البندقية كانت العقبة الرئيسية فى تأمين الفتوحات العثمانية على الأرض الأوربية وفى الجزائر القريبة منـها، ثم فى التوسع فى الحوض الشرقى للبحـر المتوسط على الأقل فى المرحـلة الأولى لنشأة الأسطول؛ ولذلك كـان إنشاء الأسطول العثمانى ضرورة قومية عثمانية للتغلب على أسطول جمهورية البندقية.

والحق أن جمهورية البندقية، وهى قوة غريبة وافدة من وسط أوربا، تسللت إلى عدة مناطق فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط. وأصبح لها مراكز ومحطات بحرية على سـواحل بلاد المورة وبحر الأرخـبيل وفى مقـدونيا وفى الدردنيـل (أبيدوس) وبحـر مرمـرة (رودستـو) وهرقليـة. والجزر الأيونيـة والجـزر الواقعـة فى جنوب

(١) روبرت كلارى: فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجـمة دكتور حسن حبشى القاهرة، ١٩٦٤ ص ١٠٩ - ١٥٤.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٨٦٧.

الأناضول وغربه. وكـان لها مراكز على ساحل دلماشيـا في البحر الأدرياتي وبعض الأقاليم في شبه الجزيرة الإيطالية واستـولت على جزيرتي كريت وقبرص. وكانت تريد الاحتفاظ بما استحوذت عليه من قواعد وما بلغته من نفوذ وقوة وهيبة.

وقد أطلق الأستاذ شـارل ديل أستاذ التاريخ البيزنطي بجـامعة باريس على تلك الممتلـكات (إمبراطورية البـندقية الاسـتعـمارية)[١] وكان الاسم الرسـمي لها هو (جمهورية القديس مرقص) وهي ذات نظام جمهوري أو ليجاركي. وتجاورت كثير من ممتلكات هذه الإمـبراطورية مع ممتلكات العـثمانيـين، كما أصـبحت البندقـية تتحكم فـي الطرق البحرية التـي تصل بينها وبين القـسطنطينية ومـواني الأناضول والشام ومـصر. ولهذه الأسـباب وغيـرها تضاربت مصـالح الدولة العثمـانية مع مصالح جمهورية البندقية، مما أدى إلى قـيام صراع حربي بينهما وكان هذا الصراع يدور فوق الماء ويعتمد على الأساطيل في المقام الأول. ولما كانت جمهورية البندقية أسبق من الدولة العـثمانيـة في الاعتمـاد على الأساطيل الحربيـة، بل والأساطيل التجـارية التي كانت تـتـحول عند الحـاجة إلى أسـاطيل حربية، كـان على الدولة العثمانيـة أن تبذل عناية بالغة بإنشاء أساطيل تنافس أساطيل البندقـية إن لم تتفوق عليهـا في صراع زاده عنفًا وتأججًـا ما طبع عليه الفـريقان المتصارعـان من طموح واعتـزاز بالنفس وشجاعـة فائقة وعـزيمة لا تنثني أمام الأخطار. وكـان من عادة البحارة البنادقة أنهم عند التـحامهم مع العدو تنطلق حناجرهم بصيحـات جماعية مدوية ماركو! مـاركو! استجلابًا لبركات هذا القديس واعـتقادًا منهم أن التوسل به يحقق لهم نصرًا عزيزًا في المعركة.

ويلاحظ أن جمهـورية البندقية أقامت مـجدها على التجارة الخـارجية، وأثرت منها ثراء عـريضًا معتـمدة على أسطولها، وكـما كانت التجـارة الخارجية مـصدر قوتها، كانت هي العـامل الموجه لحكومة الجمهورية في عـلاقاتها الدولية، ولذلك

(١) شارل ديل: البندقـية جمهـورية أرستقـراطية، تعريب دكتـور أحمد عـزت عبد الكريم والأستـاذ توفيق إسكندر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٧م، ص٣٩.

كانت سياستها الخارجية متقلبة بل وخالية من المبادئ. فهى حينًا ترحب بالإسهام فى حملة صليبية موجهة ضد العثمانيين إذا رأت أن فى هذا الأشتراك ما يكفل لها المحافظة على ممتلكاتها ومصالحها التجارية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، كما حدث حين وضعت أسطولها ومواردها المالية فى خدمة حملة نيقوبوليس الصليبية عام ١٣٩٦م ضد السلطان أبى يزيد الأول. وكانت هذه الحملة تجسد أكبر التكتلات الصليبية التى واجهتها الدولة فى القرن الرابع عشر من حيث عدد الدول التى اشتركت فيها بالسلاح والعتاد والأموال والقوات البرية والبحرية[١]. وكانت حينًا آخر تهادن العثمانيين بل وتقبل شروطًا مهينة لها إذا لقيت هزيمة من الأسطول العثمانى، ورأت أن هذه المهادنة وقبول الشروط المذلة مما يسمح لها باستئناف نشاطها التجارى فى أسواق الحوض الشرقى للبحر المتوسط. ومن هنا ولمواجهة ذلك النشاط البحرى التجارى والعسكرى وصيانة حدود الدول الإسلامية فى شمال إفريقية كان لا بد من إعداد قوى بحرية تواجه قوى الاعداء من جهة وتحافظ على سواحل وجزر المسلمين من أن تقع فى أيدى الإسبان أو البرتغال من جهة أخرى، كما سنوضح بعد.



(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٨٦٩.

أولا: إعداد البحرية الجزائرية الضاربة فى البحر المتوسط

- إعداد المرافئ والسواحل الجزائرية للجهاد البحرى:

كان وجود الحامية الإسبانية فى (جزيرة الصخرة - صخرة الجزائر) أمرًا يتناقض مع ما تتطلبه مدينة الجزائر من (الأمن). فقرر (خير الدين) بعد أن تم له تنظيم الأمور العمل على تحريرها. وهكذا أخذت المدفعية الجزائرية بقذف قنابلها الحديدية من مرابضها التى تم تشييدها على مسافة مائتى متر فقط من جدران المعقل الإسبانى، وذلك فى شهر رمضان ٩٣٦ هـ (٦ أيار - مايو - ١٥٢٩م). وأمر (خير الدين) بتجهيز كل السفن الحربية وشحنها بالرجال والعتاد، وأذاع فى كل مكان أنه سيبحر إلى السواحل الإسبانية من أجل الغزو والجهاد وخرجت السفن فعلاً من وراء صخور الجزائر، وأخذت طريقها نحو الشمال، لكن تلك السفن عادت أدراجها تحت جنح الظلام، واختبأت فى مرفأ (نتغوس) المقابل للجزائر على الطرف الآخر من الخليج. وكان معقل الصخرة حصينًا جداً، وقد بذل الإسبانيون جهدًا كبيرًا لتحصينه وزيادة قوته، وأقاموا فيه مستودعات ضخمة من الأسلحة والأعتدة والمواد التموينية حتى تتمكن حاميته من الدفاع عنه لمدة طويلة.

لم تتمكن الرمايات الأولى من التأثير كثيرًا على تحصينات المعقل وأسواره، وفى يوم الخميس ٢٢ أيار (مايو) فتحت بطاريات المدفعية الجزائرية المتمركزة فى المدينة نيرانها بكثافة عالية. واستمر القصف طوال يوم الخميس وليلة الجمعة بكاملها حتى الفجر، ثم صمتت المدفعية. وظن أفراد الحامية الإسبانية أن العملية قد انتهت، وأنه باستطاعتهم أخذ قسط من الراحة، وفى تلك الفترة بالذات كان الأسطول الجزائرى يخترق الخليج من ناحية (تاما - نتغوس) تتقدمها تلك السفينة الضخمة التى كان خير الدين قد غنمها من البنادقة - دولة البندقية وشحنها بالسلاح والرجال. وأحاطت السفن بالجزيرة من الشرق والغرب. وعندما تنبه الحرس

والمراقبون فى القلعة لحركة القوات الإسلامية، وأطلقوا النفير لاستنفار القوات، كان الوقت متأخرًا جداً. إذ ما لبث المجاهدون حتى غادروا سفنهم وقاموا بالإنزال فوق أرض المعقل، وهاجموا الحصن بإغارة مباغتة وتمكنوا من اقتحامه.

دارت بعد ذلك معركة قصيرة وحاسمة، سقط فيها (٦٥) مقاتلاً من الإسبانيين وأنصارهم وخسرت قوات المسلمين (١١) تركياً و(٣٥) عربياً. وأسر المسلمون من الإسبانيين (٩٠) جندياً و(٢٥) من النساء والأطفال. وكان قائد معقل الصخرة (مارتينو دى فاركاس) بين الأسرى. وقد حاول التستر على المخبأ الذى أودع فيه مقداراً من المال، فتعرض للتعذيب حتى استخرج الأموال التى بلغت ألفى دوقة (٤٨) ألف دينار جزائرى. ثم جعلوه بعد ذلك على بقية الأسرى، الذين كلفوا ببناء منارة مسجد خير الدين، الذى كان قد بدئ ببنائه فى العاصمة الجزائر. وقسم (خير الدين) الأسرى إلى قسمين تم تكليف القسم الأول بتدمير التحصينات التى أقامها الإسبانيون فى جزيرة الصخرة (أبنيون) فيما تم تكليف القسم الثانى ببناء المسجد ورفع مئذنته.

وما كادت هذه العملية تتم حتى ظهرت فى الأفق سفينة إسبانية ضخمة تحمل على ظهرها قوة تتكون من سبعمائة محارب علاوة على الأسلحة والإمدادات المختلفة. وكانت أبراج الحراسة الجزائرية تتابع - بالمناظير المقربة - تحرك هذه السفينة وهى تقترب من معقل الصخرة. ولم يلبث سفن المجاهدين أن انقضت عليها وأسرتها، واقتادتها إلى ميناء الجزائر[١].

وقرر (خير الدين) تحصين الجزائر، فأمر جماعة الأسرى بنقل الصخور والحجارة التى تراكمت من أنقاض معقل الصخرة، وذلك لوصل البر بجزيرة أصطفلة تحت إشراف معلمى البناء الجزائريين. كما أرسل السفن إلى الجهة المقابلة نحو الخليج عند مرفأ (تامانتغوس) فجاءته بصخور رومانية قديمة لإكمال العمل. وبذلك أمكن بناء الجسر العريض الذى لا يزال يحمل حتى اليوم اسم (جسر خير

(١) خير الدين باربروسا المرجع السابق ص١١٩.

الدين) والذى وصل بين الجزر العشرين بعضها ببعض ببناء دائرى متين ليست فيه إلا فتحة واحدة. وهكذا تم إنشاء مرسى مدينة الجزائر العتيق (الذى يعرف اليوم باسم الجفنة) والذى أصبح مقراً للأسطول الجزائرى يحميه من العواصف التى تحملها رياح الغرب.

وما إن حقق خير الدين انتصاره العظيم بتحرير جزيرة (أبنيون) حتى أعلن: (أن من كان يؤمن بالله ورسوله، ويريد الجنة فى الدار الآخرة، فعليه أن ينضم إلى جيشه بكل سرعة، وذلك لمهاجمة وهران والمرسى الكبير). وانصرف الأسطول الإسلامى أثناء ذلك للجهاد فى البحر، وكان الأسطول الجزائرى يشمل (١٥) سفينة من نوع (القالير) وألقى الرعب والهلع فى قلوب سكان السواحل الإسبانية، إذ أمعن فيهم حربًا وتدميرًا إلى درجة أن السكان تركوا قراهم وهجروها والتجأوا إلى داخل البلاد. ومقابل ذلك كانت بقايا المسلمين الأندلسيين تشعر بالبهجة لهذه الانتصارات التى بعثت الأمل فى نفوسهم، وعوضت عليهم بعض ما يلقونه من قهر واضطهاد[١].

وتلقى قائد الأسطول الإسبانى فى سنة (١٥٣٠م) أمرًا إمبراطورياً بأن يتقدم لمهاجمة الاسطول الإسلامى وتدميره. فاستعد الأميرال (أفريدركو بور - توندو) للحملة الصليبية الجديدة. وانطلق بقوة (١٢) سفينة حربية ضخمة لمطاردة أسطول (خير الدين) إلى أن وجده بين جزيرتين من جزر البالينار. وظن الأميرال الإسبانى أن الموقف لمصلحته، فهاجم الأسطول الجزائرى بقوة وعنف، وقذفه بنيران مدافعه. غير أن الأسطول الإسلامى تلقى الصدمة بثبات، ووجه (خير الدين) على الفور هجومًا مضاداً ركزه على سفينة القيادة الإسبانية. وقاد (خير الدين) سفينته بنفسه، وانطلق بها كالسهم حتى وقف بمحاذاة الهدف، وقفز المجاهدون على ظهر السفينة الضخمة وسيوفهم تلتمع فى أيديهم. ودارت معركة عنيفة قتل خلالها قائد الأسطول الإسبانى وقسم كبير من أفراد سفينته، ووجه (خير الدين) هذه السفينة نحو بقية سفن الأسطول الإسبانى، واستمرت الهجمات السريعة، فتم أسر بعض

(١) المرجع السابق ص١٢١.

السفن الإسبانية وحرق بعضها الآخر وإغراق عدد منها. وانتهت معركة اليوم بتدمير الأسطول الإسبانى تدميرًا كاملا بحيث لم تنجُ منه إلا سفينة واحدة استطاعت الفرار لإعلام قيادتها عن المجزرة الرهيبة التى قضت على الأسطول، وانسحب الأسطول الجزائرى بعد أن ضم إليه الغنائم والأسلاب التى كسبها من المعركة.

أثارت معركة جزر البالينار مناخًا من الفزع الذى تجاوز حدود إسبانيا. فبادر (شارلكان) إلى معالجة الموقف بحزم. وعمل على إعادة تنظيم أسطوله وأسند قيادته إلى ضابط مغامر كان قد اكتسب شهرة واسعة فى قيادته للأساطيل البحرية وممارسة أعمال القرصنة. وكان هذا الضابط هو (الأميرال أندريا دوريا) الذى كان يعتبر باستمرار أن (خير الدين هو عدوه اللدود).

انصرف (أندريا دوريا) إلى مدينة جنوة من أجل تنظيم أسطوله، وأمضى سنة (١٥٣٠) فى الاستعداد لحملته الضخمة القادمة. ثم غادر المرسى الإيطالى الكبير فى تموز (يوليو) سنة (١٥٣١) على رأس أسطول يضم عشرين سفينة تحمل ألفًا وخمسمائة من المقاتلين الأشداء، وسار بهم نحو الساحل الجزائرى وقد حدد هدفه بتدمير الأسطول الإسلامى كمرحلة أولى، ثم الانطلاق من مركز بجاية فى الشرق ومركز وهران والمرسى الكبير فى المغرب لخنق الدولة الجزائرية، ووضع المغرب العربى الإسلامى بكامله تحت الحكم الكاثوليكى - الإسبانى[1].

كان (خير الدين) يتابع جهود عدوه (أندريا دوريا) باستمرار، وعندما علم باقتراب ركوبه البحر جمع أسطوله الذى كان يضم أربعين سفينة، وحشد قواته، واستنفر الحاميات، وأخذ فى الاستعداد للمعركة. غير أنه كان يجهل محور تحرك الأسطول المسيحى بقدر جهله لما كان يعتزم خصمه تنفيذه. ولم يبقَ أمامه إلا الانتظار ريثما يحدد المكان الذى يختاره عدوه مسرحًا لعملياته.

حدد (أندريا دوريا) مدينة شرشال هدفًا مباشرًا لهجومه، وكان يعرف أن حامية

(١) خير الدين باربروسا المرجع السابق ص١٢٢.

هذه المدينة مكونة من أبنائها مع عـدد محدود من الأتراك العثمـانيين. وكانت هذه الحامية ضعيفة بالمقارنة مع قوة أسطوله حتى لو انضم لدعمها المجاهدين من القرى والمراكز المجـاورة، وإنها والحالة هذه لا تستطيع الـصمود لفتـرة طويلة للدفاع عن قلعتـها، وبذلك يصبح (خـير الدين) عاجـزًا عن مهاجـمته أو إخـراجه من هذه القاعدة.

وكانت مدينة شرشال يومئذ مركزًا من أكبر مراكز الدولة الجزائرية الحديثة، وقد عرف (عروج) أهمية موقـعها الممتاز فعمل على تحصينها، وشيـد فيها قلعة قوية، وأقيـم فيهـا مصنع لتـأمين مـتطلبـات الجيش الإسلامـى وإمداده بالأعتـاد والمواد التموينية، كما أقيم فيها مصنع الأخشاب يعتمد على غابات (الونشريس) والغابات الكثيفة التى كانـت قريبة منها. وكانت شرشال بحكم موقعـها الطبيعى - وهى لا تبعـد عن مدينة الجزائر الواقعـة إلى شرقهـا إلا بمسافة ١٢٠ كيلو مـترًا، ووهران الواقعة إلى غربيـها تشكل تهديدًا مباشرًا للجزائـر إذا ما أمكن للأسطول الإسبانى احتلالها تمهيدًا لعملياته التالية[١].

واستيـقظت الحامية الإسلاميـة المدافعة عن (شرشال) فـإذا بالأسطول الإسبانى يتقدم من الأفق ويقتـرب بسرعة نحو مدينتهم، فاجتـمع القادة على عجل، وتقرر إخلاء البلدة من سكانها عـلى الفور، وحشد كل القوى فى القلعـة للدفاع عنها، واستنزاف قـدرة العدو لأطول مدة ممكنة ريثمـا يصل الدعم من الجزائر ومن داخل البلاد.

أنزل (أندريا دوريا) قـواته على أرض شرشـال بدون مقـاومة تذكـر، وتركزت الحامية الإسلامـية ومن معها من المجاهدين فى معقل القصبـة، وأخذوا فى متابعة تحركات العدو بيقظة وحذر.

وبادر الإسبـانيون بالبحث عمن بشـرشال من أسرى النصارى وكـانوا نحوًا من ثمانمائة، فـوجدوا مخـابئهم وأخرجـوهم، وضموهم إلى الجـيش، وعمل هؤلاء

(١) خير الدين باربروسا المرجع السابق ص١٢٣.

الأسرى كإدلاء نظر لمعرفتهم بديار كبار القوم وبالأماكن التى تضم مخابئ الأموال ونفائس الذخائر، وانتشر الجيش الإسبانى وراء الأسرى، وتحول إلى عصابات للنهب والسلب. وأخذت زمرة منه فى التوغل إلى داخل الديار حتى وصل بعضهم إلى الحدائق والمزارع المحيطة بالبلدة. وأيقنت القيادة الإسلامية ساعتئذ أنه بات بالإمكان الانتصار على هذه الفرق الممزقة بعزل بعضها عن بعض وتدمير كل قوة منها على حدة. ففتحوا أبواب القلعة، واندفعوا وهم يرددون صيحة حرب المسلمين: (الله أكبر) وأحاطوا بالعدو من كل جانب، وحالوا بين تجمع هذه الفرق والتقاء بعضها مع بعض، كما حالوا بينها وبين البحر، فى حين كانت مدفعية القلعة تقذف قطع الأسطول الإسبانى بنيرانها وقذائفها. فاختل نظام العدو، وسادت الفوضى والاضطرابات فى صفوفه، فيما كانت نيران الجزائريين وسيوفهم تدمر قوة الغزاة بحيث لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى انتشرت فوق أرض شرشال جثث ألف وأربعمائة من الإسبانيين بالإضافة إلى ستمائة أسير وقعوا فى قبضة المجاهدين ولم يتمكن من الوصول إلى السفن أكثر من ثلاثمائة رجل من بقايا القوة الإسبانية ومن الأسرى الذين تمكنوا من النجاة.

ووقف (أندريا دوريا) مذهولا أمام قوة هذه الصدمة، وتلكأ فى الرحيل عن شرشال وهو لا يدرى إلى أين يتجه ولا ماذا يعمل. وعندها وصله إنذار باقتراب أسطول الجزائر مسرعًا تحت قيادة (خير الدين) وعرف (دوريا) أنه لا قبل له بمنازلة خصمه فى مثل هذه الظروف فقرر مغادرة أرض المعركة بسرعة لحماية ما بقى لديه من القوة، وعندما وصل خير الدين إلى شرشال وعرف نتيجة المعركة، انطلق بأسطوله لمطاردة خصمه، الذى كان أسرع منه فى التحرك فلم يتمكن من اللحاق به. غير أن هذه المطاردة لم تكن محرومة من الثمار؛ إذ عثر خير الدين على سفينتين إسبانيتين كانتا محملتين بالأعتدة والمواد التموينية، فاستولى عليهما واقتادهما.

ترددت أصداء هذا الانتصار بقوة وانعكست على مختلف دوائر الصراع بأشكال مختلفة. فقد أصبح الشعب فى الجزائر أكثر ثقة بقدراته وإمكاناته، وباتت الجماهير

الخاضعة لحكم (بنى زيان) فى تلمسان تنتظر لحظة تحررها للانضمام إلى مسيرة المجاهدين فى سبيل الله.

وأصبحت الإمبراطورية العثمانية أكثر استعدادًا لدعم (خير الدين) من أجل طرد أعداء الدين من المغرب العربى الإسلامى.

وأصبحت المملكة الإسبانية وإمبراطورها شارلكان أكثر تصميمًا على تجهيز حملة قوية يتم بواسطتها التعويض عن الهزائم السابقة. والتى نالت من هيبة الإمبراطورية التى فرضت ذاتها على زعامة الغرب لقيادة الحرب ضد المسلمين.

ونتج عن ذلك تعرض المسلمين فى الأندلس لمزيد من القهر والاضطهاد بعد أن تجمعوا فوق بقعة محدودة ما بين ساحل البحر وجبال البشرات. فارتفعت أصوات الاستغاثة التى لم يعد باستطاعة خير الدين تجاهلها أو التنكر لها، لا سيما وأنه تولى مهمة إنقاذ المسلمين فى الأندلس ومساعدتهم يوم لم يكن يمتلك إلا إمكانات محدودة، فكيف به وهو يمتلك اليوم إمكانات أرهبت أكبر دولة أوربية[1].

وهكذا مضى (خير الدين) ومعه (٣٦) سفينة حتى بلغ السواحل الإسبانية التى التجأ إليها المسلمون، ولم يجرؤ الأسطول الإسبانى التعرض لأسطول (خير الدين) فأخذ هذا على سفنه أكبر عدد من الراغبين فى الحفاظ على دينهم وكرامتهم. وكان يترك أكبر عدد من بحارته الجزائريين فوق الأرض الأندلسية حتى يحمل مقابلهم عددًا من النازحين. حتى إذا ما أوصلهم إلى الجزائر، عاد إلى إسبانيا ليأتى بغيرهم، وكرر غدوه ورواحه بين الساحلين سبع مرات متوالية، حتى تمكن من إنقاذ سبعين ألفًا من رجال الأندلس ونسائهم وأطفالهم، واشتد بهؤلاء ساعد المسلمين الذين نزلوا بمدينة الجزائر وسهل متيجة (متوجة) وعمروا مدنًا مثل البليدة ودلس وأدخلوا إلى البلاد بقايا حضارتهم العريقة وصناعتهم وفنونهم وخبراتهم المختلفة.

عمل (خير الدين) بعد ذلك على تطوير صراعه، فاتخذ جزائر (هيار) الأندلسية

(١) خير الدين باربروسا ص١٢٦.

قاعدة لعملياته فى غرب المتوسط والمحيط الأطلسى، حيث كانت السفن الإسبانية والبرتغالية تحمل وهى عائدة من أمريكا الجنوبية، ذهب الهنود الحمر وثرواتهم. فركز خير الدين وقادته جهودهم لحرمان إسبانيا من هذه الثروة ووضعها فى خدمة المسلمين ليتقووا بها على أعدائهم.

وجمع (خير الدين) حوله نخبة من الرجال جعلهم هيئة قيادته ومنهم ابنه (حسن خير الدين) و(طورغود رايس) و(صالح رايس - موحد الأرض الجزائرية فيما بعد) و(سنان منقذ تونس فيما بعد أيضًا) و(محمد حسن أغا) الذى جعله نائبًا عنه أثناء غيابه عن الجزائر.

واشتدت الحرب الصليبية ضراوة بين الدولة العثمانية وأوربا التى تتزعمها الإمبراطورية الإسبانية. وتبع ذلك تصعيد فى الصراع البحرى الذى تولى قيادته (أندريا دوريا)، ورد السلطان سليمان على ذلك بتعيين (خير الدين) أميرًا عامًا على البحر (قبودان باشا) مع بقائه على رأس دولة الجزائر.



ثانيًا: تنظيمات البحرية العثمانية ومصطلحات الأسطول العثماني

كانت غاليبولي إلى عام ١٥١٦م مقر قيادة الأسطول، فكان قبودان باشي يحكم صنجقية غاليبولي ولذلك أطلق عليه أيضًا بكلربكي غاليبولي. وألحقت الدولة بهذه الصنجقية كلاً من قضاء جالاطة وإزميد في نيقوميديا في الأناضول، لأن الغالبية العظمى من سكان جالاطة - وهي إحدى ضواحي إستانبول - من أهل جنوة. وقد أسهموا بجنودهم وخبرائهم البحرية والملاحية في تطوير الأسطول العثماني ودعمه بعد أن فتح السلطان محمد أبو الفتوح القسطنطينية.

أما إزميد فكانت تعد من المصادر الرئيسية لتزويد ترسانة البحرية بالأخشاب اللازمة لبناء الأسطول، ولما نقلت قواعد الأسطول إلى إستانبول على عهد سليم الأول ألحقت بسلطة القبودان باشي جميع السواحل تقريبًا لشبه جزيرة البلقان والجزر القريبة منها ومناطق ساحلية أخرى في حوض البحر المتوسط، وتكونت من هذه المناطق والجزر (إيالت بحر سفيد) وترجمتها الحرفية ولاية بحر إيجة، ولكنها كانت تشمل أقاليم ساحلية في حوض البحر المتوسط بعامة.

وقد قسمت هذه الأيالة إلى صناجق يحكم كل منها (ريا بكلري) أي بك البحر وقد شمل سلطانه أربعة عشر صنجقًا. ومما يذكر أن بعض الثغور في ولايات الدولة كانت تتبع مباشرة القبودان باشي، وعلى سبيل المثال كانت الإسكندرية خارجة عن سلطة الباشا العثماني في القاهرة، وكانت تتبع القبودان باشي مباشرة. وظل هذا الثغر على هذا الوضع الإداري حتى تم جلاء الحملة البريطانية عن مصر عام ١٨٠٧م في مستهل حكم محمد علي؛ ولذلك يقرر أحد المؤرخين أن محمد علي كان هو المستفيد الوحيد من هذه الحملة بعد أن أخفقت في تحقيق الأغراض التي توختها بريطانيا منها، ونجح محمد علي في حمل الباب العالي على الموافقة على إلغاء تبعية هذا الثغر لقبودان باشا، وجعل الإسكندرية

تابعة لحكومة القــاهرة. وكان حكام كل من رشيد ودميــاط والسويس يطلق عليهم قبودان. وقد عادت هذه الثغور الثلاثة إلى الحكومة الأم: حكومة القاهرة[١].

وكان أول ضابط يشغل منصب قبودان باشى هو (بلطه أوغلر سليمان) وقد عينه السلطان مــحــمد أبو الفــتــوح فى هذا المنصب تقـديرا لجـهوده فى أثـناء حصــار القسطنطينية عام ١٤٥٣م. وأصدر السلطان سليمان المشرع فرمانه بترقية خير الدين باربروس إلى منصب قائد عام للأسطـول العثمانى مكافأة له على خدمــاته الحربية للإسلام في الجــزائر وتونس. وسنرجئ الكلام عن هذه الشخـصية لحـين تعرضنا لهذين الإقليــمين الإسلامــيين العــربيين، وحسبنا أن نذكر هنا أنه منذ تعــيينه فى منصب قبــودان باشى رفعت هذه الوظيفــة إلى مرتبة وزير هنا، وأنه منذ شــاغلها ثلاثة أطواخ ورتبة الباشوية وأصبح يطلق عليه قبودان باشا، وكانت له أسبقية على جمــيع الوزراء الآخرين، وكــان ترتيبــه يأتى مبــاشرة بعــد الصدر الأعظم وشــيخ الإسلام، وعــين عضواً فى الديوان الهــمايونى (الإمــبراطورى). ومنذ تعيين خــير الدين باربروس فى الديوان أصبــحت التقاليد المرعيــة أن شاغل هذا المنصب يكون عضوا فيه بحكم منصبه وكان يحضر جلساته كلما كان موجوداً فى العاصمة.

وحدات الأسطول:

كانت ســفن الأسطول تتكون فى القــرن السادس عــشر - شأن كل الأســاطيل المقاتلة في البــحر المتوسط وقتــذاك - من السفن المزودة بأشرعة قليلــة ومجاديف، ويطلق عليها فى اللغــة التركية جكديرى، أو جكديرية، وكانت الأشرعــة تستخدم حين لا يكون العــدو على مرمى البصر. أمــا المجاديف فلا تستــخدم إلا فى وقت الاشتباك فى المعركة. ويجلس المجدفون فــى أماكن معدة لهذا الغرض، ويوجهون السفينة إلى الالتــحام بسفن العدو ومهاجمــتها طبقًا لأوامر قائد الــسفينة، وكانت مرتبة السفــينة تتحدد بعدد الأماكن المخصــصة للمجدفين فيــها. ولذلك كان عدد الملاحين فيها قليلاً فى حين كان عدد المجــدفين والمقاتلين كبيراً. وعلى سبيل المثال

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٨٧٢.

كان طاقم السفينة المقاتلة من النوع المتوسط ذات المجاديف، ويطلق عليها فى اللغة التركية (قادرغة)، على النحو التالى:

مجدفون	١٩٦	مقاتلون	(رجال مسلحون)	١٠٠
بحارة	٣٠	ضباط	٣	

أما السفينة المقاتلة من النوع الكبير الحجم ذات المجاديف، ويطلق عليها فى اللغة التركية (مأثونة)، فكان عدد العاملين عليها كالآتى:

مجدفون	٣٥٧	مقاتلون	١٧٥
بحارة	٥٥	ضباط	٦

أما سفينة القيادة وتسمى (باشتردة) القبطان وهى مأخوذة من كلمة إيطالية فكان طاقمها موزعًا وفق النظام التالى:

مجدفون	٤٩٧	مقاتلون	٢٥٠
بحارة	٧٦	ضباط	٨٠

وكان من الرجال المسلحين فى السفن ذات المجاديف على اختلاف أحجامها: الطويجية أى الذين يطلقون قذائف مدافعهم على سفن الأعداء، ومنهم من كانوا مزودين بالسيوف الباترة لاستخدامها إذا اقتضى الأمر ونجحوا فى التسلل إلى سفن الأعداء واشتبكوا فى معارك على ظهورها. أما البحارة فكانوا على الرغم من قلة عددهم النسبى ذوى اختصاصات متباينة كان منهم من يسهر على صيانة أسلحة السفينة ويطلق على الواحدة منهم آلتجر، ومنهم من يعمل فى تسيير السفينة،ويطلق عليه الدومنجى، ومنهم غلمان السفينة، ويسمون يلكنجى، ومنهم النجارون والمقلفطون.

وكان القائمون بهذه الاعمال رجالاً تخصصوا فى الشئون البحرية أو درجوا على ركوب البحار فى المقام الأول وعلى شئون القتال، ويطلق عليهم فى اللغة التركية (لوند) ومعناها بحارة مقاتلون متمرسون، وهى مأخوذة من مصطلح

إيطالى[1]، ولكن أعفى اللوند من أعمال التجديف والقتال فى سفن الأسطول منذ القرن السادس عشر؛ إذ كان عملهم شاقاً وخطيراً وكانوا يقبلون القيام به على مضض، وخشى القبودان باشا أن تؤثر حالتهم النفسية على كفايتهم العالية، فعهد بهذه العمليات إلى رجال يمكن إجبارهم عليها، وكان هؤلاء الرجال من أسرى الحرب البالغين والذين كانوا يصبحون عبيداً بمجرد وقوعهم فى الأسر، ومن المجرمين العتاة الذين صدرت عليهم أحكام بالعمل كعبيد فى السفن ذات المجاديف عقوبة لهم.

وقد أدخلت تطويرات مهمة فى نوعية سفن الأسطول العثمانى، إذ أقبلت فى منتصف القرن السابع عشر على بناء سفن شراعية كبرى مزودة بمدافع كان يتراوح عددها بين أربعين وخمسين مدفعًا فى كل سفينة. وكان هذا التطوير قد سبقها إليه الدول الأوربية الكبرى التى تبحر سفنها فى المحيطين الأطلنطى والهندى بعد أن اتضح لهذه الدول أنه لا قيمة للسفن ذات المجاديف فى المعارك الحربية، ورأت الدولة العثمانية ألا تظل متخلفة فى هذا الميدان. وكانت قد مرت بتجربة مريرة فى حملتها على جزيرة كريت التى أرادت انتزاعها من جمهورية البندقية لأسباب سياسية وعسكرية ودينية وعائلية. وخاضت صراعًا داميًا استطال أمده خمسة وعشرين عامًا (١٦٤٤-١٦٦٩م) وتعرضت الدولة لهزائم كثيرة اعتبرت إحداها - وقد حدثت عام ١٦٥٦م - أنها لا تقل كثيراً من حيث نتائجها السيئة عن معركة ليانت.

وكان القبودان باشا المسئول هو كنعان باشا، والواقع أن الدولة العثمانية فى حملة كريت واجهت تفوقًا بحرياً من جمهورية البندقية التى كانت أسبق منها فى تطوير نوعية سفن أسطولها وخاضت المعركة وهى تملك مجموعة قوية من السفن الشراعية الكبرى بالإضافة إلى السفن ذات المجاديف، وكانت وحدات الأسطول العثمانى مقصورة على السلاح التقليدى وهو السفن ذات المجاديف، وبفضل السلاح المطور استطاعت جمهورية البندقية فى بداية الحرب فرض الحصار على الدردنيل وقطع الطريق بين القوات العثمانية فى كريت والاتصال المباشر بحراً

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٨٧٥.

بإستانبول[1]. وإزاء تدهور الموقف الحربى ركزت الدولة العثمانية، والحرب مشتعل أوارها، جهودها على بناء سفن شراعية كبرى مزودة بالمدافع، واستمر هذا التركيز حتى المراحل الأخيرة من الحرب. وكان من نتائج هذا التطوير أن خفت وطأة حصار البندقية للدردنيل وتوجت الحملة بانتزاع جزيرة كريت من جمهورية البندقية وتوقيع اتفاقية التسليم فى اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٦٩م، وقعها أحمد كوبريللى باشا الصدر الأعظم والقائد فرانسيسكو موروسينى قائد قوات جمهورية البندقية.

وكان من بين السفن الشراعية الكبرى التى قامت ببنائها الدولة العثمانية ثلاث سفن رئيسية عرفت باسم سفن القيادة (صنجاق كميليرى) وهى من حيث الأهمية قبودانة، باطرونة، وريالة، وهذه الأسماء الثلاثة مشتقة من كلمات إيطالية، وكان قادة هذه السفن الثلاث يحملون البكوية، فكان يقال بك قبودانة، وبك باطرونة، وبك ريالة.

وعلى عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م) بنت الدولة عددًا من السفن الشراعية الكبرى من ذوات الأسطح الثلاثة وعددًا من السفن الصغيرة السريعة والخفيفة. وجرت عادة العثمانيين على إطلاق أسماء من نسج الخيال على السفن الحربية مثل (تحفة الملوك) و(فاتح بحرى) أى فاتح البحر، و(بريدى ظافر) أى بريد الظفر. وقد استخدمت السفن الشراعية الكبرى فى غارات حربية على سواحل إسبانيا وفى الهجوم على مالطة. ويعلق أحد المؤرخين الإنجليز على تعزيز الأسطول العثمانى فى ذلك الوقت بأنه كان بعثًا لذكريات مجد قديم.

وكان من المعتاد أن ترجع السفن الكبيرة المخصصة للخدمة فى البحر المتوسط إلى قواعدها فى الخريف قبيل اليوم من هذه القواعد إلا فى أواخر أكتوبر - تشرين أول - كل عام، وألا تخرج من هذه القواعد إلا فى أواخر الربيع فى اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل - نيسان - إذ يخرج الأسطول فى رحلات تفتيشية.

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٨٧٦.

فكان هذان التاريخان - عند العثمانيين - يشيران إلى الوقت الذى يفصل بين الصيف والشتاء. وقبل حلول اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل - نيسان - كان قبودان باشا يرسل سنوياً إلى النيابات الثلاث فى شمالى إفريقية، وهى طرابلس وتونس والجزائر، عدداً من ضباط الأسطول يجمعون المتطوعين للخدمة فى الأسطول، ويعطون أجر ستة أشهر مقدمًا لتدبير معيشة عائلاتهم. وكان يطلق على هؤلاء المتطوعين (بايراق عسكرى) أى قوة البيارق، وقد عرفوا بهذا الاسم لأن كل ضابط يختص بجمع هؤلاء المتطوعين إنما كان يجمعهم تحت لواء -بيرق- ينم عن وظيفته[١]. أما السفن الحربية المخصصة للخدمة فى البحر الأسود فلم تكن تخضع لهذا التنظيم الزمنى، وبالتالى لم تكن تتمتع بفترة استرخاء عسكرى خشية أن تتعرض لهجوم غادر من الأسطول الروسى. أما أسطول البحر الأحمر فكان يخضع فى تحركاته ونشاطه لمقتضيات الظروف.

مصطلحات الأسطول العثمانى:

وجدير بالذكر أن أسماء أنواع السفن فى الأسطول العثمانى ووظائفه وألقاب شاغليها مأخوذة من مصطلحات إيطالية[٢] تقابلها فى المعنى لعدة أسباب منها: تغلغل بحارة البندقية وجنوة فى الشرق، وكان رجال الأسطول العثمانى فى نشأته قد تتلمذوا على أيدى هؤلاء البنادقة والجنويين. وقد تعمق هذا التأثير الإيطالى نتيجة سياسة السلطان محمد الفاتح، وكان الإمبراطور ميخائيل السابع باليولوج أراد أن يكافئ أعضاء جالية جنوة فى القسطنطينية على مساعدتهم له فى العودة إلى العرش سنة ١٢٦١م، وإعادة قيام حكم يونانى فى القسطنطينية فسمح لهم بأن يحكموا ضاحية جالاطة من ضواحى العاصمة بمثابة مستعمرة ذات استقلال ذاتى. ولما فتح السلطان محمد أبو الفتوح القسطنطينية وأطلق عليها إستانبول عهد إليهم بمساعدته على تدعيم الأسطول العثمانى؛ لأن العثمانيين كانوا حديثى عهد بصناعة بناء السفن وعلوم الملاحة البحرية فى أعالى البحار، ولأن أهل جنوة كانوا بحارة

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٨٧٧.

(٢) المرجع السابق

ممتازين. هذه الكثرة الملحوظة فى المصطلحات الإيطالية التى أدخلها العثمانيون على أسطولهم، والتى مرت بنا أمثلة كثيرة عليها، جعلت أحد كبار المؤرخين الإنجليز المتخصصين فى تاريخ الدولة العثمانية ونظمها يذهب رأيًا إلى أنه كان من المتوقع أن يأخذ الأسطول العثمانى، حين خرج إلى حيز الوجود، طابعًا تركياً (عثمانيًا) بوجه خاص أو طابعًا إسلامياً على الأقل، ولكن لم يحدث شيء من هذا فعلى العكس كان صورة طبق الأصل من أساطيل إيطاليا[١].

ثم أكد فى موطن تالٍ من كتابة هذا الرأى بصورة أخرى ولسبب آخر فقال: (وطبقًا لجميع الآراء، تظهر على الأقل حقيقة واحدة واضحة، هى أن كل من كان يسميهم الأوربيون المعاصرون (أتراكًا) بمعنى المسلمين الذين يتكلمون اللغة التركية، لم يتألقوا كبحارة. وإن الأسطول كان يعتمد بشكل مثير فى جانبه الخاص بركوب البحر - تمييزاً له عن مظهره الحربى على اليونانيين من أهل جزر وسواحل بحر إيجة وعلى المسلمين الذين يتكلمون العربية من سكان نيابات شمالى إفريقية. ومن هذا الحكم تظهر الحقيقة البارزة وهى أن الأسطول العثمانى لم يكن نتاجًا عثمانياً أصيلاً (إذا أجيز استخدام هذا التعبير). وهذا الرأى قابل للمناقشة، لأن العبرة ليست فى المظهر وإنما فى المخبر. فالأسطول العثمانى حمل راية الجهاد البحرى الدينى الإسلامى ضد تكتلات بحرية صليبية أوربية عاتية سواء فى حوض البحر المتوسط أو البحر الأسود أو المحيط الهندى أو منطقة الخليج العربى، ودافع عن الإسلام وأمن الحدود الجنوبية والشرقية للولايات العربية فى آسيا من الغزو الصليبى البرتغالى بوجه خاص. وقد اعترف كبار المؤرخين الأوربيين بأن المعارك التى خاضها الأسطول العثمانى كانت معارك صليبية. وطبقًا لرأى مؤرخ إنجليزى عاش فى عصر سابق لعصر جب وبوون، كان الأتراك العثمانيون يناظرون اليونانيين تفوقًا فى الملاحة البحرية علمًا وفناً وممارسة[٢].

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٨٧٨.

(٢) المصدر السابق ص٨٧٩.

ولا يقدح فى قيمة السلاح البحرى العثمانى أن الدولة اعتمدت أول الأمر على عدد من المهندسين والعمال المدربين الإيطاليين فى بناء وحدات الأسطول، أو أن دور بناء السفن كانت تضم عمالا يونانيين وإيطاليين، ومن المعروف أن خدمتهم فى دور الصناعات البحرية لم تكن تتسم بطابع الاستمرار، فهى تتأثر بأحكام الحاجة ومقتضيات الظروف، ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها أن الأسطول العثمانى قد ضم أخلاطًا من الأتراك العثمانيين والعرب من سكان شمالى إفريقية ومن العناصر البلقانية التى اعتنقت الإسلام وتدربوا جميعًا فى ظل الأسطول العثمانى. وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان الأسطول ينتظم عددًا من البحارة اليونانيين المسحيين وعددًا أقل من بحارة شبة الجزيرة الإيطالية اجتذبتهم المغانم الوفيرة التى كانوا يظفرون بها فى خدمة الأسطول العثمانى، فجاءوا زرافات زرافات إلى قاعدة الأسطول فى إستانبول ينشدون العمل.

لقد كان يعوز الأسطول العثمانى العمود الفقرى الذى مكن للأساطيل الأوربية المعادية له وأمدها بقوة فائقة، ونعنى به القوة البحرية التجارية القوية. ولكن كان مما عوض هذا الضعف الإمكانيات المادية للعثمانيين. كانوا يحصلون على الأخشاب بكميات وفيرة من بعض جهات الأناضول وبخاصة من الغابات القائمة على سواحل البحر الأسود، وكانت مناجم ولايتى الأفلاق والبغدان - رمانيا حاليّاً - تقدم المعادن الضرورية لصناعة الملاحة والأسلحة وكانت أشرعة السفن تستورد من فرنسا.

ثم كانت السرعة والمرونة اللتان كانت عمليات بناء السفن تتم بهما ومع ذلك؛ فإن الدولة كانت تعتمد بصورة أو بأخرى على السفن العثمانية التجارية التى كانت تتردد على الموانئ العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، إذ كان القبودان باشا يلجأ إلى إجراء استثنائى لسد النقص فى عدد بحارة الأسطول الحربى. فكان يتفق مع قباطنة إعفاءهم من دفع الرسوم الجمركية على البضائع التى تحملها سفنهم فى أوقات السلم، وبهذا الإجراء استطاع قبودان باشا أن يحصل على خدمات ما يزيد على ألفى بحار مدرب يعملون فى خدمة الأسطول فى وقت الحرب.

وبقى هذا الإجراء الاستثنائى معمولا به حتى عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤م) فقد اعترض كمرك أمينى - مدير الجمارك - على الإعفاء الجمركى لشحنات السفن التجارية، وأصر على أن يؤدى أصحاب البضائع الرسوم الجمركية المقررة عليها - وكان يهدف من هذا الاعتراض إلى استنباط موارد مالية لخزانة الحكومة واستطاع أن يحقق هدفه. وأصبح لزامًا على قبودان باشا أن يعتمد اعتمادًا كلياً على السفن الحربية دون سواها مما جعل الأسطول العثمانى يواجه موقفًا صعبًا إبان الحرب التى اشتعلت عام ١٧٣٦م بين الدولة العثمانية والروسية؛ إذ استطاعت الأخيرة أن تحتل ميناء آزوف وغيره من الثغور البحرية فى البحر الأسود، وأن تتقدم فى نهر الدانوب وتحتل ولاية البلقان وتدخل مدينة ياسى عاصمتها واضطرت الدولة إلى تخصيص جزء لا يستهان به من الأسطول العثمانى للعمل فى البحر الأسود لمواجهة احتمالات خطر التقدم الروسى فى هذا البحر، وإلى إبقاء عدد من السفن الصغيرة فى نهر الدانوب للدفاع عن ولايتى الأفلاق والبلقان[١].

الإخوة باربروسا وزملائهم مجاهدون وليسوا قراصنة بحار:

أُطلق على قراصنة شمال إفريقيا، اسم «القراصنة البربريين». وكانوا ينطلقون فى أعمالهم من موانئ تونس وطرابلس الغرب، والجزائر وبعض مرافئ المغرب، وذلك منذ بداية الحروب الصليبية وحتى القرن التاسع عشر. وقد اشتهر منهم «خير الدين باربروسا» الذى أصبح حاكمًا لشمال إفريقيا من قبل الدولة العثمانية وقائدًا لأسطولها البحرى فى عدة معارك ضد الأساطيل الأوربية فى البحر المتوسط، وانتصر فى عدة معارك بحرية أهمها معركة بريفيزا (Preveza)، وفى عام ١٥٣٨م عيّنه السلطان العثمانى «سليمان القانونى» أميرًا للبحر.(Fleet Admiral)، حيث تمّت السيطرة على البحر المتوسط من قبل العثمانيين حتى معركة «ليبانتو» عام ١٥٧١م، وهنا يجب التمييز ما بين القراصنة الذين يقومون بأعمالهم العدائية تجاه السفن الأخرى لمصلحتهم الخاصة، وبين «القراصنة المفوضين» (Privateer)، الذين يقومون بأعمال القرصنة للسطو، أو الاستيلاء على السفن العدوة بتفويض

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٨٨١.

من إحدى الدول، التى تكون بحالة عداء مع دولة أخرى، وهذا التقليد كان متبعًا خلال القرون الوسطى وحتى القرن العشرين، من قبل الدول الأوربية وغيرها، أى أن العمل يصبح مسئولية الدولة المفوِّضة التى تتحمل تبعات عملها، وهذا ما حدث عندما شنّت الولايات المتحدة الأمريكية أول حرب لها فى البحر المتوسط ضد القراصنة البربر فى تونس والجزائر والمغرب ما بين ١٨٠١ و١٨١٦م، وعاملت القراصنة كأسرى حرب نظرًا إلى ارتباطهم بدول ترعاهم وتوجّههم فى أعمالهم.

اجتذب هذا الصراع الصليبى عددًا كبيرًا من البحارة المسلمين من أقاليم شمالى إفريقية. وكانوا قد نشأوا فى مطلع حياتهم فى خدمة الأسطول العثمانى، ثم كونوا سفنًا كانت بمثابة أساطيل صغيرة تعمل لحسابهم فى عمليات النقل البحرى، وتجاهد فى ذات الوقت ضد البرتغاليين والإسبانيين، وأطلق عليها (مراكب الجهاد) وكان من قادة هؤلاء المجاهدين المغامرين: عروج، وأخوه خير الدين باربروس، وحسن باشا، وصالح ريس، ودراجوت باشا، وغيرهم، ويصر المؤرخون والباحثون الأوربيون إصرارًا شديدًا على أن الفضل فى نجاح هؤلاء الرؤساء البحريين المسلمين؛ إنما يرجع إلى أصولهم المسيحية المغاربة بأنهم أجانب عن الدولة، وأنهم قوم بلا قلوب، ومجردون من المبادئ الخلقية، وأن هدفهم الأسمى هو خوض المعارك جريًا وراء مغانم يظفرون بها، وأوغل هؤلاء المؤرخون فى التهكم عليهم والسخرية بهم ليوضحوا -فى زعمهم- وضاعة أصلهم، فقالوا عن بياله باشا: إنه ابن إسكافى، وقالوا عن العلج على: إن والده كان صائد سمك. وهكذا لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة تسىء إلى قادة الأسطول العثمانيين المسلمين إلا أحصوها.

مع أن هؤلاء القادة كانوا مثلاً أعلى فى الفدائية والبطولة فى المعارك التى خاضوها ضد تكتلات صليبية دولية، كما كانوا على جانب كبير من التقوى؛ فقد حرصوا على إنشاء مساجد فى إستانبول وأفردوا فيها أماكن لتكون مثوى لهم بعد وفاتهم.

وقد خلص رأى أولئك المؤرخين إلى إطلاق صفة (القراصنة) على قادة الأسطول العثمانى، وكانوا يحرصون على ذكر اسم كل قائد مقرونًا بهاتين الصفتين وبهذين الترتيبين: قرصان، وأمير بحر تركى، وهذا الرأى وما سبقه من تبريرات يعد نوعًا من التحامل على الدولة العثمانية لا يقدح فى قدرها ولا فى كفاية هؤلاء القادة المسلمين. فالدولة هى التى تعهدتهم بالتدريب فى حياة البحر، وأن يخوضوا بنجاح، دفاعًا عن دينهم، صراعًا صليبياً ضاريًا ضد دولتين بحريتين هما البرتغال وإسبانيا، كانتا تتمتعان فى ذلك الوقت بمصادر مالية وحربية رهيبة، وأسهمت كلتاهما بأكبر نصيب فى حركة الكشوف الجغرافية فيما وراء البحار سواء فى الأمريكيتين أو فى إفريقية وآسيا بعد الوصول بحرًا إلى الهند، وبعد عبور المحيط الأطلنطى، فالوصف العلمى الذى يلحق بهؤلاء القادة ورجالهم هو أنهم مجاهدون إسلاميون بحريون خاضوا صراعًا صليبياً ضد البرتغاليين والإسبانيين الذين أرادوا الاستيلاء على بلادهم، وتحويل سكانها إلى المسيحية وطمس عروبتهم.

أما وصفهم قراصنة فهو قول يجانب الحق ويجافى الواقع، وكان مبعثه شعور الأوربيين بالمقت والضغينة بسبب ما أنزله المجاهدون من خسائر بالأوربيين وبفرسان القديس يوحنا. ومن المؤسف حقاً أن نفرًا من المؤرخين والباحثين العرب قد سايروا مسايرة عمياء المؤرخين الأوربيين فى هذا الرأى الخاطئ، وقد سبق أن تعرضنا لموقف أولئك العرب من هذه التسمية الخاطئة والظالمة معًا[١].

برز من بين صفوف المجاهدين فى شمالى إفريقية بابا عروج، وكان ذا شخصية قوية ودراية واسعة بأساليب مهاجمة الإسبانيين، وذاع اسمه فى كل مكان على أثر انتصاراته عليهم، طلب إليه رجال القبائل فى الجزائر أن يساعدهم على استرداد ميناء بجاية من الإسبانيين، وكانت بجاية تعتبر أكبر ميناء فى المنطقة الشرقية من المغرب المتوسط -الجزائر- فى ذلك الوقت. وحقق بابا عروج الآمال المعقودة عليه، فكانت بجاية أول ميناء استطاع المسلمون تحريره من حكم الإسبانيين، ونقل

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩٠٦.

قاعـدة عمليـاته من جزيرة جـربة إلى ميناء جـيجل فى شرقى الجـزائر، ثم طلب مواطنو بلدة الجزائر إلى عروج مساعدتهم على الصمود فى وجه الإسبانيين؛ الذين كانوا قـد أقاموا قلعـة منيعة تسمى بـينون على الجزائر المواجهـة للساحل والبلدة، ويلاحظ أن بينون مـصطلح يطلق عـلى الجزر السـاحليـة والرءوس الداخليـة فى البحر.

واعتاد الإسبانيون أن يقيموا عليـها قلاعًا حصينة كى تهدد سكان الساحل وتمنع فى ذات الوقت وصـول سفن المسلمـين إليهم، فسـار بابا عروج بطريق الـبر على رأس ثمانمائة جندى نظامى وخـمسة آلاف مـتطوع جزائرى فى الوقت الذى أرسل فيه سـفنًا محملة بالمجاهدين ومسلحـة بالمدفعية لتهـديد حصن بينو ونجح فى صد هجوم إسبانى عن هذه البلدة عام ١٥١٦، وتمكـن من إقامة حكمه على السواحل المواجهـة للجزيرة الخاضـعة للإسبـانيين، وساعده هـذا النجاح على أن يؤسس، بصفته قائد تحـرير، حكومة عسكرية تحت قيادته انضم إليها عدد كـبير من القبائل وسكان المدن، واستولى على أقاليم المغرب الأوسط الواحد بعد الآخر(١).

وعهد بابا عروج إلى أخيه خيـر الدين بإدارة كل شرقى البلاد واتخذ دلس مقراً لإقامته وعـاصمة للشرق(٢)، وكان لنجـاح بابا عروج أصداء واسعة فى تـلمسان عاصمة بنى زيان فى غربى الجزائر، إذ ظهر فيـها اتجاه نحو توحيد الجهود مع هذه السلطة البـحرية المجـاهدة، وخاصـة أن بنى زيان هادنوا الإسبـانيين الذين كـانوا يحتلون فى ذلك الوقت وهران والمرسى الكبير.

وتحرج مـوقف المسلمين حـين استنجد آخـر حكام بنى زيان بالإسبـانيين الذين رحبوا بهذا التقارب، وكانوا يخشون هجوم بابا عروج على وهران فأرسلت إسبانيا حملة قـوية بلغت خمسة عـشر ألف مقاتل تمكنت من التـوغل فى أرض الجزائر، وحصار مدينة تلمسان ووقع بابا عروج فى أيديهم أسيراً وقتلوه عام ١٥١٨، وكان يبلغ من العمـر وقتذاك أربعة وأربعـين عامًا. ومما يذكـر أنه كانت له لحية حـمراء

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩٠٦.

(٢) دكتور عبد الرحمن التميمى، أول رسالة من أهالى مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩.

فأطلق عليه عروج باربروس، أى صاحب اللحية الحمراء، وقد لحق هذا اللقب بعد وفاته باسم أخيه خير الدين الذى كان يسمى خزر ريس وفاقت شهرته به شهرة عروج بهذا اللقب الذى أصبح لصيقًا بخير الدين. ويهمنا أن نذكر أن عروج كان قد نجح فى ضم معظم صفوف الشعب الجزائرى، وقرب بينه وبين سائر مسلمى شمالى إفريقية فى كفاحهم ضد العدو المشترك وخلفه أخوه خير الدين باربروس فى قيادة عمليات الجهاد فى بلاد المغرب الكبير.

كان موقف خير الدين حرجًا بعد مقتل أخيه، وقد أدرك فى الحال ضعف موقفه السياسى ومركزه الحربى. فقد كان يحيط به الأعداء، وهم بقية بنى زيان فى تلمسان وأنصارهم، وبنو حفص، والإسبانيون. وكانوا جميعًا يتربصون به الدوائر ويعملون على الإطاحة به، ولم يكن يتمتع أول الأمر بشعبية واسعة عريضة كشعبية أخيه، ولم تكن له صداقات برؤساء القبائل، فضلاً عن أنه كان يواجه نقصًا فى السلاح والعتاد، فكل هذه العوامل جعلت خير الدين يستنجد بالدولة العثمانية، وكانت قد نجحت فى إنزال ضربة أليمة بالدولة الصفوية فى فارس (١٥١٤م)، ونجحت فى ضم بر الشام (١٥١٦م) ومصر والحجاز والمناطق الساحلية فى اليمن إليها (١٥١٧م).

❀ ❀ ❀

ثالثًا: النشاط الحربى للأسطول العثمانى

كانت بدايات النشاط للأسطول العثمانى فى عهد السلطان مراد الأول ١٣٨٨م إذ ساهم مساهمة كبيرة فى التوسع الإقليمى فى البلقان، وقد اهتم هذا السلطان بالأسطول اعتناء كبيرًا فأقام دارًا للصناعات البحرية وأنشأ سكنات عسكرية للبحارة، وقد انتهج السلطان أبو يزيد الأول ١٣٨٨- ١٤٠٣م واهتم بتقوية الأسطول، ولكن قد واجه هذا الأسطول خسارة وهزيمة الأمير فى معركة أنقره بقيادة تيمورلنك عام ١٤٠٢م.

ولما تولى الحكم السلطان محمد أبو الفتوح بدأ الأسطول يخطو خطوة مهمة وأصبح يمثل بداية مرحلة جديدة إذ ساهم فى فتح القسطنطينية والذى بلغ عدد سفنه أربعمائة وعشرين سفينة بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة[١].

واستطاع السلطان محمد أبو الفتوح أن يستولى على عدد من الموانئ المهمة فى بلاد المورة، كما كان للحرب التى اندلعت بين السلطان محمد أبى الفتوح وجمهورية البندقية أشد عنفًا من تلك الحروب التى خاضها ضد جمهورية جنوة، إذ استمرت حرب البندقية زهاء سبعة عشر عامًا (١٤٦٣ - ١٤٧٩م).

وامتد نشاط الأسطول العثمانى حتى سيطر على الحوض الشرقى للبحر المتوسط واتخذ الصراع بين ذلك الأسطول والأساطيل الأوربية شكل الصراع الصليبى وانتصر انتصارًا عظيمًا سيطر من خلاله على بلاد الأرخبيل وبخاصة جزيرة «نجريون».

كما حقق الأسطول العثمانى نجاحات عظيمة فى الجبهة الأوربية حيث اجتاح ساحل دالمشيا واستولى على الموانى المطلة عليه ومراكز أخرى تابعة للبندقية[٢].

---

(١) د/ عبد العزيز الشناوى. الدولة العثمانية. مرجع سابق ج٢ ص٨٨٢ وما بعدها.

(٢) للمزيد انظر المرجع السابق ج٢ ص٨٨١ وما بعدها.

أ- الأسطول على عهد السلطان سليمان المشرع:

ظفر الأسطول بعناية كبرى منذ عام (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) وذلك إبان عهد السلطان سليمان المشرع، حيث قام بأعمال عظيمة أدت إلى رفع شأن الأسطول العثماني ورهبة الأساطيل الاخرى للقوى البحرية العثمانية ومن تلك الأعمال:

- أنشأ قواعد بحرية في جزر بحر الأرخبيل وفي أفلونا على ساحل ألبانيا وفي غيرها.
- كما أنشأ السلطان قاعدة بحرية وترسانة في ميناء السويس يرتكز إليها أسطول البحر الأحمر والبحار الشرقية[1] حيث أعطى للأسطول حرية مباشرة الملاحة في البحر الأحمر والهيمنة عليه.
- انتزاع جزيرة رودس من فرسان القديس يوحنا في أواخر عام ١٥٢٢م.
- كانت تقدر قوة الأسطول العثماني المهاجم غالبًا من ثلاثمائة سفينة بين سفن حربية وسفن نقل الجنود، وبدأت بنقل طلائع الحملة وكان عدد أفراد هذه الطلائع عشرة آلاف بقيادة السلطان.
- تمت السيطرة التامة للأسطول العثماني على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بالإضافة إلى سواحل الأناضول والبلقان والشام ومصر.
- وقد استطاع الأسطول بفضل استيلائه على جزيرة رودس تطهير بحر إيجة من الجزر والمحطات البحرية التي كان يتخذها البنادقة وغيرهم جيوبًا عسكرية لهم، وقد يتبادر إلى الذهن أنه من الضروري أن نتحدث عن نشاط ذلك الأسطول في بحر إيجة حيث تمكن من أن يتصدى لأساطيل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد استولى الأسطول العثماني على أفلونا وهو ميناء يقع على البحر الأيوني، ومن هذا الميناء اتجه الأسطول إلى جزيرة كورفو وفرض عليها حصارًا، وتصدى للعثمانيين الأسطول الإسباني بقيادة أندريه دوريا أحد

(١) انظر الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي: المراحل الأولى للوجود البرتغالي.

مشاهير القادة البحريين الإسبانيين، وانتصر على الأسطول العثمانى فى المراحل الأولى، ولكن سرعان ما تفوق عليه خير الدين باربروس باشا وحول الهزيمة إلى نصر، ثم اضطر إلى رفع الحصار عن كورفو وعوض هذا الانسحاب بفتح جزر إيجة بما تضمه من جزر الدوديكانيز، ولما رأى حاكم جزيرة ناكسوس وهى كبرى جزر الأرخبيل اليونانى ما حل بسائر الجزر سارع إلى اعلان خضوعه للسلطان العثمانى، وعقد معاهدة تعهد فيها بدفع جزية كبيرة تقدرها المراجع بخمسة آلاف دوكة فى السنة، وأن يخضع حاكم تلك الجزيرة إلى سلطان العثمانيين ويكون من زمرة أتباعهم[١].

نشاط الأسطول على سواحل دلماشيا فى البحر الأدرياتى سنة ١٥٣٨م:

وعلى الرغم من عقد هدنة نيس فى اليوم الثامن عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٥٣٨م بين الإمبراطور شارل الخامس وفرانسوا الأول ملك فرنسا (عن هدنة نيس انظر دكتور عبد العزيز الشناوى: أوربا فى مطلع الطبعة الأولى ص٢٦٢، ٢٦٣) وفيها تقرر وقف العمليات الحربية بينهما لمدة عشر سنوات، أثبتت الأحداث أن هذه الهدنة لم تكن إلا قصاصة ورق لا قيمة لها، فقد استمرت الحرب مستعرة أوراها بين العاهلين فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وتدعم مركز الإمبراطور بانضمام جمهورية البندقية والبابا بول الثالث وفرديناند ملك النمسا إليه. وظهر التحالف الفرنسى العثمانى قوياً فى هذا الوقت العصيب، فواصل خير الدين باربروس باشا - قبودان باشا - عملياته الحربية ومضى يستكمل الاستيلاء على بقية جزر بحر الأرخبيل، ثم قام بهجوم على جزيرة كريت وتصدى له أندريه دوريا القائد البحرى الإسبانى، ولكن كان النصر حليف خير الدين باربروس الذى أشعل النيران فى مدينتين بقذائف مدفعية الأسطول، كما أحرق عددًا كبيراً من القرى الساحلية فى الجزيرة.

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص ٨٨٩.

سيطرة القوى البحرية العثمانية على الحوض الغربى للبحر المتوسط:

عرفنا سابقًا نشاط الاسطول العثمانى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط وفى بحر إيجة والبحر الأدرياتى ولكن القادة العثمانيين رأوا أن يخوضوا الصراع البحرى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، ولم تكن تلك الانتقالية من الحوض الشرقى إلى الحوض الغربى نقلة اعتباطية ولكنها جاءت استجابة لإستراتيجية حربية جديدة وهى أن تكون قريبة من سواحل الشمال الإفريقى وسواحل الأندلس حتى تتمكن من مد يد العون للمستغيثين بالعثمانيين من هجمة الإسبان والبرتغال والحملات الصليبية المتتابعة، وقد ساهمت عدة عوامل فى تلك النقلة المهمة للأسطول العثمانى منها:

١- اشتداد الصراع الدينى بين الإسلام والمسيحية فى منطقة شمالى إفريقية، وهو الصراع الذى وصل إلى حد الاشتباك المسلح بين البرتغال وإسبانيا من ناحية، والقوى الإسلامية فى شمالى إفريقية من ناحية أخرى، وقد أضفى عليه البرتغاليون والإسبانيون الطابع الصليبى العنيف مما دعا القوى الإسلامية إلى الاستنجاد بالدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية.

٢- سياسة التوسع الإقليمى البحرى التى انتهجتها الدولة العثمانية باستيلائها تباعًا على ممتلكات جمهورية البندقية.

٣- التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا ضد عدوهما المشترك شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

وكان امتداد نشاط الأسطول العثمانى إلى الحوض الغربى للبحر المتوسط بمثابة فتح جبهة حربية ثانية ضد الإمبراطور شارل الخامس وسياسة عليا للدولة على عهد السلطان سليمان استهدفت منها مزيدًا من التعاون بين الدولة العثمانية وفرنسا، إذ أصبح الاتصال العسكرى والتعاون الحربى بين الدولتين بفضل الأسطول العثمانى، مباشرًا وأكثر سهولة وأشد فاعلية[1]، فإن الحروب البرية التى خاضتها الدولة ضد

(١) الدولة العثمانية. مرجع سابق ج٢ ص٨٩٢.

المجر وضد النمسا لم تتح الفرصة أمام فرنسا لتنسيق التعاون المنشود. أما وقد فتحت الدولة العثمانية جبهة حـربية فى هذا الحوض الغربى الذى تطل فرنسا على سواحله الشمالية فقد أصبح فى مقدور الدولتين تنسيق وتعزيز التعاون الحربى بينهما واستطاع الأسطول العثمانى أن يتغلغل فى أنحاء الحوض الغربى وأن يتخذ من الموانئ الفرنسية قواعد له يحـتمى بها، وأن يقوم بمهـاجمة ممتلكات الإمبـراطور شارل الخامس، فى إيطاليا وإسـبانيا، كـى يخفف الضغط على القـوات الفرنسـية فى حربهـا ضد هذا الإمبراطور، ولـم تـكن الانتصارات التى حققـها الأسطول العثمـانى تقل من حيث أهميتها عن الانتصارات التى سجلتها الجيوش العثمانية على أرض القارة الأوربية فى بلغراد وفى موهاكـز، بل كانت انتصارات الأسطول العثمانى أبـقى أثراً من فتوحات المجر والنمـسا، لأنه نجم عن انتـصاراته فى الحـوض الغربى للبـحر المتـوسط إنقاذ شمالى إفريقـية من الغزو الصليبى الأوربى ودخول ثلاثة أقاليم إسلامـية عربية تحت السيادة العثمانية وتراوحت فترة هذه السيادة بين قرنين وثلاثة قرون.

وقد تم تعاون كبير بين الأسطولين العثمانى والفرنسى على ثغر نيس حيث أبحر خيـر الدين باربروس من إستانبـول عام ١٥٤٣م على رأس قـوة بحرية إلى جنوب فرنسا ليخلص ميناء نيس من قوات شارل الخامس، ثم مضى الأسطول العثمانى فى الهيـمنة على المنطقة الواقعـة فى منتصف حوض البـحر المتوسط وتم التـعاون بين الأسطولين الفرنسى والعثمانى فى الاستيلاء على ثغر نيس وإعادته إلى فرنسا.

وقد ظفـر الأسطول العثمانى باتخـاذ قاعدة له فى مـيناء طولولون الفرنسى فى حوض البحر المتوسط، إذ تحـولت تلك القاعدة إلى قاعدة حربية إسلاميـة عثمانية فى جنوب أوربا بموافقة السلـطات الفرنسية، وبالتعـاون المشترك بين الأسطولين تم مهاجمة الأهداف العسكرية الإسبانية.

وقد اشتد غضب الأوربيين وبلغ سخطهم أقصاه على الملك فرانسوا الأول الذى تحالف مع أكـبر دولة إسلامـية، وأطلق عليـه الأوربيون الاتحاد المدنس بين فـرنسا والهلال[1].

---

(١) المرجع السابق ٨٩٤.

وتوالت انتصارات الأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان المشرع وأحرز انتصارات بحرية متعاقبة، إذ احتل ميناء بنذرت عام ١٥٥٦م ودمر ميورقة وأحرق سورنتو بالقرب من نابولي. ولعل من الأفضل أن نعطي مثالاً عمليّاً لإحدى انتصارات الأسطول العثماني على قوى الصليبيين مجتمعة وهي معركة برفيزا وسميت بذلك نسبة إلى ميناء جنوبي جزيرة كوفو بقيادة خير الدين باربروس.

معركة برفيزا في منتصف البحر المتوسط ٩٤٤هـ - ١٥٣٧م

الخلفية التاريخية:

شهد الحوض الغربي للبحر المتوسط إبان النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي -كما قلنا- صراعًا محتدمًا بين القوى البحرية الإسلامية ممثلة في الأسطول التركي، وبين القوى البحرية الإسبانية، وإن كان ذلك الصراع قد بدأ بصورة غير مباشرة حيث اعتمد كل منهما على إثارة بعض الطوائف الموالية من أبناء المغرب الإسلامي، إلا أن الصراع تطور بعد ذلك واحتدم لعدة أسباب منها:

١ - **بناء البحرية الإسلامية العثمانية:** عندما ارتقى السلطان «سليم الأول» عرش الدولة العثمانية، رأى أن أول عمل ينبغي أن يقوم به لتوطيد أركان الدولة الإسلامية هو بناء قوة بحرية قادرة على انتزاع سيادة البحر المتوسط من الدول الأوربية. فقد قال لأحد معاونيه في هذا الصدد: «طالما بقيت أساطيل جنوة والبندقية وورودس ونابولي وصقلية في مياه البحر المتوسط بدون رادع، فإني لن أستطيع أن أحكم في أوربا أو في آسيا ما دام البحر حزامًا يربط كلاً منهما بالآخر، كما سأظل سجينًا في إمبراطورية تقتصر مهمتي فيها على حراسة ما بها من طرق وبوابات عالمية[1]».

وبالفعل بذل سليم الأول قصارى جهده إلى أن اكتمل بناء أسطوله الحربي والذي ازداد اكتمالا وقوة ضاربه في عهد السلاطين من بعده وقد انطلق ذلك الأسطول يجوب البحر المتوسط من مشرقه إلى مغربه، ثم بدأ ينافس الأسطول

(١) محمد عبد المنعم السيد، أحمد الحتة - الغزو العثماني لمصر مؤسسة شباب الجامعة ص ٢٣٧.

الإسباني في مشاريعه البحرية ويقف له بالمرصاد وقد وغص الجزء الغربي من البحر المتوسط بعد ذلك بأساطيل هاتين الدولتين إلى أن وضعت معركة «برفيزا» حداً مؤقتًا لهذا الصراع.

٢- غروب شمس الأندلس وضعف البحرية المغربية: وقد عاصر بناء البحرية العثمانية في المشرق الإسلامي تدهور خطير للبحرية الإسلامية في غرب البحر المتوسط حيث غربت شمس الأندلس بسقوط غرناطه آخر معقل للمسلمين في أيدي الإسبان، وانطوت بسقوطها آخر صفحة في تاريخ الدولة الإسلامية وأسطولها الذي ساد البحر قرونًا، فانفرد البحر المتوسط أمام البحرية الإسبانية تعيث فسادًا وغطرسة في سواحل المغرب العربي في محاولات جادة لفرض سلطانها على مسلمي المغرب إما بالوعيد أو بحماية عروش بعض ملوكه.

وفي غمرة هذه الأحداث المؤلمة ظهرت حركة عامة بين رجالات البحر المغاربة تستهدف العمل على حماية موانيهم وسواحلهم من غارات الإسبان وتأمين وصول إخوانهم المسلمين المهاجرين من الأندلس بعد تنصيرها إلى المغرب ومصر وبعض البلدان الإسلامية، كما أجمعوا على الانتقام من هؤلاء الإسبان الذين اضطهدوا المسلمين وأكرهوهم على التنصر.

٣- غارات المجاهدين انتقامًا للأندلس الشهيد في ذلك الحين، إذ غادرها آلاف المسلمين المجاهدين الذين ألفوا العيش في وطنهم المسلوب وعبروا البحر إلى شواطئ المغرب، واستقر بهم الحال في بعض القواعد الساحلية بالمغرب الإسلامي مثل وهران والجزائر وبجاية، وقد وهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد في سبيل الله والانتقام من أولئك الذين استأصلوا شأفة أمتهم وانتهكوا حرمة دينهم.

٤- أعمال القرصنة البحرية في الشواطئ المغربية: فقد كان البحر المتوسط منذ أقدم العصور مسرحًا خصبًا للمغامرات البحرية وأعمال القرصنة الفردية بجانب نشاط الأساطيل الرسمية للدول، وقد ساعدت الحروب الصليبية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه على تنشيط أعمال القرصنة وانتشارها في البحر المتوسط حيث

اندفع القراصنة من نصارى اليونان وأهل سردينية وجنوة ومالطة ومن انضم إليهم من المغامرين يجمعون الثروات الباهظة التى يحصلون عليها من مداهمتهم للأساطيل التجارية فى عرض البحار، والاتجار فى الرقيق والسلع الممنوعة وافتداء الأسرى.

لقد اتخذ هؤلاء المغامرون البحريون من الشواطئ البحرية أوكارًا صالحة فى عملياتهم البحرية لما تتميز به طبيعة تلك البلاد من وعورة أرضها، ووفرة ثغورها ومراسيها، وكثرة خلجانها، ومما أذكى نشاط هؤلاء المغامرين فى هذه المنطقة على وجه الخصوص ما وصلت إليه أحوال المغرب الإسلامى من تدهور وانحلال عقب سقوط غرناطة، حيث اضطربت العلائق البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية.

وبعد أن فرغ السلطان سليم الأول من بناء البحرية التركية زاد نشاط المغامرين من المسلمين فى هذه البقعة متخذين من سقوط غرناطة واضطهاد الإسبان للمسلمين سببًا مشروعًا للجهاد فى سبيل الله والانتقام لما نزل بمسلمى الأندلس من ضروب العسف والإرهاق[1].

أهم قادة المعركة

أ- القادة المسلمون:

ومن أهم أمراء البحر الذين ساهموا فى تلك المعركة الأخوان الشهيران أوروج «عروج» وأخوه خضر الذى اشتهر «بخير الدين» والمعروف عند الأوربيين بـ«باربروسا» أى صاحب اللحية الحمراء، وكان خير الدين منتبهًا يتابع جهود عدوه أندريا دوريا وعندما علم باقتراب ركوبه البحر جمع أسطوله الذى يضم أربعين سفينة، وحشد قواته واستنفر الحاميات وأخذ فى الاستعداد للمعركة. وكان هذان الأخوان من أهم قواد المعركة فى الأسطول الإسلامى ومعهما نخبة كبيرة من الرتب البحرية من قادة ومستشارين ومهندسين مهرة أكفاء.

(١) محمد عبد الله عنان. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين. مطبعة نصر طبعة ثانية ص ٣٦٨.

ب- القادة المسيحيون:

تولى قيادة المعركة أندريا دوريا وهو من بيوتات مدينة جنوة الإيطالية ومن أسرها العريقة وقد ورث عن أبيه وعن جده حب المغامرة البحرية وقد خدم ملك فرنسا فرانسوا الأول وكان قائد أساطيله ثم ترك ملك فرنسا ودخل فى خدمة الإمبراطور شارلكان أكبر رؤساء أوربا وأقواها. وانصرف أندريا دوريا إلى مدينة جنوة من أجل تنظيم أسطوله استعداداً لحملته الضخمة القادمة.

والتقى الجمعان فى موقعة بحرية حاسمة عرفت بموقعة «برفيزا» على مياه البحر المتوسط، سجل فيها باربروسا نصراً مؤزراً على الأساطيل الإسبانية، له أبعاده السياسية والعسكرية وحرى بالعسكريين أن يعكفوا على دراستها، فما زالت حتى اليوم مادة خصبة لكل باحث عسكرى على المستوى الإستراتيجى والتكتيكى بفروعهما المختلفة.

الاستعداد للمعركة (الفتح التعبوى)

أولاً: حشد القوى وتعبئة الأساطيل:

الأسطول الإسلامى: علم خير الدين باربروسا أن إسبانيا تستعد لخوض معركة بحرية فاصلة ضد الأساطيل التركية، وأرادت أن تجعل منها حرباً دينية صليبية كبرى فتوددت إلى إيطاليا وروما مركز الإمبراطورية الكاثوليكية، وأثمر هذا التودد نجاحاً ملموساً فى نسيان الخلافات القديمة وبارك البابا تلك الحملة ودعا النصارى للاشتراك فيها.

وأدرك باربروسا خطورة تلك الحملة والبواعث التى دفعت إليها فهى ليست حرب أساطيل فقط؛ وإنما هى حروب قومية دينية فى المقام الأول، فإذا ما أسفرت الحملة على تحطيم أساطيله فسوف تضيع سيادة المسلمين على حوض البحر المتوسط، ولن تخفق للإسلام بعد هذا اليوم راية على مياهه.

فأعلن صيحة الجهاد مدوية ودعا الأتراك إلى التعبئة العامة فى جميع الولايات الإسلامية، فجهزت المراكب وزودت بالوقود والنفط، وملئت بالذخيرة والسلاح

وحشد عليها البحارة المقاتلون المسلمون من الأتراك والمغاربة وغيرهم من مجاهدى العرب المهاجرين من إسبانيا، وقد أضحى الجميع متشوقين إلى ذلك اللقاء الحاسم، وقد اضطرمت نفوسهم بروح الجهاد العالية والرغبة الصادقة لنيل إحدى الحسنيين: فإما ثأر وانتقام من الأعداء وسيادة مطلقة على البحر المتوسط، وإما شهادة فى سبيل الله.

وتم حشد الأساطيل الإسلامية على خير ما يرام، وصدقت النيات وصحت العزائم، وعقد السلطان العثمانى «سليمان القانونى» الذى خلف والده «سليم الأول» لواء قيادة الأسطول إلى أمير البحر «خير الدين باربروسا»، فتطلعت إليه الأنظار وعقدت عليه الآمال فى أن يحقق للمسلمين نصرًا مؤزرًا.

وباشر باربروسا مهام عمله الجديد وكان عليه أن يواجه الأسطول الإسبانى وينتصر عليه، وأدرك أن النصر ليس سهلاً وإنما طريقه فى هذه المرة محفوف بالمخاطر والأهوال، فهو يواجه خصمًا عنيدًا، وقوى بحرية هائلة تفوق قوته عدة وعددًا، فكان من الأفضل أن يتريث فى وضع خطة محكمة للمواجهة الشاملة. وتفتقت قريحته فى أن يواجه الإسبان بإستراتيجية حربية ذات شعبتين هما:

الأولى: أن يواصل مناوشاته وغاراته الصغيرة مع الأعداء دون الدخول فى معركة تصادمية كبيرة إلى حين التوصل إلى خطة للمواجهة الشاملة وذلك لاستنزاف قوات العدو، وسوف يستفيد من هذه المرحلة أيضًا جمع معلومات عن عدوه تفيده فى خطته التصادمية.

الثانية: أن يضع خطةً تصادمية للمواجهة الشاملة مع القوى البحرية الإسبانية، واستغرقت هذه الخطة عامين كاملين خطط لها بأناة وصبر ودقة متناهية هادفًا من ورائها أن يملك زمام المبادأة، ويحدد الوقت والمكان اللازمين لها وأن يتحكم هو فى إدارة دفة القتال كما يريد، ولا يترك لخصمه طريقًا من طرق الحل المفتوح لينفذ منها ويغير مسار خطته[1].

---

(١) راجع فى عرض المادة التاريخية: غزوات عروج وخير الدين الجزائر ١٩٣٤م

الأسطول الإسبانى:

أما الأسطول الإسبانى فقد تحرك من مراسيه بإسبانيا بقيادة أمير البحر الجنوى «أندريا دوريا» وقد حشد أعدادًا هائلة من المراكب البحرية العامة والملكية الخاصة والغليونات الضخمة ذات الأبراج العالية سواء الشراعية أو التى تسير بالمجاديف الكثيرة، وقد زودت بالمدافع النارية والذخيرة، وحشد عليها أعدادًا لا حصر لها من البحارة والمقاتلة تضطرم نفوسهم بنار الحقد والكراهية التى أذكتها الكنيسة، وتقدم أندريا بأسطوله نحو الشرق، شاقًا البحر المتوسط، ثم اتجه شمالا إلى «البحر الأيونى» خائضًا بأسطوله سيادة المياه التركية ليلحق بالأسطول التركى. ولكن الأسطول التركى كان قد سبقه إلى هذه المنطقة، ثم رسا بالقرب من السواحل الإيطالية ليفرض عليها حصارًا قويًا يمنع دعمهم للقوات الإسبانية. ثم تقدم الأسطول الإسبانى وبدأ جولته بشن غارة على الموقع التركى «كورون» فى شبه جزيرة «المورة» جنوب اليونان، ثم زحف إلى خليج «أرتا» وأرسى أسطوله على طريق القناة الموصلة إلى الأسطول التركى الراسى داخل هذا الخليج[1].

مقارنة القوات:

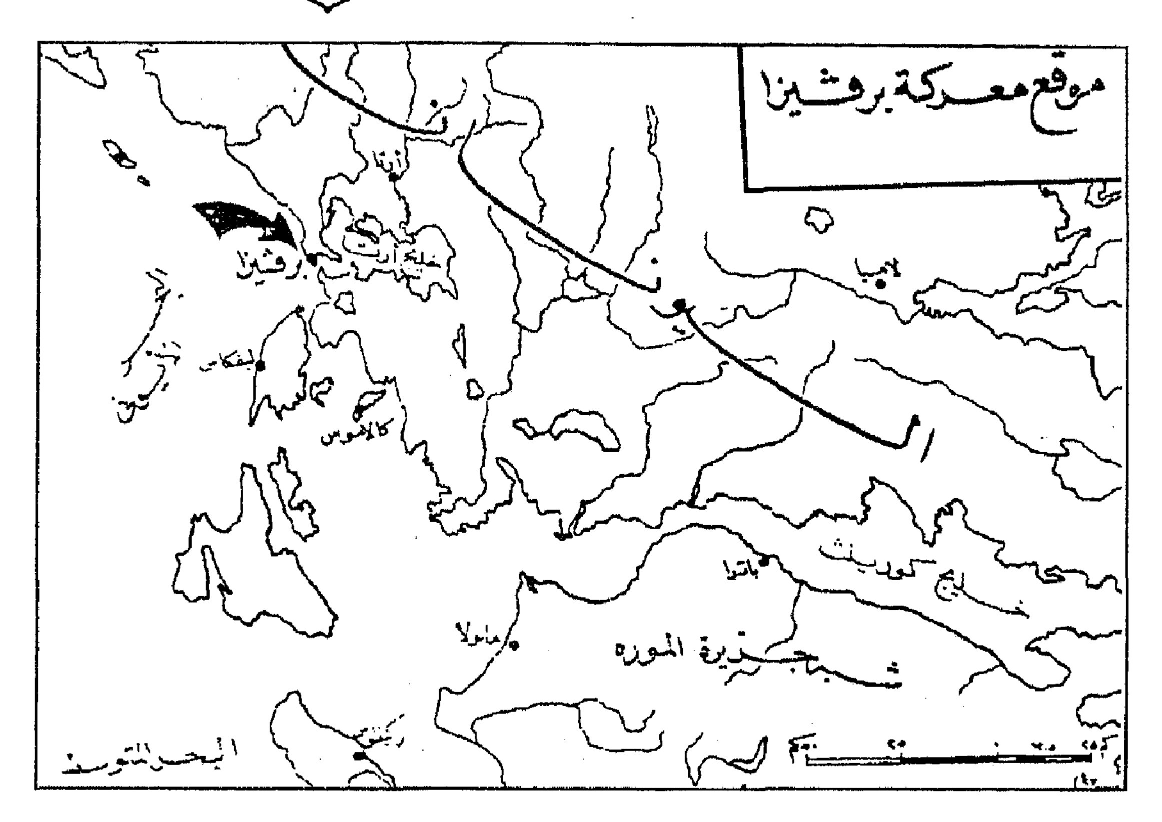
وإن كانت المراجع التى اعتمدنا عليها لا تشير من قريب أو من بعيد إلى إحصاء يبين عدد القطع البحرية والبحارة المقاتلين من كلا الطرفين، إلا أنها تشير بوضوح تام إلى ضخامة الحشود التى تميزت بها القوات البحرية الإسبانية، وهذا ما تشهد به الرواية النصرانية ذاتها[٢] فى: عدد المراكب التى قدرتها بمئات، وفى أحجامها الكبيرة وفى عدد الرجال. ورغم أن أسطول باربروسا كان أقل منه فى النوعيات السابقة إلا أنه تميز عنه بصغر الحجم وخفة الحركة والمقدرة البارعة على المناورة وسرعة الانتشار.

---

(1) Thomas faster . Alistair review history of - convict on land, sea and air ، marshal Cavendish limed . Hong Kong ، 1974، p . 16 - 25 .

(٢) راجع فى عرض المادة التاريخية: غزوات عروج وخير الدين الجزائر ١٩٣٤م، وكذلك:

- Thomas faster . Alistair review history of - convict on land ، sea and air ، marshal Cavendish limed . Hong Kong ، 1974، p . 16 - 25 .



موقع معركة برفيزا

ثانيًا: خطة المعركة:

خطة باربروسا: درس باربروسا ظروف المعركة قبل أن يخوضها وجمع معلومات وافية عن عدوه وعن المنطقة المائية التى ستدور فوقها المعركة، وعن الظروف الجوية التى تسود مكان القتال وقدر قوات عدوه ونوعية سلاحه وأسلوبه فى القتال، وحلفائه الذين ينضمون إليه خلال المعركة وقارن ذلك بإمكانياته البحرية، ثم رسم خطته المحكمة والتى استغرقت عامين كاملين وقد قدر فى هذه الخطة أن يحتفظ بزمام المبادأة، ويحرص على المناورة وخفة الحركة وسرعة الانتشار مع البراعة فى التشكيل، وأن يجبر عدوه على خوض معركة يحدد هو زمانها ومكانها، ولا غرو أن تكون خطته محكمة، فهو ملك البحار وعمله لسنوات طويلة فى أعمال القرصنة والمغامرات البحرية كان له أثره الفعال فى إحكام تلك الخطة وفى تنفيذها، ويمكننا من خلال دراسة الموقعة أن نحدد معالم خطته فى النقاط الآتية:

أ- أن يرابط أسطوله كاملاً أمام السواحل الإيطالية حليفة الإسبان ليرهب الحكومة الإيطالية ويمنعها من دعم القوات الإسبانية، ثم تقوم بعض القطع البحرية التركية بشن غارات منفردة، ومناوشة الأسطول الإسبانى لتثير قائده فتدفعه للحاق بها، فيجد نفسه وأساطيله معرضين للهجوم من الأسطول التركى المختفى عن الأنظار داخل المياه الإقليمية التركية.

ب- اختيار جزيرة المورة جنوب اليونان من مجموعة الجزر الصغيرة ميدانًا للمعركة، وإخفاء الأساطيل فى أحد خلجانها «خليج أرتا» "arta bay" بعيدًا عن أنظار الأسطول الإسبانى.

ج- اعتمد فى مناوراته وأعماله الهجومية على مجموعة من المكامن المخططة والمدروسة دراسة واعية، وقد ساعده على رسم المكامن معرفته الكاملة لطبيعة الجزر والمضايق اليونانية من جهة، ومراكبه الخفيفة والقليلة الحجم ومقدرتها البارعة على السرعة والانتشار وخفة الحركة فى الكر والفر من جهة أخرى.

خطة أندريا دوريا:

بنى القائد الإسبانى خطته أيضًا على رسم مجموعة من المكامن تتناسب وطبيعة سفنه الشراعية الكبيرة فى مياه عميقة معتمدًا على المبادئ الآتية:

أ ـ محاولة جر باربروسا بأساطيله إلى منطقة مياه عميقة مفتوحة تناسب ضخامة حجم أساطيله وارتفاع أبراجها بعيدًا عن القنوات والخلجان المغلقة ذات المياه الضحلة والصخور المرتفعة التى تعوق بطبيعة الحال حرية الحركة وسرعة انتشار قطع أسطوله.

ب ـ التفوق على الأسطول التركى فى عدد وحجم مراكبه حيث انضم إلى أساطيله الأسطول الذهبى «الملكى» بمراكبه وغليوناته ذات الأحجام الكبيرة والأبراج العالية.

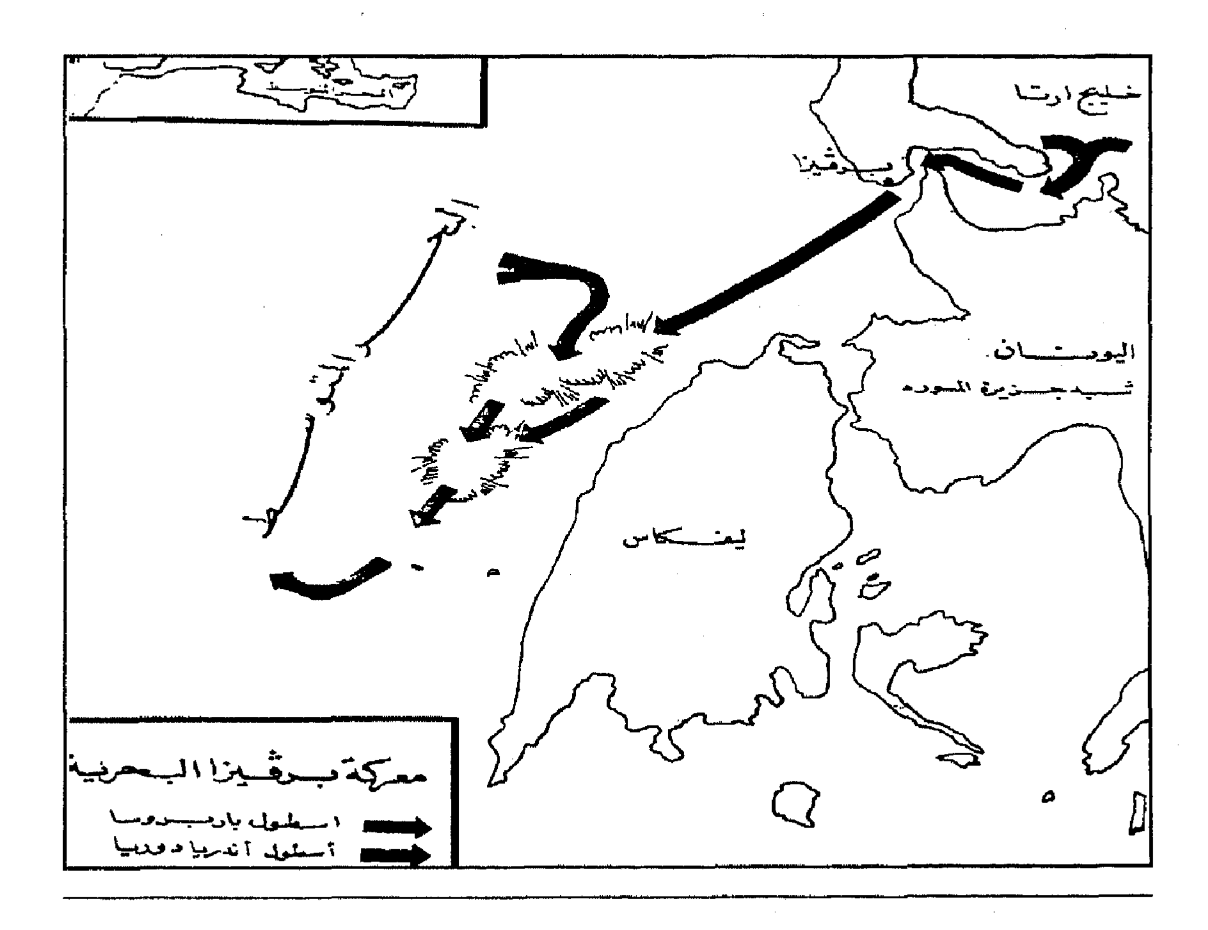
ج ـ تزويد سفنه بمقادير هائلة من الذخيرة والمدافع النارية.

د ـ حشد أعداد هائلة من البحارة والمقاتلين للقيام بحصار برى وبحرى لأسطول باربروسا.

سير القتال «الفن التكتيكى»

المرحلة الأولى: الاستطلاع والاقتراب: (انظر الخريطة المرفقة)

بدأت الجولة الأولى بأن أطلق كل قائد مراكب الاستطلاع ليرقب تحركات خصمه ويحدد مكانه، ثم بدأ باربروسا مباشرة خطته فشن غارات عنيفة قامت بها بعض قطع أسطوله ضد المواقع الخارجية للحلف الكاثوليكى هادفًا من ذلك إغراء العدو بتتبع هذه القطع ثم جره إلى كمين مرسوم، ونجحت حيلته؛ فعلى الفور قاد «أندريا دوريا» أسطولاً كبيرًا واتجه به نحو موقع الأسطول التركى، ومن ثم قاد باربروسا أسطوله هو أيضًا مجتازًا القنوات الملتفة للجزر الصغيرة جنوب اليونان. وفى داخل خليج أرتا قبع أسطوله مستترًا فى أمان وفى وضع تعبوى قوى داخل ربع دائرة ضخمة، وجعل انحناءات السفن فى اتجاه المدخل الصغير للخليج، فإذا ما تعقبهم «أندريا دوريا» فسوف يقع فى الكمين المعد له.



ونتيجة لعـدم إدراك أندريا دوريا لما يدور فى خلد باربروسا جاء بأسطوله داخل المياه تحت السـيطرة التركيـة وبدأ فى البحث عن الأسطول التـركى، وبعدما وافـته الأنبـاء بمكانه داخل خليج «أرتا» قرر دخـوله لاكتـساح الأسطول التـركى، ولكن القناة التى تؤدى إلى داخل الخليج كـانت ضيـقة ومضللة، وعليـه فإن المهـمة لن تكون سهلة رغم تفوقـه فى الحجم والعدد فغليوناته ذات الأبراج المرتفـعة لا تقدر على عبـور القناة بأمان دفعـة واحدة، وعليهـا أن تعبرها واحـدة واحدة وفى بطء وتثاقل فى الوقـت الذى كانت فيـه سفن باربروسا تـغطى مدخل القناة بتشـكيلها القوى فـى حالة استـعداد للانقـضاض على غليـوناته، قبل أن يأخـذ أى تشكيل للمعركة وذلك لصغر حجمها وخفتها.

ومن هنا أدرك «دوريا» أنه لن يستطيع أن يحقق أى نصـر فاكتفى بأن ينتظر عند مـدخل القناة لحين أن تلوح فـرصة لـمهاجـمة باربروسـا. وانتهت الجـولة الأولى باقتـراب الأسطولين، ولم يفصل بينهمـا سوى تلك القناة الملتـوية والخطيرة والتى اتخذ منهـا باربروسا ملاذا أمينًا ومـوقعًا حصـينًا لسفنه يحميـه من عصف الرياح ويمتلك منه ناصية خصمه[١].

المرحلة الثانية:

بدأت الجولة الثانية بتفكير كل من القائدين بإنزال قوة برية تسير عبر برزخ يمتد بطول القناة، التى يرسو بالقرب من طرفيهـا الأسطولان وذلك لفرض حصار قوى والضـرب بقـوة على أسطول الخـصم، ومن ثم يضـعـه تحت إذعانه ورغـبـة من باربروسا فـى امتلاك زمـام المبادأة، فـقد سارع بـإنزال قوة من جنده فـوق البرزخ لإقامة بطارية تقـصف أسطول الإسبان، ولكن دوريا كان يقظًا فـرصد تحرك الجند على امـتداد القناة، وعلى الفـور أصدر أوامـره لغليـوناته الكبيـرة بالاقتـراب من الشاطئ وإطلاق مدفعيتها على رجال باربروسا، فسقط أغلب هذه القوة غرقى فى دمائهم بينمـا فر الباقون مـذعورين إلى خط أسطولهم وانتهت هذه الجـولة عندما

(١) راجع فى عرض المادة التاريخية: غزوات عروج وخير الدين الجزائر ١٩٣٤م.

سحب أندريا دوريا سفنه إلى مياه أكثر عمقا تاركة البقية الباقية من رجال باربروسا تأخذ طريقها عائدة إلى البرزخ دون إطلاق قذيفة واحدة عليهم(١).

المرحلة الثالثة:

وبدأت الجولة الثالثة برسم كمين أعده قائد الأسطول الإسبانى بعد طول انتظار، حيث سحب أسطوله وتحرك به صوب الجنوب لإيجاد مأوى ملائم عند جزيرة لفكاس، وكان هدفه من ذلك إغراء باربروسا بتعقبه خارج خليج أرتا، وحدث ما توقعه «أندريا دوريا» حيث أخرج باربروسا أسطوله من مرساه فى القناة الضيقة المفتوحة مندفعا بسفنه بأسرع ما يمكن كى يطارد عدوه، وعندما لحق به أخذ كل من القائدين يعيد تشكيل أسطوله وظلت هذه الجولة سجالا بين القوتين كالآتى:

- تعثر تشكيل الأسطول الإسبانى حيث هبت رياح متقلبة جعلت الأشرعة تتحرك بشكل مضطرب، وعلى الرغم من أن رجاله بذلوا قصارى الجهد فى وضع السفن المضطربة الهائجة فى تشكيل، إلا أن النجاح كان ضئيلا حيث فقد الأسطول كل تنسيق ثم اصطف أخيراً فى خط طويل غير منظم.
- بينما أظهر باربروسا أسطوله فوق الأفق فى تشكيل كامل، حيث كانت راحات مجاديف سفنه تبرق فى الشمس لتلقى بانعكاساتها على خط الأسطول الإسبانى، مما عاق حركة تقدم السفن الكبيرة منه إلى الأمام وجعلها تسير فى خط منتشر غير منتظم جاعلا منها هدفًا سهلاً وصيدًا ثمينًا لمراكبه.
- استغل باربروسا فرصة اضطراب السفن الإسبانية الكبيرة فى الحركة والمناورة وأمر بإطلاق نيران المدفعية عليها وفتحت البحرية الإسبانية مدافعها وبدأت هجمات الاختراق عنيفة بين الخصمين، وبعد موجات عنيفة من الهجمات المتبادلة تم ضرب أسطول دوريا وتمكنت سفن الأتراك من الاندفاع إلى أجناب السفن الإسبانية وضربها بعنف، مما أدى إلى ترنحها فأخذت طريقها إلى داخل قلب الأسطول الإسبانى غير المنسق.

(1) Thomas faster . Alistair review history of - convict on land ، sea and air ، marshal Cavendish limed . Hong Kong ، 1974، p . 16 - 25 .

- ثم انتظمت السفن الإسبانية بعد ذلك وعادت للقتال والقصف المركز على السفن التركية القريبة وأحدثت فيها ثقوبًا بالغة وسحقت المجاديف والرجال معًا، واحترقت أجناب تلك السفن وتساقط الرجال بلا حراب، وتكدست جثثهم فوق رءوس المجدفين الذين ناضلوا كي تتقدم سفنهم إلى الأمام نحو أجناب الغليونات بصعوبة بالغة، مما جعل باربروسا يسحب سفنه إلى الخلف ليعيد تشكيلها، وانتهت هذه الجولة بتوقف الهجوم وانسحاب الأسطولين بعد أن عانى كل من الطرفين خسائر فادحة وإصابات بالغة ولم يقدر أحدهما على تحمل الجروح والإصابات أكثر من هذا .

المرحلة الرابعة:

تميزت هذه المرحلة بأعمال العنف والقسوة البالغة رغم الإعياء الذى بدا على كلا الطرفين حيث حاول كل من القائدين حسم المعركة لصالحه على النحو التالى:

- رأى دوريا ترنح السفن التركية التى تحاول إعادة تجميعها فانتهزها فرصة سانحة ليقوم بهجوم ثانٍ كاسح لها ليحدث بها أكبر دمار ممكن، ثم ينسحب بأسطوله قبل أن يتمكن الأتراك من الرد، فأمر سفنه بالتحرك صوب ذلك الهدف، ولكن الرياح جاءت بما يشتهى باربروسا فإن سنوات خبرته فى أعمال البحار قد عرفته كيف يستغل الرياح لصالحه، فأعاد تجميع سفنه، وانقض بها على أسطول دوريا انقضاض الصاعقة محدثًا فيها أكبر تدمير ممكن، واشتعل أوار المعركة أغلب ساعات النهار وبلغت ذروته حتى ما بعد الظهر.

وعندما هدأت الرياح سحب دوريا أسطوله ليعيد تشكيله تاركًا الأسطول التركى يتعقبه، ولم يسمح باربروسا لأسطول عدوه أن يخرج من قبضته بسهولة فقد دوخ فريسته وبلغ معها الإعياء مداه وما عليه إلا أن يقتنصها، فتقدمت سفنه الخفيفة تضرب بعنف فى أجناب ما تبقى من غليونات الإسبان وقد تم تدمير المجاديف التى على أجناب السفن.

وبينما كانت ألسنة اللهب والدخان تملآن الفضاء تم جذب الغليونات الإسبانية إلى سفن الأتراك وقرنها بالسلاسل الحديدية واتخذوا من سطوحها ميدان قتال برى، ونشب تلاحم رهيب بالسلاح الأبيض أودى بمعظم رجال الأسطول الإسبانى، وعندما رأى القائد الإسبانى أسطول باربروسا يحيط بمعظم أسطوله ولا يمكن له أن يفعل شيئًا لإنقاذه، حيث فشلت الغليونات العملاقة فى مواجهة السفن الصغيرة أمر بانسحاب الأسطول بعد أن فقد الكثير من رجاله وغليوناته ما بين قتيل وأسير، وعندما غربت الشمس وأسدل الليل ظلامه على لجة المياه قبع دوريا مع غليوناته التى أفلتت من الدمار، وشهدت ساعات الظلام الأولى إصلاحًا سريعًا للسفن المحطمة، وعندما انتصف الليل قرر «أندريا دوريا» الانسحاب بما تبقى من أسطوله وفى ضوء الفجر شوهد وهو يختفى بسرعة وراء الأفق تجاه موطنه، ووجد باربروسا نفسه بدون عدو، وانتهت معركة «بيرفيزا» فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٥٣٧م عن نصر عظيم للمسلمين واستحق خير الدين بربروسا لقب ملك البحار[١].

الدروس المستفادة

أسفرت معركة «برفيزا» عن نتائج ودروس مفيدة على المستويين السياسى والعسكرى على النحو التالى:

المستوى السياسى:

- كان انتصار خير الدين فى موقعة «برفيزا» نقطة تحول مهمة فى تاريخ البحرية الإسلامية ممثلة فى البحرية التركية.

وإن كان نشاطها قد بدأ بغارات بحرية على الشواطئ الأوربية، إلا أن تلك المعركة كانت أول صدام بحرى على المستوى الرسمى بين قوتين متنافستين على

(١) راجع فى عرض المادة التاريخية: غزوات عروج وخير الدين الجزائر ١٩٣٤م
- Thomas faster . Alistair review history of - convict on land ، sea and air ، marshal Cavendish limed . Hong Kong ، 1974، p . 16 - 25 .

سيادة البحر المتوسط هما: البحرية التركية، والبحرية الإسبانية، وبانتصار باربروسا فى هذه الموقعة جاء تأكيد سيادة المسلمين على هذا البحر بينما جمدت حركة البحرية الإسبانية داخل سواحلها بعدما كانت من قبل سيدة البحار.

- كما أسفرت هذه الموقعة عن نجاح الأتراك المسلمين فى تطوير بحريتهم ووقوفهم لأول مرة أمام الأساطيل الأوربية الكبيرة كأساطيل إسبانيا والبندقية ورودس، بل إنهم نجحوا فى الاستيلاء على رودس وأمنوا تجارتهم من الغارات البحرية التى كانت تشنها بحرية الفرسان على السفن التركية، وبذلك تمكن الأتراك من إغلاق شواطئ البحر المتوسط وجعله بحيرة إسلامية.

- استحوذ الحوض الغربى للبحر المتوسط على جل نشاط البحرية الإسلامية التركية بعد ذلك سواء على مستوى الأساطيل الرسمية أو القيام بغارات بحرية وأعمال القرصنة ضد الشواطئ الإسلامية، حيث كانت فكرة الانتقام للأمة الأندلسيه الشهيدة تكمن فى معظم الأحيان وراء هذا النشاط البحرى هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن تدهور أحوال المغرب العربى بعد سقوط الأندلس، كان إيذانًا بترديه هو أيضًا فى قبضة إسبانيا والتى خلا لها الجو، فصارت تعيث فسادًا فى سواحله وتضع مشاريعها الحربية للاستيلاء عليه، وعندئذٍ يتم لها إجهاض الجناح الغربى لأمتنا الإسلامية، فلا غرو إذن أن نرى أنشطة البحرية الإسلامية التركية تهيمن تمامًا على الحوض الغربى للبحر المتوسط فتتوغل فى قلب أوربا إلى فيينا، ثم تتجه غربًا حتى القواعد الإسبانية وتنتزع منها السيادة على الجزائر وتونس وطرابلس، محققة بذلك عمقًا إستراتيجياً هائلاً لما حوته من إمكانيات اقتصادية وبشرية وحربية مكنتها من مواجهة القوى الأوربية، وصيانة دولة الإسلام ضد الزحف الصليبى لقرون عديدة.

المستوى العسكرى:

كان لنجاح خير الدين فى الحصول على أدق المعلومات عن أسطول خصمه وتحركاته أولا بأول فضل كبير فى إحكام وضع خططه التى استغرقت منه زهاء

العامين وحرص فيها على تطبيق أهم مبادئ الحرب البحرية ليفرض المعركة الوشيكة على خصمه فى المكان والزمان الذى يناسب سفن المسلمين وخططهم.

كما ساعده على تحقيق النصر فى برفيزا سابق معرفته الجيدة بمسرح المعركة فى البحر وجزره وخلجانه وممراته المائية، علاوة على معرفته بتنظيم وتسليح وأسلوب قتال خصمه، الأمر الذى أتاح له استغلال ميزات أسطوله وعيوب أسطول خصمه لأقصى حد ممكن(١).

وقد أظهر خير الدين مقدرة بارعة فى انتزاع زمام المبادأة ثم الاحتفاظ بها فى جميع مراحل القتال، وذلك بفضل المكامن المتعددة التى استمر يبثها لعدوه، والمناورات الواسعة التى حققها خلال الجزر الصغيرة والقنوات الضيقة، حيث تفوقت سفنه الصغيرة على سفن عدوه الضخمة فى الملاحة والمناورات وخفة الحركة.

وقد أظهرت أحداث المعركة مهارة باربروسا فى حشد أسطوله بأسلوب مبتكر ليواجه مختلف مواقف القتال مع ادخار بعض السفن كقوة احتياطية يدخلها فى الوقت المناسب ليفاجأ أندريا ويوقع ارتباكا فى تنظيم أسطوله ويحرمه فرصة التنسيق بين قطعه، وبفضل الهجوم الساحق المدمر الذى اكتسب به باربروسا السيطرة على خصمه والزمه باتخاذ خطط الدفاع فى أغلب الحالات تم له النصر المؤزر.

وبعد.. فهذه إحدى معارك باربروسا البحرية التى قوض فيها جسور الوهم واليأس التى إقامتها إسبانيا فى السيطرة على البحر المتوسط، فقد اختارته العناية الإلهية فى هذه الفترة التاريخية الحرجة وحبته من صفات الشجاعة والعظمة والغيرة على الدين ما هيأ له أن يقوى على تحطيم أسطول خصمه تحطيمًا كاملا، ويرسى لبنى الإسلام أمنًا عزيزًا راسخًا، إنه ظفر عظيم للإسلام كله سوف تظل أنباؤه تتردد فى مسمع التاريخ ويتردد معه اسم البطل العظيم «باربروسا» ملك البحار(٢).

* * *

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص١٨٦ .

(٢) عبدر الرحمن الجيلالى تاريخ الجزائر العام ج٢ ص١٨٢ ط ١٥٥ .

لقد سيطر الأسطول العثمانى على شـرق حوض البحر المتوسط سيطرة تامة إلا أن الإسبـان قد استغلوا انشـغال العثمـانيين بالحروب الدائرة بالمشـرق، وسارعت بعض القوى الغربية وبخاصـة إسبانيا بمواجهة القوى البحرية العـثمانية فى حوض البحر المتـوسط، وكان جُل الانشطة البحـرية آنذاك يتركز فى غرب حـوض البحر المتوسط، وقـد اتخذت المواجـهة عدة أشكـال، وقد تبين مـخطط الإسبـان حيث اتجهـوا بأنشطتهم البحـرية لتنفيذ مـخطط استعمـارى ضد دول الشمـال الإفريقى الإسلامية، وكانت الهجمة البحرية الأولى ضد ميناء المرسى الكبير فى الجزائر لما له من أهمية خاصة فى رسو السفن هذا فضلا عن كونه مأوى البحارة المسلمين الذين كانوا يغيرون على السفن والسواحل الإسبانية.

وقـد بدأت تجهـيزات الأسطول الإسـبانى فـى مالقـة وأبحر منهـا (٩١١هـ - ١٥٠٥م) بقيـادة دون ديجو ديفى وكـان فى هذا الاسطول قـوة تقدر ١٠,٠٠٠ أنزلت كلها بعـد ثمانية كيلو متـرات غرب وهران بالقرب من ميناء المـرسى الكبير ولم يكتفِ الإسبان بذلك بل أرسلوا فى نفس الوقت حملة كبيرة بقيادة بيدروا دى نافرو سنة (٩١٤هـ -١٥٠٨م) واستولت على حجر باديس على سـواحل المغرب الأقـصى الشـماليـة[١]، كـمـا اسـتـولى الإسـبان عـلى وهران سنة (٩١٥هـ - ١٥٠٩م)[٢]، ثم أصبـحت منذ ذلك التـاريخ المركز الرئيـسى لنشاط الإسـبان فى البحر المتوسط، وفى سنة (٩١٧- ١٥١١م) تحـرك الأسطول المكون من ١٤ سفينة عليها ١٠,٠٠٠ جندى وهاجـم ميناء بجاية[٣] واستولى عليـه ثم واصل الإسبان فتوحاتهم فى الجزائر فاستولوا على شرشار وغيرها من المدن الساحلية[٤].

كمـا استطاع الإسبـان الإستيلاء على طـرابلس الغرب سنة (٩٣٧هـ- ١٥٣٠م) ولم تأت سنة (٩٩٢هـ- ١٥٢٢م) حتى بدأت البحرية العثمانية فى السيطرة على أهم جزر البحـر المتوسط وخاصة جزيرة رودس التى اسـتسلمت للعثمـانيين، وتم إجلاء

---

(١) الناصرى أبو العباس أحمد بن خالد. الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى ج٥ ص١٤ سنة١٩٥٥م.
(٢) الجيلالى. مرجع سابق ج٢ ص١٨٥ . (٣) الناصرى. الاستقصا. مرجع سابق ج٥ ص٢٩ .
(٤) الجيلالى. مرجع سابق ج٢ ص١٩١.

الإسبتارية عن جميع ممتلكاتهم فى بحر إيجة فانسحبوا إلى إيطاليا ثم إلى جزيرة مالطة التى اتخذوا منها قاعدة جديدة منحهم إياها الإمبراطور شارلز الخامس[١].

والحقيقة أن الأسطول العثمانى لم يقف نشاطه على طرد فرسان الإسبتارية من شرق البحر المتوسط، بل حاربت كذلك البنادقه حيث استطاعت الاستيلاء على جزيرة كريت فى معركة بحرية هائلة شارك فيها الأسطول المصرى الذى أبلى بلاء حسنا والذى انتهى بانتزاع تلك الجزيرة من أيدى البنادقة سنة(١٠٨٠هـ-١٦٦٩م).

ضعف الأسطول العثمانى وتعرضه للهزائم:

لقد عرفنا فيما سبق عظمة الأسطول العثمانى المتمثلة فى نشاط وقوة رجالات من أمراء البحر والبحارة إلى غير ذلك من العاملين فى وحدات الأسطول، وكم ساهم فى العديد من الصراعات أنصف فيها الدولة العثمانية حينًا وأخفق حينًا آخر ولكن على ما يبدو أن الدولة العثمانية قد انشغلت بمزيد من الصراعات السياسية، إذ تكالبت عليها أغلب دول أوربا للنيل منها ومن سيادتها هذا من ناحية وإزالة شأفة الإسلام من بلادهم أو بالقرب من حدودهم من ناحية أخرى، وعلى ما يبدو كانت وطأة تلك الدول شديدة، وترتب على ذلك إهمال للأسطول وإهمال لرجاله، وخاصة بعد انقراض الجيل الأول من أمراء الأساطيل العثمانية العظام.

فلا غرو بعد ذاك أن تروى المراجع العديد من الإخفاقات للأسطول العثمانى أسلمته فى النهاية إلى الضعف، ومن هذه الإخفاقات:

أ - فشل الأسطول فى فتح جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥ على عهد السلطان سليمان المشرع وتعرضه لخسائر فادحة فى الأرواح والسفن

ب - إخفاقه فى معركة لابنتو سنة ١٥٧١ إبان عهد السلطان سليم الثانى. إذ كانت هزيمة منكرة تحطمت فيها غالبية وحدات الأسطول.

---

(١) تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط فى العصر الوسيط دكتور أحمد رمضان أحمد. مشروع المائة كتاب. سلسلة الثقافة الأثرية التاريخية. كتاب رقم ٧ ص٤٤ .

ج- كما استشهد عدد كبير من كبار القادة البحريين والبحارة المدربين.

د- لم تتمكن الدولة العثمانية من بناء قادة على طراز ممتاز كما قلنا.

هـ- تأخر الأسطول فى السيطرة على جزيرة كريت من جمهورية البندقية، إذ استغرق انتزاعها خمسة وعشرين عامًا. وسوف نفرد بعض الصفحات للحديث عن ضعف ذلك الأسطول من خلال إحدى المعارك التى هزم فيها الأسطول العثمانى ليتبين للقارئ فداحة تلك الهزيمة

معركة لابنتو lepanto وهزيمة العثمانيين[1]

تعتبر معركة (lepanto) التى دارت رحاها بين تحالف الدول المسيحية وبين الدولة العثمانية، وذلك فى أكتوبر سنة (١٥٧١م - ٩٢٣هـ) نهاية المطاف بالنسبة إلى السيطرة الإسلامية على حوض البحر المتوسط وبصفة خاصة للدولة العثمانية[2]، وتحدثنا المراجع[3] عن القوات التى اشتركت فى المعركة فتقول: إن القوات التيس اشتركت فى المعركة هى: سفن البندقية وتتكون من (١٠٥) سفينة مسطحة المعروفة باسم شينى (galley) سفينة وعدد (٦) من نوع الشينى(gallease) و(١٠) من نوع[4] الغليون (galliot) أما قوات البابا وكذا قوات سافوى وجنوة

---

(١) يطلق على هذه المعركة فى المراجع الفرنسية lepante وفى المراجع الإنجليزية lepant الإيطاليا lepanto، وقد دارت المعركة فى المنطقة الواقعة بين خليج لبانت وخليج باتراس patras ولهذا يرى بعض المؤرخين بأنه خليق بأن يطلق على هذه المعركة البحرية اسم معركة باتراس وليس معركة لبانت. ومن الملاحظ أيضًا أن القادة العثمانيين كانوا على استياء شديد من تلك الهزيمة، حيث أطلق عليها العثمانيون صنفين (دوننما سفرى) أى معركة الأسطول الذى غرق وذلك لتخفيف وقع تلك الهزيمة على أنفس الشعب.

(٢) هناك العديد من المؤلفات التى تكلمت عن هذه المعركة الحاسمة فى تاريخ الحروب البحرية بين تركية ودول أوربا المسيحية. وكان طبيعيًا أن تتعدد وتختلف الآراء فى تقدير الأطراف المتحاربة، أما النتيجة فكانت بطبيعة الحال واحدة، وهى انتصار الدول المسيحية على الدول العثمانية.

(3) Giuseppe: ahistory of naval tactical thought p.61 Andre Siegfried : the Mediterranean p.94.

Grousset : l'empire du levant p.217.

(٤) الغليون سفينة حربية خفيفة الحركة، وكانت تستعمل فى بعض الاحيان لحمل البضائع النفيسة أو الشخصيات المهمة وقت الحروب (البحرية فى مصر الإسلاميةص٣٣٥).

ومالطة ونابولى وإسبانيا فتتكون من (٣١) سفين مسطحة تعرف باسم الشلندى[١] (cheland جمعها شلنديات) و(٢٠) غليونا. وقد كان هذا الأسطول تحت قيادة دون جون (donjohn) النمساوى والقائد العام للتحالف المسيحى. هذا بالإضافة إلى (٢٠٩) سفن مسطحة و(٦) من نوع الشينى و(٣٠) سفينة بضائع[٢] (cargo) أما عدد ما على هذه السفن من قوات فهو كما يلى (٢٨٠٠٠) جندى (١٢٩٢٠) بحارًا و(٤٣٥٠٠) مجدف و(١٨١٥) مدفعيًا[٣].

أما القوات التركية فقد كانت مكونة من (٢٢٩) سفينة مسطحة (شينى) (Galleys) و(٦٠) سفينة صغيرة للحرفيين تحت قيادة على باشا[٤]، أما عدد القوات التركية فقد كانت تزيد قليلا عن عدد القوات المسيحية[٥] وهى كما يلى: (٣٤٠٠٠) جندى و(١٣٠٠٠) بحار و(٤١٠٠٠) مجدف[٦] أما عدد المدفعيين فكانوا (٧٥٠) فقط[٧].

وقد بدا القائد العام للقوات المسيحية دون جون (Donjohn) بتشكيل خط المقدمة (الصدر) وقسمه إلى ثلاثة أقسام[٨] يحمل كل قسم منها علم له لون خاص، فالقسم الأوسط كان لونه أزرق ويحتوى على (٦١) شينى (Galley) بما فيها سفينة القائد العام وكذا سفينة البابا[٩] وعلمه، وسفن سافوى وعلمها وسفن البندقية وعلمها وسفن جنوة وعلمها وكذا سفن إسبانيا وعلمها. أما الجانب الأيمن

---

(١) مركب حربى كبير مسطح كان مخصصا لنقل المقاتلة والأسلحة. ويقول ابن مماتى (قوانين الدواوين ٣٤٠): أن الشلندى مركب سقف تقاتل الغزاة على ظهره وجدافون يجدفون تحته واستعملها العرب فقالوا، صندل ويستعمله الإفرنج لنقل البضائع.

(2) j.bury:naval poliey p 189.

(3) giusepp : ahistory of naval though

(٤) سرهنك حقائق الأخبار عن دول البحار ص٤٢ .

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج٢ ص٢٤٠ .

(٦) على مبارك: الخطط ج١٢ ص٧٢ .

(7) la graviere: dori et barberousse p . 252

(8) ahistory of naval tactical thought .p.63

(9) l'empire du levant.p 217

من الأسطول الأخضر اللون فكـان يحتوى على (٥٣) سفينة بقـيادة جينادرا دوريا (Giannand Doria) وعلى الجـانب الأيسر من الأسطـول، كانت السـفن صفـراء اللون وعددها (٥٥) سفينة كان معظمها من البندقـية، وكانت تحت قيادة أجوستينو باريريجو [١](Agostion Barbarigo).

وقد أمرت جميع السفن أن تكون قريبة من بعـضها البعض بحيث لا تترك بينها وبين بعضـها إلا مـا يكفى للتجديـف، وأن تكون المسافة بين كل تشـكيل بحرى والآخر قرابة (٧٥) مـترًا. وتنقسم (Gallesses) الستة إلى ثلاثة أقـسام، كل منها يتكون من مركـبين، تحت قيادة فرانسـيسكو ديودو ((Francesco Duodo) بحيث تكون ما يشبه المروحة على رأس كل مجموعة[٢].

وعشـر سفن شـينى (Galleys) وضعت فى مـؤخرة سفن الأعـلام الخمس[٣] لمساعـدتهم. وعلى بعد مـيل واحد من ذلك، توجـد فرقة المؤخـرة ذات الأعلام البيضاء ويبلغ عددها (٣٠) سفينة.

أما الأسـطول التركى فـقد كـان مقسـمًا إلى ثـلاثة فرق بالإضـافة إلى فـرقة احتياطية[٤]. وكان قائد الأسطول بالنيابة على باشا مركزه فى الوسط وتحت إمرته (٩٤) سفـينة. أما الجناح الايمن تحت أمـرة محـمد سيـركو (M.Sirocco حاكم الإسكندرية، وتتكون مجموعته من (٦٠) سفينة[٥]. والجناح الأيسر كان تحت أمرة (أغلو على) (Uiuch Ali)، ويبلغ عدد سفنه (٦٠) أما مجمـوعة سفن الاحتياطى فكانت تبلغ ٦٠ سفينة تحت أمرة عمارة دراجوت ((Omurat Tragutوكانت تقف فى مؤخرة سفن على باشا[٦].

---

(1) andre Siegfried: the mediterrean p. 195

(2) history of naval tactical thought .p.69.

(٣) البابر ية وسافوى والبندقية وجنوة وإسبانيا.

(٤) سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار ص٤٥ .

(٥) الخطط التوفيقية ج١٢ ص ٨٥ .

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور ج٢ ص٢٤٥.

ويحدثنا سرهنك[١] عن بداية المعركة فيقول: وفى صباح (٧) أكتوبر كان الأسطولان على أهبة الاستعداد للمعركة وكان كل منهما فى مواجهة الآخر، فبينما كان الأسطول المسيحى فى الجنوب الغربى من ساحة المعركة، كان الاسطول التركى فى الجهة الشرقية. وبدا الاسطول المسيحى يجعل جناحيه نحو الشاطئ حتى يصعب على العدو تطويقهما[٢].

وقد انتهز الأسطول التركى هبوب رياح جنوبية شرقية مواتية له فعزم على باشا مهاجمة صدر الأسطول المسيحى. فتقدمت سفن الاسطول التركى لدفع المجاديف التى وقع على إيقاعها المنخفض صوت الرياح[٣]، إلا أنه لسوء الحظ، انقطع فجاة هبوب الرياح الجنوبية الشرقية، فوقف شرع السفن التركية التى كانت تدفعها الرياح وفقدت طريقها، وبدأت تتوقف[٤] ويكمل أندريا سجفريد (Andre Sieg-fried)[٥]سير المعركة بالنسبة إلى الأسطول المسيحى فيقول: وعند الظهيرة حركت نسمة من الهواء الأمواج فى صالح الأسطول المسيحى، فلما رأى ذلك القائد Don John) شجع رجاله وطلب منهم الاستعداد للقتال، وبدأت المجموعة الوسطى، الزرقاء اللون توسع جبهتها وكذا المجموعة اليسرى الصفراء. أما المجموعة اليمنى بقيادة جياندره دوريا (Giannandrea Doria) بدت كأنها ابتعدت عن المجموعات الاخرى مما جعل على باشا يفتح نيرانه عليه على مساحات كبيرة إلا أن القائد دون جون (Don Dohn) سارع برمى سهامه على المجموعة التى ابتعدت وهى مجموعة جنوة، ولكنها سرعان ما عادت إلى قواعدها وانتهى الأمر بتجمع جميع فرق المسيحية مرة أخرى[٦]. وبينما كانت مجموعات الأسطول المسيحى تتجمع إلى بعضها، أخذت السفن التركية تسرع فى استعمال المجاديف بغية الإسراع فى

١- سرهنك: حقائق الأخبار ص٤٧ .

(2) ahistory of naval tactical thought .p.64

(٣) حقائق الأخبار ص٤٩ .

(٤) الخطط التوفيقية ج١٢ ص٧٦ .

(5) the Mediterranean .p. 110

(6) ahistory of naval tactical thought .p.65

الحصول على النصر القريب، وإذا بها تفاجأ بفرق فرانسيسكو ديودو (Francesco Duodo) التى لم تكن فى الحسبان، ولم يمض الوقت طويلا حتى اصطدمت القوتين مع بعضهما وقد استعملت فى هذه المعركة جميع أنواع الأسلحة البرية والبحرية على حد سواء، فقد استعملت السهام والسيوف والخناجر التى أطلقت كقذائف الحافات العليا لجوانب السفن(١).

وكان أشد المعارك قسوة، القتال الذى دار بين قوات على باشا وقوات البابا واستعملت فيها الأيدى وجهًا لوجه(٢) وكما قال سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار،

وبعد قتال عنيف بين الطرفين قبض على مجموعات على باشا وسحب من عليها العلم الذى يحمل (محمد رسول الله)، ووضع مكانه علم عليه الصليب. ودارت بعد ذلك معارك شرسة بين الطرفين، لعل أقساها واهمها تلك التى وقعت بين مجموعات محمد سيركو (Sirocco) وقوات البندقية والتى فقد فيها قائدها أجوستينو باريريجو (Agostino Barbarigo) إحدى عينيه برميه سهم. وقد أدى ذلك إلى قدوم قوات من البندقية بسرعة، مما أدى إلى هزيمة قوات سيروكو (Sirocco)(٣) وهكذا سارت الأمور فى صالح القوات المسيحية، لولا ما قام به جينادرا دوريا (Giannan-drea Doria) قائد الجناح الأيمن الذى ابتعد عن المعركة، بل وسمح للقائد التركى أوغلو على (Uluch Ali) أن يختبئ ومعه قرابة (٤٠) سفينة(٤).

كذلك خالفت (فرق الأعلام) أوامر القائد دوريا (Doria) وهاجمت فرق حاكم الإسكندرية، وقد فقد فى هذه المعركة ألف من المسيحيين و(١٢) سفينة. إلا أن ما قام به النبلاء المسيحيون لم يضع سدى، فقد خربوا (٢٥) سفينة من الأسطول المسيحى جاءت مسرعة لمساعدة حلفائهم(٥).

---

(١) ابن إياس بدائع الزهور ج٢ ص٢٥ .

(2) ahistory of naval tactical thought .p.65

(3) fron the pinogue to the aircraft carrier p.

(٤) سرهنك ص٨٥ .

(5) naval policy .p. 211

وهكذا تحقق النصر للأسطول المسيحي، ولم يقم للبحرية العثمانية بعد ذلك قائمة فقد حرق من سفن علي باشا البالغ عددها (٢٢٩) (٨٠) سفينة وأسر (١١٧) سفينة. أما السفن الصناعية الصغيرة البالغ عددها (٦٠) سفينة فقد فُقد منها (٢٧) وأسر (١٣) سفينة[1]، هذا فضلا عن قائد الأسطول التركي علي باشا وجميع قواده الآخرين فيما عدا أوغلوا علي(Uluch Ali). كذلك فقد الأسطول التركي (٤٠,٠٠٠) جندي وبحار وأسر (٨٠٠٠)، كما حرروا (١٠,٠٠٠) بحار مسيحي كانوا أسرى الأسطول التركي، وكانوا مقيدين في مقاعد التجديف في السفن التركية[2] أما الأسطول المسيحي فقد فُقد منه (٧٦٥٦) بحارا بما فيهم أجوستينو باريريجو (Agostino Barbarigo) الشرير، وجرح (٧,٧٨٤) بحاراً[3].

على أن أهمية معركة (لابنتو) لم تقتصر على أنها قضت على سيطرة الإمبراطورية العثمانية وقوة نفوذها في البحر المتوسط فحسب، بل لأنها كانت نهاية للأساطيل البحرية المكونة من السفن الخفيفة ذات المجاديف. وهكذا أخذت المجاديف تتلاشى شيئًا فشيئًا، ولم يعد يستخدمها إلا قرصان البربر في البحر المتوسط الذين استمروا حتى أوائل القرن ١٩م في شمال إفريقية[4].

وهكذا نستطيع القول بأن فن القتال البحري في البحر المتوسط ظل قرابة تسعة قرون لم تطرأ على أداته الرئيسية، وهي السفن تطور يذكر، فقد ظلت تعتمد في حركتها على المجاديف مع الشراع.

كما أن المهارة في استخدام الريح كانت من اهم أسباب النصر في المعارك ومن أهم الامثلة لذلك معركة (لابنتو) البحرية التي تعتبر صورة جلية للمعركة البحرية المعقدة لكثرة السفن والقوات المشتركة فيها، مما جعل سيطرة كل طرف من الأطراف على سفنه فضلا عن تحريكها حتى تتخذ مواضعها القتالية المناسبة، يتطلب مهارة ومقدرة فنية فائقة.

---

(1) l'empire du levant p.220

(٢) سرهنك ص٥٩ .

(3) ahistory of naval tactical thought .p.65.

(4) ahistory of naval tactical thought .p.66.

وبرغم التطور الكبير الذى بلغه فن القتال البحرى، وذلك من حيث الأساليب الفنية التى اتخذت فى المناورة، إلا أننا نستطيع القول بأن جميع المعارك البحرية التى دارت رحاها طوال العصور الوسطى، كانت تتم بجوار الشواطئ، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا إن فن القتال البحرى، طوال تلك العصور كان يعتمد إلى حد بعيد على تضاريس ساحة القتال.

وإذا كان تطور بناء السفن الحربية فى العصور الوسطى بطيئًا، إلا أن التقدم الذى وصلت إليه الأسلحة الحربية التى استخدمت فيها كان كبيرًا وعظيمًا وذلك بعد اختراع النار الإغريقية التى أثرت تأثيرًا كبيرًا على سير المعارك البحرية. كما ترتب على اختراع النار الإغريقية استخدام المكاحل بعيدة المدى هذا فضلا عن ظهور البنادق، مما جعل الرمى الذى كانت تبدأ به المعارك البحرية يصبح على مسافات أبعد وفى الوقت نفسه ذا تأثير أكبر، لكن كل هذا لم يغنِ عن القتال المتلاحم.

❁ ❁ ❁

رابعًا: نبذة مختصرة عن أمراء البحرية العثمانية في حوض البحر المتوسط

١- أمراء أسرة باربروس:

- عروج: عاش مجاهدًا في سبيل الله منذ نعومة أظفاره - في العاشرة من عمره - وحتى يوم استشهاده (ببني سناسن) وعمره لا يتجاوز الخمسين عامًا - ويقال أربعة وأربعون.

ولقد أثارت حياته بقدر ما أثار استشهاده نوعًا من الإثارة التي لا يمكن وصفها، وحتى اسمه بقي موضع جدل كبير، فلقد أريد -عن جهل أو عن عمد- الإساءة لهذا المجاهد العظيم، وأمكن بالاعتماد على الوثائق إجراء تصحيح اسمه فجاء كالتالي[1]:

(الاسم الحقيقي لهذا البطل الإسلامي العظيم، مؤسس دولة الجزائر، إنما هو (عُرُوج - بضم العين وضم الراء) وهي عربية صميمة ومعناها الارتفاع والصعود، ودخلت التركية عن طريق ذكرى حادث الإسراء والمعراج).

ولا ريب في أن البطل قد ولد في ليلة المعراج، فدعاه أبوه (عروج) تيمنًا بذلك الحادث العظيم، كما يطلق الأتراك كثيرًا على مواليدهم الذين يولدون خلال تلك الأشهر الحرم أسماء (رجب وشعبان ورمضان ومحرم). ومعروف أن الأتراك لا ينطقون حرف العين، بل يقلبونها ألفًا يندمج مع ما بعده. فمدينتا (عشاق وعين أوني) مثلا وهما في بلادهم تلفظان حسب نطقهم (أوشك وأين أوني) وكلمة (عروج) ينطقون بها (أروج). وهذا هو الاسم الذي اشتهر به بطلنا شرقًا وغربًا. وقبل أن يرجع الجزائريون هذا الاسم إلى أصله العربي، ويعيدون له (عينه) نطقًا، كانوا في مستهل الفتح يكتبونه على الطريق التركية (أوروج) ويدل على ذلك أثران

(١) حرب الثلاثمائة سنة - أحمد توفيق المدني - ص ١٥٩ - ١٦١ و ١٩٢ - ١٩٥.

قديمان، لا يزالان موجودين إلى اليوم: أحدهما: الرخامة المنقوشة والتى كانت موضوعة على باب حصن شرشال. وثانيهما: الرخامة المنقوشة التى كانت على باب مسجد الشواش بالعاصمة الجزائرية. فرخامة شرشال قد نقش عليها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله - هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركى، فى خلافة الأمير القائم بأمر الله، المجاهد فى سبيل الله، أوروج بن يعقوب، بإذنه، بتاريخ أربع وعشرين بعد تسعمائة[1]).

أما رخامة مسجد الشواش الذى هدمه الفرنسيون، والذى كان على مقربة من ساحة الشهداء فى الجزائر فهى تحمل اسم أوروج بن أبى يوسف يعقوب التركى. ويظهر من ذلك أن والد البطلين المنقذين كان تركياً صميمًا وأمهما سيدة أندلسية كان لها الأثر على أولادها فى تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التى كانت تئن فى ذلك الوقت من بطش الإسبان والبرتغاليين. وكان لعروج وخير الدين أخوان آخران مجاهدان هما إسحاق ومحمد المعروف بإلياس خلافًا لما يدعيه كثير من مؤرخى الإفرنج ويمكن أن يضاف إلى ذلك بعض المعلومات التى يمكن استنباطها من الرخامة الموجودة بمتحف مدينة الجزائر، والتى كانت موضوعه فوق باب المسجد الذى أمر ببنائه فى الحضرة الجزائرية السلطان خير الدين وهذا نصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾** [النور:٣٦] أمر ببناء هذا المسجد المبارك السلطان المجاهد فى سبيل رب العالمين مولانا خير الدين بن الأمير الشهير المجاهد أبى يوسف يعقوب التركى. بلغه الله سؤله، وأعانه على جهاد عدو الله ورسوله. بتاريخ أوائل جمادى الأولى من عام ستة وعشرين وتسعمائة[2] أى نسيان -أبريل- سنة ١٥٢٠م).

ولقد سقط (عروج) فوق ثرى الجزائر الطهور، ولم يصدق الأعداء حصولهم على مثل ذلك النصر، فما كان من الإسبانيين الحانقين إلا أن احتزوا رأسه وساروا

(١) خير الدين باربروس لبسام العسلى ص١٨٧.

(٢) انظر المصدر السابق حرب الثلاثمائه سنة نفس الصفحات.

به تواً نحو وهران، ومن هنالك سير بها إلى إسبانيا، حيث طيف بها خلال أغلب المدن الأوربية التى كانت فرائصها ترتعد من مجرد ذكر اسم (باربروس)، أما ثيابه المزركشة التى تركها فى تلمسان، فقد أخذت إلى إسبانيا، وطيف بها أيضًا أغلب المدن قبل إيداعها فى معتكف (سان جيروم) القرطبى. ويذكر أن جثمانه حمل إلى العاصمة (الجزائر) بعد ذلك حيث دفن بجوار ضريح (سيدى رمضان). وقبره عن يمين الداخل متصلا بجدار المسجد[1].

ومضى الشهيد المجاهد إلى (جنة الخلد) تاركًا للدنيا ذكرًا خالدًا قيل عنه:

(كان للشقيقين - عروج وخير الدين - من الإقدام والجرأة، مقدار يفوق المتعارف عند الرجال، وكان لهما من الدهاء السياسى الخارق للعادة، ما يجعل الناس مشدوهين من وجود مثله عند رجلين لم تؤهلهما ثقافتهما البدائية ليقوما بهذا الدور العظيم، دور قيادة الشعوب.

وهكذا كانت الخاتمة البطولية لهذا القرصان المغامر الذى لا نتمالك أنفسنا عن الإعجاب بإقدامه وبجرأته النادرة، كما نعجب أيما أعجاب بهذه العبقرية التى سادت أعماله فى ميدان الحرب، وفى ميدان تنظيم الدولة. كما إننا نستنكر إلى جانب إعجابنا هذا كل الاستنكار، ما كان متصفًا به من مصانعة ومن قسوة فظيعة.

تلك كانت كلمات المؤرخ بيشو فى كتابة - تاريخ شمال إفريقيا. ولكن لا بد من التوقف قليلا عند عبارته الأخيرة التى وصف بها (عروج) بالقسوة الفظيعة، فهل كانت (قسوة الإسبانيين) أقل فظاعة وهم يجتاحون (وهران)؟ أم هل كانت بالمستطاع مجابهة تلك الوحشية - بإنسانية؟ المهم أن أقنعة الإنسانية هى أقنعه غريبة الألوان، غريبة الأشكال، وفقًا للوجوه التى تتقنعها.

والمهم فى الأمر متابعة ما قاله المؤرخ - دى قرامون - فى كتابه (تاريخ الجزائر تحت حكم الأتراك) حيث ذكر ما يلى: (لا يرى كثير من المؤرخين فى - عروج -

(١) المصدر السابق ص ١٨٨.

أكثر من زعيم عصابة - لا غير - وإننى لا أعرف حكمًا جائرًا مخالفًا للحقيقة كمثل هذا الحكم. فإن الباربروس الأول - عروج - ما كان إلا جنديّاً من جنود الإسلام المغاوير، جاهد فوق متن البحار جهادًا لا هوادة فيه، ضد أعداء ملكه، وضد أعداء دينه. على أنه كان ملتزمًا خلال جهاده هذا، بكل القواعد والأسس التى كان العمل جريا بها خلال تلك الحقبة من التاريخ، فلم يكن أبدًا أكثر قسوة ولا أقل قسوة من الأعداء الذين كان يمعن فى محاربتهم، وعندما سنحت له الفرصة، وأمكنته غزواته من جمع قوة كافية حوله، تمكنه من القيام بجلائل الأعمال، حاول إنشاء إمبراطورية فى الشمال الإفريقى، حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها.

أما الوسيلة الوحيدة التى كانت تمكنه من إدراك تلك الغاية وتضمن له البقاء والاستمرار، إنما هى إبعاد المسيحيين عن البقاع التى يحتلونها فى البلاد. ومن أجل تحقيق هذا الهدف أخذ يحارب المسيحيين قبل كل شىء، فى شخص حلفائهم والخاضعين لهم، حتى يقطع عن النصارى كل طريق يتزودون منه، ويضطرهم بذلك إلى الاعتماد خاصة على ما يرد عليهم من إسبانيا. ولقد كانت بداية أمره سعيدة. ولقد مات مأسوفًا عليه كل الأسف من قبل جميع الذين انضووا تحت رايته وعملوا تحت لوائه).

أما المؤرخ الكبير (شارل أندرى جوليان) فيقول فى مؤلفه (تاريخ الشمال الإفريقى):

(وهكذا انتهت فى سن الرابعة والأربعين، هذه الحياة المجيدة فى ميدان المغامرة، إنه هو الرجل الذى أنشا القوة العظيمة لمدينة الجزائر وللبلاد البربرية - إنه بنظرة صادقة لا تخطئ، وهى نظرته المعتادة، قد أدرك مدى ما تستطيع أقلية عاملة تحقيقه فى وسط ملىء بالمنافسات بين مختلف الإمارات المغربية، لكى يؤسس على حساب تلك الإمارات، دولة إسلامية قوية، لا تستطيع أن تنالها بسوء هجمات النصارى. وعلى هذه الصفة تمكن من بسط سلطانه على جهات متيجة (أو متوجة

- بضم وفتح التاء والواو والجيم) ووداى شلف وتيطرى والظهرة والونشريش ثم تلمسان، ونسف مملكة بنى زيان نسفًا لم تقم لها من بعده قائمة، وكانت مأثرته هذه تتلاشى وتضمحل، لو لم يتلقفها ويحتضنها شقيقه خير الدين، الذى سار بها فى طريق النجاح والكمال) . تلك هى كلمات قليلة لا يمكن لها أبدًا أن تفى المجاهد الشهيد بعض حقه.

ويمكننا أن نبرز بعضًا من مآثره:

١- إبرازه أهمية الجهاد فى البحر.

٢- إعداد أخيه (خير الدين) لمتابعة دوره.

٣- انصرافه الكلى لإقامة الجزائر وتنظيمها بالتعاون مع شعبها وبإرادته ودعمه وتأييده، وكان فى ذلك انتصاره الكبير الذى مهد لهذا الوطن العربى المسلم سبيل بناء المستقبل، وضمن له القدرة لمقاومة الحملات الصليبية طوال خمسمائة عام تقريبًا (من الاستعمار الإسبانى ثم الاستعمار الفرنسى).

ولقد كان عدد المجاهدين من الأتراك العثمانيين قليلا، وهنا يبرز الدور العظيم الذى اضطلع به الشعب الجزائرى العربى المسلم عبر تاريخه الطويل، وما قدمه من تضحيات، وما تحمله من نوائب. وبقى ذكر (عروج) خالدًا فى طليعة الشهداء الخالدين. ومضت قوافل الشهداء فكانت تضحياتها بحق هى المنارات التى أضاءت لها دنيا الجزائر (المحروسة الخالدة). وقد يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل المهم حول النشاط البحرى لذلك الرجل فنقول:

ما الأسباب التى دفعت الأخوين لنقل جهادهما إلى صراع القوى المسيحية فى بلاد الأندلس وشمالى إفريقيا؟

نشأ الأخوان يجاهدان فى محيط مسقط رأسيهما منذ ١٥١٠م، وكان الصراع فى بقعة محدودة هى بحر الأرخبيل لكن على ما يبدو أن ضراوة الصراع بين القوى المسيحية فى بلاد الأندلس وفى شمالى إفريقيا بين المسلمين هناك، والذى

اشتد ضراوة فى مطلع القرن السادس عشر، هو الذى استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما إلى هذه المناطق، وبخاصة بعد أن تمكن الإسبان والبرتغاليون من الاستيلاء على العديد من المراكز والموانئ البحرية فى شمالى إفريقيا.

وقد حقق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسحيين، الأمر الذى أثار إعجاب القوى الإسلامية الضعيفة فى هذه المناطق، ويبدو ذلك من خلال منح السلطان (الحفصى) لهم حق الاستقرار فى جزيرة جربة التونسية، وهو أمر عرضه لهجوم إسبانى متواصل اضطره لقبول الحماية الإسبانية بالضغط والقوة، كما يبدو من خلال استنجاد أهالى هذه البلاد بهما وتأثيرهما داخل بلادهم مما أسهم فى وجود قاعدة شعبية لهما تمكنهما من حكم الجزائر وبعض المناطق المجاورة. فهل كان تواجد الأخوين فى الجزائر ينم عن دلالة حب أم دلالة خوف من بطش هذين الرجلين، والسؤال بمعنى آخر: هل كان دخول عروج وأخيه الجزائر برغبة من أهلها أم دخلاها مكرهين لهم؟

ويرى بعض المؤرخين أن دخول (عروج) وأخيه الجزائر وحكمهما لها لم يكن بناء على رغبة السكان، ويستند هؤلاء إلى وجود بعض القوى التى ظلت تترقب الفرص لطرد الأخوين والأتراك المؤيدين لهما، ولكن بعض المؤرخين الآخرين يرون أن وصول (عروج) وأخيه كان بناء على استدعاء من سكانها لنجدتهم من الهجوم الإسبانى الشرس، وأن القوى البسيطة التى قاومت وجودهما كانت تتمثل فى بعض الحكام الذين أبعدوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادة فى توحيد البلاد، حيث كانت قبل وصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف فى الأندلس، وقد ساند أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين واشتركت أعداد كبيرة منهم فى هذه الحملات، كما ساندهما العديد من الحكام المحليين الذين شعروا بخطورة الغزو الصليبى الإسبانى.

وبظهور دور الأخوين المجاهدين فى محاولة تحرير بجاية من الحكم الإسبانى سنة (١٥١٢م)، يكونان قد نقلا - لهذا الغرض - قاعدة عملياتهما ضد القوات

الإسبانية في ميناء جيجل شرقي الجزائر بعد أن تمكنا من دخولها وقتل حماتها الجنوبيين سنة (١٥١٤ م) لكي تكون محطة تقوية لتحرير بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهة أخرى، ويبدو أن الأخوين قد واجها تحالفًا نتج عنه العديد من المعارك النظامية وهو أمر لم يتعوداه لكن أجبرا عليه بفعل الاستقرار في حكم الجزائر، وزاد من حرج الموقف قتل (عروج) في إحدى المعارك سنة (١٥١٨م)، مما اضطر خير الدين للبحث عن تحالف القوى المرشحة لهذا التحالف سواء لدورها البارز في ساحة البحر المتوسط، أم لأن القوى المحلية في الشمال الإفريقي كانت متعاطفة معها وتتابع انتصاراتها على الساحة الأوربية منذ فتح القسطنطينية، كما أن الاتجاه لمحالفتها سيكسب دور خير الدين مزيدًا من التأييد من قبل هذه القوى، وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية قد أبدت استجابة للمساعدة حين طلب الأخوان ذلك، كما أبدت رغبتها في مزيد من المساعدة لدوره، وكذلك لبقايا المسلمين في الأندلس، ومن منظور ديني أسهم في إكساب دورها تأييدًا جماهيريًا، وجعل محاولة التقرب منهما أو التحالف معهما عملاً مرغوبًا[1].

ومن جهة أخرى كانت الظروف في الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول مهيأة لقبول هذا التحالف، وبخاصة بعد أن اتجهت القوات العثمانية إلى الشرق العربي، وكان من أبرز أهدافها في هذا الاتجاه - كما سبق التوضيح - هو التصدي لدور البرتغاليين والإسبان وفرسان القديس يوحنا في المنطقة، وكان من المنطقي التحالف مع أي من القوى المحلية التي تعينها على تحقيق هذه الأهداف.

وقد رغب الأخوان في التحالف مع العثمانيين وأن يكونوا من أتباعهم، فمتى اتجه الأخوان للتحالف مع العثمانيين؟ وما أثر ذلك التحالف في صراعات القوى في حوض البحر المتوسط؟

اختلف علماء التاريخ حول بداية التحالف بين العثمانيين والأخوين عروج وخير الدين، فتذكر بعض المراجع أن السلطان سليمًا الأول كان وراء إرسالهم إلى

---

(١) الدولة العثمانية المفترى عليها ج٢ ص٩٠٢.

الساحل الإفريقى تلبية طلب المساعدة من سكان الشمال الإفريقى، وعملا على تعطيل أهداف البرتغاليين والإسبان فى منطقة البحر المتوسط، وعلى الرغم من عدم تداول هذه الرواية بين المؤرخين، إلا أنها توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التى تدور على ساحة البحر المتوسط.

ويرجع بعض المؤرخين التحالف بين الجانبين إلى سنة (١٥١٤م) فى أعقاب فتح عروج وخير الدين لميناء (جيجل)، حيث أرسل الأخوان إلى السلطان سليم الأول مجموعة من النفائس التى استوليا عليها بعد فتح المدينة، فقبلها السلطان ورد لهما الهدية بإرسال أربع عشرة سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود، وكان هذا الرد من السلطان العثمانى يعكس رغبته فى استمرار نشاط دور الأخوين ودعمه، على أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعم العثمانى لهذه الحركة كان فى أعقاب وفاة (عروج) سنة (١٥١٨م) وبعد عودة السلطان العثمانى من مصر إلى إستانبول سنة (١٥١٩م)(١).

على أن الرأى الأكثر ترجيحًا أن الاتصالات بين العثمانيين وهذه الحركة كان سابقًا لوفاة عروج وقبل فتح العثمانيين للشام ومصر، وذلك يرجع إلى أن الأخوين كانا فى أمس الحاجة لدعم أو تحالف مع العثمانيين بعد فشلهما فى فتح (بجاية)، كما أنهما حوصرا فى (جيجل) بين الحفصيين الذين أصبحوا من أتباع الإسبان وبين (سالم التومى) حاكم الجزائر الذى ارتكز حكمه على دعم الإسبان له هو الآخر، فضلاً عن قوة الإسبان وفرسان القديس يوحنا التى تحاصرهم فى البحر، فكان لوصول الدعم العثمانى أثره على دعم دورهما وشروعهما فى دخول الجزائر برغم هذه العوامل، حيث اتفق العثمانيون مع الأخوين على ضرورة الإسراع بدخولها -أى الجزائر- قبل القوات الإسبانية لموقعها الممتاز من ناحية وكى يسبقوا الإسبان إليها، ليتخذوها قاعدة بهدف تخريب الموانئ الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال الإسبانى كبجاية وغيرها من ناحية أخرى.

---

(١) الدولة العثمانية للصلابى ص٢٥٨.

وقد تمكن عروج من دخول الجزائر بفضل هذا الدعم وقتل حاكمها بعد أن تأكد من مساعيه للاستعانة بالقوات الإسبانية، كما تمكن من دخول ميناء شرشال، واجتمع له الأمر فى الجزائر، وبويع فى نفس السنة التى هزمت فيها القوات المملوكية أمام القوات العثمانية فى الشام سنة (١٥١٦م) فى موقعة مرج دابق. ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوما بهذه الفتوحات لولا تشجيع السلطان العثمانى ودعمه إلى جانب دعم شعوب المنطقة وقد سبق أن فشلا فى دخول بجاية أمام نفس القوات المعادية.

خير الدين باربروس:

قتل عروج عام ١٥١٨م إثر معركة نشبت بينه وبين الإسبان[(١)]، ثم خلفه على حكم الجزائر أخوه «خير الدين» وأمده السلطان سليم الأول بقوة تقدر بألفى جندى مزودين بمدافعهم وذخائرهم وعددهم الحربية الكاملة، ومن ثم أصبحت تحت إمرته قوة عامة بلغت حوالى أربعة آلاف جندى من الترك والقوات الأخرى الموالية له فكون منهم «الأوجاق» أى قوة الجزائر الحربية[(٢)].

وتألق نجم «خير الدين باربروسا» منذ ذلك الحين وتجمعت حوله كوكبة من أمهر البحار الأتراك أمثال: طرغود، وصالح ريس، وسنان اليهودى، وإيدين ريس، وغيرهم من المغامرين الذين عرفوا بالجرأة والشجاعة، وانضم إليهم المغامرون والمجاهدون من أنحاء كثيرة ولا سيما المهاجرون من الأندلس وبسط هؤلاء البحارة سطوتهم على معظم جنبات البحر المتوسط وقاموا بشن غاراتهم على الشواطئ الإيطالية والإسبانية[(٣)] .

وتوالت غاراته الجريئة على الشواطئ الإسبانية بصورة تفوق كل وصف وتدعو إلى الإعجاب والدهشة مما دفع الحكومة الإسبانية أن تخلى معظم سواحلها من السكان عندما عجزت أن تجد سبيلا إلى قمع تلك الغارات أو التخلص منها.

---

(١) يوسف فهمى الجزايرلى. أرض البطولة. الجزائر. الوكالة العربى للنشر سنة ١٩٦٤م ص٣٤٣.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٤.

(٣) عنان نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص ٣٦٩.

وتشيد الروايات العربية بالدور الذى قام به خير الدين باربروسا فى استجابته لصريخ العرب المستضعفين فى إسبانيا عندما اشتدت عليهم وطأة الإسبان وذلك لإكراههم على التنصر، فكان يرسل بحريته للإغارة على سواحل إسبانيا ثم تعود سفنه مثقلة بالمسلمين المهاجرين حتى بلغ ما نقلته سفنه منهم إلى شواطئ المغرب العربى ما يقرب من السبعين ألفًا[١] .

وهكذا لبثت الغارات البحرية التى قام بها «خير الدين» ورجاله عصرًا طويلا وقد كثر عبثها واشتدت وطأتها على الشواطئ الإسبانية وأعاقت حركة أساطيلها وجمدتها فى مراسيها، مما حدا بالحكومة الإسبانية إلى إعداد حملة بحرية كبيرة للقضاء على «خير الدين» وتصفية نشاطه البحرى فدعت إسبانيا حلفاءها وأنصارها من الكاثوليك لهذا الهدف وجعلت منها حربًا مقدسة لإعادة هيبتها ونفوذها إلى البحر المتوسط، وما عسى أن تفعل تلك الأساطيل مجتمعة أمام مناورات باربروسا ملك البحار.

تولى رئاسة الأسطول بعد موت أخيه وسار على الدرب على خير ما يكون، وقد تردد خير الدين فى قبول إمارة الجهاد بعد أخيه ولكن أهل الجزائر ألحوا عليه إلحاحًا شديدًا حتى قبل ذلك، وعلى ما يبدو أن خير الدين كان يود الذهاب إلى إستانبول والبقاء فيها ولكنه قبل إمارة البحر بعد إلحاح كما قلنا، واستمع إليه وهو يقول: (بقيت منفردًا دون إخوتى الذين استشهدوا جميعًا فوق أرض الجزائر وقد رأيت ما فعله بنا صاحب تلمسان من بنى زيان واستعانته علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره وصاحب تونس (الحفصى) الذى لا يرى ضرورة نصرتنا وإعانتنا والذى أسلمنا للعدو بمنع البارود عنا أثناء حملة بجاية[٢]، وقد أبدى خير الدين مشورة لأهل الجزائر بأن يتحالفوا مع القوة الإسلامية الكبرى وهى قوة السلطان

---

(١) راجع مغامرات عروج وخير الدين فى كتاب غزوات عروج، وخير الدين. الجزائر ١٩٣٤م ص١٩، ٤٨، ٨١، ٨٢، وكذلك نهاية الأندلس عنان ص٣٦٩، ٣٧٠. وأرض بطولة الجزائر ص ٣٤٤ وما بعدها.

(٢) خير الدين باربروس بسام العسلى ص١٠٧.

سليم خان العثماني آنذاك، ومن هنا قرر الجزائريون أن تكون دولتهم الفتية جزءًا من الدولة العثمانية الضخمة.

بعد أن بويع (خير الدين) في الجزائر في أعقاب ما حققه من انتصارات على الإسبان والزعماء المحليين المتحالفين معهم، أصبح محط كثير من الولايات والموانئ التي كانت وما زالت خاضعة سواء للإسبان أو لعملائهم، وكان أول الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان، مع أن استنجاد الأهالي كان من الممكن أن يكون كافيًا لتدخل (خير الدين) إلا أن موقع تلمسان الإستراتيجي الذي كان يجعل وجود (خير الدين) في الجزائر غير مستتب قد جعله يفكر في التدخل قبل أن يطلب الأهالي نجدته، وأن مطالبهم قد دعته للتعجيل بذلك[1].

وأعد (خير الدين) جيشًا كبيرًا زحف به إلى تلمسان سنة (١٥١٧م) وأمن الطريق إليها، وبعد أن نجح في السيطرة عليها تمكن الإسبان وعملاؤهم من بني حمود من استعادتها، ولقي أحد إخوة (خير الدين) حتفه وهو (إسحاق) كما قتل (عروج) وكثيرون من رجاله أثناء حصارهم للمدينة، ذلك الحصار الذي امتد لستة أشهر أو يزيد، امتد حتى سنة ١٥١٨م. وقد تركت هذه الأحداث أثرًا بالغًا في نفس خير الدين، مما دفعه إلى التفكير في ترك الجزائر لولا أهلها ألحوا عليه بالبقاء، وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه بذل المزيد من الجهد خشية أن يهاجمه الإسبان ومؤيدوهم، كما أن ذلك قد أدى إلى مزيد من الارتباط بالدولة العثمانية، وبخاصة بعد أن دالت لها مصر والشام، فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين إلى مزيد من الارتباط بالآخر.

توزع جهاد خير الدين على جبهتين في وقت واحد:

اتجهت اهتمامات خير الدين باربروس إلى مواجهة التحديات التي كانت تنتظره وتعوق مسيرته نحو تحقيق أمله، ولقد توزعت اهتماماته على جبهتين دار فيهما

(١) الدولة العثمانية للصلابي ص٢٥٨.

الصراع ليـنتظم وضعه الـسياسى والعـسكرى والذى ظهر له فى الجـزائر. وهاتان الجبهتان هما:

١- **الصراع مع الجبهـة الإسبانية:** لطرد الإسبانيين من الجـيوب التى أقاموها فضم إليه عنـابة وقالة فى شرقى الجـزائر، وحقق انتـصارًا باهرًا على الإسـبانيـين حين استولى عـام ١٥٢٩م على حصن بينون الإسبانى المقام على الجـزائر المواجهة لبلدة الجزائر، وقد كـان قد استمـر يقصف الحصن بقذائـف مدافعة طوال عشـرين يومًا حتى تداعت جوانبه، ثم اقتحم الحصن مع قوات كـثيفة العدد كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل، وأسر قائد الحصن مع كبار ضباطه.

إن استـيلاء خـير الدين على البيـنون سنة ١٥٢٩ م بعد بداية تأسس مـا عرف باسم نيابة الجزائر، ومنذ ذلك التـاريخ أصبح ميناء الجزائر عاصمة كـبرى للمغرب الأوسط، بل ولكل شمـال إفريقيـة العثمانيـة فيما بـعد، وبدأ استخـدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر.

٢- **الصراع فى الجبهة الداخلية:** وكانت تتمثل فى محاولة توحيد المغرب الأوسط التى لـم تخل من مـؤامرات بنى زيان والحـفصيـين ومن بعض القبـائل الصغـيرة، ولكنه استطاع مـد منطقة نفوذه باسم الدولة العثـمانية ودخلت الإمارات الصـغيرة تحت السيادة العثمـانية لكى تحتمى بهذه القوة من الأطماع الصليبـية الإسبانية ومن قهرها على اعتناق النصرانية، وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثمانى إلى بعض المدن الداخلية المهمة مثل القسطنطينة[1].

لقد نجح خـير الدين فى وضع دعـامات قوية لدولة فـتية فى الجـزائر، وكانت المساعدات العثـمانية تصله باستمرار من السلطان القـانونى واستطاع خير الدين أن يوجه ضـرباته القوية للسواحل الإسـبانية، وكانت جـهوده مثمـرة فى إنقاذ آلاف المسلمين فى إسبانيا، فقد قـام عام (٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م) بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سـبع رحلات إلى السواحل الإسـبانية كمـا قلنا سابقًا فى الحـوض الغربى

(١) عبد العزيز الشناوى. الدولة العثمانية.. جـ٢ مربع سابق ص٩١٢، ٩١٣.

للبحر المتوسط، وبفضل الله ثم مساعدات الدولة العثمانية وموارد خزينة الجزائر المتنوعة من ضرائب وسبى ومغانم وزكاة والعشر والجزية والفيء والخراج وما يقوم به الحكام ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد وغيرها أصبحت دولة الجزائر لها قاعدة اقتصادية قوية.

لقد تضررت إسبانيا من نجاح خير الدين فى الشمال الإفريقى، وكانت إسبانيا يتزعمها شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة والتى كانت تضم وقتذاك إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وإيطاليا، وكانت الدولة الرومانية المقدسة تدفع عن أوربا المسيحية الخطر العثمانى نحو شرق ووسط أوربا، لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين بيليربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية فى الشمال الإفريقى؛ لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجئ على سواحل الجزائر، بل أرسل مبعوثًا للتجسس فى شمال إفريقيا سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م، وهو الضابط (أوشوا دوسلا) الذى طاف بأنحاء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس، وحذر من امتداد النفوذ العثمانى على تونس، وذكر أن هذا الاستيلاء سيسهل على العثمانيين السيطرة على إفريقيا، ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا ما يخشاه العالم المسيحى.

كانت سياسة المملكة الحفصية فى تونس تسير نحو انحطاط مستمر، كان السلطان الحفصى الحسن بن محمد قد أساء السيرة فى البلاد وقتل عددًا من إخوته فاضطربت الأحوال فى تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصى، وكان أخو الحسن المسمى بالأمير الرشيد قد هرب من أخيه خوفًا من القتل، ولجأ عند العرب فى البادية، ثم ذهب إلى خير الدين فى الجزائر، وطلب منه الحماية والعون ضد أخيه، فمنحه ذلك خير الدين، الذى كان مركزًا اهتمامه على تونس، بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية التى مزقت الأسرة الحفصية، كما كان لتونس - فى نظره - أهمية إستراتيجية كبيرة؛ لإشرافها على المضيق الصقلى، بحيث تسمح له السيطرة عليها فى تحديد وقطع المواصلات بين حوضى المتوسط الشرقى

والغربى، بالإضافة إلى رغبة خير الدين فى توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الأندلس .

تفاهم بين السلطان العثمانى وخير الدين استعداداً لاسترداد الأندلس:

تباينت آراء المؤرخين حول جهود العثمانين لإنقاذ الأندلس، فمنهم من ينفى أية جهود من جانب الأتراك لإنقاذ المسلمين فى الأندلس، بينما يرى البعض منهم أنه قد قام الأتراك بتلبية مطالب الموريسكيين وقد استجابوا لاستغاثتهم، وقد قدموا جهودًا لا بأس بها وفق الظروف الطارئة آنذاك، فقد كانت تلك الجهود بهدف استرداد الأندلس مره أخرى.

عزم السلطان سليمان القانونى - بعد أن استولى على بلغراد - السفر بسائر جنوده إلى إسبانيا للاستيلاء عليها، وبدا للسلطان سليمان أنه لا بد له من رجل يعتمد عليه فى دخول تلك البلاد على أن يكون عالمًا بأحوالها، فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة وإقدام، وكثرة هجومه على تلك النواحى، وما فتحه من بلاد العرب فى الشمال الإفريقى، وكيف أقر الحكم العثمانى فيها، فوجه إليه خطابًا يطلبه فيه إلى حضرته، ويأمره باستنابة بعض من يأمنه فى الجزائر، وإن لم يجد من يصلح لذلك يبعث إليه نائبًا، وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشى، فوصل الجزائر، وأوصل خطاب السلطان إلى خير الدين فقبله، ووضعه فوق رأسه، ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديوانًا عظيمًا، وأحضر كافة العلماء والمشايخ، وأعيان البلاد، وقرأه عليهم، ولما سمع أندريا دوريا زعيم الأسطول النصرانى فى البحر المتوسط بما عزم السلطان عليه من فتح إسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر، لذلك أراد أن يشغل خير الدين من سفره إلى حضرة السلطان، وأشاع بين الأسرى المسيحيين فى الجزائر عن عزم الحكومة الإسبانية فى الهجوم على الجزائر وتخليصهم من الأسر، فخرج الأسرى الإسبان لذلك الخبر، وتمردوا على خير الدين، الذى رأى أن من المصلحة العامة إعدام

أولئك الأسرى ليأمن غائلتهم، ثم قام بتقوية الاستحكامات فى الجزائر، وزاد من عدد القلاع مظهرًا أتم الطاعة للسلطان.

عزم خير الدين على السفر إلى إستانبول (٩٤٠ هـ - ١٥٣٣ م) وعين مكانه حسن أغا الطوشى، وكان رجلاً عاقلاً وصالحًا، صاحب علم واسع. أبحر خير الدين شرقًا فى البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعون سفينة، وهزم فى طريقه فرقة من أسطول آل هابسبرج بالقرب من المورة، واستمر خير الدين فى رحلته ووصل إلى مدينة بيروازن، وفرح أهالى المدينة لمقدمه، وكانوا خائفين من هجوم أندريا دوريا، الذى ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدين، ثم واصل خير الدين فى سفره، ورست مراكبه فى قلعة أوارين (أنا وارنيه) فصادف هنالك أسطولاً للسلطان سليمان القانونى، وفرحوا بذلك، ثم خرجوا جميعًا حتى وصلوا إلى قرون، ثم كتب خير الدين إلى السلطان، يعلمه بوصوله، ويستأذنه بالقدوم على حضرته، فوجه إليه السلطان خطابًا يستحثه بالقدوم عليه، أقلع خير الدين من قرون، ولم يزل مسافرًا حتى وصل إلى إستانبول، ورسا بها، ورموا بالمدافع كما هى العادة فى ذلك، ومثل خير الدين بحضرة السلطان، ووقف بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحاب الجرايات الوافرة، وأنزلهم بقصر من قصوره، وفوض إليه النظرة الكاملة؛ لمساندة النظام فى الجزائر؛ لتحقيق هدف الدولة فى استعادة الأندلس.

كان الصدر الأعظم فى ذلك الوقت فى مدينة حلب، فسمع بقدوم خير الدين على السلطان، وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل إليه، فاشتاق إلى لقاء خير الدين فوجه خطابًا للسلطان يلتمس منه أن يتوجه خير الدين لمقابلته، فأرسل السلطان خير الدين مخبرًا عن رغبة الصدر الأعظم فأجابه خير الدين بالموافقة، وسافر وأنزله فى بعض القصور المهيبة، وفى اليوم الثانى من وصول خير الدين وصل مبعوث من قبل السلطان، ومعه خلعة، وأمر بمقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان، ويلبس الخلعة، فنصب الديوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزراء، واحتفل به احتفالا مهيبًا، وأكرم إكرامًا عظيمًا؛ لما قدمه من خدمات

للإسلام والمسلمين فى حوض البحر المتوسط. ثم رجع خير الدين إلى إستانبول، وأكرمه السلطان سليمان غاية الإكرام، وشرع خير الدين فى النظر فى أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان.

وبعد أن تم إعداد الأسطول العثمانى الجديد خرج خير الدين باربروسا بأسطوله القوى من الدردنيل متجهًا نحو سواحل إيطاليا الجنوبية، فاستطاع أن يأسر الكثير منها، وأغار على مدنها وسواحلها، ثم اتجه نحو جزيرة صقلية، فاسترجع كورون وليبانتو، وكان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين باربروسا بأهمية تونس وضرورة دخولها فى إطار إستراتيجية الدولة العثمانية، لتحقيق هدفها نحو استرداد الأندلس، وتأتى أهمية تونس بالنسبة إلى الدولة من حيث موقعها الجغرافى؛ إذ تقع فى منتصف الساحل الشمالى لإفريقيا، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، ولقربها من إيطاليا التى تعتبر أحد جناحى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بينما يمثل الجناح الآخر إسبانيا، علاوة على ذلك مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس وأشد الطوائف المسيحية عداوة للمسلمين، ثم الإمكانات الهائلة التى تتيحها موانئ تونس فى التحكم فى المواصلات البحرية فى البحر المتوسط، وهكذا تضافرت تلك العوامل على إضفاء الأهمية العسكرية على تونس.

وكانت المرحلة الثانية لخير الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لإيطاليا وجزيرة صقلية هى تونس، وذلك لتنفيذ خطة الدولة، والتى تقتضى تطهير شمال إفريقيا من الإسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس[1]، إذ سبق أن أشار خير الدين باربروسا على السلطان سليمان القانونى فى خطابه للسلطان الذى بعثه قبيل استدعاء السلطان له فى ٩٤٠هـ - ١٥٣٣م، إذ قال فيه: إن هدفى إذا قدر لى شرف الاشتراك هو طرد الإسبان فى أقصر وقت من إفريقيا، ومن الممكن أن تسمع

---

(١) محمد عبد الله عنان. نهاية الأندلس مرجع سابق ص٣٨٢- ٣٩٠. وانظر أيضًا الدكتور عبد العزيز الشناوى. الدولة العثمانية جـ٢ ص٩٢٦.

بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الإسبان من جديد؛ ليستعيدوا مملكة قرطاجة، وأن تونس قد أصبحت تحت سلطانك. إنني لا أبغى من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق، كلا؛ لأن هذا لن يحتاج إلى كل ما تملك من قوات، ولا سيما أن حروبك فى آسيا أو إفريقيا تعتمد أكثر ما تعتمد على قوات برية، أما هذا الجزء الثالث من العالم فكل ما أطلبه هو جزء من أسطولك، وسيكون ذلك كافيًا؛ لأن هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضًا[(١)].

وصل الأسطول العثمانى تحت قيادة خير الدين إلى السواحل التونسية، فعرج على مدينة عنابة، وتزود ببعض الإمدادات، ثم تقدم نحو بنزرت، ثم اتجه إلى حلق الواد، إذ تمكن منها بدون صعوبة، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء وأكرموه، وتوجهوا إلى تونس فى نفس الوقت، وهرب السلطان الحفصى الحسن بن محمد إلى إسبانيا، ثم عين خير الدين الرشيد أخا الحسن بن محمد على تونس، وأعلن ضم تونس للأملاك العثمانية، فى وقت بدت فيه سيادة العثمانيين فى حوض البحر المتوسط الغربى.

أثر جهاد خير الدين على المغرب الأقصى:

استفاد السلطان أحمد الأعرج السعدى من الجهود التى بذلتها الدولة العثمانية والشعب الجزائرى بقيادة خير الدين باربروسا، فقام بمحاصرة مدينة آسفى بأزمور، وذلك سنة (٩٤١هـ - ١٥٣٤م) وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين لولا النجدات التى بعثها البرتغاليون للمدينة المحاصرة، وقد بدا وكأنهما تعاونا وقد حصل بين العثمانيين والقوى الإسلامية فى المغرب ضد المسيحيين ومركزهم فى الشمال الإفريقى، وعندما سمع الملك البرتغالى جان الثالث بوصول الأسطول فى (٣ ربيع الأول ٩٤١هـ/ ١٣ سبتمبر ١٥٣٤م) بقيادة خير الدين باربروسا إلى الشمال الإفريقى فكر فى الجلاء عن بعض المراكز مثل سبتة وطنجة؛ باعتبارهما مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين فى غرب البحر المتوسط، ولصد الهجوم العثمانى عن شبه الجزيرة الأيبرية بعث الملك يوحنا الثالث استفتاء إلى جميع

(١) فتح العثمانيين عدن. محمد عبد اللطيف البحراوى ص ١٢٧.

الوجهاء والأعيان، والأساقفة فى بلاده؛ يستشيرهم فى موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالى فى جنوبى المغرب، وكان المطلوب الإجابة عن الأسئلة الآتية: هل ينبغى ترك آسفى وأزمور للمغاربة؟ هل ينبغى الجلاء عنهما أو عن بعضهما؟ وإذا كان ينبغى الاحتفاظ بهما، هل تحول إلى حصون للتقليل من حجم المصروفات؟ ثم ما هى الأضرار الناتجة عن ذلك؟ وكيف نتفاداها؟

تلقى الملك البرتغالى إجابات عديدة بين مؤيد فى الإبقاء على المناطق الجنوبية فى حوزة البرتغاليين وبين معارض، وكانت إجابات رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريبًا تضمنت النصح بالتخلى عن المراكز الجنوبية، ويحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك إلى المركز الشمالى؛ لصد الخطر العثمانى بقيادة خير الدين باربروسا، فأسقف ينصح بإخلاء سنتاكروز، وآسفى، أزمور؛ لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التى تصرف عليها، ويرى توجيه القوى ضد فاس، كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن سبتة؛ خوفًا من هجوم خير الدين عليها.

إن للوجود العثمانى فى الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالى فى المغرب؛ إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه، كما أدخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا، والإمبراطور شارل الخامس الذى اعتبر ذلك تهديدًا مباشراً للمسيحية، ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته، فوصل التهديد العثمانى أقصاه، فضلاً عن أن الدولة العثمانية ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وإفريقيا.

عودة خير الدين إلى الجزائر:

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته فى تونس، كما قلنا سابقًا واستقر أول الأمر بمدينة قسطنطينية، ومن هناك أخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الإسبان فى الجبهات التى يحددها، وكان لزامًا على خير الدين - وقد استقر مؤقتًا بمدينة الجزائر، نظرًا لالتزاماته التى تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الإسلامى العثمانى - أن يشعر شارل الخامس بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس

بضربة مثلها، فقام بالهجوم على جزر البليار الإسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الإسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضى الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذى اعتقد أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة فى (٩٤٢هـ- ١٥٣٥م)، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذى قام به الإسبان على تونس، وبدا وكأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين، مما أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديد، كما صارت أهداف إسبانيا والبرتغال واحدة، وذلك فى احتلال مراكز فى بلاد المغرب، بالإضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الأيبرية.

تلقى الملك أحمد الوطاس هزيمة (٩٤٣هـ- ١٥٣٦م) من السعديين فى موقعة بير عقبة قرب وادى العبيد، بسبب تخلى قبائل الخلوط التى كادت تكون القوة الأمامية للجيش الوطاسى، ونشرت الفوضى فى سائر الجيش، وإثر هذه الهزيمة تقرب أحمد الوطاسى من البرتغال، وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين فى حروبهم ضد الإسبان ووقع معهم معاهدة لمدة أحد عشر عامًا، تقضى بوضع المغاربة المقيمين فى ضواحى أصيلا، وطنجة، والقصر الصغير تحت السلطة القضائية لملك فاس، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسى المتاجرة بحرية داخل تلك المناطق، باستثناء تجارة الأسلحة والبضائع المحظورة، وإذا وصلت مراكب عثمانية، أو فرنسية، أو تابعة لمسيحيين من غير الإسبان ولا البرتغاليين إلى أراضٍ برتغالية، محملة بغنائم أخذت من المغاربة، فلن يشترى منها شيئًا وكذلك الحال بالنسبة إلى المغاربة، لن يشتروا من العثمانيين، ويتم الاستيلاء على الغنائم، وترد من طرف إلى آخر، ما لم يسمح قوات العدو فى مهاجمتها.

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين، فبعثوا وفدًا إلى مراكش للتفاوض مع المولى أحمد الأعرج الذى استجاب لذلك، لأنه كان فى حاجة إلى تنظيم أمور دولته الناشئة، لا سيما بعد الانتصارات التى حققها ضد خصومه

الوطاسيين في موقعة بير عقبة (٩٤٣هـ- ١٥٣٦م)، واتفق البرتغاليون مع السعديين لعقد هدنة بينهما في (٢٥ ذي القعدة ٩٤٤هـ/ ٢٥ أبريل ١٥٣٧م) لمدة ثلاث سنوات، مع إقامة تبادل تجاري بين رعايا الطرفين، كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولة دون قيام تعاون حقيقي بين العثمانيين من ناحية، والوطاسيين والسعديين من ناحية أخرى، لأن أي تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبه الجزيرة الأيبرية في المغرب، والأهم من ذلك خوف إسبانيا والبرتغال من تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الأيبرية، وتحقيق هدفها في استرداد الأندلس[1].

٢- المجاهد الكبير حسن أغا الطوشي:

اشتغل خير الدين باربروسا بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل في الأسطول العثماني، وبدأ نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بينما استمر حسن أغا الطوشي في منصبه المستخلف عليه نائب البيلربك، يعمل على قهر القرصنة الأوربية، فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن، وصار شخصه في الجزائر مثالاً بارزاً في البطولة والتضحية الإسلامية في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام في الشمال الإفريقي، فاكتسب الجزائر مهابة وجلالا، وجعلت الأمم المسيحية تهرع إلى عاهلها الأكبر الإمبراطور شارل الخامس، مستنجدة بسلطانه، منضوية تحت لوائه، ومن بينها البابا بول الثالث، وقد حاول شارل الخامس (٩٤٦هـ- ١٥٣٩م) عقد هدنة مع خير الدين إلا أنه خاب مسعاه مثلما خاب في محاولته السابقة، عندما عرض على خير الدين سراً الاعتراف به حاكمًا لشمال إفريقيا مقابل جزية بسيطة؛ إذ كان شارل الخامس يأمل في قيام تحالف إسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسي العثماني، ويعمل على فصل شمال إفريقيا عن إستانبول على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال إفريقيا إبداء مقاومة قوية يكون من السهل سقوطها.

(١) الدولة العثمانية للصلابي ص ٢٧٣.

انهمك حسن أغا الطوشي في توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية، فأخضع مدينة مستغانم لدولته، ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي، فاستولى على عاصمة الزاب بكرة وملحقاتها، وشيد هناك حصنًا، وأقام به حامية[1].

ركب الجيش العثماني في شهر (جمادى الأولى ٩٤٩هـ / سبتمبر ١٥٣٩م) البحر، وكان قوامه (١٣٣٠ رجلاً) على ظهر ثلاث عشرة سفينة، واندفعوا منها إلى الإسبان، ثم نزل حسن أغا وجيشه إلى البر، فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على ما فيها من خيرات وأرزاق وغنائم للمسلمين، وتوغل في جهات الساحل الإسباني الجنوبي، وغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الإسبان، ويختار من بينهم جماعات من الأسرى والسبايا، يسوقهم للبيع في المدن المغربية الشمالية خاصة تطوان، ثم يعود للميدان؛ وعندما أراد الرجوع إلى الجزائر اعترضت طريقه عمارة إسبانية كبيرة العدد وقامت المعركة بين القوتين، وكانت عنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين، ومع ذلك كانت خسائر الإسبان في هذه المعركة عظيمة.

عزم شارل الخامس على القيام بحملة عسكرية تستهدف القضاء على الجهاد الإسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقبل أن يشرع في تنفيذها كان هدوء نسبي يسود القارة الأوربية؛ إثر عقد هدنة نيس في محرم (٩٤٥هـ/ يونية ١٥٣٨م) مع فرنسا والتي كانت مدتها عشر سنوات، مكنت شارل الخامس أن يرسو أمام مدينة الجزائر في يوم الثامن والعشرين من شهر جمادى الأخرى سنة (٩٤٨هـ) الموافق الخامس عشر من شهر أكتوبر (١٥٤١م)، وعندما شاهده حسن أغا الطوشي، اجتمع في ديوانه مع أعيان الجزائر وكبار رجال الدولة، وحثهم على الجهاد والدفاع عن الإسلام والوطن قائلاً لهم: «لقد وصل العدو عليكم؛ ليسبي أبناءكم وبناتكم، فاستشهدوا في سبيل الدين الحنيف، هذه الأراضي فتحت بقوة

---

(١) الدولة العثمانية للصلابي ص٢٧٤.

السيف، ويجب الحفاظ عليها، وبعون الله النصر حليفنا ، نحن أهل الحق[١]. . .»، فدعا له المسلمون وأيدوه فى جهاد العدو، ثم بدأ حسن أغا فى إعداد جيوشه، والاستعداد للمعركة.

من ناحية أخرى بدأ الإسبان فى تحضير متاريسهم، وتعجب شارل الخامس لاستعدادات حسن أغا وأراد أن يستهزئ به، فأمر كتابه بإعداد خطاب لحسن أغا، جاء فيه: (. . . أنت تعرفنى أنا سلطان. . . كل ملة المسيحيين تحت يدى إذا رغبت فى مقابلتى سلمنى القلعة مباشرة. . . أنقذ نفسك من يدى، وإلا أمرت بإنزال أحجار القلعة فى البحار، ثم لا أبقى عليك، ولا سيدك، ولا الأتراك، وأخرب كل البلاد. . . . . .)[٢].

وصل ذلك الخطاب إلى حسن أغا، وأجاب عليه: (. . . أنا خادم السلطان سليمان. . . تعال واستلم القلعة، ولكن لهذه البلاد عادة: أنه إذا جاءها العدو لا يعطى إلا الموت) وفى رواية: غزت إسبانيا الجزائر فى عهد عروج مرة، وفى عهد خير الدين مرة، ولم تحصل على طائل، بل انتهت أموالها، وفنيت جنودها وستحصل المرة الثالثة كذلك إن شاء الله)[٣].

وفى الليلة ذاتها وصل إلى معسكر شارلكان رسول من قبل الجزائر يطلب إذنًا للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر، وخاصة نساءها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الواد) وعرف (شارلكان) أن حامية الجزائر مصممة على الدفاع المستميت، وأنه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تم تدميرها تدميرًا تامًا، ولم يكن الإمبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة، فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفى الوقت نفسه كان المجاهدون يوجهون ضرباتهم الموجعة إلى القوات الإسبانية فى كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة فى تقريره عن المعركة: لقد أذهلتنا هذه الطريقة فى الحرب؛ لأننا لم نكن نعرفها من قبل)[٤].

وكانت أعداد المجاهدين تتعاظم باستمرار؛ بفضل تدفق مقاتليهم من كل مكان

(١- ٤) الدولة العثمانية للصلابى من ص٢٧٤- ٢٧٦.

بمجرد سماعهم بـإنزال القوات الإسبانية، وكان المجاهدون يستفيدون في توجيهم لضرباتهم من معرفتهم الدقيقة بالأرض، واستخدامهم لميزاتها بشكل رائع، وسخر الله لجنود الإسلام الأمطار، والرياح، والأمواج (وهبت ريح عاصفة، استمرت عدة أيام، واقتلعت خيام جنود الحملة، وارتطمت السفن بعضها ببعض، مما أدى إلى غرق كثير منها، وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ، وهجم عليها المدافعون المسلمون، واستولوا على أدواتها وذخائرها، أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود، وفي وسط هذه الكوارث حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل. . . .). وظهرت بطولات رائعة من القائد (الحاج البشير) الذي استطاع بجنوده أن يحصد رءوس النصارى بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، وبطولة رائعة، لقد استطاعت القيادة العسكرية الجزائرية أن تستفيد من الوضع المحيط بالنصارى، ووجهت جنودها بطريقة متميزة في الكر والفر، أفنت جزءًا كبيرًا من الأعداء، واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ما تبقى له من سفن، واتجه بأسطوله إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا، وكان من العوامل التي ساعدت على إلحاق الهزيمة بالإمبراطور القيادة الرشيدة، والتفاف الشعب الجزائري حولها، وتدفق رجال القبائل إلى ساحة الوغى؛ طلبًا للشهادة في سبيل الله، ودفاعًا عن الإسلام والمسلمين، وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، فقالوا في رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان: إن الله - سبحانه وتعالى - عاقب شارل الخامس وجنوده بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريحًا عاصفًا وموجًا قاصفًا، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل[1].

لقد بعث سكان الجزائر- سواء أهل الإقليم الأصليون أو مسلمو الأندلس الذين فروا بدينهم إليها- برسالة في الشهر التالي لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان، وقد أوضحت هذه الرسالة الأحوال المؤلمة والمفجعة التي تحيط بالمسلمين

(١) المصدر السابق ونفس الصفحات.

الذين احتفظوا بدينهم فى إسبانيا بعد أن طوى صفحة الحكم الإسلامى فى الأندلس، وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية، ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش- وإحراقهم، وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التى أداها للإسلام خير الدين باشا (المجاهد فى سبيل الله، وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين)، ومضت الرسالة تقول: (إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغاثهم)، وكان سببًا فى خلاص كثير من المسلمين من أيدى الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين، وحددت الرسالة مطلبين أساسيين:

١- إرسال نجدات عسكرية لنصرة الجزائر؛ لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهى موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة.

٢- إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق - بكلر بك الجزائر (فهو المتمثل لأوامر مولانا؛ لأنه أحيا هذا الوطن، وأرعب قلوب الكفار، وخرب ديار المردة والفجار وإنه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر.

وصل خير الدين باربروسا إلى مدينة الجزائر؛ للإسهام فى الدفاع عنها، وبتوفيق الله للمسلمين ثم بسواعدهم قد قضت على أسطول الإسبان، فاكتفى بتفقد أمور البليربكية واطلع على سير الأمور فيها، ثم انطلق بأسطوله نحو البلاد الإسبانية يذيقها العذاب الأليم، وأنعم السلطان سليمان على حسن أغا الطوشى برتبة الباشوية، لدوره الفعال فى النصر، وخلا البحر المتوسط تقريبًا من الأساطيل الإسبانية التى كانت تضمد جراحها، وتحاول استرجاع قوتها، فانطلقت السفن العثمانية نحو السواحل الإسبانية والإيطالية، وتوالت هناك الغزوات، وساد الرعب والفزع تلك النواحى التى بقيت مفتوحة فوضعت للعثمانيين حسابًا، فاهتز بذلك مركز الإسبان فى وهران وغيرها من مناطق نفوذهم فى الشمال الإفريقى، وحقق

السعديون على صعيد آخر نصراً كبيراً على البرتغاليين، وفتحوا حصن سنتاكروز، وما إن علم الملك البرتغالى جان الثالث بهذا الخبر حتى أمر حاميات آسفى وأزمور بالجلاء فوراً عنها، وقد وجه الملك جان الثالث فى هذا الشأن إلى سفيره بمدريد رسالة مؤرخة فى الثانى والعشرين (رمضان ٩٤٨هـ - ديسمبر ١٥٤١م) يطلع فيها الإمبراطور الإسبانى شارل الخامس، حيث جاء فيها ذكر للأسباب التى أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتى آسفى وأزمور، فبالإضافة إلى موقعها الحرج هناك، تزايدت قوات السعديين بفضل المساعدات العثمانية، حيث صار الحاكم السعدى يملك المدفعية العثمانية والآلات الحربية، وحصل على جنود مدربين، وظهرت تلك الإمدادات عند سنتاكروز، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمرًا شاقاً وصعبًا، ثم إن الجلاء عن آسفى وأزمور ليس معناه التخلى عن المغرب، فقد أعطيت الأوامر لتحصين ماركان؛ لسهولة استغلال مينائها طوال أيام السنة، يظهر من ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية فى تقديم المساعدة للقوى الإسلامية فى المغرب ضد المسيحيين المتواجدين فيها؛ وذلك لأن الدولة ترغب فى تأمين ظهرها حتى يتسنى لها الهجوم، فرغبت الدولة هنا فى مساعدة السعديين؛ لينهوا التواجد البرتغالى فى المراكز الجنوبية فى المغرب، ثم ليعبروا للأندلس؛ لأن المغرب يمثل أقرب نقطة للعبور.

استمر حسن أغا فى القيام بواجبه المقدس حتى وفاته (٩٥١هـ/ ١٥٤٤م) فأجمع أهل الديوان فى الجزائر على تولية الحاج بكير، وريثما يعين الباب العالى بإستانبول الحاكم الجديد الذى عين حسن بن خير الدين[١].

مصير شارلكان بعد هزيمته فى الجزائر:

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) فى حملته على الجزائر، ذا أثر عميق لا على الإمبراطورية الإسبانية، ولا على ملكها شارلكان فقط، وإنما على مستوى الأحداث العالمية، وقد حفظ الشعر العربى هذا الحديث الذى قيل فيه:

---

(١) الدولة العثمانية للصلابى ص ٢٨٠.

سلوا شارلكان كم رأى من جنودنا فلـيس له إلا هـم من زواجـــــر
فجهـزوا أسطولا وجيشًا عـرمرما ولكنـه قــد آب أوبة خـــاسـر

ونزلت أنبـاء الهـزيمة نـزول الصاعـقـة على أوربا، وتطورت الأحـداث هناك بسرعة، فلم يبق حليف للإمبـراطور سوى هنرى الثالث ملك إنجلترا، وانضم إلى ملك فرنسـا الدوق (دى كليف) وملك الدنمارك، وملك إسكندينافيا. وكـان فرح الفرنسيين عظيمًا؛ لأن سقوط الجزائر كان يؤدى لا محالة إلى سقوط فرنسا، وبادر ملكها فـرانسوا الأول لإبرام معـاهدات مع السلطان العثمانى، وكان لهـذه الغارة أيضًا نتـائج داخل الشمـال الإفريقى، وأمـا فى أوربا فقد بقى رعب المسـلمين فى قلوب أهل أوربا لمدة طويلة.

ولم يعد شارل الخامس قادرًا على التفكير فى حملة أخرى ضد الجزائر، وطغى شبح خير الدين وحسن أغا على العامة والخاصة، حتى أصبح الناس إذا رأوا جفنًا عن بعد نسبوه إلى خـير الدين، فيتصاعد الصـراخ، ويكثر العويل، ويفر السكان من ديارهم، ومن حقولهم ومتاجرهم، وإذا حطمت الزوابع مركبًا توهم الناس أن خير الدين باربروسا هو الذى أثار البحر وهـيجه وأغراه على إغراق سفنهم، وبلغ الخوف من قـادة الجزائر أقـصى درجة، حتى أصـبح أهل إسبـانيا وإيطاليـا إذا ما حدثت جريمة أو سرقة، أو وقع فساد، أو تخريب، أو مرض، أو وفاء أو قحط، قالوا: خير الدين وأصحابه هم السبب فى ذلك، وكانوا فى نحيبهم يقولون[(١)]:

بــاربـــروســـــا بــاربـــروســـــا
أنــت صــاحـــب كـــل شـــــر
مـــا كـان مــن ألـــم أو عــــمــل
مــؤذ وجـــــهنمـى مــــــدمــــر
إلا والـــســـبب فــــيـــــه

(١) الدولة العثمانية للصلابى ص ٢٧٩.

هـــذا القـــــرصـــــان الـــــــــــــذى
لا نـظيـــــــر له فـى الـــعـــــالـــــــم

٣- المجاهد حسن خير الدين باربروسا وأسباب عزله[1]:

تولى حسـن بن خير الدين ملك الجـزائر بعد مـوت حسن أغـا عام ٩٥١هـ - ١٥٤٤م بمرسوم عثمانى من الباب العالى بإستانبول. وبعدما انتظمت أمور الدولة شرع حـسن بن خير الدين حـال وصوله إلى الجزائر يستعد للجـهاد، ومواجـهة المسيحـيين فعمل على تحـصين مدينة الجزائر، وذلك فى المناطق التـى أظهر هجوم شارل الخامس عن ضـعفها، كـما أخذ يعمل على توطيـد النظام فى الجزائر وبين صفوف الجـيش، ثم انصرف إلى حل مشكلة تلمسان، إذ تبـين له أن بقاء الأسرة الزيانية ، ووجود الإسبان فى وهران يعيقان حل المشكلة.

كـان حـاكم تلمـسـان (أبو زيان) أحـمـد الثـانى قـد تولـى الحكم بدعم من العثمانيين، غير أنه ما لبث أن خضع لمؤامرات خارجية، وانساق فى تيارها، وأخذ يتقرب من الإسبان مما أدى إلى كره الأهالى له وقـرروا خلعه عن العرش، ومبايعة أحد إخوته (الحسن) فتوجه أبو زيان إلى وهـران؛ طالبًا الدعم من الإسبان، مقدمًا لهم التعهدات بأن يحافظ على ولائه لهم، فقرر حاكم وهران انتهاز هذه الفرصة، فجهز جيـشًا، وانضم إلى جموع الخاضعين للإسبان من بـنى عامر، وفليتة، وبنى راشد، وعـلى رأسهم القـائد المنصور بن بو غنام، وتقـدموا إلى تلـمسان لإبـعاد الحسن، وإعادة تنصـيب أبى زيان على عرش المدينة، وما إن علم حـسن بن خير الدين بتـحرك القوى الإسـبانيـة حتى قـاد الجيش الإسلامى فـى تلمسان؛ ليـمنع الإسبـان من الوصول إلى هدفـهم، وتمكن حسن بن خيـر الدين من ذلك، ودعم حليفه الملك الحـسن فى تلمسان، الذى اعتـرف بسلطة الدولة العثمانيـة، كما ترك الباشـا حسن بن خيـر الدين حامـية عثـمانية بقـيادة محـمد فى قلعـة المشوار فى تلمسان، إلا أنه مع ذلك، ظل نفوذ الدولة العثمانيـة مهتزاً خارج تلمسان؛ بسبب

(١) الصلابى ص٢٨١.

مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار بن بوغنام، الذى يرغب فى مساندة زوج ابنته الأمير مولاى أحمد حليف الإسبان.

قامت الدولة العثمانية بدعم السلطان الشريف السعدى بنحو عشرين ألف مجاهد، فالتفوا حوله، ودفعوه إلى بناء مراكب حربية؛ للاستيلاء على إسبانيا، فوافق الشريف السعدى على ذلك، وصرف لهم الأجور والمكافآت. واستطاع الشريف السعدى أن ينهى الحكم الوطاسى، وأصبح الإسبان متخوفين من هجوم عثمانى سعدى مشترك، فقاموا بإنهاء استحكامات مليلة، وفرضت عدة إجراءات أمنية على جبل طارق، وقادش، وغير ذلك من الاحتياطات.

لقد ظهر السعديون أول الأمر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحى فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين، إذ اعتبروا ذلك نوعًا من الجهاد، فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة؛ لتحقيق ذلك، ثم عرضت على السعديين مشروع استرداد الأندلس، وهذا هو السبب فى مساعدته من قبل العثمانيين إلا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدى، فلم يرع عهدًا ولا حرمة وعمل على انتهاء الحكم العثمانى فيها، وعندما شعر العثمانيون بتلك الأطماع، وانحراف الشريف السعدى عن الهدف الإسلامى أرسلت له حملات ليعود إلى بلاده، وقد تمت هزيمته.

ثم إن حسن بن خير الدين باربروسا بعد أن هزم السعديين فى تلمسان، ووطد دعائم الحكم العثمانى فيها (٩٥٩هـ/ ١٥٥١م) انتهج سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية، بما فيها فرنسا التى كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الامتيازات الاقتصادية التى منحت لها مع إستانبول، والتى شملت جميع أقاليم الدولة العثمانية، غير أن حسن بن خير الدين لم يلتزم بذلك، وأعلن عداءه لفرنسا فى مناسبات عديدة، فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت سفيرها المعتمد فى إستانبول إلى الجزائر بهدف معرفة المدى الذى سيصل إليه حسن بن خير الدين فى عدائه لفرنسا، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا وبيلربيكية الجزائر.

اجتمع سفير فرنسا بالبيلر بك حسن بن خير الدين، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية، لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية فى مهاجمة إسبانيا، ونجدة مسلمى الأندلس، لكن حسن بن خير الدين رفض هذا العرض؛ لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة من الدولة العثمانية نفسها، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هى قضية خاصة بالمسلمين، وبين أنه لا ينتصر بكافر على كافر، ورجع السفير الفرنسى إلى إستانبول، حتى يغير صدر الباب الأعظم، وقد حاول إفهامه أن توسيع مملكة الحسن فى الجزائر كما يرى سيؤثر على وحدة الدولة العثمانية، ويهدد كيانها بالانقسام، خاصة وأن والدته من الأسر الجزائرية المعروفة.

رأت الدولة العثمانية أنه لزامًا عليها تغيير سياستها فى المنطقة، خاصة بعد أن صار المغرب حليفًا قويًا للإسبان، مما أدى إلى قلب الموازين الإستراتيجية رأسًا على عقب، فاتخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة، ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانونى بيلر بك الجزائر حسن بن خير الدين؛ بدعوى الإساءة إلى حسن الجوار مع المغرب، كما دعا إلى الوحدة الإسلامية وإلى حسن الجوار[1]، أسندت الدولة العثمانية بيلربيكية الجزائر إلى صالح رايس فى (صفر ٩٦٠هـ / يناير ١٥٥٢م) بدلا من حسن بن خير الدين . بعدما أدرك السلطان سليمان القانونى تلميحات السفير الفرنسى التى تخوفه من حسن بن خير الدين؛ فإذ به يعزله كما عرفنا، ثم يرسل رسالتين إلى بعض حكام المغرب على النحو التالى:

الأولى: رسالة السلطان سليمان القانونى إلى حاكم فاس محمد السعدى يدعوه فيها إلى إحياء مراسم الإسلام والوقوف فى وجه الكفرة والمتمردين، وأن يتعاون معه ومع سائر أمراء الإسلام، وأن يحسن المجاورة مع حاكم الجزائر، وأن يحسن المعاشرة مع سكان ذلك البلد[2].

---

(١) بداية الحكم المغربى للسودان الغربى لمحمد المغربى ص ٩٠، ٩١.

(٢) انظر الوثائق، فى آخر الكتاب الوثيقة الأولى.

الثانية: مرسوم السلطان العثمانى بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية (٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م): وقد بعث السلطان العثمانى مرسومه إلى العلماء والفقهاء، وسائر رعايا الجزائر، يعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية[١].

سياسة حسن بن خير الدين فى ولايته الثانية والتضييق على الإسبان:

عاد حسن بن خير الدين ليزاول مهام عمله مرة أخرى بعد ما عزله السلطان سليمان القانونى وتولية صالح رايس مكانه، وكان أول شىء فكر فيه فى وهران هو أن يستعد فى مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة إلى جانب الجيش العثمانى، فجند عشرة آلاف رجل من زواوة، كما أنشأ قوة أخرى ووضع على رأسها أحد أعوان والده القدامى، وفى الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضى، وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية أخرى فى الاستعانة بقوة ابن القاضى لمواجهة زعيم قبلى آخر (عبد العزيز بن عباس) الذى أعلن استقلاله فى المغرب، بذلك صار أسطول الدولة العثمانية يتردد دائمًا على مدينتى حجر باديس وطنجة[٢].

عين حسن بن خير الدين فى عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م بويحيى الرايس قائدًا على باديس، فقام بتخريب الساحل الإسبانى من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست، وصار تحت قيادته فى باديس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق، وقد جاء فى تقرير إسبانى بقلم فرانسكوا دى إيبانير أن يحيى يملك أربع سفن حربية الأولى بقيادته وعلى ظهرها ٩٠ عثمانيًا مسلحًا بالسهام والأقواس والمناجيق، والثانية يقوده قره مامى وعلى ظهرها ٨٠ عثمانيًا مسلحًا بنفس الأسلحة، والثالثة والرابعة أيضًا بنفس التجهيز[٣]، وبالإضافة إلى هذه السفن الأربعة العاملة عبر مياه المضيق، كان فى حوزة بو يحيى سفينتان فى باديس ويقوم بصناعة سفينة أخرى،

---

(١) انظر الوثيقة السابقة.

(٢) الدولة العثمانية للصلابى ص ٣٠٢- ٣١٠.

(٣) المرجع السابق.

ويتصل بنشاط سفن باديس سفن تطوان العرائش وسلا ففي تطوان ثلاث سفن صغيرة، وفي العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان، وفي سلا سفينتان من النوع الآخر، إلا أن السفن الأخيرة للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس والاستيلاء على سفن الهند ورفع تجار إشبيلية نتيجة لذلك رفعوا شكواهم للملك الإسباني يشكون فيها الفظائع التي تركتها سفن باديس والسفن الإسلامية الأخرى ضد السفن الإسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية[1]، ولم تستطع السفن العبور دون إذن من بو يحيى، فعم الخوف سكان الساحل الإسباني، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكل حذر، وغالبًا ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يبتعدون كثيراً عن الشاطئ.

استمر حسن بن خير الدين في استعدادته لمهاجمة المغرب، فشرع في تكوين قوة من رجال القبائل كان ينوي أن يوكل إليها حراسة الجزائر أثناء غيابه لعدم ثقته بالإنكشارية، والذين أحسوا بالخطر فقاموا في صيف ٦٩٦هـ/ ١٥٦١م باعتقال حسن باشا وأعوانه وأرسلوه مقيداً إلى إستانبول، ورافق حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التي دفعتهم إلى هذا التصرف متهمين حسن باشا أنه كان ينوي القضاء على الأوجاق والاعتداء على جيش محلي بغرض الاستقلال عن السلطان، لكن السلطان أرسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح أحمد باشا في اعتقال زعماء التمرد وأرسلهم إلى إستانبول[2].

أعاد السلطان العثماني سليمان القانوني حسن بن خير الدين إلى بيلربيكية الجزائر للمرة الثالثة[3] في أواخر سنة ٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م معززاً بعشر سفن حربية ومزوداً بقوة عسكرية مسلحة، قضى بعدها حسن خير الدين خمسة أشهر بعد

(١ - ٣) المرجع السابق.

عودته يهيئ العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسى الكبير وهما كل ما بقى لإسبانيا ببلاد الجزائر.

خرج حسن بن خير الدين فى سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م من مدينة الجزائر نحو الغرب، يقود جيشًا كبيرًا مؤلفًا من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية وألف فارس من الصباحية تحت إمرة أحمد مقرن الزواوى، واثنى عشر ألف رجل من زواوة وبنى عباس، أما مؤن وذخيرة الجيش فقد حملها الأسطول العثمانى إلى مدينة مستغانم التى اتخذها قاعدة للعمليات، وفى ١٣ أبريل وصل حسن خير الدين بكامل قوته أمام مدينة وهران وضرب حصارًا حولها، وكان الإسبان مستعدين لتلقى الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم، بعد أن توالت النجدات الإسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها[١]، ومنذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين، وبينما كان البيلر بك نفسه على بعد ست مراحل اضطر حسن بن خير الدين إلى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النجدات التى اتخذت من مالطة مركزًا لتجمعها، وهكذا لم يستطع حسن بن خير الدين من تحقيق هدفه ذلك لأن فيليب الثانى كان قد وضع برنامجًا طموحًا للأسطول الإسبانى، والبناء البحرى فى ترسانات إيطاليا وقطالونى، كما وردت لخزنة إسبانية إعانة من البابوية واجتمعت سلطة قشتالة التشريعية فى جلسة غير عادية، وأقرت وجوب إمداد إسبانيا بمعونات مالية، لتساندها فى حربها مع العثمانيين[٢]، وكانت ثمرة تلك المجهودات إعادة التنظيم لهيكل إسبانيا وهزيمة العثمانيين فى وهران سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م.

بدأ فيليب الثانى يستعد لاحتلال جزيرة باديس وتشجع بذلك النصر الذى حققه فى وهران، ووجه لذلك أسطولا فى نفس السنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م، فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة، اضطرت الأسطول إلى التراجع[٣]، والجدير بالذكر أن جزيرة باديس كانت أقرب نقطة مغربية إلى جبل طارق، وأنها كانت بالنسبة إلى

(١) المرجع السابق ونفس الصفحات.

(٢، ٣) المرجع السابق.

المجاهدين ميناء مهماً، إذ يمكنهم من خلالها العبور للأندلس، كما يمكنهم التسلل لداخل الأراضى الإسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين أطلقوا على أنفسهم الغرباء، وهذا ما دفع الإسبانيين للهجوم عليها من خلال محاولتهم السابقة، كما كانت جزيرة باديس -بالإضافة إلى ذلك- مثار رعب وخوف لدى السلطان السعدى الغالب بالله، إذ خاف السلطان أن يخرج الأسطول العثمانى من تلك الجزيرة إلى المغرب، فاتفق مع الإسبان أن يخلى لهم الإدالة من حجرة باديس ويبيع لهم البلاد ويخليها من المسلمين، وينقطع أسطول العثمانيين فى تلك الناحية، مقابل الدفاع عن شواطئ المغرب، إذ هاجمها الأسطول العثمانى[1] الذى علم بتلك المؤامرة فانسحب ورجع إلى الجزائر، وتم عزل بو يحيى رايس من منصبه فى باديس فى أواخر عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م، وانصرف العثمانيون عن الحرب فى غرب البحر المتوسط، إذ توجه نشاط الأسطول الحربى إلى جزيرة مالطة فى الشرق.

كان السلطان العثمانى سليمان القانونى قد عزم على فتح جزيرة مالطة التى كانت أكبر معقل للمسيحيين فى وسط البحر المتوسط، والتى سبق وأن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثمانى أسطوله بقيادة بيالى باشا نفسه، كما طلب من درغوث رايس حاكم طرابلس وجربة، وحسن بن خير الدين أن يتوجها على رأس أسطوليهما الإسلاميين للمشاركة فى عملية مالطة[2] وإخضاعها استعداداً لمنازلة بقية المعاقل الإسلامية بعد ذلك؛ فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينة وثلاثة آلاف رجل، ووصل الأسطول الإسلامى أمام مالطة يوم ١٨ مايو وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقاً شديداً إلى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك فى صقلية، برفقة أسطول تعداده ٢٨ سفينة حربية تحمل عدداً كبيراً من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الأسطول الإسلامى من الانسحاب فى ١٨ ربيع الاول ٩٧٣هـ/ ٨ ديسمبر ١٥٦٥م.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الدولة العثمانية للصلابى. مرجع سابق.

خلف السلطان سليمان القانونى السلطان سليمًا الثانى، الذى أسند منصب القائد العام للأسطول العثمانى إلى حسن بن خير الدين[١]؛ فترك الجزائر متوجها إلى إستانبول سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م، وتولى منصب بيلر باى الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح رايس[٢]، فى ذى الحجة ٩٧٤هـ/ يونيو ١٥٦٧م وصادف فى تلك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة، كما صحبها تمرد الجند العثمانى ثم أضرب الشعب واضطربت البلاد، فاضطر إلى صرف وقته فى مواساة المصابين وتسكين الفتن، ثم فاجأ محمد بن صالح رايس ثورة عامل قسطنطينية المتأثرة بولاة تونس الحفصيين، فعزله البيلر باى وقضى على ثورته وولى على قسطنطينية القائد رمضان بن تشولاق، وفى ربيع الأول سنة ٩٧٥هـ/ سبتمبر ١٥٦٧م، هاجم الإسبان مدينة الجزائر، إلا أنهم ردوا على أعقابهم[٣]، ثم لم تطل ولاية محمد بن صالح رايس، إذ تعين نقله إلى ولاية أخرى فى أنحاء الدولة.

٤- قلج على والى العثمانيين يستعد لفتح الأندلس:

أسند منصب بيلر بك الجزائر إلى قلج على فى ١٤ صفر سنة ٩٧٦هـ الموافق أغسطس ١٥٦٨م وعرف عنه بالعزم فى تسيير الإدارة والبطولة الحربية والشجاعة. اتخذ قلج على خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية وهو إعادة الحكم الإسلامى فى إسبانيا وتحرير الشمال الإفريقى من الجيوب الصليبية، فوجه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره وصار مبعث قلق ورهبة للأوربيين، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت وتصرفهم فى المنطقة التى نزلوا فيها تصرف السادة[٤].

صمم قلج على على ضرورة تصفية القواعد الإسبانية فى تونس، قبل أن يبدأ نشاطه فى شبه الجزيرة الأيبرية، وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس والجزائر، وكان الإسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق على العثمانيين فى طرابلس والجزائر، لذلك لا بد من تأمينها. كان قلج على على اتصال بالوزير

(١- ٣) المرجع السابق.

(٤) الدولة العثمانية للصلابى ص ٣٠٨.

الحفصى أبى الطيب الخضار ورأى ذلك الوزير أن فتح تونس قد حان وقته، وأرسل إلى قلج على يهون عليه أمرها ويتعهد له بتقدير العون.

جهز بيلر بك الجزائر قلج على جيشًا مؤلفًا من نحو سبعة آلاف مقاتل وزحف به نحو تونس فقابل سلطانها أبا العباس أحمد بباجة، ثم بعد قتال عنيف انهزم الأمير الحفصى، وتقدم قلج على بمجموعة نحو تونس وأخذ بيعة أهلها للسلطان سليم الثانى[١]، ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا وعاد إلى مقره بالجزائر، وبقيت منطقة حلق الواد بيد الإسبان، وكانت قوات قلج على لا تكفى وحدها لتطهير البلاد من الاحتلال الإسبانى، لذا فإنه كتب إلى إستانبول يطلب مده بقوة تكفى لتحرير الموقع، وكان اهتمام قلج على بشرق الجزائر سياسة اختص بها من دون أسلافه، فكان يرى أنه لا بد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب، ثم التوجه للأندلس بعد أن يكون قد أضعف التواجد الإسبانى فى الشمال الإفريقى.

قلج على وثورة مسلمى الأندلس:

كانت حركة الجهاد فى الشمال الإفريقى قد شجعت مسلمى الأندلس وفجرت طاقاتهم الكامنة وجعلتهم يتغلبون على الحواجز النفسية التى تزاحمت فى نفوسهم على مر السنين، وسادت الأقاليم الإسبانية موجة من الظلم والإرهاب والفظائع فهذه الحالة المربكة وما صاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمى إسبانيا فى الجنوب سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المتنصرين ظاهريًا، يتأهبون للانقضاض على الحكم الإسبانى.

سادت إسبانيا إرهاصات ثورة المسلمين فى غرناطة، فشكل الملك الإسبانى فيليب الثانى نوعًا جديدًا من الميلشيات تقيم فى كل مدينة من مدن إسبانيا لمواجهة الثورة بين الذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيتهم فى الولاء لسيادة الأمير السعدى، وبين مسلمى الأندلس الذين تلقوا مساعدات عثمانية، وأصبح الموقف صعبًا بالنسبة إلى إسبانيا خاصة غرناطة ومما زاد الحالة

---

(١) المصدر السابق.

خطورة أن بحرية فيليب الثاني كانت متفرقة فى أنحـاء بعيدة، وحصونه غير معززة والسواحل مكشوفة خاصة الشواطئ الجنوبية موقع المجاهدين[١].

بعد أن أعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية لمسلمى الأندلس وتحويلهم للمسيحية لجأوا إلى العنف فحرموا على المسلمين التحدث بالعربية والاتصال بالمسلمين فى الشمال الإفريقى وفى بعض أقاليم إسبانيا، كما حرموا على النساء الخروج إلى الشوارع متحجبات، وقفل أبواب دورهم وتحطيم الحمامات وإقامة الحفلات حسب تقاليدهم، كل ذلك فجر الثورة وقاد مسلمى الأندلس إلى حرب البوشارات التى هى أهم حرب أو ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة وقد بدأت هذه الحرب فى ١٥٦٨ م وتزعمها محمد بن أمية[٢].

بذل السلطان السعدى الغالب بالله الوعود المعسولة لرسل الثوار البورشارات ووعدهم بالنصر وتقديم كل ما يحتاجون إليه من عتاد وسلاح ورجال. . . ، لكن من ناحية أخرى استمر الغالب بالله محافظًا على روابطه الودية مع فيليب الثانى، وعمل على خذلان أهل الأندلس: (وأما أهل الأندلس وغشه لهم وتوريطه للهلكة فى دينهم وأقوالهم وأولادهم وفى نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من فى قلبه ذرة من الإيمان، وأدنى مملكة من الإسلام وذلك أنه لما احتوى عليهم النصرانى، وأخذ جميع أراضيهم وشملها سلطانه، بقى المسلمون بضع سنين تحت الذمة والذلة فقهروهم بكثرة المكس فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقًا وغربًا وهم يناشدونه الله فى الإغاثة، وأكثر كتبهم إلى مولاى عبد الله أنه هو القريب إلى أراضيهم، زمان قد قوى سلطانه وصحت أركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده فأمرهم غشّاً منه بأن يقوموا على النصارى ليثق بهم فى قوله ويظهروا فعلهم، فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الإغاثة وكذب عليهم وكان هذا غشّاً منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلحة الملك الزائل، وكانت بينه وبين

(١) الدولة العثمانية للصلابى ص ٣١٠.

(٢) المرجع سابق.

النصارى مكاتبات فى ذلك ومراسلات، وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله، ويكون لهم بمدينتى فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به فى صالح ملكه.

تسارعت الأحداث فى إسبانيا، وبلغ عدد المجاهدين فى أوائل سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٩ م أكثر من مائة وخمسين ألف، وصادف تلك الثورة صعوبات كبيرة بالنسبة إلى الحكومة الإسبانية، إذ كانت غالبية الجيش متقدمة مع دوق البابا فى الأراضى المنخفضة، وأثبتت الدوريات البحرية أنها غير قادرة على حرمان الثوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين فى الجزائر(١).

كان قلج على على اتصال مباشر بقيادة مسلمى الأندلس عبر قنوات خاصة أشرف عليها جهاز الاستخبارات العثمانية، واستطاع هذا القائد أن يمد الثوار فى إسبانيا بالرجال والأسلحة والعتاد، وتم الاتفاق مع مسلمى الأندلس على القيام بثورة عارمة فى الوقت الذى تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الإسبانى. جمع قلج على جيشًا عظيمًا قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستون ألفًا آخرون استعدادًا للهجوم على وهران ثم النزول فى بلاد الاندلس، وكان يرافق ذلك الجيش عدد كبير من المدافع وألف وأربعمائة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق(٢).

وفى اليوم المتفق عليه وصلت أربعون سفينة من الأسطول العثمانى أمام مرسى ألمرية الإسبانى، لشد أزر الثورة ساعة نشوبها لكن أخفق ذلك المخطط وذلك بسبب سوء تصرف أحد رجال الثورة الأندلسيين إذ انكشف أمره فداهمه الإسبان، وضبطوا ما كان يخفيه من سلاح بعد أن نجح قلج على فى إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الإسبانى، لم تقع الثورة فى الموعد المحدد لها، وضاعت بذلك فرصة مفاجأة الإسبان(٣).

---

(١) الدولة العثمانية للصلابى ص ٣١١.
(٢) الدولة العثمانية للصلابى. نفس الصفحات.
(٣) الدولة العثمانية للصلابى. نفس الصفحات.

لقد قام قلج على فى شعبان سنة ٩٧٦هـ يناير سنة ١٥٦٩م ببعث أسطول الجزائر لتأييد الثائرين فى محاولتهم الأولى، وحاول إنزال الجند العثمانى فى الأماكن المتفق عليها، لكن الإسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد اكتشاف المخطط فصدوا قلج على عن النزول وكانت الثورة فى عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية فى البحر، فالأسطول الجزائرى صار يقاوم الأعاصير من أجل الوصول إلى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب، إلا أن قوة الزوابع أغرقت ٣٢ سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح، وتمكنت ست سفن من إنزال شحنتها فوق سواحل الأندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدون. استمر قلج على فى إمداد مسلمى الأندلس رغم الكارثة التى حلت بقواته، وتمكن ذلك المجاهد الفذ من إنزال أربعة آلاف مجاهد من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة المجاهدين العثمانيين، للعمل فى مراكز قيادة جهاد مسلمى الأندلس(١).

وعاد العثمانيون فأرسلوا دعمًا جديداً من الرجال والسلاح وإعانة للثورة الأندلسية، فصدرت الأوامر إلى قلج على بذلك فى ٢٣ شوال ٩٧٧هـ/ ٣١ مارس ١٥٧٠م (عليك بالتنفيذ بما جاء فى هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الإسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار غير جائزة)(٢). وكان القائد المجاهد قلج على قد عزم على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك ولكن ما شاع عن تجمع الأسطول الصليبى للقيام بمعركة حاسمة مع المسلمين هذا من ناحية، وأمر السلطان العثمانى له بالاستعداد للمشاركة فى هذه المعركة من ناحية أخرى جعله مضطراً للبقاء فى الجزائر منتظراً لأوامر إستانبول(٣). وفى غمرة الثورة الأندلسية اتهم زعيم الثورة ابن أمية بالتقاعس عن الجهاد وهاجمه المتآمرون وقتل فى منزله واختير مولاى عبد الله بن محمد بن عبدو بدلا منه وبعث قلج

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق ص٣١٣.

(٣) الدولة العثمانية للصلابى ص٣١٣.

على تعزيزات له ونجح الزعيم الجديد في حملاته الأولى ضد النصارى الإسبان وطوق جيشه مدينة أرجيه.

انزعجت الحكومة الإسبانية لهذه التطورات وعينت دون جوان النمساوى على قيادة الأسطول الإسبانى (وهو ابن غير شرعى للإمبراطور شارل) فباشر قمع الثورة فى سنواتها ٩٧٧- ٩٧٨هـ/ ١٥٦٩- ١٥٧٠م، وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال أمام عينه، وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لا هوداة وانتهى الأمر بإذعان مسلمى الأندلس، ، لكنه إذعان مؤقت، إذ لم يلبث مولاى عبد الله أن أعاد الكرة، فاحتال الإسبان عليه، حتى قتلوه غيلة ونصبوا رأسه منصوبًا فوق أحد أبواب غرناطة زمنًا طويلاً[1].



(١) المصدر السابق ص ٤١٤.



أحوال مواركة الأندلس بين العثمانيين والإسبان

اولاً : العثمانيون ومأزق الإنقاذ.

ثانيًا : أثر المواركة (الموريسكيين) فى المغرب العربى.

ثالثًا : يهود الدونمة وتآمرهم على الخلافة العثمانية.

رابعًا : المواركة (الموريسكيون) بين الطرد وأمل العودة.

خامسًا : ماذا خسرت إسبانيا بعد رحيل الموريكسيين.

هناك عدة قـضايا تتعـلق بالعثمـانيين من ناحيـة وهم المنقذون، وتتـعلق أيضًا بالإسبان من ناحية أخرى وهم الـذين عذبوا مسلمى الأندلس من أجل التنصير ثم طردوهم من البلاد شـر طرده، كما تتعلق أيضًـا بمسلمى الأندلس (الموريسكيين) مرة ثالثـة الذين اضطرت ظروفهم البـقاء فى أرض الأندلس أو هاجـروا منها إلى الشمـال الإفريقى أو مـصر أو تركيـا، ويرى الباحث أنه من الإنصـاف والعدل أن نقف مع كل قضية وقفـة متأنية نكشف عن غوامضها ونبـين وجه الحق فيه؛ لأنها قضايا شغلت الكثيرين من المفكرين والمؤرخـين وما زال صداها يتردد على مسامعنا حينًا بعد حين، وسوف نعرض تلك القضايا على النحو التالى:

أولاً: العثمانيون ومأزق الإنقاذ

كثر الحديث حول المدد العثـمانى لمسلمى الأندلس المعذبين على أيدى النصارى ومحاكم التفتيش؛ فبعض الكتاب يرى أن الـعثمانيين قد مدوا يد العون لإنقاذهم، وقد جاءوا بأساطيلهم إلى حوض البحر المتوسط وسيطروا على أغلب مدن الشمال الإفريقى بهدف الانقضاض على أرض إسبانيا وإعادة الأندلس المسلمة مرة أخرى. ومن الكتاب من رأى أن العثمانيين لم يقـدموا المعونة الكافية لمسلمى الأندلس وقد انشغلوا بصراعات أخرى مع الدول الكبرى فى البـحر المتوسط وفشلوا فشلاً زريعًا فى إنقاذ الأندلس. ولكى نوضح حقـيقة ذلك المأزق لا بد أن نثير سؤاليـن مهمين فى هذه القضية:

السؤال الأول: هل طلب مسلمو الأندلس النجدة من مسلمى المشرق؟

إن المتأمل فى تـاريخ الحقبـة الأخيرة والـتى تقدر بأربعة قـرون وهى المدة التى شهدت المعـاناة الحقيقية لمسلمى الأندلـس. أقول إن المتأمل فى تاريخ الأندلس فى تلك الحقبة، سيقف على بعض المساعدات التى قـدمتها الدولة العثمانية إبان القرن السادس عشر، فـقد عملت تلك الدولة على توسيع أملاكـها فى سواحل الحوض

الشرقى والغربى للبحر المتوسط واتجهت أساطيلها وجيوشها البرية إلى السيطرة على المدن التى تعد الخطوط الأولى المواجهة للسواحل الإسبانية حتى يتم الانقضاض على السواحل الإسبانية وإنزال الجنود العثمانيين لاسترداد الأندلس. وكان ذلك هدفًا نبيلاً من أهداف السلطان سليمان القانونى والذى ما فتئ أن تحدث عن هذا المشروع مع قواده ووزرائه -كما أوضحنا سابقًا-.

وقد واجه العثمانيون صراعًا عنيفًا عند محاولة استيلائهم على الجزائر - وهران - بجاية - تونس - طرابلس، وكان هذا الصراع ذا شعبتين: صراع من قبل القوى الغربية الصليبية مجتمعة من إسبانيا والبرتغال وغيرهما، حيث اصطدمت أساطيل العثمانيين مع أساطيل تلك البلاد فى أكثر من مرة، فكانوا ينتصرون تارة وينهزمون تارة أخرى حتى جاء النصر العظيم على يد خير الدين باربروسا على خصمه العنيد (أندريا دوريا) قائد الأساطيل الغربية فى موقعة برفيزا.

فمن الظلم والإجحاف أن نصف العثمانيين بالسلبية وعدم نصرة إخوانهم المسلمين فى إسبانيا، ولدينا بعض الوثائق التى أرسلت الى بعض السلاطين العثمانيين يحثونهم على النجدة ويستغيثون بهم لما وقع عليهم من ظلم وإجحاف واضطهاد؛ بل إن بعض الرسائل أرسلت إلى جهات أخرى مثل الرسالة التى أرسلها أهل غرناطة إلى الأشرف ملك مصر فى أواخر القرن الخامس عشر.

من أمثلة تلك الرسائل هذه الرسالة التى أرسلت إلى السلطان سليم الثانى سنة ٩٧٧هـ يشكو فيها مسلمو الأندلس من سوء حالهم، وقد رد عليها بكتاب أرسله إلى المسلمين فى إسبانيا والجزائر:

(لقد أرسلتم إلى سدة سعادتنا عرض حالكم، وكيف أن الكفار الضالين ذوى الشعارات المضللة يتآمرون على المسلمين ويمنعونهم من التخاطب باللغة العربية ويكلفون زوجاتهم بما يخالف الشرع الحنيف، مقترفين الظلم والاعتداء تجاههم، ويوجد الآن عشرون ألفًا من الرجال غير أن عدد الأشخاص الذين لا سلاح لهم وصل إلى مائة ألف كما هو مقرر وثابت، وفى صورة وصول هذا المقدار من السلاح

إلى الجزائر، فإن ذلك من شأنه أن يقوى من عـزيمة الناس وقد أخبرتمونا أنكم أنزلتم بالكفار الملاعين هزائم عـديدة، والحمد لله الذى يجعل أهل الإسلام ينتـصرون دومًا على الكفار الضالين. وكل ما حدث ذكرتموه وقررتموه فى عرض حالكم مفصلا، قد وصل إلى علم سـيادتنا، وأن كل مـا يتعلق بكم قـد بلغ إلى شريف وشـمول علم سلطاننا الذى يحرص دومًا على إظهار الاهتمام والعطف لجانبكم)[1].

ويمكننا تلخيص الوثيقة كالآتى:

١- يطلب منهم أن يتحدوا جميعًا، سواءً المسلمون فى الجزائر أو فى إسبانيا لمقاومة حكام إسبانيا الـذين عذبوا المسلمين ومنعوهم من التخاطب باللغـة العربية إلى غير ذلك من مصاعب ويقدر عددهم بعـشرين ألفًا من الرجال المسلحين ومائة ألف من المسلمين بدون سلاح.

٢- ثم يعلمهم بأنه سيبدأ أولاً بإعادة فتح جزيرة قبرص لأهميتها فى طريق الملاحة للسـفن الحربيـة والتجـارية والزائرين للحج من المـسلمين، وقـد أعد السـفن الضخمة والعساكر غفيره العدد لهذه المهمة.

- وقد أرسل أهل غرناطة فى منتـصف سنة ١٤٧٧م سفارة إلى إستانبـول ملفتين نظر السلطان العثمـانى آنذاك وهو محمد الفاتح إلى حـالة المسلمين بالأندلس، طالبين تدخله لإنقاذهم. هذا وإننى لم أعثر على نص لهذه الرسالة فى المراجع.

- رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٤١م:

بعد سقوط غـرناطة سنة ١٤٩٢م اتبعت إسبانيا المسيحـية تجاه مسلمى الأندلس سياسة تهدف للقضاء تدريجياً وبصورة جذرية على كل مظاهر الإسلام.

إن نخوة النصـر التى اجتاحت إسبـانيا قد ألهبـت العواطف وطغت على منطق العقل ومن ثم ظهر منطق جديد أحاطه رجال الكنيـسة بقدسية سماوية تحكمت فى كل القرارات التى اتخـذها رجال الدولة السياسـيين. وأصبحت إسبـانيا تؤمن بأن

(١) انظر باقى الوثيقة فى قسم الوثائق فى آخر الكتاب.

عليها واجب تطهير أرضهـا من الإسلام والمسلمين والتى أصبحت تخشى منه ومن شبحه، خصوصًا بعد نجاح التوسع العثمانى السريع فى أوربا وإفريقيا وآسيا.

اندفعت إسبانيا فى محاولة لتصفية المسلمين فارضة أقسى الإجراءات عليهم وتنصيرهم بالجملة خلال عشر سنين، وقد اعترف ملوك إسبانيا خلال القرن السادس عشر بحتمية الاستمرار فى تطبيق هذا القانون، وبذلك خيرت الأقلية الإسلامية الأندلسية التى عرفت شتى ظروف التتبع والملاحقة عن طريق ديوان التحقيق بين التنصير أو الرق مدى الحياة، وصودرت أملاكهم وحرم عليهم التكلم باللغة العربية، وارتداء الألبسة الوطنية والتردد إلى الحمامات، وفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات والجمعة والسبت، وإقامة الشعائر الدينية وعدم التسمية بأسماء عربية، كما حولت جميع المساجد إلى كنائس، ومنع المسلمون من حمل السلاح كما فرض عليهم العيش فى أحياء خاصة وارتداء ألبسة معينة وأن يحملوا إشارة زرقاء على القبعة إذا ما بقوا على دينهم، كما حرم عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة، وأمروا أن يسجدوا فى الشوارع متى مر كبير الأحبار، وسلطت عليهم أقصى أنواع العقوبات إذا لوحظ عليهم بعض الولاء إلى ماضيهم أو التعلق بدينهم فى أبسط مظاهره وعاداته. على اتجاه آخر كان تشكيلهم وحدة اجتماعية وسيطرتهم على الاقتصاد بفضل نشاطهم وذكائهم وخبرتهم فى تصريف شئون التجارة والزراعة وازدهارها على أيديهم قد أثار نجاحهم هذا حقد الإسبان عليهم، حيث اتهموهم بالتآمر ضد أمن الدولة خصوصًا وهم الحلفاء الطبيعيون لإخوانهم قراصنة «شمال إفريقيا» كما كانوا يعتبرونهم آنذاك.

ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن يلتجئ الموريسكيون إلى الثورات والانتفاضات فى أغلب المدن التى بها أقلية إسلامية وخاصة فى غرناطة وبلنسية وقد أقمعت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة، واتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد على هذه الطائفة، ومن جهة أخرى كان من الطبيعى أن يلتجئ الموريسكيون إلى ملوك المسلمين فى المشرق والمغرب لاستنجادهم، ولا غرابة أن تتكرر دعواتهم

ووفودهم ورسائلهم إلى هؤلاء الملوك للعمل على إنقاذهم مما يعانونه من الظلم وخاصة من رجال الكنيسة وديوان التحقيق الذى عاث فساداً وأحل لنفسه كل العقوبات التى طبقت عليهم.

وقد نقلنا جزءاً من هذه الرسالة المرسلة إلى السلطان سليمان القانونى، وليرجع القارئ الى قسم الوثائق فى آخر الكتاب لطلب الاستزادة.

(فإن عبيدك الفقراء (كذا) المساكين المتقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفًا منهم من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون والباقى من عامة المسلمين، رافعين شكواهم، وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، ولما هم فيه من مكابدة الكفار، ومقاساة (كذا) التضيق والأضرار، وجو على الشرك أناء الليل وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار قد تكالب العدو علينا، ومدد السوء والضرر إلينا، وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب، ورمونا عن قوس واحد بسهم صائب، وطالت بنا الأيام، وعاشت فينا يد الكنانة والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد فى سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمعت أهل الإسلام على إطاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضمائر (كذا)، وانتظم العدل والشرع والأمان فى البادى والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سببًا فى خلاص كثير من المسلمين، من أيدى الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت آيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك (٣٧) وشرشال ونواحى تلمسان، فلما سمع الكافر اللعين بذلك ولم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران، علم أنا اخترنا المصيبة فى الأموال والأبدان، وآثرنا ديننا على سائر الأديان فلما صدقت الضمائر، وبلغت القلوب الحناجر، خلف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا أموالنا وأوطاننا وهجرتنا وفرارنا إلى بلاد الإسلام لسلامة ديننا، تحاير فى أمره، وجمع إليه أهل تدبيره وحزنه، فدبروا ومكروا وهل يحيق المكر السيئ إلا بأهله؟

واتفق رأسهم المعكوس، وتدبيرهم المنكوس، على قتال الجزائر، لئلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر، فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا) فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل، والآن اشتد غضبهم على أهل الإسلام، وهم يتوسلون بالرهبان والأصنام، ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود ذى (كذا) الجلال والإكرام، وهم عازمون (كذا) على الجزائر، والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر، يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله، المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهى موسومة باسمكم الشريف، وتحت آيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة، وطراز رونقها المجاهد فى سبيل الله عبدكم الوزير الأجل خير الدين، الممتثل لأوامر مولانا، ونتاج عز الدنيا والدين، فإنه أحيا هذا الوطن، وجميع النواحى والسكن، وأرعب قلوب الكفار، وخرب ديار المردة والفجار، وأظهر نظام السلطنة العثمانية وأحكام مولانا نصره الله حتى تزينت بها الديار والأمصار، فنرغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من إرساله لهذا الوطن إن رأى (كذا) مولانا صلاح (كذا) فى ذلك فيكون ذلك غاية الإحسان لجميع أهل الإسلام وقهر ونكاية لحزب الشيطان، وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى (كذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام لا زال بالعز موصوفًا (كذا) وبالبهاء والنصر محفوفًا (كذا) بأن يغيثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشا (كذا) إلى الجزائر، فإنه لهذا الوطن نعم ناصر وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر (كذا) والسلام التام على المقام الشريف العالى ورحمة الله بتاريخ أوائل شهر شعبان أحد شهور سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة).

- رسالة أهل غرناطة إلى ملك مصر:

كما أرسل مسلمو إسبانيا سفارة إلى سلطان مصر الملك الأشرف فى أواخر القرن الخامس عشر، مستنجدة إياه فى التدخل لإنقاذهم من الملوك النصارى، وقد

بعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بكل الحريات، فى حين أن أبناء دينه فى مدن إسبانيا يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعاياه المسيحيين إذا لم يكف ملك قشتالة وأراجون وغرناطة عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم[1].

أما السلطان بايزيد الثانى فقد وصلت إليه رسالة وبها قصيدة من أحد الموريسكيين يصور له مأساة المسلمين ويستنجده لنصرتهم وإنقاذهم. فوصلته هذه الرسالة[2]: (الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها وأذل عداتها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محيى العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله فى أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين وسلطان البحرين، حامى الذمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، كهفنا وغيثنا، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونًا بالانتصار، مخلد المآثر والآثار، مشهور المعالى والفخار، مستأثرًا من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل، فى الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر فى هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية، مختصة بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من بأسها، ما يروى صدور السحر والصفائح والسنة السلاح، بأذلة نفائس الذخائر فى المواطن التى تألف فيها الأخاير مفرقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهاد).

وكانت ضمن الرسالة أبيات القصيدة يمدح فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد، ويدعو للدولة بدوام البقاء قائلاً:

(١) الدولة العثمانية. د. على الصلابى ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق.

سلام كريم دائم متجدد ... أخص به مولاى خير خليفة

سلام على مولاى ذى المجد والعلا ... ومن ألبس الكفار ثوب المذلة

سلام على من وسع الله ملكه ... وكايده بالنصر فى كل وجهة

سلام على مولاى من دار ملكه ... قسطنطينية اكرم بها من مدينة

ثم تبين الأبيات بعد ذلك وتوضح شعور المسلمين المتنصرين نحو الدولة العثمانية وتقدم شكواها للسلطان العثمانى، فيقول شاعرهم ويستفيض فى شرح مأساتهم وتغيير دينهم:

شكونا لكم مولانا ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وعظم الرزية

غُدرنا ونُصِّرنا وبُدل ديننا ... ظُلمنا وعُوملنا بكل قبيحة عوملنا

وكنا على دين النبى محمد ... نقاتل عمال الصليب بنيه

ثم يطلب الموريسكيون تدخل السلطان بايزيد لإمدادهم وإنقاذهم مما هم فيه وأن يتوسط لدى السلطان فى روما[1]:

سألناك يا مولاى بالله ربنا ... وبالمصطفى المختار خير البرية

عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا ... لعل إله العرش يأتى برحمة

فسل بابهم أعنى المقيم برومة ... بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة

ومالهم مالوا علينا بغدرهم ... بغير أذى منا وغير جريمة

ويشير المسلمون المتنصرون إلى أن سلطان مصر قد توسط لدى المسيحيين ليخففوا عنا ولكنهم لم يغيروا شيئًا وظلوا فى تشددهم وتعنتهم:

وقد بلغت إرسال مصر إليهم ... وما نالهم غدر ولا هتك حرمة

وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا ... رضينا بدين الكفر من غير قهرة

---

(١) الدولة العثمانية. د. على الصلابى ص ٢١٣.

ومع هذا العــذاب وتلك المحنة الشديدة فــقد صــممــوا على البقــاء على دينهم الإسلامى الحنيف:

والله مـا نرضـى بـتبـديــل ديننا ... ولا بالذى قــالوا من أمــر الثــلاثة

إن زعــمـوا أنــا رضـينـــا بدينهـم ... بغـيـــر أذى منهـم لنـا ومـــســاءة

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا ... أســارى وقتلى تحت مــذلة ومــهنة

وينهى الشــاعر قصــيدته بان يجــدد الاستغــاثة بالدولة العثـمانية ويــرجو منهم إنقاذهم وإجلاءهم من تلك البلاد[١]:

فهــا نحـن يا مــولاى نشكو إليكم ... فــهــذا الذى نلناه مـن شـر فـرقـة

عــسى ديننا يبــقــى لنـا وصــلاتنا ... كمــا عاهدونا قبل نقـض العزيمـة

وإلا فيــجلونا جميعــا عن أرضهم ... بأمــوال للعــرب دار الأحــبـــة

فــإجلاؤنا خــير لنـــا مـن مقــامنا ... على الكفــر فى عز على غــير ملة

فهذا الذى نرجــوه من عز جاهكم ... ومن عندكم نقضى لنا كل حــاجة

وثم ســلام الله قلتـــه ورحــمــتــه ... عليكم مدى الأيام فى كل ساعة[٢]

أما طلب النجدة والاستغاثة من ملوك المغــرب فقد تعددت مع مرور الأيام غير أن الأوضاع الداخلية التى كان عــليها المغرب وخضوع بنى وطاس لإسبــانيا وعقد معاهدة ١٥٣٨م معهم وازدياد النفوذ الإسبانى -البرتغالى على السواحل المغربية قد جعل من المســتحيل القيام برد فــعل حازم وفعال، وســوف يأتى الحديث عن تلك الرسائل لنظهر من خلالها علاقة المشرق الإسلامى بالموريسكيين فى تلك الفترة.

---

(١) الدولة العثمانية. د على الصلابى ص ٢١٣- ٢١٥.

(٢) انظر رسالة اهل الأندلس بعد استيلاء النصارى عليهــا وتعذيبهم للمسلمين إلى الســلطان بايزيد. المكتبة الوطنية بالجــزائر رقم ١٦٢٠ نقلا عن الدولة العــثمانيــة للدكتــور: على الصلابى مكتبــة العلوم والحكم ص٢٠٩ - ٢١٥، وانظر أيضًا كــتاب النوازل الكبرى فى التاريخ الإســلامى. للدكتور. فتــحى زغروت (محنة المرويسكيين واستنجادهم بالعثمانيين) من ص ٥٠٨ - ٥١٥.

على أن النجاح السريع الذى عرفته الدولة العثمانية فى كل من أوربا وإفريقيا ومدى الانتصارات الحربية التى حققها السلطان سليم وسليمان القانونى على الجيوش الأوربية الحليفة آنذاك، وسقوط عدد من العواصم الأوربية، قد أعطى أبعادا أخرى لهذا الصراع الذى واجهته الدولتان العثمانية والإسبانية والذى اتخذ شكل حرب دينية عقائدية ساعدت على إشعال نار الصراع بين الدولتين. على أن الانتصارات التى حققها العثمانيون والأهمية التى أصبحت عليها إستانبول بعد فتح القسطنطينية، قد شجع عددًا من المهاجرين المسلمين واليهود على الاستقرار بالعاصمة العثمانية.

كان الموريسكيون يتتبعون باهتمام مدى النجاح الذى حققه العثمانيون وكيف دانت لهم كل من سوريا ومصر، وخاصة الجزائر التى أصبحت حصنًا منيعًا يلتجئ إليه المهاجرون الأندلسيون. إن وجود القائد البحرى خير الدين باربروسا باى الجزائر فى العقد الثالث والرابع من القرن السادس عشر ومدى النجاح الذى حققه فى ملاحقة الإسبان بالجزائر ثم تدميره حصن البينون سنة ١٥٢٩م فى تلك الولاية وتشجيعه حركة إنقاذ مسلمى الأندلس. كل هذا قد جعل الإسبانيين يصرون على ملاحقة المسلمين أينما كانوا، وتشديد الحملات عليهم، وإقامة القلاع الحصينة على أرض إفريقيا الشمالية، ومراقبة الحركة البحرية العثمانية، وقطع الطريق للمحاولات المتكررة التى ما فتئ البحارة المغاربة يقومون بها بنجاح لإنقاذ الموريسكيين من الأرض الإسبانية، كما كان هؤلاء يتصلون سراً برجال البحر المسلمين ويمدونهم بالمعلومات اللازمة للقيام بهجماتهم بنجاح.

وقد أظهر قادة إسبانيا خوفهم من اتحاد كلمة الموريسكيين مع العثمانيين فشددوا المراقبة على موانئهم بل ذهبوا بقرار من الملك إلى إنشاء ميليشيا لرد هجمات المغاربة الخطيرة بهدف إنقاذ الأقليات الإسلامية المبثوثة فى عدد من الولايات الإسبانية، وبالفعل كان نشاط خير الدين باربروسا فى هذا المضمار حاسمًا وفعالا، وكان ذلك راجعًا لما يتمتع به من صفات، فهو الذى عرف ببعد نظره وحيويته الفائقة وتمسكه بالأصول الحربية التى اشتهر بها فضلا عن شخصيته القوية وما

تمتعت به من إرادة، وهذا أكسبه احترام أعـدائه وخوفهم منه. إن نجاح حركة خير الدين البـحرية وهجـمـاته الموفقـة على السـواحل الإسبـانية جـعل الموريسكيـين يستنجـدون به لإنقاذهم كأهل بلنسيـة وغرناطة وغيرها وكثـيرًا ما قام قـواد أمثال صالح رايس وإيدين رايس وطبقة رايس بهذه المهمة. ويذكر لنا المؤرخ كاتب شلبى أن خير الدين تمكن خلال سبع سفرات أن يوجه ٣٦ بارجة إلى السواحل الإسبانية لنقل سـبـعين ألف مـوريسكى خـلال سنة ١٥٢٩م، ويدل هذا على مـدى الدور الفعـال الذى قام به خـير الدين لإنقـاذ آلاف من مسلمى الأندلس إلى الـسواحل المغربية[١].

إن نجـاح خيـر الدين فى خلق هيكل دولة قويـة بالجزائر، ثم المسـاندة المعنوية والعسكرية التى كان يلقاها لدى السلطان سليمان القـانونى قد حثه على الاستمرار فى جعل المغرب قاعدة عـثمانية لصد الهجوم الإسبانى، بل إن السيـاسة العثمانية كانت تهدف إلى إشغال جيوش شارل الخامس فى حوض الأبيض المتوسط الغربى، وهذا ما يفسر إقدام خير الدين أثناء رجوعه من إستانبول منذ ١٥٣٤م على احتلال تونس وإعلانها ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية.

أدخل هذا الانتصار الحيرة لدى البابـا، وكذلك الإمبراطور شارل الخامس الذى اعتبر ذلك تهديدًا مـباشرًا للمسيحية ولخطوط مواصـلاته البحرية مع أطراف مملكته من ناحيـة، فضـلاً عن إعانة وتشـجيع البـحارة المغاربـة للهجوم علـى السواحل الإسبانية، ونجدة مسلميها من ناحية أخرى، وبالفعل بذل شارل الخامس جهودًا فى الاستيلاء على تونس وإبعاد خير الدين عنها وقد نجح فى ذلك. غير أن الخطة التى كان يحلم بتحقيـقها ليست الاستيلاء على تونس حيث كـانت أوضاعها الداخلية، واستنجاد مولاى حسن الحفصى بشارل الخامس، قد ساهمت بشكل كبير فى إنجاح الحملة إنما كان جلّ هدفهم هو ضـرب مدينة الجزائر والاستيلاء عليهـا، خصوصًا وأن الشخصيـة القوية (خير الدين) قد دعيت إلى إستانبـول ليصبح قبطان دريا أى

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٣٠.

وزير البحر العثماني، ولم يبقَ للإمبراطورية العثمانية على الساحل المغربي إلا الجزائر، وعليه كان شارل الخامس يخطط للقيام بحملة على الجزائر التي أصبحت قاعدة قوية وحصينة للسلطان سليمان القانوني تجاه السواحل الإسبانية، خصوصًا بعد الأنباء الحزينة التي وصلته من أوربا إثر نجاح جيوش السلطان سليمان في الاستيلاء على مدينة بود وتحويل أكبر كنائسها إلى مسجد. كان هذا الحدث بمثابة إهانة وتهديد للتكتلات المسيحية الأوربية(١).

أصر شارل الخامس إذن على التوجه بأضخم أسطول قام على إشرافه وإحضاره، ويبدو أنه من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة التي ظهرت في القرن السادس عشر، وكان البحارة والجيش خليطًا من مختلف أصقاع الإمبراطورية الإسبانية، وكان هدف الحملة هو الاستيلاء على الجزائر، واجتثاث العثمانيين من البحر الأبيض المتوسط وعزل فرنسا وقطع طريق النجدة إليها عن طريق حلفائها العثمانيين. وكان الإسبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب لأمكنهم إنشاء مملكة على السواحل المغربية، وذلك بهدف قطع الطريق على رسل الموريسكيين إلى إستانبول لطلب النجدة. ومما لا شك فيه أن احتمال قيام العثمانيين بحملة على إسبانيا قد أثيرت آنذاك في بلاط مدريد(٢).

إن إصرار شارل الخامس الشخصي في اختيار زمن الهجوم من ناحية وتجمع كلمة الجزائريين وراء حسن أغا من ناحية أخرى، ثم نزول الأمطار بكثرة وهبوب عواصف مبكرة. كل هذا ألحق بجيش شارل الخامس أكبر هزيمة حربية وبحرية مني بها في حياته وكان ذلك في أواخر شهر أكتوبر ١٥٤١م، على أن نتيجة تلك الحملة كانت بعيدة المدى وذات نتائج محسوسة، حيث أصبحت الجزائر أكثر أمنًا ورخاء وهبطت فيها الأسعار ونعم الناس بالطمأنينة، ولم يبقَ لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، فأثارت رعب المسلمين في قلوب الكفار مدة طويلة.

---

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين مرجع سابق ص٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وقد ترددت أنباء تلك الهزيمة فى إسبانيا وكان وقعها شديدًا على القادة ورجال الدين، إلا أن صداها لدى الموريسكيين قد كان مؤثرًا وبالغًا حيث جعلتهم يتطلعون إلى النجدة من السلطان العثمانى، وبالفعل ففى أقل من شهر فقط من هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين بعث مسلمو الأندلس برسالة إلى السلطان سليمان القانونى، وعلى الرغم من تعدد رسائل الموريسكيين إلى السلاطين العثمانيين، حسب مختلف الروايات التركية والعربية والأوربية إلا أنه قد عثر على نص من هذا القبيل[1]، وإن كان لا يتضح منه الاسم أو الأسماء التى قامت بتحرير تلك الرسالة، وعلى ما يبدو أن السبب فى ذلك هو الخوف من وقوع تلك الرسالة فى يد السلطة الإسبانية التى كانت تحرص دومًا على بث العيون والجواسيس للعثور على مثل هذه الرسائل والمعلومات، وأنها لتكشف عن معلومات ذات أهمية تاريخية، كعدد الموريسكيين الموجودين بالأندلس، وإعطاء صورة حية مؤلمة لما يلقونه من السلطة الإسبانية المسيحية آنذاك ومدى الحيرة التى تمكنت منهم، ثم التأكيد على نشاط خير الدين وما قام به لإنقاذهم، ومطالبة السلطان سليمان القانونى بإعادة تعيينه بيلر باى الجزائر لأنه الشخصية الوحيدة القادرة على إنقاذهم من الهجومات الإسبانية.

وبخصوص عدد المورسكيين بالأندلس تضاربت الإحصائيات تضاربًا كبيرًا خلال القرن السادس عشر وبالنسبة إلى المدن الكبرى كغرناطة آخر معقل للمسلمين وبلنسية وقشتلية وأراجون وغيرها، وقد جاء فى هذه الرسالة ما يلى: «إن عبيدك الفقراء «كذا» الغرباء «كذا» المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رسائلهم بغرناطه خمسون وغيرها بجزيرة الأندلس والباقى من عامة المسلمين. . . .» يتبين لنا أن ذكر هذا الرقم لا يدل قطعًا على إعطاء رقم اعتباطى إجمالى، بل إن ذكر الأربعة آلاف بعد الستين ألفًا توحى بمدى حرص محرر الرسالة ودقة إطلاعه على عدد الموريسكيين، على أننا أخذنا بعين

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٣٢.

الاعتبار إحصائية سكان إسبانيا البالغ عددهم ستة ملايين[١] سنة ١٥٤١م، وهى السنة التى حررت فيها تلك الرسالة فلا نستغرب الرقم الذى قدمته هذه الوثيقة ومما يساعد على تقريب هذا العدد ما قدمه المؤرخ محمد عبد الله عنان من أن سكان غرناطة وحدها بلغ ٤٠٠ ألفًا فى أوائل القرن السادس عشر والمؤرخ شونو ٥٠٠ ألف وأنطونيو بلستيرو ٧٠٠ ألف، ومن جهة أخرى يذكر المؤرخ هنرى لابير أن المسلمين القاطنين سنة ١٦٠٩م بإسبانيا بلغ ٢٩٦ أى حوالى ٣٠٠ ألف وأن الذين غادروا إسبانيا بلغ عددهم ٢٧٥ ألف. ولا بد أن نأخذ بعين الاعتبار الهجرات المتكررة من إسبانيا إلى المغرب لنلمس تأثير ذلك على عدد السكان خلال ثمان وستين سنة وهى المدة الفاصلة بين هذين التاريخين.

يتبين لنا إذن أن رقم ٣٦٤ ألف الذى قدمته هذه الوثيقة يمكن الاعتماد عليه، وأنه اليوم أقربها إلى الصواب والواقع[٢]، وترسم الوثيقة بعد ذلك صورة مؤلمة وحية لما قاساه الموريسكيون فى عهد محاكم التحقيق والقرارات الجائرة التى سلطت عليهم، ولا أدل على ذلك من قراءة نص الرسالة نفسه ليعكس لنا هذا النداء الأليم والمفجع الذى اصطبغت به الكتابات النادرة من الجانب العربى والتى وصلت إلينا عن هذا الموضوع.

وقد تعددت منها نداءات النجدة لملوك المغرب الأقصى، إلا أن التحديات والحملات التى ما فتئت السفن الإسبانية والبرتغالية تشنها على الساحل المغربى لم تدع مجالاً لاتخاذ موقف أكثر فاعلية ونجاعة فى نظر الموريسكيين، على أن ذلك لم يمنع المهاجرين الأندلسيين المرابطين على السواحل المغربية من العمل على نجدة إخوانهم الأندلسيين.

على أن الذى يلفت انتباهنا فى هذه الرسالة هو إطلاع الموريسكيين الدقيق على أحداث وحروب ونتائج وسرعة وصول الأخبار إليهم، إذ بعد شهر من هزيمة شارل الخامس، وعلى الرغم من تحويل بقايا جيشه إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا،

(١) المصدر السابق.

(٢) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلس. للدكتور عبد الجليل التميمى. مرجع سابق. ص٣٣.

وصل إلى علم الموريسكيين خبر فداحة هزيمة عدوهم شارل الخامس أمام الجزائريين واعتبروا ذلك نصرًا من عند الله وقوى أملهم، وهذا ما يفسر تلقائياً تحريرهم هذه الرسالة إلى السلطان سليمان القانونى واستنجادهم به وتذكيره ما قام به خير الدين الذى أنجدهم عندما كان بيلر باى الجزائر.

إن هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين قد أضفت على هاته المدينة مغزى كبيرًا ورمزًا للجهاد والدفاع عن المسلمين باعتبارها: «سياجًا لأهل الإسلام وعذابًا لأهل الكفر والطغيان. . . وأصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة والرعية المؤتلفة بها مؤتلفة أليفة.

ثم نأتى إلى التساؤل الثانى وهو:

- هل أعرض العثمانيون عن مساعدة الموريسكيين؟

ولعل دراسة تلك القضية إذا ما اقترنت بتاريخ الدولة العثمانية تتضح أبعادها وينجلى غموضها من خلال صلة الموريسكيين بالدولة العثمانية.

واذا كانت تركيا الإسلامية فى القرن الثالث عشر هى القوى الوحيدة المشرقية المهيمنة على العالم آنذاك، واتسعت أراضيها لتشمل بقاعًا كثيرة من العالم العربى والإسلامى والأوربى، فلا عجب أن يتطلع مسلمو الأندلس إلى تلك القوة يلتمسون منها العون والغوث، وقد أثبتنا ذلك من خلال السؤال الأول وتم اتصال من هذا القبيل بينهم وبين القادة العثمانيين؟وماذا كان موقف العثمانيين تجاه المسألة الموريسكية آنذاك؟ ثم ماذا كان وزن هذا المشكل على سياستهم العامة بالبحر الأبيض المتوسط وفى أوربا؟

لا شك أنه انطلاقًا من استيلاء العثمانيين على القسطنطينية ومن الانتصارات العسكرية التى حققوها فى أوربا الشرقية، أصبح الأتراك العثمانيون يتمتعون بوزن دينى وعسكرى وسياسى ذى أهمية كبرى تدرك أثره دول حوض البحر المتوسط وخاصة أثناء حكم محمد الفاتح وابنه بايزيد الثانى. وذلك بفضل جيوشهم البرية التى ملأت الأرض وأساطيلهم الضخمة المهيمنة على أعالى البحار.

من هذا المنطلق رأى الموريسكيون أنه لا سبيل لمنجاتهم إلا بطلب النجدة من سلاطين العثمانيين وبخاصة بعدما انقطع الرجاء من دول عدوة المغرب. وقبل سقوط الأندلس بخمس سنين أى عام ١٤٨٧م أرسلت سفارة إلى السلطان العثمانى بايزيد كما قلنا سابقًا هى إلى طابع الرثاء العربى أقرب منها إلى شيء آخر، وفيها يشتكى الأندلسيون من المعاناة التى يتكبدها المسلمون وكيف أن سقوط الإسلام فى إسبانيا أصبح وشيك الوقوع، وقد طلبت الرسالة بعبارات مؤثرة جداً مساعدة الشعوب والملوك المسلمين[1].

إن السلطان بايزيد الذى عرف بالتقوى والتدين قد رد على هذا الاستنجاد بإرسال أسطول عثمانى تحول إلى الشواطئ الإسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذى أصبح بعدئذٍ مصدر الرعب الذى كانت تشعر به الأساطيل المسيحية فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى.

لقد كان رد فعل السلطان بايزيد الثانى لقيامه بمساعدة هؤلاء المستضعفين من مسلمى غرناطة، إنما كان يترجم عن شعور صادق بالقيام بواجب دينى تفرضه رابطة الأخوة فى الدين والتضامن الإسلامى. وقد كانت أخبار هؤلاء الموريسكيين تتناقل عن طريق الحجاج الأندلسيين والمغاربة ورحلاتهم إلى الأماكن المقدسة الإسلامية وقد كانت تلك الأماكن مناسبة للقاءات المسلمين العالمية، ولا شك أن المشكل الموريسيكى والأخبار الموريسكية كانت تتناقل وتناقش وتنتشر عبر العالم الإسلامى، وأننا لا نستغرب على ضوء ذلك أن تعظم سمعة الدولة العثمانية وشهرة أسطولها وقوة جيوشها البرية، ذلك أن الإسلام فى الدولة العثمانية يحتل المكانة الأولى وقد دخل الأتراك منذ العصور الوسطى فى الأعمال الدينية والاقتصادية، ولا غرو فى ذلك فإن مفتى وهران صرح فى رسالة كان قد وجهها إلى مسلمى الأندلس سنة ١٥٠٣م قائلاً: «إنى أدعو المولى سبحانه وتعالى أن يغير

(١) انظر عبد الجليل التميمى. الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين. منشورات الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية. زغوان ١٩٨٩ م. ص١١.

الأحداث لصالح دين الإسلام، وحتى تتمكنوا من عبادة الخالق دون لوم أو خوف، وهذا بفضل التحالف مع الأمراء الأتراك»[١].

وبالفعل فقد أصبحت إستانبول منذ بداية القرن السادس عشر «الأرض الموحدة» بالنسبة إلى المضطهدين سواء أكانوا مسلمين أو يهودًا، وأن الأقلية الموريسكية أخذت فى الازدياد وأصبح بإمكانهم أن يلعبوا دورًا رئيسًا لإحاطة رجال الدولة العثمانيين بالوضع المؤلم والحقائق المذهلة لكل ما يتعلق بالموريسكيين.

كما أن قنصل البندقية ذكر أن عددًا كبيرًا من اللاجئين الموريسكيين يمتهنون الترجمة أو الاستخبارات لفائدة الدولة العثمانية وأنهم يُؤمّنون كل المراسلات تقريبًا، والتى كانت تتم مع الولايات المغربية ومع المدافعين عنهم أينما كانوا وحتى اليهود فقد اتهموا بالجاسوسية والاستخبارات لفائدة العثمانيين[٢].

إن مختلف المعلومات التى كانت تصل إلى مركز الدولة العثمانية عن الموريسكيين ابتداء من النصف الثانى من القرن السادس عشر، تؤكد بصورة لا مجال للشك فيها أن رجال الدولة العثمانية كانوا يراقبون ويتابعون عن كثب معطيات المشكل الموريسيكى، وقد ذكر أحد التجار الألمان المقيمين بإستانبول حوالى سنة ١٥٦٠م أن الشائعات كانت تروج بمركز الخلافة العثمانية حول وجود ٨٠ ألف موريسكى قد التجأوا إلى فاس وأنهم اعتنقوا البروتستانتية بغرض الانتقام من محاكم دواوين التفتيش الإسبانية، ويعتبر هؤلاء اللاجئون مرآة صادقة تدل على عمق المأساة التى يعيشها الموريسكيون على الأرض الإسبانية، وقد أعلن بعضهم أنهم: سوف يلحقون الضرر بالمسيحيين مثلما فعل هؤلاء بالموريسكيين فى إسبانيا[٣]».

إن السلطان العثمانى قد استقبل عددًا من السفارات الجزائرية كان أهمها تلك

---

(١) انظر عبد الجليل التميمى. الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين. منشورات الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية. زغوان ١٩٨٩ م ص١٦، ١٧.

(٢) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٧٩ وما بعدها.

(٣) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٤١.

التى ترأسها العالم أبو العباس بن أحمد بن قاضى والتى أحاط فيها السلطان علمًا بوضعية الولايات المغربية وصراعها مع إسبانيا الكاثوليكية والتى أنزلت بالمجموعة الإسلامية الأندلسية كثيرًا من المحن لتجبرها بالقوة على اعتناق الدين المسيحى. بعد أن قامت بتحويل كل الجوامع إلى كنائس، وكان يساعدها فى ذلك محاكم دواوين التفتيش التى كانت تحرص بإصرار على أن تقضى على الوجود الأخلاقى والحضارى للموريسكيين واليهود والبروتستانت، فى حين كان للمسيحيين بإستانبول على العموم، كنائسهم المحمية من طرف الجيش التركى وإن كان كل فرد منهم حراً فى ممارسة دينه، وقد أثار هذا التسامح أعجاب مختلف الزائرين لإستانبول خلال القرن السادس عشر، وهى الظاهرة التى لا يمكن حدوثها فى هذا الظرف، بإسبانيا.

وعلى ضوء ذلك، فإن نشاط الدولة العثمانية بالبحر الأبيض المتوسط وتجاه المشكل الموريسكى بدأ يأخذ بعدًا جديدًا وأهمية خاصة. فإنه انطلاقًا من سنة ١٥١٩م بعدما ارتبطت ولاية الجزائر بالدولة العثمانية، يمكننا أن نتحسس، على ضوء الأحداث، خلفية الموقف العثمانى وأهدافه وغاياته بالنسبة إلى موقفهم فى القضية الموريسكية.

إن التاريخ العثمانى إبان القرن السادس عشر فى علاقته مع الأوربيين قد تميز بظهور شخصيات كبرى حققت الانتصارات العثمانية، كما أنها ساهمت فى إبقاء التوازن بين الدولة العثمانية والقوى الأوربية مجتمعة وزادت من قدرة العثمانيين على الدفاع والوقوف للمحافظة على التفوق العسكرى العثمانى، ومن أهم هذه الشخصيات القائد البحرى عروج وخير الدين باربروسا وغيرهما وكان يعاونهما فى أعمال البحر ٥٠٠ شخص موريسكى، وقد تضاعف عددهم وكان على علم بميدان العدو وتحركاته وكانوا يجيدون لغته[١].

إن الدور الذى لعبته هذه الأقلية فى إدارة خير الدين. ما زال مجهولا، ويحتاج إلى المزيد من الدراسة. وهو الدور الذى يترجم عن عمق قلقها وحقدها وإصرارها لمساعدة إخوانهم بالأندلس، ويكاد يكون مسلمًا به اليوم، إن خير الدين كان يدرك

(١) المصدر السابق ص١٥.

جيداً الملف الإسباني وحيث يعتبر المشكل الموريسكي أهم قضية فيه، ويرجع الفضل في ذلك إلى هؤلاء اللاجئين الموريسكيين الذين أحاطوا بخير الدين وأخلصوا له تماماً.

إن معرفة خير الدين بالملف الموريسكي بعد ذلك، قد دفعه إلى الاعتقاد بوجوب إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب، وانطلاقاً منها يكون باستطاعته استرجاع الأندلس وإنقاذ الموريسكيين من ربقة الإسبان ومحاكم دواوين التفتيش. ونتيجة لذلك فإن خير الدين بعد أن قضى على قلعة البينون الإسبانية في عرض البحر أمام مدينة الجزائر سنة ١٥٢٩م، استجاب لاستغاثات موريسكي الأندلس مرسلا إليهم في نفس السنة: «ستاً وثلاثين باخرة استطاعت أن تنقذ عشرة آلاف منهم في كل مرة، بحيث إنه خلال سبع رحلات متوالية، أنقذ سبعين ألفًا من عرب الأندلس(١)».

إن النجاح الذي حققه خير الدين قد أكسبه سمعة وهيبة لدى الجزائريين والموريسكيين على حد سواء، أما السلطان سليمان القانوني الذي اتصل بلائحة من الموريسكيين فقد سارع بإرسال فرمان إلى خير الدين يأمره بالتحول إلى إستانبول، للمشورة، وفي الحقيقة كان ثقل السياسة العثمانية في الولايات المغربية، يرتكز على خير الدين في هذه الفترة. وعلى ضوء المقابلة التي تمت، أدرك السلطان جيداً خلفية وأهداف السياسة الإسبانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ووضع الموريسكيين الدقيق ووجوب العمل على تقوية الوجود العثماني في هذا الجانب، وهذا وفقًا للإستراتيجية العسكرية التي يسعى خير الدين شخصياً لإنجازها.

واستجابة لهذه الرؤية الجديدة، اتخذت عدة قرارات منها بناء ٦١ وحدة من وحدات الأسطول في القرن الذهبي بإستانبول «وإن مشاعر عطف السلطان سليمان «لشمال إفريقيا» قد قويت من جديد بفضل سياسته الوفاقية مع فرنسا، وعليه أصبحت سياسة سليمان القانوني ملتزمة حيال الولايات المغربية من أجل الموريسكيين. وقد وجه هؤلاء سنة ١٥٤١م رسالة سوف نعرضها فيما بعد.

---

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ١٦.

ومن جهــة أخرى فإن تقدم الدولة العـثمانية فى أوربا الغـربية، فى هذا الظرف على وجه الخـصوص، والتأثيـر الذى أحدثته على مـصائر الأمراء الأوربيـين، قد أعطى أكثر من أى وقت مـضى، إشعاعًا وهيبـة لهذه الدولة ومنحها وزنًا سيـاسياً وعسكرياً كبيرين. وقد انعكس هذا التأثير على دول الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط. فلا نستغرب بعد ذلك اهتمـام المسئولين العثمانيين للمشكل الموريسكى، وهو اهتمام ظهر على جميع المستويات على النحو التالى:

- التدخل المباشر أحيانًا فى بعض القضايا وذلك واضح فى مراسيم وكتب السلطان العثمانى الى حكام الجزائر وتونس وطرابلس ومراكش.
- تقوية الوجود العثـمانى وذلك بأنشاء وحدات إضافية لـلأسطول العثمانى الذى هيمن على شرق ووسط حوض البحر المتوسط.
- ربط الصـداقة والتـعاون مع الملك ألفـونسو الأول ملك فـرنسا وكـذلك حكام البندقية.
- فتح طرابـلس الغرب والمهدية وجـربة والقيـام باتصالات مع مـسئـولى المغرب الأقصى وتونس للتنسيق مع بعضهم بعضًا فى مواجهة عدو مشترك.

وقد سـاهم هذا النشـاط السيـاسى والحربى فى التـعاون بين مـسلمى الشـمال الإفريقى مـن أجل نصره القضـية الموريسكيـة، وقد نجح أمـراء البحـر المجاهدين وبعض الولاه المنحازين الى الدولة العثمانية فى تحـقيق بعض الانتصارات الجانبية، وإن لم تكن أغلبـهـا انتصـارات قـد وقعت على أرض الأنـدلس وإنما قد قـربت العثمانيين من هدفهم الذى يسعون اليه.

أمـا حكام مـدريـد، فكانوا على علم تام بـعـلاقـات الموريسكيـيـن بالعـالم الإسلامى، وأن أغلب المؤرخين ومدونى الوقائع أو القساوسة وحتى الشعراء، فقد اتهموا الموريسكيين بارتباطهم بالأتراك العثـمانيين، وهذا ما زاد فى تخوفات فيليب الثـانى، خاصـة بعد الشـائعات التى كـانت تروج بكثـرة حول تهـديد الأسطول العثمانى وتدخله فى الثورة الموريسكية بغرناطة.

أما الصدر الأعظم محمد صوفللى الذى عرف بورعه وتقواه، والذى أحيط علمًا بمحن الموريسكيين عن طريق العديد من الرسائل التى وجهت إلى الباب العالى فيبدو أنه كان يخطط للهجوم على إسبانيا لغرض مساعدة موريسكى غرناطة الثائرين وأنه اقترح على السلطان القيام بحملة على إسبانيا بدل قبرص وقد سبق للصدر الأعظم أن أصدر فرمانيين مهمين لمشكل الموريسكيين وهذا يدل على تقدير العثمانيين لهذه القضية.

وقد شوهدت مشاهد كثيرة فى هذه الفترة تؤكد أن الثوار قد تلقوا مددًا وأسلحة وبعض مئات من المتطوعين من الجزائر، فهذا سفير فرنسا (فوركوفوا) فقد أكد فى رسالة إلى (كاترين دومادييسيس) بتاريخ ٦ يناير ١٥٦٩م أنه: «يوجد ما بين ٤٠٠ و٥٠٠ تركيًا صحبة «أمير غرناطة» وقد أرسلوا للجزائر، وحتى يوحى أمير غرناطة بأن عددهم أكثر بكثير من ذلك فقد عمل على ارتداء عدد من العرب البواسل، الزى التركى» ، كما أن المدد قد وصلهم من ملك فاس وحيث تمكن بفضل ثمانية عشر باخرة خفيفة نقل ٤٠٠ عربيًا أو تركيًا وكذلك الذخيرة[1]..».

وموقف الدولة العثمانية سوف يترجم عنه هذا النشاط الحديث لدى ملك المغرب الأقصى لتنسيق عملهما للدفاع عن السواحل ومساعدة اللاجئين الموريسكيين. وكذلك تبادل السفراء المتواصل بين البلدين والذى يترجم للسعى إلى تنسيق المجهودات، وهذا على الرغم من خوف واحتراز كل منهما للآخر، ومع ذلك فإن القضية الموريسكية تبقى المسألة التى اتفق عليها الطرفان، وذلك أن العثمانيين ما فتئوا يطالبون بمساعدة الموريسكيين، كما تؤكده تلك الرسالة التى وجهها السلطان العثمانى إلى ملك فاس بتاريخ شهر سبتمبر ١٥٧٣م.

على أن الاكتشاف بوجود مؤامرة موريسكية فى إشبيلية عام ١٥٨٠م تهدف إلى المساعدة على احتلال إسبانيا انطلاقا من السواحل المغربية، يؤكد ولا شك ظاهرة

---

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص١٨- ٢٠.

التنسيق المشترك لكل ما يتعلق بالمسألة الموريسكية والتى كان يتم بالتعاون مع الإمبراطورية العثمانية[١].

إن العوامل التى أثرت على مصير الموريسكيين كانت متعددة كما يقول الدكتور عبد الجليل التميمى، وأنه من المفيد ذكر عدد كبير من الوسطاء غير المسلمين فرنسيين أو غيرهم، كانوا على اتصال منذ أواخر القرن السادس عشر بالموريسكيين، وذلك أن التدخل الفرنسى لدى الموريسكيين كان حقيقة يعلمها الإسبان وقد قام الجاسوس المزدوج (باسكال دوسانت استاف) بأمر من الملك (هنرى الرابع) (ودوك دولافورس) سنة ١٥٩٩م بالاتصال بالموريسكيين[٢]».

ومن خلال هذه الإستراتيجية السياسية والعسكرية، فإن الولايات المغربية قد خدمت بشكل جذرى الدولة العثمانية فى كل ما يتعلق بالموضوع الموريسيكى خلال القرن السادس عشر، ذلك أنه قبيل الطرد النهائى للموريسكيين فإن الولايات المغربية أصبحت أقل خطراً على إسبانيا نتيجة اختفاء الظاهرة الموريسكية.

أما موقف الدولة العثمانية من عملية الطرد النهائى للموريسكيين سنة ١٦٠٩م فسوف توضحه تلك الرسالة المهمة المرسلة من السلطان العثمانى أحمد الأول إلى دوق البندقية سنة ١٦١٤م، وقد ظهرت من خلالها المساعى السياسية للإمبراطورية العثمانية لدى معظم الدول الأوربية يومئذ، لمساعدة الموريسكيين وتقديم كل عون وتمكينهم من الالتحاق بأرض الدولة العثمانية فى أحسن ظروف الأمن والسلم والطمأنينة.



(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ٢١.

(٢) المرجع السابق ص, ٢١

- لقد اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على كتاب الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين بالأندلس للدكتور عبد الجليل التميمى «بتصرف». منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات زغوان ١٩٨٩م. ومن يرد الاستزادة فليرجع إليه.

ثانيا: أثر الموريسكيين في المغرب العربي

بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس -بل وقبيل السقوط- كانت الهجرة إلى بلد إسلامى تعد فى كثير من الأحوال هى الحل الأنسب، فقد رأى نبلاء غرناطة أن الأمور فى بلدهم تسير من سيئ إلى أسوأ وأن دولة الإسلام منهارة لا محالة، ولم يكن من الممكن آنذاك عمل أى شىء يوقف زحف الملك الكاثوليكى. بدأ الناس فى الهجرة، وكانت لتلك الهجرة -كغيرها من الحركات الكبرى فى التاريخ- ذات نتائج ملموسة، سواء على الذين هاجروا، أو على بعض البلاد التى هاجروا إليها. رحل الأندلسيون إلى تركيا ومصر وشمال إفريقيا وأوربا، بل وأمريكا التى كانت قد تم اكتشافها منذ قليل، لم تكن هجرة الأندلسيين ذات أثر بارز فى بلد كمصر، فالمهاجرون قد استقروا فيها وصاهروا أهلها. وبعد فترة قصيرة لم يعد من الممكن التمييز بين المصرى والأندلسى[1]، ونظن أن الوضع لم يكن يختلف كثيراً فى بقية البلاد الإسلامية مثل تركيا.

لكن الوضع فى شمال إفريقيا كان مختلفًا تمامًا، فقد أقام المهاجرون فى قرى ومدن خاصة، شيدوها على غرار المدن التى جاءوا منها، وظلوا يتحدثون الإسبانية فيما بينهم، ولم يندمجوا فى المجتمعات المغربية التى هاجروا إليها إلا بعد زمن طويل. كان لهجرة الأندلسيين نتائج ملموسة على المغرب العربى، فقد نقل الأندلسيون إلى شمال إفريقيا ثقافتهم الخاصة، بإيجابياتها وسلبياتها، كما سنعرض فيما بعد. كانت إعادة تأسيس مدينة تطوان على يد المنظرى، وهو نبيل غرناطى، هى أولى ثمار الهجرة الأندلسية إلى المغرب، حيث يبرز الطابع الغرناطى الخالص الذى تمتعت به مدينة تطوان عند إعادة تأسيسها. وصل الغرناطيون إلى شمال إفريقيا فأعادوا هيكلة الجهاد البحرى الذى تحول فى بعض الأحيان إلى وسيلة

(١) راجع كتاب عبد الرحيم عبد الرحمن عن الأندلسيين فى مصر من واقع ملفات المحاكم الشرعية، إصدارات مؤسسة التميمى للبحث العلمى- زغوان، تونس.

لكسب العيش. إن الجهاد -بشقيه: البرى والبحرى- قد جعل من تطوان قبلة للمسلمين المضطهدين فى أوربا.

كانت هجرة نبلاء غرناطة المسلمين إلى شمال إفريقيا سببًا فى وضع حد للتوسع البرتغالى على حساب بلاد المغرب العربى، وقد استطاع المغاربة -بمعاونة الغرناطيين المنفيين- تحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه بمفردهم. إن النصر على البرتغال فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م إنما ترجع أسبابه الرئيسية إلى معاونة الأندلسيين الذين وقفوا إلى جانب السلطان المغربى على أن ثمار الوجود الموريسكى فى المغرب لم تقتصر على الجانب الجهادى، ولعلنا نتذكر أن الأندلسيين بالإضافة إلى تقديم المحاربين الشجعان للجيوش المغربية كان من بينهم الوزراء ذوى الرأى، وكان منهم المستشارون والصناع المهرة والجنود والتجار، هذا إلى جانب المسائل الفقهية التى أثارها الوافدون الجدد إلى المغرب، وإلى جهود الأندلسيين أنفسهم فى ترجمة العلوم الدينية. كل ذلك أسهم فى أن يلمع بريق الأندلس فى الشمال المغربى. حيث أظهرت الآثار المعمارية التى خلفها الموريسكيون فى المغرب والتى انعكست -دون شك- على الطراز المعمارى المغربى فيما بعد.

لا نستطيع أن نؤكد أن ترحيب أهل المغرب العربى بأولئك المسلمين المهاجرين كان ترحيبًا بلا تحفظ، فقد كان القادمون الجدد يمثلون -فى نظر البعض- تهديدًا للقمة العيش من ناحية، وكان المغاربة ينظرون إليهم بعين الشك أحيانًا حين يرون أنهم يمارسون إسلامًا مختلفًا فى شكله عن الإسلام الذى عرفه الناس فى المغرب. وعليه فقد تعين على الموريسكيين أن يدافعوا عن أنفسهم ضد سكان البلاد الأصليين وضد البرتغاليين فى آن واحد.

وقد أدى انهماك المسلمين الغرناطيين فى المغرب على توفير متطلبات حياتهم والدفاع عن أنفسهم، ضد البرتغاليين من ناحية وضد سكان البلاد الأصليين من ناحية أخرى- كما قلنا -، إلى نتائج منها اتجاه الوافدين الجدد إلى الجهاد البحرى، ومن هنا أهملوا بقية الأنشطة الاقتصادية كالزراعة والصناعة، كما انحصر النشاط الأدبى فى كتابات دينية ضرورية.

ذكرنا أن الأندلسيين قد نقلوا إلى المغرب الطراز المعمارى للمدن والبيوت التى كانوا يقيمون فيها فى إسبانيا، وهذا أثر إيجابى. لكن الهجرة الموريسكية إلى المغرب وانتشارها فى مدن العدوة المغربية فى إحدى ضفتى المضيق كانت لها أيضًا جوانب سلبية ترتبت عليها.

إن قراءة تاريخ ضفتى مضيق جبل طارق فى القرن السادس عشر يدل على أن تاريخهما لا يمكن فصله، وعليه فإن دراسة تاريخ المغرب العربى - من قبل الباحثين الإسبان- ليست من باب التعرف على الآخر، بل هى ضرورة للتعرف على الذات. ولكن الحقيقة أن ما كتب من خلال تلك الفترة من قبل المؤرخين الإسبان كان قليلاً جداً ونادرا، فإن الموريسكيين لم يجدوا اهتمامًا بالغًا إبان القرن السادس عشر، حتى إن المؤرخين الإسبان إذا ما كتبوا عن هؤلاء الموريسكيين الذين استقروا فى المغرب فأحيانًا يرجعون إلى المصادر العربية كابن الخطيب وابن خلدون، وقد يلجأ بعض المؤرخين إلى الكتابة عن تلك الطائفة من ناحية واحدة معتمدًا إما عن المصادر العربية أو المصادر الإسبانية وحدها، وإذا ما كانت الرؤية الغربية هى السائدة عن تلك الطائفة فهل يعتد بها فى غياب الرواية العربية؟

لقد أصاب اليهود ما أصاب المسلمين من طرد وتشريد على أيدى الإسبان، وكان من الطبيعى أن تنشأ علاقة طيبة بين المسلمين واليهود فى المنفى، فالمجموعتان تربطهما علاقة الوطن المفقود وعلاقة اللغة الإسبانية التى كانوا يتحدثونها. إن الدور البارز الذى لعبه اليهود كتجار ووسطاء فى المفاوضات التى كانت تجرى بين المسلمين والمسيحيين لا بد أن يدرس بعناية. مبلغ علمنا أن عدد اليهود الذين رحلوا إلى المغرب كان ضئيلا إذا ما قورن بأعداد المسلمين الذين اختاروا نفس المكان كوطن بديل. ورغم قلة عدد اليهود إلا أنهم قاموا بدور بالغ الأهمية فى المجال الاقتصادى وفى مجال السياسة فى حوض البحر المتوسط. إن أهمية الأمة لا تكمن فى عددها وإنما فى إيجابية مواطنيها واجتهادهم فى تحقيق أهدافها.

وقد لعب اليهود دورًا بارزًا على الرغم من قلة عددهم ونرى ذلك فى مفاوضات تحرير الأسرى الإسبان، وربما يكون من المناسب أن تخصص دراسة مستقلة للدور الذى لعبه اليهود فى عالمنا العربى الإسلامى بعد طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢م. قام اليهود فى بعض الأحيان بدور بارز فى الترجمة، ولعلهم بذلك عرفوا كثيرًا من الأسرار واستغلوها لصالحهم، وقد عاشوا فى المغرب فى جو من الحرية والتسامح لم يتمتعوا بهما فى إسبانيا الكاثوليكية.

على أن اليهود لم يصلوا إلى المغرب ابتداء من عام ١٤٩٢م حين طردتهم إسبانيا منها، بل تدل الوثائق على تواجدهم فى بلاد المسلمين قبل ذلك التاريخ بكثير وتوليهم مناصب مهمة وإساءتهم إلى من أحسن إليهم. أشير هنا إلى ما يذكره الدكتور عيسى الحريرى- نقلا عن السلاوى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- فى كتابه عن دولة بنى مرين (ص١٨٦) وكيف أن يهودياً تولى الوزارة وكان سببًا رئيسياً فى انهيار دولة بنى مرين:

واضطرم حقد السلطان على رعيته، فسولت له نفسه تعيين اثنين من اليهود هما هارون وشاويل فى منصب الوزارة تأديبًا لرعيته وتشفيًا منهم. وأثار هذا التصرف كافة طوائف الشعب، لأنه تصرف يمس عواطفه الدينية، وفقد السلطان عبد الحق تأييد شعبه خاصة وعامة، ومما أزكى حقد الشعب على السلطان أن الوزيرين اليهوديين شرعا فى «أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال واستبد اليهود بالمدينة وتحكموا فى الأشراف والفقهاء فمن دونهم، وكان اليهودى هارون قد ولى على شرطته رجلا يقال له الحسين لا يألو جهدًا فى العسف واستلاب الأموال، واستمر الحال على ذلك والناس فى شدة»..... واقتربت نهاية السلطان ومعه نهاية الدولة(المرينية)، ففى أحد الأيام قبض الوزير اليهودى على امرأة شريفة من البليدة -من أحياء فاس- «فانحنى عليها بالضرب ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله ﷺ، فحمى اليهودى وكاد يتميز غيظًا من سماع ذكر الرسول ﷺ وأمر بالإبلاغ فى عقابها» وانتشر الخبر فى المدينة فأسرع الناس إلى الاجتماع عند

خطيب مسجد القرويين واتفقوا على خلع السلطان عبد الحق والبيعة للشريف أبى عبد الله الحفيد، وهو محمد بن على عمران الإدريسى من أهل البيت وبايعوه فى السابع عشر من رمضان (٨٦٩هـ/ ١٤٨٥م)، وهكذا انتهت آخر صفحة من صفحات الدولة المرينية بعد أن عاشت فى بلاد المغرب بعطائها السياسى والحضارى الغزير زهاء مائتى عام.

وهكذا نلمس دور الموريسكيين واليهود واضحًا فى البناء الحضارى والثقافى فى المغرب العربى فهم أصحاب حرف فنية وأصحاب معمار حربى ومدنى على مستوى رفيع من الفن ولا يمكن أن ننكر دورهما فى هذا المجال، على الرغم من الصعوبات التى واجهوها من سكان أهل المغرب من حيث التشكك والريب من إسلامهم، حيث كانوا ينظرون إليهم على أنهم السبب فى ضياع ملك المسلمين لتلك المنطقة، ولكن مما يحمد لهم إضافة إلى ما سبق ذكره الجهاد فى سبيل الله حيث ركبوا السفن ومسكوا الأسلحة لمواصلة الجهاد لإنقاذ المسلمين فى الأندلس.



ثالثًا: يهود الدونمة وتآمرهم على الخلافة العثمانية

الدونمة كلمة تركية أطلقها الأتراك على اليهود الذين هاجروا من إسبانيا إلى تركيا بعد اضطهادهم وطردهم والمسلمين على أيدى محاكم التفتيش الإسبانية، وقد فتحت تركيا الإسلامية أبوابها أمام طلائع اليهود التى أخذت تفد إلى مدينة «سالونيك» الواقعة فى ممتلكات الدوله العثمانية آنذاك، وإلى سائر المدن التركية، بعد أن تعرضوا لمخاطر البحر وقراصنته وكادوا يهلكون جوعًا.

والدونمة كلمة تركية مركبة من جزأين: الأول (دو) بمعنى اثنين وهى فارسية الأصل والثانية (نمة) بمعنى نوع، ومعنى الكلمة بجزأيها كما أرادها الأتراك الفرقة القائمة على نوعين من الأصول «النوع اليهودى» و«النوع الإسلامى»[1]، وقد أطلقوها على تلك الفرقة اليهودية التى تظاهر أفرادها بالإسلام وأضمروا اليهودية وعاشوا بين الأتراك بوجهين، وكأنهم يعنون بها المرتد أو الملحد أو الزنديق، ومن ثم صارت لقبًا شائعًا لتلك الجماعة اليهودية التى سكنت منطقة الغرب من آسيا الوسطى والتى ساهمت إسهامًا كبيرًا فى تقويض أركان الخلافة العثمانية.

وظاهرة الازدواجية الدينية عند اليهود ليست بغريبة عليهم، فقد وصفهم بها القرآن فى أكثر من موضع: ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ويقول تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٦].

ولم تسلم الديانات الإلهية من تلك الظاهرة اليهودية وقد اندس نفر منهم إلى الديانة المسيحية الصافية وتظاهروا باعتناقها وهم لا يزالون على كفرهم حتى

(١) حسن ظاظا. الفكر الدينى اليهودى أطواره ومذاهبه، ص٢٦١، ولما كانت هذه التسمية تسيء إليهم قاموا بتعديلها وسموا أنفسهم «المؤمنين» و«الرفاق» و«المجاهدين».

قوضوا أركانها وحرفوا معتقداتها، ولعل يهود «المارانوس» فى البرتغال مثال جيد لتلك الظاهرة، إذ تظاهروا باعتناق المسيحية خوفًا من بطش محاكم التفتيش، وكونوا فرقة تظاهرت بالكاثوليكية، بينما بقيت على دينها اليهودى فى الخفاء. ولحرصهم الشديد على عدم الظهور بالمظهر اليهودى فقد قاموا بتشييد معابدهم على شكل الكنائس، وظهروا فى الحياة العامة بين النصارى بمظهر لا يميزهم عن الكاثوليك بينما هم فى عقائدهم وشعائرهم كانوا يهودًا متعصبين ليهوديتهم(١).

فقد كان نفاقهم ذلك وازدواجيتهم تلك سببًا فى تعنت محاكم التفتيش الإسبانية معهم، إذ إنها همت بطردهم وطلبت منهم الرحيل فورًا أو الموت حرقًا، ولم يخيروهم مثل العرب المسلمين فى الرحيل بدينهم أو البقاء على المسيحية، وذلك لأن الإسبان كانوا يدركون جيدًا أنهم سيختارون البقاء على المسيحية ظاهرًا من أجل البقاء فى إسبانيا والنجاة من ويلات تلك المحاكم. ولما أدرك اليهود أنهم مأخوذون بواحد من الاثنين ولا مفر من ذلك شرعت طلائعهم تفد إلى تركيا الإسلامية التى أحسنت الظن بهم وعاملتهم معاملة كريمة طيبة تسودها روح التسامح، تلك الصفة التى عرف بها سلاطين العثمانيين.

ولكن هؤلاء اليهود على عاداتهم لم يرعوا حرمة المواطنة فى الدولة الإسلامية، بل امتدت أسنانهم لتعض الأيدى التى تفضلت عليهم، فنراهم يتحزبون ويكونون جيبًا منفصلاً عن الدولة وعن نسيجها الاجتماعى، ومع تحزبهم ذلك إلا أنهم تمكنوا بنفاقهم وازدواجيتهم من التغلغل فى الكيان الاجتماعى للدولة العثمانية، فهم أمام المسلمين يصلون ويصومون ويحجون ويتزيون بالزى التركى ويتسمون بالأسماء العربية والإسلامية، أما فيما بينهم فهم يقرءون التلمود والعهد القديم ويرتلون بالعبرية ويأكلون الفطير ويقيمون أعيادهم اليهودية، وإن أسماءهم فى الأوكار عزرا وحاييم وديوره واستير وساراى وشبتاى وقره.

وقد اعترف بهذه الظاهرة «إسحاق بن زفى» رئيس إسرائيل السابق فى كتابه الصادر عام ١٩٥٧م بعنوان «الدونمة» قال فيه:

(١) حسن ظاظا. الفكر الدينى اليهودى أطواره ومذاهبه، مرجع سابق.

(إن يهودًا كثـيرين جداً يعيـشون بين الشعوب بطبـيعتين إحـداهما ظاهرة وهى اعتناق دين الشعب الذين يعيشون فى وسطه اعتناقًا جماعياً وظاهرياً، والثانية باطنة فهى إخلاص عميق لليهودية)(١).

ولعل هذه الظاهرة الخطيرة التى دأب عليها اليهود تجاه الديانات قد آتت أكلها فى تركيـا فى أواخر القرن الثـامن عشر الميلادى، ومـا إن هل القرن التاسع عـشر حتى كـانت جمـاعات الدونمة قـد تغلغلت وتداخلت وتدخلت فى شـئون تركـيا وهيمنت هيمنة كـاملة على جميع مجالات الأنشطة الفكرية والاقتـصادية والتربوية والسيـاسيـة، وكان منهم الوزراء والصـدور العظام والنواب والمدرسون وأصـحاب بيوت المال، وقـد توجت نشاطاتهم بميـلاد جمـاعة (الاتحاد والتـرقى) التى دبرت انقلابًا عسكرياً دونمياً عام ١٩٠٩م من مدينة «سالونيك» مـركز تجمعهم وترساناتها العسكرية ضـد السلطان عبدالحمـيد، وقد انتهى ذلك الانقـلاب بعزله عن سلطنة الدولة العثمانية.

وقـد يتسـاءل المسلم عن مـؤسس تلك الطائفـة وكيـفيـة ظهـورها فى تركـيا الإسلامـية، حتى أصـبح لها مثل ذلك الشـقاق السيـاسى والعسكرى الذى أودى بعرش ذلك السلطان المفترى عليه.

مؤسس الدونمة:

مؤسس تلك الطـائفة هو «شبـتاى صبى» وقـد تنطقها بعـض المراجع «ساباتاى زفى» أو «شـبتـاى ليفى» وهو يهـودى من أصل إسبـانى قد هاجـر آباؤه فى إطار الطلائع المهاجـرة من إسبانيا، وقـد ولد فى مدينة (أزمير) عـام ١٦٢٦م ومات فى ألبانيا عـام ١٦٧٥م وكان أبوه تاجرًا ميسـورًا فأدخله فى مدرسة يهودية تعلم فـيها التوراة والتلمود وتخرج منها وهو ابن الخامسة عشرة، ومارس مهنة التدريس وبرع فى دراسة علم «القـبالة» وأجاد تأويـلات الباطنية والصـوفية وكـان يتميـز بطلاقة

(١) محمد على الزعبى. المـاسونية فى العراء. دار الجيل بيروت ١٩٨٣م نقلا عن جريدة الشـهاب البيروتية. العدد الأول لنيسان ١٩٦٩م.

اللسان وجمال المحيا والتأثير فى محدثيه. وقد وافق ظهور «شبتاى» فى أواسط القرن السابع عشر أن تلقى يهود أوربا أشد أنواع الملاحقة والاضطهاد، الأمر الذى دفعهم إلى البحث عن مخلص يخلصهم من ذلك العنت، فلا عجب أن نراهم يلتفون حول هذا الرجل الذى زعم بأنه المسيح المنتظر والذى سوف يخلصهم من العذاب، ثم يعلن إليهم أن سنة خلاص بنى إسرائيل ستكون عام ١٦٤٧م. ثم قام شبتاى بعدة تنقلات فى البلدان الأوربية والعربية لنشر دعوته حتى بلغ أوج مجده فى عاصمة الدولة العثمانية وأقام مملكة يهودية ولقب بملك الملوك، وقسم العالم إلى ٣٨ قسمًا وعين على كل قسم ملكًا وجعل توقيعه (الابن الوحيد الأول ليهوه)[١].

وإذا كانت الدولة العثمانية قد انزعجت من خطورة تلك الحركة، فإن الدلائل تشير إلى أن تنبيهها قد جاء متأخرًا، وبدون إدراك واعٍ لمرامى ذلك الدونمى الخطير ومخططه الرهيب، وكل ما أهمها من حركته هو إثبات الدليل على نبوته أو إظهار أكذوبته ومعاقبته، بينما الحقيقة التى كان ينبغى عليهم إدراكها أبعد من ذلك، فهم يريدون القضاء على الإسلام فى عقر مملكته وسلخ تركيا من هويتها المسلمة وتحويلها إلى دولة علمانية. وهذا ما حدث فيما بعد على يد (مصطفى كمال أتاتورك) رائد حركة الدونمة فى النصف الأول من القرن العشرين.

وتشير المراجع أنه عندما مثل «صبى» أمام السلطان محمد الرابع وطلب منه أن يثبت دعواه أو يقتل، أدرك ذلك المدعى أنه لا مناص من الموت فأنكر ادعاءه بالمسيح المنتظر وبدهائه اليهودى أظهر رغبته فى الإسلام وذلك ليفتدى جماعته من القتل.

والعجيب أن السلطة الحاكمة آنذاك قد قبلت منه ذلك، والغريب حقاً أن تقوم بتكريمه وتعيينه رئيسًا للآذنين «الحجاب» مكافأة له دون أن تتبصر مرامى الرجل وأهدافه. ثم نراه يتسمى باسم.

---

(١) الفكر الدينى واليهودى مرجع سابق ص١٢٤.

«محمد عزيز أفندى»[١] أمام المسلمين، ويبقى على اتصال دائم مع جماعته. ثم يخطو ليؤمنهم من تعقب السلطات التركية لهم فيطلب من المفتى السماح لهم بدعوة إخوانه اليهود إلى الإسلام، ولما أذن له أمر جميع مريديه بالدخول فى الاسلام فأطاعوه ولبسوا الجبب والعمائم، فكانوا فى الظاهر مسلمين وفى الباطن يهودًا، وبذلك تكون أول فرق الدونمة فى تركيا تتستر بالإسلام لتأخذ مأمنها، بينما تتحرك نحو أهدافها وفق مخطط دس رهيب حتى لا ينكشف أمره، وقد أصدر لأتباعه وثيقة مكونة من (١٨) مادة تنص المادة رقم (١٦) على أنه يجب على اليهود الدونميين تطبيق عادات الأتراك المسلمين بدقة لصرف أنظارهم عنهم، كما أنه يجب ألا يظهر أحد أتباعه تضايقه من صيام رمضان ومن الأضحية، وعليهم أن ينفذوا ذلك بكل دقة أمام مسلمى تركيا. كما تنص المادة رقم (١٧) على عدم مناكحة يهود الدونمة بالمسلمين منعًا باتًا[٢].

تاريخ حركة الدونمة السرى:

تستمد حركة الدونمة فلسفتها من تعاليم مدرسة (الكابالا اليهودية) التى عرفت على امتداد العصور التاريخية ببث الروح الثورية وإنشاء الجمعيات السرية وإثارة الحركات الهدامة فى المجتمعات، «والكابالا» كلمة عبرية معناها «ما يتلقى» وهو نسيج من الفلسفة والتعاليم الروحية والشعوذة والسحر قد تعارف عليها اليهود من القدم. وقد ظهرت تعاليم «الكابالا» واضحة فى المجتمعات الأوربية منذ القرن الثانى عشر عن طرق الجمعيات السرية التى أقامتها اليهود فى تلك المجتمعات مثل جمعية «فرسان المعبد» وجمعية البناء الحر «الماسونية» وما انبثق منها من جمعيات فرعية مثل إخوة الشيطان، وأصحاب القداس الأسود، وشهود يهوه، وجمعية بناى برت «أبناء العهد» وأندية الروتارى والليونز، والشيوعية والبهائية وغيرها[٣].

---

(١) يقول الدكتور حسن ظاظا»: إن اسمه محمد أفندى ولقبه «قافوجى باشا إيطراق» ومعناها خاتم الأعتاب، انظر الفكر الدينى واليهودى ص١٢٦.

(٢) محمد على قطب. يهود الدونمة. دار الأنصار. القاهرة ط أولى ١٩٧٨م.

(٣) انظر داؤود عبد العفو سنقرط. القوى الخفية اليهودية العالمية الماسونية. دار الفرقان. طبعة أولى ١٩٨٣م ص ١٥٩- ١٦٢ وكذلك محمد على الزغبى. حقيقة الماسونية ص٣٢٨- ٣٣٠.

والدونمة أيضًا واحدة من الجمعيات السرية التى أقامها اليهود فى تركيا والتى باشرت نشاطها فى محفل سالونيك الماسونى تحت رعاية قناصل الدول الغربية الذين يتمستعون بنفوذ قوى الدولة العثمانية آنذاك، وقد كانت الدونمة هى الأداة المنفذة لمخططات الصهيونية العالمية فى دولة الخلافة العثمانية، وقد تمكنت من الوصول الى مراكز النفوذ فى الدولة مستترة وراء جمعية الاتحاد والترقى التى أحكمت قبضاتها على مجريات الأمور فى تركيا بعد خلع السلطان عبد الحميد.

ولعل مذكرة السفير البريطانى فى تركيا إلى وزارة الخارجية آنذاك لأكبر دليل على ذلك النفوذ (إن لجنة الاتحاد والترقى تبدو فى تشكيلها الداخلى تحالفًا يهودياً تركياً مزدوجًا، والأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدها اليهود بالعقل المدبر وبالتدبير وبالمال وبالنفوذ الصحفى القوى فى أوربا). وتشير المذكرة أيضا إلى الأسلوب الذى انتهجه يهود الدونمة لإضعاف الدولة العثمانية وتمزيق شملها.

«ولكى يصل اليهود إلى مكان النفوذ فى مراكز النفوذ فى تركيا الفتاة، فإنهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية» وبعث القوميات الوطنية كانت من أكبر معاول الهدم لدولة الخلافة العثمانية، إذ أخذوا ينفخون فى كير العروبة تارة، وفى كير القومية الطورانية تارة أخرى، ويدب الصراع بين أبناء تركيا الفتاة، وبين أنصار العربية الفتاة، وتضيع الفتاتان معًا وترتميان فى أحضان الصهيونية والاستعمار.

فلا عجب إذن أن ترتبط حبال يهود الدونمة فى تركيا بشبكة الصهيونية العالمية وبالقوى الاستعمارية المتطلعة للإجهاز على الدولة العثمانية المترنحة والتى بلغت مرحلة من مراحل الضعف أغرتهم بمضاعفة نشاطهم فى تلك البلاد، وبالفعل استطاعت أن تحقق هدفًا مزدوجًا يصب على اتجاهين:

الأول: لخدمة الصهيونية والمتمثل فى استيطان اليهود فى فلسطين.

الثانى: لخدمة الاستعمار والمقصود منه إضعاف تركيا وتمزيق تركة الرجل المريض كما كانوا يسمونه فى أوربا.

وتشير الوثائق الى تمكن طائفة يهود الدونمة من القيام بهذين الهدفين والعمل

المتواصل من أجلهما فى آن واحد، وقد تمخض نشاطهم داخل تركيا إلى ميلاد حزب تركيا الفتاة والذى كانت أغلب تشكيلاته من يهود الدونمة الماسونيين الذين هيمنوا على مجربات الحياة الاقتصادية والإعلامية، كما أنهم كانوا يشجعون الاتجاهات القومية والعرقية فى تركيا، ولعل مذكرة السفير البريطانى فى تركيا إلى وزارة خارجيته على نشاط أولئك اليهود يعد دليلا قوياً على النفوذ الذى آلت إلى تلك الفئة «إن لجنة الاتحاد والترقى تبدو فى تشكيلها الداخلى تحالفًا يهودياً تركياً مزدوجا، فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدها اليهود بالعقل المدبر المحكم وبالمال وبالنفوذ الصحفى القوى فى أوربا».

وتقول المذكرة أيضًا: «إن اليهود الذين يبدون الآن فى موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلى للدولة يعملون على السيطرة الاقتصادية والصناعية فى تركيا الفتاة، ويبدو أنهم مصممون على ألا يبدأ أى مشروع عام فى العراق دون إسهامهم فيه بل دون سيطرتهم عليه[1]، وتشير الوثيقة أيضًا إلى العراق حيث أشار السلطان عبدالحميد على (هرتزل) أن يتخذ منه مشروعًا استيطانياً لليهود بدلا من فلسطين. وسوف نوضح ذلك فيما بعد.

كما تشير المذكرة السابقة إلى الأسلوب الذى انتهجه اليهود لإضعاف الدولة وتمزيق شملها: «. . . ولكى يصل اليهود إلى مكان النفوذ فى مراكز النفوذ فى تركيا الفتاة فإنهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية، وهذان العنصران يشكلان تزاوجًا قوياً مميزًا ينبغى على كل من يهتمون بالعراق أن يأخذوه فى الاعتبار»[2]. ولم يقتصر نفوذ يهود الدونمة على تركيا فقط وإنما امتد ليأخذ مكانه لدى يهود أوربا حيث أصبح المجمع اليهودى فى الآستانة مركزًا استشارياً يهرع، إليه يهود أوربا للمشورة وإبداء الرأى فى أغلب مشاكله.

وظاهرة انتشار المحافل الماسونية قد بدأت على نطاق واسع منذ القرن الثامن عشر الميلادى حتى شملت أغلب بلدان أوربا الشرقية والغربية وتوثقت أواصر

---

(٢) الوثيقة رقم (٧) ص١٠٩ المجلد الثانى وثائق ونصوص تاريخية. حسن صبرى الخولى. سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين دار المعارف ١٩٧٠م.

(٢) الوثيقة السابقة فى المرجع السابق.

العلاقة بين محفل الآستانة ومحافل إنجلترا وباريس ومدريد ولاهاى، وقد استغلت تلك المحافل فى بادئ الأمر للعمل فى نطاق الأسر الملكية، لقد كانت مطية لتحقيق مطامعها إلى أن وضع الدكتور أندرسون دستورها الأول عام ١٧٢٣م، وكان هذا الدستور يحمل فى طياته الدعوة الى دين يتفق فيه جميع الناس، وبذلك فانه يدعوهم الى نبذ النصرانية الأمر الذى جعل بعض الباحثين يرى ان البناء الحر الذى هو رمز لهذه المحافل انما هى جمعيات هدامة تعمل كمعظم الجمعيات السرية على سحق التعاليم الدينية وبث الدسائس السياسية تحت ستار الإخاء والصداقة والحرية.

وبمرور الزمن تكشفت أهداف البنائيين الأحرار نوعًا ما وإن كان من الصعب استخلاصها، إلا أنه يمكن القول أن نظام هذه المحافل يرتبط بغاية تختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف، وقد تسلطت المحافل الماسونية بأنظمتها على شعوب العالم الأوربى: قادته وزعمائه، ومن الملاحظ أن المحافل الماسونية تلك لم تسلك نظامًا واحدًا فى جميع هذه البلدان، فى الوقت الذى كانت فيه الماسونية تخوض غمار الاضطربات الثورية فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وبلجيكا وإسبانيا والبرتغال وغيرها، إذا بها فى شرق أوربا تخوض غمار الاشتراكية الماركسية تحت إشراف اليهود وتدبيرهم حيث ثبت بما لا يدعو إلى الشك أن الشيوعية اجتاحت جميع المحافل فى تلك البلدان، وأن نظريات ماركس وإنجلز كان يلقنها إخوة البناء الحر لشعوبها وقادتها، كما لوحظ أن الماسونية فى أنحاء أخرى من شرق أوربا قد اتخذت صبغة سياسية قومية كما حدث فى تركيا، فقد أنشى أول محفل ماسونى بها فى سالونيك عام ١٦٨٣م(١)، وهو محفل عريق وأصبح هو الأب الروحى والشرعى لجميع المحافل الماسونية التى انتشرت فى جسم الدولة العثمانية وعلى رأسها محفل الآستانة(٢).

وقد استطاعت هذه المحافل بمساعدة يهود العالم والدول الاستعمارية أن تدس

(١) القوى الخفية العالمية الماسونية. مرجع سابق ص ١٢٩.

(٢) تأسست محافل كثيرة فى الآستانة وأزمير، بعضها تابع للشرق الأعظم الإنجليزى وبعضها للفرنسى وبعضها للإيطالى إلى أن أنشأ «حليم باشا» مجمعًا وطنياً برئاسته، وقد أصبح عدد الماسون الأتراك «المسلمين» عام ١٨٨٢م نحو عشرة آلاف شخص. محمد على الزغبى مرجع سابق.

يهود الدونمة في جميع المراكز الحساسة في كيان الدولة تمهيدًا لاحتوائها، ومن ثم قلب نظامها رأسًا على عقب، فلا غرو أن أصبح منهم جل الوزراء والنواب وقادة الجيوش وكبار الموظفين من خلال مذكرات السلطان عبدالحميد يتبين لنا مدى تسلط يهود الدونمة على الدولة العثمانية وامتلاك صنع القرار. يقول السلطان عبدالحميد: «رأيت خطابًا تسلمه أحمد جلال الدين باشا من على كمال بك في مصر، وغالبًا ما يكون هذا الخطاب بين محفوظات قصر (يلدز) _فيه أسماء ومصادر التمويل. . . » وفي هذا الخطاب أيضًا يذكر أن الدكتور عبدالله جودت والدكتور إسحاق شكوتي والدكتور بهاء الدين شاكر والدكتور ناظم والدكتور إبراهيم تيمو ينتسبون إلى المحافل الفرنسية والإيطالية، حتى إن هذه المحافل أيضًا تسلم عائلتهم الموجودة داخل البلاد النقود يدا بيد، هذا ما كتبه وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات[1].

ومن الدراسة الوثائقية اتضح أن مجموعة هذه الأسماء قد شكلت تنظيمًا سريّاً عرف باسم «الاتحاد والترقي» وكان في بداية الأمر فرعًا لحزب تركيا الفتاة، وقد تشكل هذا التنظيم عام ١٨٨٩م ضد السلطان عبدالحميد بزعامة رجل ماسوني ألباني من هؤلاء الخمسة هو «إبراهيم تيمو» المعروف بأدهم، حيث اتفق مع عدد من طلاب المدرسة الطبية العسكرية في إستنابول على قيام ذلك التنظيم بهدف عزل السلطان عبدالحميد الثاني، وكان منهم إسحاق سكوتي، وشركس محمد رشيد، وعبدالله جودت، وكورديان، وقد باشرت أعمالها في جنيف أولاً عام ١٨٩١م ثم نقلت إلى باريس، وقد ركزوا دعوتهم داخل صفوف الجيش، وقد أنشأ كل من إسحاق سكوتي وعبدالله جودت مجلة «عثمانيلي» في جنيف لتأليب الرأى العام على السلطان عبدالحميد، وخوفًا من تعقب رجالات السلطان عبدالحميد لنشاط هذه الجماعة، فقد أوت إلى أوكار المحافل الماسونية في تركيا لعقد اجتماعتهم بها، كما فتحت السفارات الأجنبية أبوابها داخل تركيا وخارجها لأولئك المتمردين

١- انظر مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة وتحقيق الدكتور محمد حرب عبد الحميد. دار الأنصار القاهرة ١٩٧٨م ص٦.

لحمايتهم وتشجيعهم على معارضة السلطان عبدالحميد علنًا لإسقاطه واستئصال شأفته[١].

ولم يقتصر دور الماسون على هؤلاء الخمسة فهناك شخصيات مؤثرة أخرى كثيرة سنتعرض لها فى حينها، وإنما أود فى هذه العجالة أن أتعرض لمحفل «سلانيك» بالدراسة لما له من ارتباطات دولية غامضة، كما أنه كان أكبر محفل تخرج فيه أعضاء الاتحاد والترقى.

ويقبع محفل سلانيك فى ولاية سلانيك التركية وتتمتع هذه الولاية بمكانة إستراتيجية، فهى تعد من الثغور التجارية المعروفة بتجارتها الواسعة وترتبط بالآستانة بخط سكة حديد وتغشاه سفن الشركات العثمانية والأوربية بالعديد من التجارات المتعددة، وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٠٩م ما يزيد على ٣٤٠ ألف نسمة منهم ثمانون ألفًا من اليهود ومائتا ألف من يهود الدونمة[٢].

ومعنى ذلك أن اليهود كانوا يشكلون الأكثرية العظمى فى تلك الولاية وقد مكنهم غناهم من تمويل الحركات المعادية لحكم السلطان عبدالحميد، وتشير جريدة الفتح إلى تبعية الاتحاديين للمحافل الماسونية التى دعمتهم بالمال للوقوف ضد السلطان عبدالحميد: «إن مسيو ليون قره صو» مدير المصرف المعروف باسم ابن النائب اليهودى فى مجلس «المبعوثان» فى زمن الاتحادين «لوفين قره صو» هو الذى مثل دورًا خطيرًا فى السياسة العثمانية والذى تمكن من تقويض خلافة السلطان عبدالحميد، وعندما اشتدت الحال على الرومللى ورأى أركان جمعية الاتحاد والترقى أن موقفهم بات خطيرًا لجأوا إلى «قره صو أفندى» الثرى اليهودى فساعدهم بأمواله وضمهم إلى المحافل الماسونية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت.. فأخذوا يعقدون فيها اجتماعتهم فى سرية تامة دون أن يتمكن السلطان عبدالحميد من الاطلاع على أسرارهم ومقاومة تدابيرهم، وكان من جراء ذلك أن نجحوا فى مساعيهم وأعلنوا الانقلاب المزعوم»[٣].

(١) حسان على حلاق. موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية. مرجع سابق ص ٢٨٧.

(٢) موقف الدولة العثمانية. مرجع سابق ص ٢٣٥، وانظر أيضًا إسماعيل سرهنك. حقائق الأخبار من دول البحار ج١ طبعة أولى القاهرة ١٨١٤م ص ٤٤٦.

(٣) انظر أنور الجندى الصحافة الإسلامية الجزء الخاص بجريدة الفتح ص١٩٣.

وتشير الوثائق أن السلطان عبدالحميد عندما أدرك خطر المحافل الماسونية فى بلاده أصدر فرمانًا عام ١٨٩٤م بإغلاق جميع المحافل الماسونية فأغلقت جميعها ما عدا محافل سلانيك لم يستطع إغلاقها، وذلك لارتباطها الدولى مع قادة دول أوربا ومحافلها آنذاك. ومن أبرز الأنشطة التى قام بها ذلك المحفل ضد السلطان عبدالحميد:

أولاً: ارتباط كل يهود الدونمة والماسونية فى سلانيك بالصهيونية العالمية التى باتت تخطط للتغلغل فى الأوساط الحاكمة على وجه الخصوص وكسب الطبقة الحاكمة العليا من حكام وقواد ووزراء وأصحاب نفوذ، ومن خطر تلك الحركة أن نشاط الدونمة كاد ينحصر فى الأوساط الحاكمة وليس الأوساط الجماهيرية[١]. وقد أكدت مجلة الشرق فى عددها الصادر فى أغسطس عام ١٩١١م الارتباط العلمى بين الماسونية واليهودية «. . . إن الماسونية تحولت إلى اليهودية أو بالأحرى أن اليهود تميسنوا لإدراك غايتهم الخبيثة»[٢].

ولسنا فى حاجة إلى إثبات نوعية العلاقة التى ربطت بين ماسون سلانيك والقوى الصهيونية العالمية بأدلة جديدة، إلا أنه يمكننا القول باطمئنان أن الحركة الصهيونية استطاعت بتحالفها مع جماعة (الاتحاد والترقى) فى المحفل الماسونى قد تمكنت من بذل نشاط مضاعف لتحقيق المشروع الصهيونى الاستيطانى فى فلسطين، وهذا هو الهدف المباشر لهم، وكان يهود الدونمة الأداة المنفذة لذلك المشروع.

ثانيًا: بذل ماسون سلانيك نشاطًا سياسيًا على الصعيد الأوربى ضد السلطان عبدالحميد الثانى[٣] الذى وحد بين هاتين القوتين بعدائه لهما فى آن واحد، والذى أصبح وجوده فى الحكم حجر عثره فى طريق تحقيق أغراضهم، وبالفعل قد بدأ

(١) عودة بطرس عودة القضية الفلسطينية من واقع العرب ص١٤١.

(٢) من مقال لويس شيخو السر المصون فى شيعة الفرمسون، مجلة الشرق، بيروت، أغسطس١٩١١ نقلا عن كتاب موقف الدولة العثمانية للحركة الصهيونية ص٢٨٦.

(٣) القائد التركى هو جواد رفعت إتلخان، انظر حسان على حلاق موقف الدولة العثمانية مرجع سابق ص٢٨٦، ٢٨٧.

هذا النشاط. ويذكر أحد القادة الأتراك المعاصرين للسلطان عبدالحميد أن القرار رقم ٧٠ للجمعية الماسونية الفرنسية قد نص على تأسيس جمعية سرية باسم «جون ترك» قد باشرت نشاطها من سلانيك وقد ضمت اليهود الأكثر نفوذًا فى أوربا. . ويمكن القول أن فرق الاتحاد والترقى قد ولدت فعلا فى المحفل الماسونى المسمى» ماكدونيا ريزتورا «المؤسس من قبل» قره صوه اليهودى السلانيكى»[١]، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قامت المحافل الأوربية ولا سيما الفرنسية والإيطالية بتأييد فرقة الاتحاد والترقى وتقديم العون المالى والسياسى لأفراد هذه الجماعة لتباشر نشاطها ضد السلطان عبدالحميد داخل تركيا وخارجها[٢].

ويؤكد المؤرخ الصهيونى «kallel» الدعم الأوربى لتلك الطائفة حيث يشير إلى أن أكثر أعضاء جمعية الاتحاد والترقى كانوا من الدونمة وممن عاشوا فى المنفى، وكان هؤلاء تلاميذ السياسة الأوربية والذين كانت تأتيهم المساعدات المالية من الرأسمالية العالمية من فيينا وبودابست وبرلين ولندن وباريس[٣].

ويستطرد السلطان عبدالحميد فى مذكراته فيحدثنا عن الكوارث التى حلت بالدولة فى ذلك الوقت وعن المكائد التى كانت الدول الأوربية الكبرى تدبرها ضدهم بمعاونة يهود الدونمة والماسون طمعًا فى الأسلاب التى تنتظرهم بعد انهيار دولة الإسلام فى تركيا: «وكما استغل الإنجليز غفلة أعضاء تركيا الفتاة عن طريق المحافل الماسونية بدأ الألمان يفعلون هذا مع الفريق الآخر منهم، وعن طريق المحافل الماسونية أيضًا وبهذا الشكل سيطر الألمان على تشكيل تركيا الفتاة فى سلانيك وسيطر الإنجليز على تشكيل تركيا الفتاة فى مناستر[٤] من الحدود اليوغسلافية اليونانية الألبانية، وقد ضمت محفلاً ماسونيًا أرمنيًا يعمل مع جماعة الاتحاد

---

(١) القائد التركى هو جواد رفعت إتلخان انظر حسان على حلاق موقف الدولة العثمانية مرجع سابق ص٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد مرجع سابق. ص٦٠.

(٣) موقف الدولة العثمانية مرجع سابق ص٢٩٧، ٢٩٨.

(٤) مناسر أو مناستير مدينة يوغسلافية.

والترقى ضد السلطان عبدالحميد، وقد نشرت هذه الجمعية مبادئها بين الضباط والجنود، ومن أشهر أعضائها طلعت بك ومدحت بك[١].

ويبدى السلطان عبدالحميد أسفه الشديد لما عرفه عن بعض المسلمين فى حكومته من قواد ووزراء كانوا على اتصال بالدولة الأجنبية للعمل ضده وضد أسرته «كنت أعلم أن السر عسكر عونى باشا قد أخذ من الإنجليز أموالا، وأن رجلا من رجال الدولة يأخذ مالاً من دولة أخرى لا بد أن يكون قد قدم لهم خدمات. ويعنى هذا أيضًا أن خلع المرحوم عمى السلطان عبدالعزيز وتولية السلطان مراد العرش بدله لم يكن حقدًا فقط من حسين عونى باشا ولكنه مرضاة لرغبة دولة أخرى أيضًا»[٢].

ويقول السلطان عبدالحميد الثانى عن مدحت باشا الصدر الأعظم وهو ماسونى من جماعة الاتحاد: (مدحت باشا أيضًا مثل حسين عونى باشا، اتبع سياسة مؤيدة للإنجليز وكان دائمًا يصفح عن ثقته فى الإنجليز) ثم يعقب قائلاً: (لم يهزنى شىء فى حياتى هزاً ضخمًا قدر شخص يرتفع إلى مقام قيادة الجيش أو إلى مقام الصدارة العظمى -رئاسة مركز الوزراء- ويقبل نقودًا من دولة أجنبية)[٣].

ثم يتحدث عن الدور الذى لعبه مدحت باشا لصالح إنجلترا، إذ أوهم السلطان أن الإنجليز والفرنسيين سيؤيدون تركيا فى حربها مع الروس ولكن السلطان عبدالحميد يقف على حقيقة كذبه من خلال رسالة «سالسيبورى» وزير خارجية إنجلترا آنذاك يعتذر فيها عن تقديم العون لهم إذا قبلت تركيا الحرب ضد روسيا.

يقول السلطان عبدالحميد: «إنجلترا كانت دائبة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية وكان مدحت باشا لم يكتفِ بإثارة ما أثاره من مشاكل، فهو من ناحية يريد خلق أزمة فى السراى، ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد فى أتون الحرب.

---

(١) انظر يوسف أصاف. تاريخ سلاطين آل عثمان. تحقيق بسام عبدالوهاب. دار البصائر دمشق. طبعة ثالثة ص١٦٨.

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد مرجع سابق. ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق. ص ٣٩.

أعمال كهذه يمكن أن تؤدى معاذ الله إلى تقويض الدولة من أساسها، وكان الملك العثمانى يهتز من أساسه بناء على هذا كله»[١].

ويقول السلطان عبدالحميد: «كنت أرى أن الصدر الأعظم يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى خاصة جداً به، ولم أعد أحتمل فاستندت إلى صلاحياتى فى القانون الأساسى وعزلته -أى مدحت باشا- من الصدارة العظمى وأبعدته خارج الحدود»[٢].

ثالثًا: النشاط الثالث الذى قام به يهود الدونمة عن طريق محافلهم الماسونية نشر الجاسوسية واستغلال ذوى النفوس الضعيفة من أبناء تركيا وغيرهم لتنفيذ أهدافهم ضد السلطان عبد الحميد. ولم تعدم الدونمة وسائلها فى هذا الصدد فقد نفذت إلى الوزارة التركية نفسها وإلى البيت العثمانى ذاته وهى تمتلك فى سبيل ذلك طابوراً خامسًا من الحانقين على السلطان عبدالحميد، ومن ثم انتشروا فى جميع بلدان العالم داخل تركيا وخارجها يدعمونهم بالمناصب العليا والأموال اللازمة لتحقيق تلك الأهداف.

ولما كان لاتساع ممالك الدولة العثمانية أثره الكبير فى انتشار الجاسوسية لصالح اليهود وحلفائهم من المستعمرين، فقد دأب اليهود على وجه الخصوص على القيام بهذه المهمة، إذ كانوا يحملون جنسيات أمريكية أوأيطالية أو روسية أو فرنسية وغير ذلك، ثم يفدون إلى البلدان الإسلامية بشكل ممثلين دبلوماسيين أو مفاوضين أو فنيين أو ثقافيين أو مستشارين.

وكان أمثال هؤلاء ينتشرون فى السفارات والبعثات الأجنبية ويعملون على استكشاف أسرار البلاد وتسخير من يحدثونهم لخدمة أهدافهم، وتزكية نار الفتنة والعداوة بين الطوائف، ثم يلوذون بالسفارات الأجنبية يحتمون بها.

وخلاصة هذا العرض ليهود الدونمة ونشاطهم ضد السلطان عبد الحميد توضح

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد. مرجع سابق. ص ٤٠، ٤١.
(٢) المرجع السابق. ص ٤٣، ٤٤.

لنا كيف تمكنت تلك الجماعات من أن تتسلط وتهيمن على الدولة العثمانية المسلمة تسلطًا شديدًا، وهيمنة ضاغطة على مجريات الأمور ومـقدراتها كما يتضح إثارتهم للمشاكل وتدبيـرهم المؤمرات التى انتهت بانقلابهم العـسكرى ضد ذلك السلطان، ثم القيام بعزله عام ١٩٠٩م وتولية الاتحاديين والكـماليين للحكومة التركية فى ظل سلاطين عثمانيين ضعفاء كانوا ألعوبة فى أيديهم.

وفى ظل تلك الهيمنة قام الاتحاديون والكماليون بمؤامراتهم الكبرى التى خططوا لها تخطيطًا محكمًا لإسقاط الخلافة لعثمانية نهائيّاً من حياة المسلمين، إذ تبين لهم أن التهجم على الخلافة مباشرة آنذاك قد يثـير عليهم غضبة المسلمين فى كل البلاد الإسلامية، لذا فقد اتجهـوا نحو إلغاء الخلافة تدريجيّاً، ومن ثم اتجـهوا إلى كبرى الدول الاستعمارية آنذاك وهى بريطانيا وبدءوا يتفقون معها على صفقة لبيع الخلافة الإسلامية لإنجلترا نظير معاهدة سرية من شروطها:

١ـ إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيّاً فى تركيا.

٢ـ أن تقطع تركيا كل صلة بالإسلام.

٣ـ أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية فى تركيا.

٤ـ أن يستبدلوا الدستور العثمانى القائم على الإسلام بدستور مدنى بحت(١).

وكان بيع الخلافة العثمانية هى الصـفقة الرابحة التى جنتها بريطانيا من مصطفى كمال أتاتورك، حيث أسقطت الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م وأعلن قيام الجمهورية التركية واستبـدلت العمائم الإسلامية بالقبعات الأوربية، وحلت العلمـانية البغيضة محل النظم الإسـلامية السـمحاء، وقد تصـدر الدستور الجـديد بالعبارة التـالية: (القرآن دسـتور البـداوة) ثم تبلغ ذروة الوقاحـة والتهجم على القـرآن يوم افتـتاح مجلس الشعب أعـقاب إعلان الجمهورية، إذ يقول (أحـد الكماليين): «نحن الآن

(١) محـمد الصـواف: المخططات الاستـعمـارية لمكافحـة الإسلام ص ١٧٤، ويوسف القرضـاوى: الحلول المستوردة ص ١٢٣، والشيخ مصطفى صبرى فى كتابه الأسرار الخفية ص ٢٦٥، ٢٦٦.

فى القرن العشرين ولا نستطيع أن نسير وراء كتاب يبحث فى التين والزيتون»، فصفق له يهود الدونمة مؤيدين قائلين: «سلمنا البلاد لأتاتورك وتركنا الكعبة للعرب»[١].

وهكذا تم إسقاط الخلافة الإسلامية جامعة شمل المسلمين والعرب على أيدى يهود الدونمة التى لم تحسن رد الصنيع إلى أهله، فقد فتح العثمانيون أبواب دولتهم ليكتنفوهم بالرعاية والعطف بدلاً من التشرد والضياع على أيدى الإسبان، ولكنهم للأسف الشديد لم يراعوا حقوق المواطنة فى الدولة الإسلامية وعضت الأيدى التى امتدت إليها بالخير والرحمة، وهكذا شأن اليهود فى كل مكان وزمان.



(١) محمد على الزغبى، الماسونية فى العراء، ص٢٢١، الرجل الصنم، ترجمة عبدالله عبدالرحمن ص١٦٧- ٤٩٣.

رابعًا: الموريسكيون بين الطرد وأمل العودة

توالت النقمات على مسلمى إسبانيا واشتدت وطأة القهر، ففى عام ١٥٧٠م قرر المجلس الملكى الإسبانى تشتيت الموريسكيين وتوزيعهم على قشتالة[١]، وصدر قرار بمصادرة جميع أملاك المهجرين الثابتة، وسمح لهم بنقل أملاكهم المنقولة وقد صدر ذلك القرار إذ اعتقد النصارى الإسبان أن تشتيت الغرناطيين على أنحاء قشتالة هو الحل الأنجع لإدماجهم فى المجتمع النصرانى. وقد حدد القائمون على أمر تهجير المسلمين سبع مراكز للتجمع هى: «غرناطة، وبسطة، ووادى آش، وألمرية، وبيرة، ومالقة، ورندة» وفى كل نقطة تجمع يوجد بها نقاط أخرى ثانوية توزع عليها الأفراد، وقد استمرت المرحلة الأولى من التجمع أسبوعًا كاملا ذاق فيها مسلمو الأندلس أشد صنوف العذاب، فتجمع فى هذه المرحلة ما يقرب من ٤٦ ألف شخص، بينما فر الآخرون إلى الجبال[٢] يعتصمون بها من أجل المقاومة.

ثم ابتدأت مرحلة التهجير الثانية بنقل المهجرين نحو الشمال والغرب فى قوافل تتكون كل واحدة منها من حوالى ١٥٠٠٠ أندلسى و٢٠٠ عسكرى نصرانى، تتبعها عربات تحمل أمتعة المهجرين، وقد عانى هؤلاء المهجرون إذ خاضوا أراضى واسعة مشيًا على الأقدام تحت المطر والثلج أسابيع متواصلة، وقد مات منهم فى الطريق عشرهم تقريبًا ووصل منهم ٢١ ألف إلى البسيط و٦ آلاف إلى طليطلة و٢٢ ألفًا إلى قرطبة و٥٥٠٠ إلى إشبيلية، أما المرحلة الثالثة من التهجير فقد ابتدأت قاسية عنيفة لأن المقصود منها هو تشتيت المسلمين من مراكز الوصول الأساسية إلى مراكز ثانوية.. ثم تبعتها المرحلة الرابعة بتوزيع المهجرين على المدن والقرى الثانوية مراعين أن تكون نسبتهم من السكان أقل ما يمكن، وهكذا تم تشتيت مسلمى إسبانيا ولم يبقَ منهم سوى حوالى ٣٣ ألف شخص يعانون من

(١) محمد عبده حتاملة «التهجير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملك فيليب» عمان الأردن عام ١٩٨٢م
(٢) الصحوة الإسلامية فى الأندلس اليوم، جذورها ومسارها. دكتور على المنتصر الكتانى ص٤٧.

وطأة الجوع والفقر والمرض والبؤس، وقد مات منهم ١٧ ألف شخص تقريبًا، ثم قررت الحكومة تهجير الغرناطيين إلى قشتالة ولم تنته عمليات تهجير مسلمى مملكة غرناطة إلا سنة ١٥٧٤م وقد تم تهجير حوالى ٨٠ ألف غرناطى(١).

وفى شهر فبراير سنة ١٥٧١م صدر مرسوم ملكى بمصادرة أملاك الغرناطيين سواء أكان منهم المجاهدون أو المسالمون وقد شملت تلك الأموال المصادرة المنقول وغير المنقول، وصارت جميعها ملكًا للملك ثم استقطب ما يقرب من خمسين ألف نصرانى مستوطن من الشمال، ووزعت عليهم أملاك الغرناطيين، وعلى ما يبدو أن حركة الاستيطان تلك قد فشلت فشلاً ذريعًا؛ إذ إن هؤلاء المستوطنين الجدد لم تكن لهم دراية بأعمال الزراعة ومن ثم رجع أكثرهم إلى قراهم فى الشمال، كما رجع لغرناطة أيضًا عدد من المهجرين المسلمين وبقى فى غرناطة معظم مسلميها إما متسترين كنصارى أو مختبئين فى الجبال، وقد كان لهؤلاء الآخرين قدرة رائعة على القيام بأعمال فدائية ألقوا بها الرعب فى قلوب رجالات الكنيسة والمستوطنين الجدد والدولة بوجه عام وقد شملت تلك الأعمال كل مقاطعات إسبانيا ولم تستطيع الدولة القضاء على الفدائيين، وحاولت الحكومة الإسبانية القضاء عليها ولكنها فشلت؛ إذ كانت هناك أكثر من فرقة فدائية تعمل بأساليب مختلفة للدفاع عن الإسلام والمسلمين مثل فرق «الزريق» فى قشتالة التى نشرت الرعب فى ألمرية وكذلك فرق «ابن المليح» التى جاهدت فى رندة وحاولت الحكومة عبثًا تهجير الغرناطيين من منطقة الأندلس، ولكنها لم تستطع تنفيذ القرار بل رجع أعداد كبيرة من المهجرين إلى مملكة غرناطة.

وحاولت الحكومة طرد الغرناطيين وقد وجدت معارضة شديدة ولكنها هجرت بعضهم قسرًا إلى مناجم المعدن الرهيبة، حيث كان يتعرض فيها الغرناطيون للموت بسبب أوضاعها السيئة.

والحقيقة أن حركة الجهاد التى قام بها الغرناطيون أزعجت السلطات الإسبانية

---

(١) المرجع السابق ص٤٨.

سواء الحكومة أو الكنيسة وصاروا يخافون من تجمع الأندلسيين وخاصة مسلمى غرناطة عبيدًا أم أحرارًا، فهى تسعى جادة لعدم تجمعهم إذ كانت تخشى من الاتصال الذى كان يتم بين مسلمى أراغون وشمال إفريقيا، هذا من ناحية، كما كانت الحكومة الإسبانية تخشى اتصال الموريسكيين بالدولة العثمانية من ناحية أخرى، لذا كانت تسرع لتشتيتهم كلما اجتمعوا.

ولكن كما يقولون رب ضارة نافعة، وقد أدى نقل مسلمى غرناطة وتشتيتهم فى قشتالة إلى إحياء الروح الإسلامية فى الجاليات الإسلامية المدجنة فى تلك الإمارة؛ إذ تم الاتصال بين أغلب مسلمى إسبانيا وارتفعت الروح المعنوية للمسلمين حين أدركوا روح الفداء وأحسوا بالرباط الأخوى الذى يربطهم جميعًا، بل امتد أملهم إلى ما هو أبعد من ذلك فقد تمنوا إحياء الدولة الإسلامية فى الأندلس؛ كما أذيعت أخبار انتصارات العثمانيين على النصارى وانتشرت الإشاعات هنا وهناك، وفى خضم هذه الأخبار اكتشفت الحكومة الإسبانية مؤامرة تخطط لإنزال متطوعين مغاربة على مصب الوادى الكبير[١]، ويقول الدكتور على المنتصر: إن حركة الجهاد قد نشطت بين المنفيين فى مناطق كثيرة مثل بشترنة وبطليوس وآبدة وأشبيلية، وحاولت الدولة تقييد تلك الحركات والحد منها، وفرضت قوانين تفرض على كل بلدة تسجيل أوصاف المسلمين المنفيين، ثم أصدرت قوانين صارمة لعقوبة كل من يتساهل فى ذلك أو يظهر عليه ارتباطه بالإسلام، كما قررت الكنيسة من ناحية أخرى أخذ جميع أطفال المسلمين لتربيتهم على تعاليمها النصرانية، كما لجأت إلى بيع أعداد منهم كعبيد للنصارى ثم تابع ديوان التفتيش مطاردة المسلمين المنفيين دون هوادة[٢].

وعلى الرغم من تهجير بعض من أهل غرناطة إلا أنه قد انتقلت القيادة الإسلامية إلى مسلمى مملكة أراجون، وقد وجد مسلمو غرناطة من إخوانهم فى أراجون مساندة ومعاونة تدل على أن الإسلام ما زال حيًا أثره وإن أثره فى نفوسهم

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس مرجع سابق.
(٢) المرجع السابق.

صار قوياً حيث اغتنم بعض النصارى حرب غرناطة وهجموا على المسلمين لسلب أموالهم وسبى أبنائهم ونسائهم وبيعهم كعبيد، وخاصة لاجئى غرناطة فكانوا يساقون إلى سوق النخاسة فيجتهد إخوانهم فى أراجون فى شرائهم لتحريرهم[١].

وقد زاد رعب حكومة إسبانيا بعد أن حرر العثمانيون تونس وحلق الوادى من يد الإسبان ١٥٧٤م خوفًا من إنزال قوة عثمانية فى مملكة بلنسية بمساندة المسلمين، وبناء على هذا قرر الملك منع المسلمين من سكنى الشواطئ بمملكة بلنسية فأجلوا عنها إلى المناطق الداخلية.

وظل مسلمو إسبانيا طوال هذه الفترة لهم صلات قوية مع جهات ثلاث معادية لإسبانيا: الدولة العثمانية وهى أكبر قوة إسلامية فى البحر المتوسط، المملكة المغربية وهى الدعم الطبيعى لمسلمى الأندلس عبر التاريخ، وثم الفرنسيون الذين يشاركونهم فى عداوتهم للكاثوليك.

وقد عرفنا سابقًا علاقة مسلمى الأندلس بالدولة العثمانية منذ سقوط غرناطة وقد تزايد أملهم فى نصرتها. وبعد انهيار ثورة غرناطة عام ١٥٧٠م عملت السفن العثمانية على حمل اللاجئين ومن ثم تحول مركز المقاومة الإسلامية إلى بلنسية، وقد شهدت الشواطئ الإسبانية إبان تلك الفترة ما يقرب من ٣٣ حملة، وقد شاعت أخبار تنم عن أن المسلمين يستعدون لثورة شاملة يقوم بها الغرناطيون ويساندهم العثمانيون بإنزال بحرى، ولكن على ما يبدو أن ذلك الأمل لم يتحقق ولم يصل الأسطول العثمانى.

وهكذا تعددت الهجمات الفدائية وتمت تحالفات أكبر ضد إسبانيا بتأييد من فرنسا والعثمانيين ولم يدخل القرن السابع عشر الميلادى حتى وصلت الكنيسة والحكومة الإسبانية إلى يأس تام من تنصير المسلمين، فانهزمت الكنيسة أمام عناد وثبات المسلمين على دينهم وارتعبت الدولة من حركاتهم الفدائية على الرغم من ضعفهم وقلة حيلتهم، ولما أدرك الملك وحكومته قلة حيلته إزاء هؤلاء المجاهدين أخذوا يفكرون فى حل يشفى غليلهم فاقترحوا ثلاثة حلول:

(١) المرجع السابق ص٥٠.

١- جمع الموريسكيين كلهم فى أحياء خاصة بهم.

٢- إفناءهم جميعًا.

٣- طردهم خارج إسبانيا.

وقد ارتاح الجميع للحل الثالث سواء رجال الدولة أو رجال الكنيسة، وابتدأت الفكرة تتبلور فى أذهانهم فأمر الملك بتشكيل لجنة لدراسة وضع الدولة الداخلى والخارجى الناتج عن خطر الموريسكيين، وتوصلت هذه اللجنة إلى توصية للملك بطرد جميع الموريسكيين خارج إسبانيا، ولم يأتِ هذا القرار عشوائيًا إذ تدارست اللجنة مساوئ القرار ومحاسنه، فمن مساوئه انخفاض دخل الملك والنبلاء فى حالة طرد المسلمين؛ وذلك لأن هؤلاء المسلمين هم عمد الاقتصاد سواء فى الزراعة أو التجارة أو الصناعة كما وجدوا لها مساوئ سياسية ودينية ولكن تهون تلك المساوئ إزاء الطرد، فأصدر الملك فى ١٨ من يناير١٥٨٥م أمرًا بطرد جميع الموريسكيين فى ظرف شهرين والحكم بإعدام كل متخلف، واستثنى القرار الأطفال من الطرد وقرر تسليمهم للكنيسة حيث تم تنشئتهم على الدين النصرانى ولكن على ما يبدو تعطل تنفيذ القرار أملا فى تنصير الموريسكيين.

وفى ٣٠ من يناير ١٥٩٩م قرر مجلس الدولة طرد الرجال الذين تفوق أعمارهم على ستين سنة وكذلك النساء، أما الباقون فقد أرسلوا للأشغال الشاقة فوق السفن مدى الحياة، وفيما يخص الأطفال دون ١٥ سنة فيسلمون للكنيسة ثم تتم مصادرة جميع أموالهم، وقد اقترح وزير الملك إعدام الرجال بين ١٥ و٦٠ سنة عوضًا عن طردهم وتقوية جيوش الأعداء بهم، ولكن على ما يبدو لم يطبق شيء من هذا القرار[١].

وبعد سنة كاملة نفذ هذا القرار حيث استند الملك إلى ثلاثة أسباب شجعته على إصدار قرار الطرد، فقد اتهم الموريسكيين بالخيانة لتآمرهم مع فرنسا، والمغرب، وكذلك الدولة العثمانية. وهناك سبب آخر وهو رعب الدولة من تكاثر

---

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص٥٤.

الموريسكيين بالنسبة إلى النصارى. فالمسلمون لا يشربون الخمر ويتزوجون وليس فيهم كهنة ولا رهبان ولا يلتحقون بالجيش ومن ثم فإنهم يتكاثرون بسرعة، ولكن هذه الشائعات كانت خاطئة لأن الثورات التى قام بها المسلمون قد قضت على أغلب شبابهم وأتت على الأخضر واليابس ولم تترك شيئًا يشجع على النسل.

وقد أدرك الملك أن الأوضاع الدولية مناسبة آنذاك لتطبيق قرار الطرد؛ فالمغرب مشغول فى حروبه الدولية، والدولة العثمانية مشغولة مع الصفويين وإنجلترا عقدت معاهدة مع إسبانيا، وفرنسا لن تهاجم إسبانيا بمفردها.

وقد وقع الملك قرار تنفيذ الطرد يوم ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩م واستقر الرأى على طردهم إلى بلاد شمال إفريقيا وإخراجهم جميعًا من مملكة بلنسية رجالا ونساء وأطفالا خلال ثلاثة أيام، يقبض بعدها على كل من تخلف ويقتل كل من قاوم وعلى مسلمى بلنسية المكوث فى بيوتهم انتظار تنفيذ الأمر، ولا يسمح القرار للمطرودين بحمل شيء سوى أموالهم المنقولة التى يستطيعون حملها شخصيًا؛ ويعدم كل من يخبئ ماله أو يتلفه وتسلم باقى الأموال للنبلاء، ويسمح القرار بإبقاء الأطفال الذين يودون البقاء بشرط موافقة أوليائهم ويُبقِى أيضًا الموريسكيين الذين برهنوا على إخلاصهم للنصرانية.

وكان تقبل الموريسكيين لقرار الطرد مختلفًا فمنهم من اعتبره فرجًا من الله، بينما رفض آخرون الخروج وحاولوا الاختفاء وإذا كان بعض المسلمين قد أعدوا أنفسهم للطرد إنقاذًا لدينهم وفق الخيار السابق، إلا أنهم أوذوا كثيرًا؛ إذ صاحبت عمليات الطرد جرائم كثيرة فمنهم من مُنع من بيع منتجاته الزراعية فقد صادرها النصارى وأعطيت للنبلاء؛ ووقفت فى الطرقات عصابات النصارى تسطو على المسلمين وتجردهم مما يحملون من حلى ومال، وللأسف الشديد قد شاركهم الجيش الإسبانى فى النهب والسلب والقتل، ومما ضاعف من مأساة المسلمين قرار الدولة بأن يتحمل الموريسكيون مصاريف ترحيلهم، وليت الأمر قد توقف عند هذا الحد؛ بل أغرق أصحاب السفن وهم النصارى كثيرًا من الموريسكيين فى البحر

للسطو على أمـوالهم، وتحكى المراجع أنه رحل خـلال ثلاثة أشهـر ما يقـرب من ١٢٠ ألف مسـلم، قد رحلوا مـتحملـين تجاوزات النصـارى وسوء المعامـلة فوق السفن[١].

وفى شهر مايـو سنة ١٦١١م صدر قرار قاسٍ ينم عن الحقد الدفـين للمسلمين ويقضى هذا القرار بالقـضاء على المتخلفين من المسلمين فى بلنسـية ولكى يضمنوا سرعة التنفـيذ قدروا جائزة ٦٠ ليرة لكل من يأتـى بمسلم حى، وقد قدر من طرد من بلنسية بحوالى ١٣٠ ألف شخص.

ثم بعـد ذاك قررت الدولة طرد مـسلمى غرناطة ومـرسيـة وجيان وبـاقى مدن الأندلس وقشتالة ومنطقة بطليوس؛ أما منطقة أراجون فإن المسلمين فيها قد أهملوا مزارعهم وأعـمالهم وباعوا ممتلكاتهم ورحلوا بعدما تأكـد لهم رحيل المسلمين فى المناطق الأخرى، ويقدر عدد المطرودين من أراجون القديمة ما يقرب من ٦١ ألفًا، وحكم على كل من يخالف بالأشغال الشاقة فوق السفن لمدة ست سنوات[٢].

وهكذا تم تهجير سائر المسلمين فى شتى ممالك إسـبانيا وقد أحصيت أعداد من طرد من المسلميـن من إسبانيـا فى الحقبة بـين سنتى ١٦٠٩ : ١٦١٤م أى فى مدة خـمس سنوات تقريبًـا مـا يقدر بحـوالى ٣٢٧ ألف شـخص، وقد تحـملوا عنت النصارى ومـصادرة أمـوالهم وحليهم وقـتل الكثيـرين منهم، وقد اسـتقـر معظم المهاجـرين بالمغرب والجـزائر وتونس، وهناك من المهـاجرين من انتقـل إلى البلاد الإسلامية الأخرى عبر فرنسا. ويقدر عدد الأندلسيين الذين دخلوا المغرب فى هذه الفتـرة بحوالى ٦٠ ألف شـخص معظمهم من غـربى الأندلس واستـقر منهم ١٠ آلاف أندلسى فى مـصب وادى أبى رقراق وفى المناطق الشـمالية كمـدينة تطوان وشفشـاون والقصر الكبيـر، وقد عمل هؤلاء المهاجـرون الذين نزلوا مدينة الرباط على تعميرها كما استقرت أعداد منهم فى فاس أيضًا.

---

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص٥٤.

(٢) المرجع السابق ص٥٨، ٥٩.

ويقدر عدد المهاجرين إلى الجزائر بحوالى ٦٥ ألف شخص معظمهم من مملكتى بلنسية وأراجون القديمة، وقد تم تهجيرهم من خلال فرنسا واستقبلتهم السلطات العثمانية أحسن استقبال وكذلك أهالى الجزائر وتلمسان وبجاية، وقد استقر فى تونس ما يقرب من ٥٠ ألف شخص معظمهم جاءوا إليها عن طريق فرنسا، وقد ساهم هؤلاء المهاجرون فى تعمير تونس وخاصة فى المناطق الخالية حيث نهضت الزراعة والمهن الأخرى.

وبصفة عامة فإن عدد المهاجرين إلى الشمال الإفريقى كان يقدر بـ ١٨٠ ألف شخص تقريبًا، وانتقل عدد من الأندلسيين عبر فرنسا وإيطاليا إلى الأراضى العثمانية والمشرق، وقد تدخل السلطان العثمانى أحمد الأول مع حكام فرنسا وبريطانيا وإيطاليا لتسهيل انتقالهم إلى الأراضى التركية فاستقر بعضهم فى البوسنة وبعضهم بسلانيك وآخرون بالقسطنطينية، ومنهم من توجه إلى بلاد الشام واستقروا فى دمشق والساحل اللبنانى، ويقدر عدد المستقرين فى الأراضى العثمانية بصفة عامة ٤٠ ألف أندلسى، وقد هاجر حوالى ١٠ آلاف أندلسى إلى البلدان الأوربية فى أوربا وعلى وجه الخصوص فرنسا وأمريكا .

ويمكننا أن ننهى حديثنا عن قضية طرد الموريسكيين بأنه قد هاجر منهم ما يقرب من ٢٣٠ ألف شخص واستقروا فى البلاد التى سبق ذكرها، بينما مات منهم ٦٥ ألفًا نتيجة ما تحملوه من غرق فى البحار أو قتل فى الطرقات أو أمراض فتاكة أو جوع وفاقة، وقد تمكن ٣٢ ألفًا من مسلمى الأندلس من العودة إليها بعد طردهم(١) .

وهكذا أسدل الستار على صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى عاشها المسلمون فى جنوب غرب أوربا رفعوا فيها راية الإسلام خفاقة بالعزة والكرامة طوال ثمانية قرون، ولكن سنة الله غالبة فى كونه وفى خلقه، وقد وقع مسلمو الأندلس تحت طائلة هذا القانون بعدما تراخوا وتفرق شملهم وتوزعت دولتهم

---

(١) للاستزادة ينظر كتاب الصحوة الإسلامية للدكتور على الكتانى ص ٤٧- ٦٢.

واستبد بهم العدو الإسبانى استبداداً لم نسمع به فى التاريخ، وقهراً للنفس الإنسانية لا تود العين رؤيته، ثم تشتيتًا وطردًا مهينًا حطم كرامة الإنسان تحطيمًا.

فهل لنا نحن المسلمين أن نأخذ العبرة والعظة لنسترشد بذلك التاريخ، وخاصة أنه مازال فى بلاد أوربا حتى اليوم أقليات إسلامية تعيش مع الأوربيين فى دولة واحدة ويحكمهم قانون واحد؟

فهل يمكن لهذه الأقليات أن تعيش معززة الجانب موفورة الكرامة معتزة بدينها وشريعتها بجانب هؤلاء الغربيين؟ ولم لا؟ وهم يشاركون فى صنع حضارة إنسانية واحدة وثقافة واحدة ويساهمون فى بناء المجتمع ونهضته، وهم ليسوا عالة على المجتمعات الغربية التى بدأت تتبرم بالمسلمين فى هذه الأيام ويتناولون الحجة تلو الأخرى للاصطدام بهم فى ساحات القضاء، كقضية الحجاب تارة ومنع النشيطين من أداء أدوارهم السياسية حينًا آخر، بل ذهبوا أبعد من ذلك إذ دأبوا على منع كبار علماء المسلمين من دخول بعض العواصم الأوربية، فهل لنا أن نربط الحاضر بالماضى ونستعيد الذكرى لنفهم الدرس ونأخذ العظة؟!



خامسًا: ماذا خسرت إسبانيا برحيل الموريكسيين؟

تلك هى قصة الموريسكيين أو العرب المتنصرين كما سبق ذكره؛ قصة مؤسية تفيض بألوان الاستشهاد المحزن، ولكن تفيض فى الوقت نفسه بصفحات من الإباء والبسالة والجلد، خليقة بأعظم وأنبل الشعوب. وقد لبثت السياسة البربرية التى اتبعتها إسبانيا النصرانية، واتبعها ديوان التحقيق الإسبانى، إزاء العرب المتنصرين على مر العصور، مثار الإنكار والسخط، يدمغها المفكرون الغربيون، والإسبان أنفسهم، حتى يومنا بأقصى النعوت والأحكام[1].

ويرى المؤرخون المعاصرون، أن العمل الذى تم على أيدى الإسبان بهدف إبادة الموريسكيين، كان ضربة شديدة لعظمة إسبانيا ورخائها؛ ولم تنهض إسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة، بل انحدرت منذ إصدارها قوانين التنصير ومحاكم التفتيش ثم نفى الموريسكيين إلى خارج البلاد، من أوج عظمتها التى سطعت فى عصر شارلكان وفيليب الثانى، إلى غمرة التدهور والانحلال التى ما زلت تلازمها حتى عصرنا.

بل ترجع عوامل هذا الانحلال إلى ما قبل مأساة الموريسكيين ببعيد، أو بعبارة أخرى إلى السياسة التى اتبعتها إسبانيا النصرانية، نحو الأمة الأندلسية، منذ بداية عصر الغلبة والفتح، فى أوائل القرن الثالث عشر. فقد كانت القواعد والولايات الإسلامية الزاهرة، تسقط تباعًا فى يد إسبانيا النصرانية، ولكنها كانت تفقد فى الوقت نفسه أهميتها العمرانية والاقتصادية، إذ كانت العناصر الإسلامية الذكية النشيطة من السكان، تغادرها إلى القواعد الإسلامية الباقية، فرارًا من عسف النصارى، وتغادرها حاملة أموالها وفنونها وصنائعها، تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الاقتصادى. واستمر سيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين، حتى سقطت غرناطة، واحتشدت البقية الباقية من الأمة الأندلسية فى المنطقة الجنوبية، فى بعض

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤١١).

القواعد الأندلسية القديمة، مثل بلنسية ومرسية، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده، جموع غفيرة من المسلمين إلى إفريقية، واستحالت الأمة الأندلسية غير بعيد، إلى شعب مهيض ممزق هو شعب الموريسكيين أو العرب المتنصرين. ومع ذلك فقد لبثت هذه الأقلية الأندلسية المضطهدة، عاملاً خطيرًا فى اقتصاد إسبانيا القومى، وفى ازدهار زراعتها وتجاربها وفنونها وصناعاتها. وكان الموريسكيون يحملون الكثير من تراث الأمة المغلوبة، وإلى نشاطهم ودأبهم، يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التى يملكها السادة الإقطاعيون. فلما اشتد بهم الاضطهاد والعسف، وأخذت يد الإبادة تعمل لتمزيق طوائفهم، وسحق نشاطهم وقتل مواهبهم، ولما اتخذت إسبانيا النصرانية أخيرًا خطواتها الحاسمة بإخراجهم، كانت الضربة القاضية لرخاء إسبانيا ومواردها فانحط الإنتاج الزراعى الذى برع الموريسكيون فيه، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدى الماهرة، وكسدت التجارة التى كان الموريسكيون من أنشط عناصرها، وركدت ريح الصناعة، وعفت كثير من الصناعات التالدة التى كانوا أساتذتها، وغاضت الفنون الرفيعة التى استأثروا بها منذ أيام الدولة الإسلامية. وأحدثت هذه العوامل بمضى الزمن نتائجها المخربة، فتناقص عدد السكان، وانكمشت المدن الكبيرة، وذوى عمرانها، وتضاءلت موارد الخزينة العامة، وشلت جهود الإصلاح والتقدم، ولم يمضِ على إخراج الموريسكيين زهاء قرن، حتى أصبح سكان المملكة الإسبانية كلها ستة ملايين، وكانوا يمثلون فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة أربعة أخماس سكانها، وعم الفقر والخراب مئات المناطق والمدن، وخيم على إسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال[١].

وإذا كان النقد الحديث ينوه بخطورة السياسة التى اتبعتها إسبانيا، فى إبادة الأمة الأندلسية ونفى الموريسكيين، كعامل قوى الأثر فيما أصاب إسبانيا من أسباب الدمار والبؤس والانحطاط، التى لم تبرأ منها حتى عصرنا، فإنه يعتمد فى هذا الرأى على طائفة من النتائج المادية والأدبية، التى ترتبت على (النفى)، وحرمان إسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية، التى كانت تتمتع بها الأمة الأندلسية.

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤١٢).

وقد ظهرت هذه الآثار المخربة، بالأخص فى محيط الزراعة والصناعة، وكان تدهور إيراد الضياع الكبيرة، وإيراد الكنائس والأديرة، دليلا على ما أصاب قوة إسبانيا المنتجة فى الزراعة والصناعة، بسبب نفى طائفة كبيرة، من أنشط طوائف السكان وأغزرهم إنتاجًا. وكان من الحقائق المعروفة أن السكان الإسبان، كانوا يبغضون الأعمال الزراعية والفنية والحرفية، ويعتبرونها أمرًا شائنًا، وأن الإسبانى لا يربى أولاده لمزاولة العمل الشريف، فكان أولئك الذين لا يجدون عملا فى الجيش أو الحكومة، يلتحقون بالكنيسة.

ويبدى المؤرخ الإسبانى الكبير ناباريتى أسفه لوجود أربعة آلاف مدرسة فى عصره (أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر)، يتعلم فيها أبناء الفلاحين، بينما تهجر الحقول، ولأن أولئك الذين لا يجدون منهم عملا فى الكنيسة لنقص تعليمهم، يحترفون التسول أو التشرد أو السرقة. وقد كتب سفراء البندقية منذ القرن السادس عشر إلى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق، ويصفون الإسبان بأنهم زراع وعمال كسالى، يحتقرون العمل اليدوى، حتى إن ما يمكن عمله فى البلاد الأخرى فى شهر، يعمله الإسبان فى أربعة أشهر.

ويردد القول نفسه الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير سلطان المغرب مولاى إسماعيل إلى إسبانيا، وقد زارها فى سنة ١٦٩١م، أعنى بعد النفى بثمانين عامًا؛ إذ يقول فى رحلته: (وبحصول هذه البلاد الهندية (يقصد أمريكا) ومنفعتها وكثرة الأموال التى تجلب منها، صار هذا الجنس الإسبنيولى اليوم أكثر النصارى مالا، وأقواهم مدخولاً، إلا أن الترف والحضارة غلبت عليهم، فقلما تجد أحدًا من هذا الجنس يتاجر أو يسافر للبلدان بقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والإنجليز والفرنسيين والجنويين وأمثالهم، وكذلك الحرفة التى يتداولها السقطة والرعاع وأراذل القوم يتأبى عنها هذا الجنس، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الأجناس المسيحيين).

وقد كان النبلاء والأخيار، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام، يعتمدون فى تعهد أراضيهم وفلاحتها، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم، فلما وقع النفى جمد

النشاط الزراعى، وخلت معظم الضياع من الزراع، وأقفر كثير من القرى، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان، ولاسيما فى منطقة بلنسية، واضطر النبلاء إلى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنية وقطلونية؛ ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ فى غلات الضياع الكبيرة، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الأرضى التى نزعت، وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها وحاق بهم الضيق حتى اضطر العرش إلى منح كثيرين منهم نفقات سنوية من خاصة أمواله، هذا فضلا عما أصاب طوائف السكان الأخرى، التى كانت تتصل بالموريسكيين فى المعاملات والتبادل، من العسر والضيق[1].

وكما انحط دخل الكنائس والأديار، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطرًا كبيرًا من دخله، مما كان يصيبه من مصادرة أموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة، واضطرت الحكومة أن تعول كثيرًا من محاكم التحقيق، التى أوشكت على الإفلاس، من جراء اختفاء الجماعة التى كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء أموالها. وقد بيعت أملاك الموريسكيين وأراضيهم بمبالغ كبيرة، ولكن العرش استولى عليها، ووزع معظمها على أصفيائه من الوزراء والنبلاء والأحبار، ولم ينل ديوان التحقيق سوى جزء يسير منها.

ويقدمون مثلاً لما أصاب إسبانيا من الخراب من جراء (النفى) هو مثل مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية) عاصمة لامنشا، فقد أسس هذه المدينة ألفونسو العالم فى القرن الثالث عشر، ومنح سكانها شروطًا حرة مغرية شجعت كثيرًا من اليهود والمسلمين على النزوح إليها. وفى سنة ١٤٩٢م، حل محلهم الموريسكيون من غرناطة، ولما أخرج منها هؤلاء مع المدجنين القدماء، خربت المدينة وعفا رخاؤها وانحطت زراعتها، وساءت صناعة النسيج التى أنشأها الموريسكيون فيها، وهبط عدد سكانها فى سنة ١٦٢١م إلى ٥٠٦٠ نفسا ونحو ألف أسرة فقط، فى حين أنها كانت تضم من السكان قبل (النفى) اثنتى عشرة ألف أسرة.

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤١٤).

وكان مما ترتب على نفى الموريسكيين أيضًا، ذيوع العملة الفضية الزائفة، وقد تركوا وراءهم منها مقادير عظيمة، وكانت لهم بصنعها براعة خاصة. وأحدث ذيوع النقد الزائف اضطرابًا شديدًا فى المعاملات، وحاولت الحكومة جمعه، والمعاقبة على ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الإعدام، ولكنها لم تفلح فى استئصال الشر، واستمرت هذه الحركة أعوامًا طويلة، وعمد الإسبان بدورهم إلى التزييف، وعوقب كثير منهم أمام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية، وعانى التجار والمتعاملون كثيرًا من الضرر والإرهاق.

ولم تمضِ أعوام قلائل على نفى الموريسكيين، حتى ظهرت هذه الآثار المخربة كلها فى حياة المجتمع الإسبانى بصورة مزعجة، وهال العرش والحكومة ما أصاب الأمة من ضروب البؤس والخراب، وطلب رئيس الحكومة الدوق دى لير ما فى سنة ١٦١٨م، إلى مجلس الدولة، أن ينظر فى هذا الأمر، ويعمل على تحقيقه ومعالجته؛ وقدم مجلس الدولة تقريره بعد عام، وأشير فيه إلى خراب المدن والقرى ولكنه لم يشر إلى نفى الموريسكيين، وإلى عدد رجال الدين وتزييف العملة، وبغض الشعب للعمل الشريف، بل حاول أن يرجع الشر إلى فداحة الضرائب، وإلى الترف الذى تعيش فيه الطبقات الممتازة، وإسراف الملك فى الإغداق على أصفيائه؛ وكذلك اهتم مجلس النواب (الكورتيس) بالأمر وقدم عنه تقريرًا إلى الملك. ومع أن التقارير الحكومية التى وضعت عن هذه المحنة، لم تشر إلى نفى الموريسكيين أيضًا كعامل أساسى فيما أصاب إسبانيا من الخراب والفقر، فقد كان فى القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة. ففى سنة ١٦٢٢م أصدر الملك فيليب الرابع، قرارًا يخفض الضرائب فى بلنسية يشير فيه إلى هجرة السكان، وإلى ما خسرته المدينة من ضروب الدخل، التى كانت تجبى على ما يستهلكه الموريسكيون، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم.

على أن جهود العرش والحكومة، لم تجد شيئًا فى تخفيف هذه الضائقة، التى طافت بالمجتمع الإسبانى، وشملت سائر الطبقات سواء فى الإنتاج أو الاستهلاك.

ومضى وقت طويل قبل أن تستقر الأحوال نوعًا ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التى أصابتها.

يقول الدكتور لى: (إنه لا يمكن لفريق من السكان، كان يعتمد عليه مدى القرون، فى القيام بقسط عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية فى البلاد، أن يمزق فجأة وينبذ، دون أن يبث ذلك الخراب الواسع، ويثير معتركًا من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة).

ثم ينعى على السياسة الإسبانية تخبطها وقصر نظرها فيقول: (وإنه لمن خواص السياسة الإسبانية فى ذلك العصر، أنه لم يفكر أحد فى هذه الشئون، ولم يحتط لها أحد فى المباحثات الطويلة، التى جرت فى قضية الموريسكيين. وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها، والوسائل التى ينفذ بها النفى، وماذا يسمح به للمنفيين، وماذا يكون مصير الأطفال. ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة، واحتقرت التفاصيل العملية، واحتقر رخاء الفرد، وهو ما يوضح فشل السياسة الإسبانية)[1] .

تلك هى النتائج المادية الواضحة، والاقتصادية والاجتماعية، التى جنتها إسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبيتة لإبادة الأمة الأندلسية. فقد لبثت إسبانيا زهاء قرن، تعمل بأقسى وسائل الإرهاق والمطاردة، على استصفاء ما بقى من فلول الأمة الأندلسية، فى الأرض التى بسطت عليها زهاء ثمانية قرون، ظلال الرخاء والأمن، وضوء العلم والعرفان، ولم تطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول، إلى شراذم معذبة مهيضة، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها، أن تبقى عليها، وعلى ما تبقى لها من مواهب وقوى منتجة، ورأت فى سبيل أسطورة من التعصب والجهالة، أن تقضى عليها بالتشريد والنفى النهائى، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مليون من أفضل العناصر العامة. وكان من سوء طالع إسبانيا أن جاء نفى الموريسكيين، فى وقت أخذت فيه عظمة إسبانيا ورخائها، ينحدران

---

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤١٦).

سراعًا إلى الحضيض، وجنح المجتمع الإسبانى إلى حياة الدعة والخمول، وأخذ السكان فى التدهور، فجاء نفى الموريسكيين ضربة جديدة لحيوية إسبانيا، التى أخذت فى التفكك والذبول، وتركت وراءها جرحًا عميقًا لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة. ومن ثم فإنه من الواضح أن يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفى الموريسكيين، ويعتبره عاملاً بعيد المدى فيما أصاب إسبانيا الحديثة، من ضروب التفكك والانحلال .

على أن التفكير الإسبانى يختلف فى قبول هذا الرأى وتقدير مداه؛ ويهاجمه وينكره بالأخص رجال الدين، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخربة، وأكبر العاملين على تنفيذها. وقد استقبل رجال الدين نفى الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى، واعتبروه ذروة النصر الدينى؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا وهو من مؤرخى القرن الماضى، فى كتابه الذى نشره دفاعًا عن هذا الإجراء: (بأن عصر إسبانيا الذهبى بدأ بذهاب الموريسكيين، وأن إسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية ، وأنقذت من مشاغلها الداخلية، وأن النفى كان أعظم حادث بعد بعث المسيح، واعتناق إسبانيا للنصرانية). ويقول حبر آخر: (لقد زعم الموريسكيون أن رخاء إسبانيا قد ذهب منذ أكرهوا على التنصير، ولكن الرخاء قد عم بنفيهم، وازدهرت التجارة، وساد الأمن فى الداخل والخارج). ويقول الحبر بثنتى دى لافونتى فى تاريخه الدينى (إنه من السخرية أن يقال عن نفى الموريسكيين كان سببًا فى انحطاط إسبانيا، فإنه أمة قد تفقد مائة وخمسين ألفًا فى وباء أو حرب أهلية. ثم يتساءل فى تهكم لماذا ينحى على فيليب الثالث هذا اللوم؟ على أنه يعترف مع ذلك بأن النفى كان سببًا فى تدهور دخل الأشراف والكنائس).

ويرى آخرون من الأحبار أن إسبانيا قد دفعت بالنفى ثمنًا باهظًا، ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون إن وفرة الرخاء تذهب بالفضائل، وإنه لا بأس من التقشف مع الإيمان، وإن الفقراء استطاعوا بعد إجلاء الموريسكيين أن يجدوا أعمالاً.

- ولكن حبرًا ومؤرخًا إسبانياً كبيرًا، هو دون لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق، يحدثنا عن وسائل الديوان ونفى الموريسكيين فى قوله: (كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة، تذكى روع الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية، وكانوا بدلا من التعلق بالنصرانية، وهو ما كانت تؤدى إليه معاملتهم بشىء من الإنسانية، يزدادون مقتًا للدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة، وكان هذا سبب الاضطرابات التى أدت فى سنة ١٦٠٩ فى نفى هذا الشعب، وعدده يبلغ المليون يومئذٍ، وهى خسارة فادحة لإسبانيا تضاف إلى خسائرها الفادحة، ففى مائة وتسع وثلاثين سنة انتزع ديوان التحقيق من إسبانيا ثلاثة ملايين، ما بين يهود ومسلمين وموريسكيين).

- ويقول الكردينال ريشليو الفرنسى، وهو من أعظم أحبار الكنيسة فى مذكراته وكان معاصرًا للمأساة: (إنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة ووحشية).

هذا عن الأحبار. وأما عن آراء البحث الإسبانى الحديث، فإنها تختلف فى تقدير آثار نفى الموريسكيين اختلافًا بينًا، بيد أنها تميل على الأغلب إلى الاعتراف بفداحة الآثار المخربة التى أصابت إسبانيا من جرائه، وإلى اعتباره عاملاً قوياً فى تدهور إسبانيا وانحلالها. بيد أنها مع ذلك تحاول الاعتذار عن النفى ويرى البعض أنه كان إجراء طبيعيّاً، وضرورة لا محيص منها، وينكر البعض الآخر أنه كان كارثة أو أنه ترتبت عليه آثار مخربة. وقد رأينا أن نورد هنا طائفة من آراء عدة من أكابر المؤرخين والمفكرين الإسبان المحدثين، وأن نوردها بدقة وإفاضة تسمحان بفهم الروح الإسبانية، إزاء هذا الحدث التاريخى الخطير، وتقديرها على حقيقتها[1].

- يقول دانفشيلا إى كوليادو: (وهكذا تحقق نفى الموريسكيين الإسبان، بغض النظر عن كونهم شبابًا أو شيوخًا صالحين، أو عقماء، مذنبين أو أبرياء. وكانت مسألة الوحدة السياسية تحمل فى ثنيتها ضرورة الوحدة الدينية؛ وضع خطتها

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤١٨).

الملكان الكاثوليكيان، وحاول تحقيقها الإمبراطور كارلوس الخامس (شارلكان) وفيليب الثانى، ولكنهما ارتدا خشية من عواقبها. أما فيليب الثالث، فكان يزاول سلطانه على أيدى أصفيائه، ولذا وجد سلطة العرش الدينية والسياسية أيسر وأهون. وكانت الحرب الدينية تضطرم ضد الجنس الأندلسى، وقد ألفت عواطف الروح الرقيقة نفسها، وجهًا لوجه أمام المسألة السياسية. ودخلت الإنسانية والدين فى صراع وخرج الدين ظافرًا وفقدت إسبانيا، واغتبطت الأمة إذ أضحت واحدة فى جميع مشاعرها العظيمة. و كان الموريسكيون شديدى المراس وكان الوطن ينشد وحدة معنوية، تعد متممة للوحدة السياسية، التى تحققت باندماج سائر العروش فى شبه الجزيرة، وكان عنصر تناقض قوى، كالذى تمثله طائفة الموريسكيين، لا يكون فقط عقبة شديدة يصعب تذليلها، ولكنه كان استحالة مطلقه، تحول دون تحقيق الغاية، التى تتجه إليها الحركة العامة للفكر القومى. وكانت الصعوبة كلها تجثم فى الدين ولم تكن اللغة التى تبدو خاصة قومية أخرى، تكون يومئذٍ أو فى أى وقت عقبة بمثل هذه الخطورة، ففى شمال إسبانيا، وفى شرقها، توجد اللهجات المختلفة، من الجليقية والقطلونية والميورقية والبلنسية وغيرها. وكذلك يوجد مثل هذا التباين فى التنظيمات القضائية، والثبات والعادات الخاصة بكل منطقة، ولكن ذلك لم يكن عقبة كأداء فى سبيل وحدة الدين، والروح القومى، ولم يخلق مثل المعضلة الدائمة، التى خلقها الدين بالنسبة إلى الموريسكيين، والتى جعلتهم فى حالة دائمة من التربص والتوجس. إن ما بذله كارلوس الخامس وفيليب الثانى، لإخضاع الموريسكيين للنصرانية، أمر لا يمكن وصفه، ولكن جهودهم كلها ذهبت عبثًا ذلك أنه بعد ثلاثة قرون من الخضوع، لبث الموريسكيون فى عصر فيليب الثالث، يضطرمون بنفس الروح المتمردة، التى كانت لأسلافهم الذين أخضعوا بالسيف، وقد ارتضوا حالتهم كمحنة مؤقتة عابرة، ولم ينبذوا الأمل قط، ولم يتركوا الوسائل التى يعتقدون أنها تمكنهم ذات يوم من الأخذ بالثأر، واسترداد استقلالهم وسيادتهم .

ثم يقول: (وإنهـا لخرافة أن يقال إن الموريسكيـين كانوا عنصرًا مفـيدًا فى إنتاج إسبانيا، ولو أنهم كذلك لحملوا الرخاء على بلاد المغرب حيث ذهبوا).

- ويقول المؤرخ الكبـير مودستـو لافونتى، والذى يذهب فى الصراحـة وتقدير الحقائق المنزهة إلى أبعد حـد: (وعلى أى حال فإن مراسيم فيليب الثـالث الشهيرة ضد الموريسكيين، قد جردت إسبانيا - وقد كانت يومئذ جدبًا مقفرة - من السكان بسبب الإدارة السيئـة والحروب المستمرة - من طائفة كبـيرة من السكان، أو بعبارة أخرى من السكان الزراعيين والتجاريين والصناعيين، من السكان المنتجين، أولئك الذين يساهمون بأكبر قسط فى الضـرائب. وكان أقل ما فى الوقت التى كانت فيه المملكة تعـانى من قلة النقد، فـكان نقص الذهب الفجـائى على هذا النحـو أشد وطأة عليها. وكذلك وقع ضرر أفدح بذيوع النقد الزائف أو المنقوص، الذى روجه المنفيون بـسوء قصد قبل رحـيلهم. وأسوأ ما فى ذلك كله، هو أنه فقـد برحيلهم العنصر العامل الذكى المتمرس فى الفنون النافعة. وهم قد بدءوا بالزراعة، وزراعة السكر والقطن والحبوب، التـى كان لهم فى إنتاجها التـفوق الجم، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السـواقى والقنوات، وتوزيع المياه بواسطة هذه الـشرايين توزيعًـا مناسبًـا، كان له أثره فى الإنتـاج العظيم الذى امـتازت به مـروج بلنسيـة وغرناطة؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر وصنع الورق والجلود المدبوغة، وهى صناعات برع الموريسكيون فيها أيما براعة، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية، وهى حـرف كان الإسـبـان لكسلهم وتكبـرهم يحـتقـرونهـا، ومن ثم فقـد احـتكرها الموريسكيـون واختـصـوا بها. وقـد عانى كل شيء مـن نقص فى السواعـد وفى البراعة، وهو نقص جـعلت المفاجأة من المستحيل تداركـه، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظًا بطيئًا صعبًا)[١] .

ويقول نفس المؤرخ البلنسى الـذى شهد النفى، وكتب عـقب إتمامه: (أنه ترتب على ذلك أن بلنسـية، وهى حـديقة إسـبانيـا الغناء، استـحالت إلـى قفـر جاف

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤٢٠).

موحش. وحدث هنالك كما حدث فى قشتالة، وفى باقى البلاد، أن بدا شبح الجوع الداهم؛ وبالرغم من أنه قد جىء بسكان جدد إلى الأماكن التى هجرها الموريسكيون، لكى يتدربوا على العمل فى الحقول والمصانع والمعامل، إلى جانب أولئك القلائل الذين ارتضوا البقاء (وهو اعتراف مخجل بلا ريب) على أن مثل هذا التمرن لم يؤتِ نتائجه السريعة، والتدرب والدأب ليسا من الفضائل التى ترتجل، ولم يكن من السهل أن يعوض مثل هذا الجنس من البشر، وهو الذى استطاع بعبقريته، ومركزه الخاص فى البلاد، ووفرة براعته، وجلده، أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة، واستغلالها لسائر مبتكراته. وهكذا حل مكان ضجيج القرى، والصمت الموحش فى الأماكن المهجورة، وبدلا من السيل المستمر من العمال والصناع فى الطرق. وإذا كان ثمة بعض السادة الإقطاعيين قد غنموا من تراث المنفيين، فقد كان عدد الذين خسروا أعظم بكثير، وبلغ الأمر بالبعض أن طلبوا نفقات للطعام. أما الذين غنموا، فقد كانوا بلا شك هم الدوق دى ليرما وأسرته، وقد استولوا على نصيب مما تحصل من بيع منازل الموريسكيين.

(ومن ثم فقد اعتبروا نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية، بالنسبة إلى إسبانيا أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره. وإنه لايمكن أن نغض الطرف عن المبالغة التى دفعت بأحد الساسة الأجانب، وهو الكردينال ريشليو، أن يسميه (أعرق إجراء فى الجراة والبربرية مما عرفه التاريخ فى أى عصر سابق).

والحق أن الصدع الذى أصاب ثروة إسبانيا العامة من جرائه، كان من الفداحة بحيث إنه ليس من المبالغة أن نقول عنه لم يبرأ حتى عصرنا.

(فأما من الناحية الدينية، فقد كان هذا الإجراء، ثمرة الأفكار التى سادت فى إسبانيا قبل ذلك بقرون، وثمرة البغض التقليدى المتأصل، الذى يكنه الشعب لغالبيه أعدائه الألداء القدماء. وليس مما يمكن إنكاره، أنه كان مؤيدًا لفكرة الوحدة الدينية، التى دأب على العمل لتحقيقها وإكمالها الملوك الإسبان والشعب الإسبانى. . . بيد أنا لا نعتقد أنه كان من البراعة (ما عدا اعتباره صراعًا مقررًا هو

من خصائص العصور الوسطى) أن نصل إلى الوحدة الدينية بطريق إفناء أولئك الذين يعتنقون عقائد أخرى. وقد كانت البراعة أن نعمل على اجتذاب المخالفين المعاندين، بالتعاليم والإقناع، والحزم، والرفق، وتفوق الحضارة. وأما كونه إجراء سياسياً قصد به إلى تحقيق سلامة الدولة وسلامها، فقد كان ممكنًا أن نبرز اتخاذه لو كانت المؤامرات حقيقية وخطيرة، وكانت الخطط شنيعة، وكانت الوسائل قوية، والخطر داهمًا، وذلك كما افترض الوزير المقرب، والأسقف ربيرا والنصحاء الآخرون. أجل لم يك ثمة شك فى أنه كانت هنالك مكاتبات وعلائق ومشاريع معادية لإسبانيا، بين بعض الموريسكيين البلنسيين وبين المغاربة والترك، بل بينهم وبين بعض الفرنسيين. بيد أننا لم نقتنع بأن هذه الخطط كانت من الجسامة والخطر بمثل ما كان يصورها أنصار النفى، ولم نقتنع بأن النصارى المحدثين فى بلنسية كان لهم من القوة ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شان، كما أنه لم يكن ثمة ما يثير المخاوف من جانب الموريسكيين فى أراجون وفى مرسية، مثلما زعمت الوفود التى أتت من هذين الإقليمين، وكذلك لم يكن الموريسكيون فى قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرون عليه. وعلى أى حال فإنه متى ذكرنا، أننا بعد مضى أكثر من قرن على قهر الموريسكيين وإخضاعهم لقوانين المملكة، وتفريقهم ومزجهم بالإسبان والنصارى، لم نوفق إلى تأليفهم فى العادات والعقائد، أو أن ندمج بقية الأمة المغلوبة فى الكتلة الكبرى للأمة الغالبة، ولم نوفق إلى جعلهم نصارى وإسبانيين، ثم لجأنا بلا ضرورة إلى وسيلة إفناء جيل برمته، متى ذكرنا ذلك فإنا لا نستطيع أن ننظر بعطف إلى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه ولا إلى حزمهم أو سياستهم).

- ويقول فلورثيو خانير، وهو يحذو حذو لافونتى فى تقديره وتعليله، وينقل بعض أقواله: (ومع ذلك، فإنه لمصلحة الدين، والسلام الداخلى، وسلامة الدولة قد وقع الإغضاء عن المزايا التى كان يسبغها الموريسكيون على الصناعة والتجارة والزراعة، بل وعلى ثروة الأمة الإسبانية كلها، وذلك حينما أخرج بواسطة مراسيم فيليب الثالث آلافًا من الصناع الموريسكيين، يحملون معهم بذور الحضارة

والحرث. وقد قـال كامبومـانس الشهير: (إن بدء تـدهور صناعاتنا يرجع إلى سنة ١٦٠٩م، حينما بدئ بنفى الموريسكيين. فمن ذلك الحين، تبدأ مع خراب المصانع صيحات الأمة المتـوالية؛ وعبثًا يحاول ساستنا أن ينسبـوا بؤس القرن السابع عشر، إلى أسـباب أخـرى، فهى وإن كـانت جزئيـة، لا يمكن أن تضـارع ضربة بهـذه المفاجـأة، وهى ضربة لم تستطيع الأمة حـتى اليوم أن تنهض من عثـارها). ولقد أحدثت مزاولة العرب للمـهن الفنية فى الإسبان أثرين سيئـين، الأول أنهم اعتبروا هذه المهن من الأمور الشائنة، والثانى أنـهم لم يتعلموا شيئًا منها حتى لا يتـشبهوا بأولئك الذين يزاولونها. وهم قد بدءوا بالزراعـة وزراعة السكر والقطن والحبوب، التى كان للموريسكيين فى إنتاجـها التفوق الجم، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السواقى والقنوات، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعًا مناسبًا، كان له أثره فى الإنتاج الـعظيم الذى امتازت به مـروج بلنسيـة وغرناطة الخصـبة؛ ثم تابعوا بنسج الأصـواف والحرائر، وصنع الورق والجلود المدبوغـة، وهى صناعات برع فيها الموريسكيون أيما براعة، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية وهى حرف كان الإسبـان لكسلهم وتكبرهم يحـتقرون مـزاولتها؛ ومن ثم فـقد كـان الموريسكيون يحـتكرونهـا، وقـد وقع من جـراء ذلك نـقص فى الأيدى وفى المهـارة كـان من المستحيل ملؤه فى الحال، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظًا صعبًا. وقد بلغ النقص فى الأنفس، وفقًا للدراسات التى قمنا بها لنتائج الحادث على الأقل نحو مليون. ثم يأتى بعد ذلك نقص العملة الذهبـية، بسبب الكميات الكبيرة الـتى حملوها معهم من الدوقيات، وأخيـرًا يأتى ذيوع النقد الزائف أو ناقص الوزن وهو الذى ملئوا به المملكة قبل نزوحـهم منها، على أن الضرر الفادح الذى لم يعـوض لسنين بعيدة، هو بلا ريب ما أصاب الزراعة والصناعة والتجارة فى كل مكان، وحل مكان المرح الصاخب القـرى العامـرة، الصمت الموحش فى الأمكنة المهـجورة؛ وبدلا من أن ترى أمامك العمال والصناع، فإنك تغامر بأن تقابل قطاع الطرق يملئونها ويبحثون فى أطلال القرى المهجورة. ولئن كان ثمـة فريق من السادة الملاك الذين أفادوا من تراث المنفيـين، فقد كـان ثمة عدد أكبـر بكثير ممن خـسروا، وانتهى بعـضهم إلى

الموقف المؤلم، بأن يلتمسوا من الحكومة نفقة لإطعامهم، ولم يك بينهم أحد قط ممن غنم كما غنم الدو دى ليرما وأسرته، وقد استولوا على جزء من أثمان بيع منازل الموريسكيين، بلغ نحو خمسة ملايين ونصف ريال.

(وإذن فقد كان نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية، يعتبر بالنسبة إلى إسبانيا، أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره. وإنه لايمكن أن نتسامح فى المبالغة التى يصفه بها سياسى أجنبى هو الكردينال ريشليو، حيث يصفه بأنه (أعرق إجراء فى الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ فى أى عصر سابق) والحق أن الصدع الذى منيت به ثروة إسبانيا العامة من جرائه، كان من الفداحة بحيث إنه ليس من المبالغة أن تقول إنه لم يبرأ حتى يومنا). بيد أن خانير مع ذلك يقول إن النفى كان ضرورة دينية وسياسية، وإن الوحدة الدينية، تغدو اليوم أسطع جوهرة للأمة الإسبانية.

- ويعلق المؤرخ الاجتماعى بكاتوسى، فى الفصل الذى عقده عن (بؤس إسبانيا العالم) فى كتابه عن (عظمة إسبانيا وانحلالها) على نفى الموريسكيين بما يأتى: (كان نفى الموريسكيين من أفدح المصائب التى نزلت بإسبانيا. أجل لقد وجد أيام الملكين الكاثوليكيين بعض المتعصبين الذين كانوا يقترحون هذا النفى ويعملون له. ولكنهم وجدوا عقبة كأداة فى معارضة الملكة إيزابيلا. وفى سنة ١٥٢٩م بذل أسقف إشبيلية جهوداً مضاعفة فى هذا السبيل، وكذا طوال حكم فيليب الثانى، كان هذا الموضوع يثار من وقت إلى آخر. ولكن أمكن فقط فى عصر فيليب الثالث المحزن، أن يرتكب هذا الخطأ الفادح. (والمسئولية الكبرى التى تقع على عاتق هذا الملك، وعلى نصائحه وأسلافه، تتلخص فى أنهم لم يحملوا مصالح الموريسكيين المادية، فيمهدوا لتلك الطائفة العاملة، سبل الحياة المستقرة الهادئة؛ ولم يكن لهم من القوة أو الكياسة أو الحزم ما يمكنهم من إخضاع هذه الطائفة المتمردة، التى عاشت فى إسبانيا فى أوقات كانت فيها الأحقاد فى أوج اضطرابهما بين الغالبين والمغلوبين. ولقد أثار الإسراف فى فرض الضرائب ونحس العمال، والاضطهاد الدينى، ومساوئ ديوان التحقيق، هذه الأرواح التى قابلت

حكومة ضعيـفة التدبير، حتى إنه أضحى من المحتوم أن يتـخذ هذا الإجراء الشاذ المتطرف)[١].

ولقد قام بعض المؤرخين ببحوث مدهشة لتقدير عدد المنفيين، ونحن لا نجاريهم فى ذلك، إذ يبدو لنا العدد أمـرًا لا أهمية له. وسواء أكان المنفيـون كثرة أو قلة، فقد كانوا هم الوحيدين الذين يعملون، وقد أحدث خروجهم من المملكة اضطرابًا خطيرًا.

بمثل هذه العوامل، وصل البؤس الداخلى فى المملكة إلى حد لا يمكن تصوره، ولا تمكن مقارنته، هذا بينما كان البلاط يغرق فى الحفلات الشائقة، وينسب لفيليب الثالث ما كان يمكن صدوره من فيليب الثانى أو كارلوس الخامس.

- ويرى العلامـة مننديث إى بلايو، وهو من أعظم المفكرين، والنقدة الإسـبان المحدثين، أن نفى الموريسكيين كان نـتيجة محتومة لسـير التاريخ، ويشرح رأيه فى كتابه عن (الخوارج الإسبـان) على النحو الآتى: (ولنقل الآن رأينا فى مسألة النفى بكل وضوح وإخلاص، وذلك بالرغم من أنه يستطيع أن يتكهن به من تتبع القصة السابقة، بروية وبلا تحيـز، ولن أتردد فى الجهر به، وإن كان من المؤسف أن يكون ثمة ما أخـر إبداءه. فهل كان من الممكن أن يقوم الدين الإسـلامى بيننا فى القرن السادس عـشر؟ من الواضح أن لا بل ولا يمكن أن يكـون ذلك الآن فى أى جزء من أوربا. فكيف يسـتسـيغ وجوده فى تركـيا أولئك الإنسـانيون الأجـانب الذين يصفـوننا بالبـربرية لأننا قمنا بإجـراء النفى؟ وإنهم لأسوأ مـائه مرة من المسلـمين الخلص، مهما كان دينهم عـائقًا لكل تمدن، وأولئك النصارى المنافقون، والمرتدون والمارقـون، الذين لم يحـسن إخـضـاعـهم وأولئك الإسـبان الأوغـاد، الأعـداء الداخلون، خـميرة كل غـزو أجنبى، الجنس الذى لا يقـبل الاندماج، كمـا أثبت ذلك التجـارب المحزنة مـدى قرن ونصف. فهل يعـتبر ذلك تبـريرًا لأولئك الذين مزقـوا عهـود غرناطة، أولئك الثـوار الذين أضرمـوا الهيـاج فى بلنسيـة ونصروا

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤٢٣).

الموريسكيين بصورة منافية للدين؟ كلا على الإطلاق. بيد أنه وقد سارت الأمور منذ البداية على هذا النحو، فإنه لم يكن من الممكن أن تكون ثمة نتيجة أخرى، فقد كانت الاحقاد والشكوك المتبادلة، تضطرم باستمرار بين النصارى القدامى والمحدثين، وقد لطخت بقاع البشرات بالدماء غير مرة وفقد الأمل فى تحقيق التنصير بالوسائل السلمية، وذلك بالرغم من تسامح ديوان التحقيق، والغيرة الطيبة التى أبداها رجال مثل تلافيرا، وفيلانيفا، وربيرا، وإذًا فلم يك ثمة محيص من النفى. وأكرر أن فيلب الثانى قد أخطأ فى كونه لم ينفذه فى الوقت المناسب. وإنه لمن الحق أن نعتقد أن الصراع من أجل البقاء والمعارك، والمذابح بين الأجناس، تنتهى بصورة أخرى غير النفى أو الفناء. ذلك أم الجنس الأدنى ينهار دائمًا، ويفوز بالنصر مبدأ القومية الأقوى. وأما أن النفى كان حدثًا مقوضًا، فهذا ما لا ننكره، فإنه من المقرر أنه فى العالم يمتزج الخير والشر دائمًا وخسارة مليون بأسره من الناس، لم تكن السبب الأساسى فى إقفار بلادنا من السكان، وإن كان لها أثر فى ذلك. وبعد فإن ذلك يجب ألا يعد إلا كإحدى قطرات الماء فى جانب نفى اليهود، واستعمار أمريكا، والحروب الخارجية فى مائة مكان معا، وعدد الجند النظاميين الضخم، وهى أسباب نوه بها كلها بإيجاز اقتصاديونا القدامى، ومنهم من لم يتردد كالحبر فرناندث نباريتى فى نقد نفى الموريسكيين بعد وقوعه بأعوام قليلة. وما كانت بل وليست الأجزاء المقفرة من السكان فى إسبانيا، هى التى تركها العرب، كما أنها ليست أسوأها زراعة، وهو ما يدل على أن الخسارة التى لحقت بالزراعة من جراء نفى كار الزراع المسلمين، لم تكن عميقة أو باقية الأثر، كما قد يتبادر إلى الذهن، لو أننا وقفنا فقط عند عويل أولئك الذين تأملوا الحقول المجدبة غداة تنفيذ أوامر النفى. ونحن أبعد من أن نعتقد مع الشاعر الساذج الشيوعى جسبار دى أجيلار، أنه لم يخسر بالنفى سوى السادة الذين فقدوا اتباعهم المسلمين وأن الكثرة من الناس قد غنمت، وغدا:

الأغنياء فقراء والفقراء أغنياء

والصغار كبارا والكبار صغارا

ذلك أن مثل هذه النظريات، وإن أملاهـا الإخلاص والحماسة الشعـبية، اللذان يضطرم بهما الشاعر، فليست إلا من أسـخف وأضل ضروب الاقتصاد السياسى. ذلك أن مملكة بلنسية كلها كان لزامًا أن تخسر، وقد خسرت برحيل مثل هذا العدد الجم من عـمال مـهرة هادئين مـثابرين، وقـد كانوا حـسبـما يصـفهم السكرتـير فرنسيسكو إدياكيت (يكفـون وحدهم لإحداث الخصب والرخاء فى سائر الأرض، لبراعـتهم فى الـزراعة، وقناعـتهم فى الطعـام). هذا بينما يصف هذا السكـرتير النصارى القدماء بقوله (إنهم قليلـو الخبرة فى الزراعة). وعلى أنه من المحقق أنهم تعلموا، وأن بلنســية قد عمرت فـيما بعد، وأن سائر الطرق الـزراعية ونظم الرى البديعة، التى ربما كان من الخطأ أن تنسب إلى العرب وحدهم، قد أحييت فى هذه المناطق حتى أيامنا(١).

وإذا كان تدهور الزراعـة مما لا ينكر، ولعله مبالغ فـيه، فإن تأثر الصناعـة كان أقل. ذلك لأن الصناعة كانت قبل ذلك بنصف قرن أصـيبت باضمحلال واضح، وكذلك لأن الصناعـات الرئيسيـة، إذا استثنينا الـورق والحرير، لم تكن فى أيدى الموريسكيين، وقد كانوا دائمًا عمالاً أكثرهم منهم صناعًا. فإذا قيل مثلا إن المناسج التى بلغ عددها من قبـل فى إشبيلية ستة عـشر ألفًا، لـم يبقَ منها فى عـهد فيليب الخامس سوى ثلاثمائة، ونسب ذلك كله إلى واقعة النفى، فإن أصحاب هذا القول ينسون أنه لـم يكن فى إشـبيلية أحـد من الموريسكيين، وأن هذه المصانع كـانت قد تركت قبل النفى بخـمسين عـامًا، كأنما آثر أجدادنـا أن يحققوا الثـراء بالحرب فى إيطاليـا وبلاد الفلاندر، وبغزو أمـريكا، وكأنهم كـانوا ينظرون باحتـقار سـخيف مؤسف للفنون والأعـمال الصناعـية. إن اكتـشاف العالم الجـديد، والثروات التى كانت تتدفق من هنالك، فـتثير الجشع، وتذكى أطمـاعًا يسهل تحقيـقها: ذلك هو السبب الحقـيقى الذى أسكت مناسجنا وأمحل زراعتـنا، وجعل منا أول طائفة من المغامرين المحظوظين، ثم بعد ذلك شعبًا من الأشراف المتسولين، وإنه لمن المضحك

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤٢٦).

أن ننسب إلى سبب واحد، ربما كان أقل الأسباب، ما كان نتيجة لأخطاء اقتصادية يعسر علينا أن نتبين علاقتها بالتعصب الديني.

والخلاصة أنه متى تدبرنا المزايا والمضار، فإننا ننظر إلى إجراء النفى العظيم، بنفس الحماسة التى امتدحه بها لوبى دى فيجا وثرفانتس، وكل إسبانيا فى القرن السابع عشر، باعتباره ظفراً لوحده الجنس ووحدة الدين واللغة، والتقاليد. أما الأضرار المادية فقد شفاها الزمن، وقد استحال ما كان صحراء بلقع قاتمة، إلى مهاد خصبة وحدائق غناء. وأما الذى لا يشفى، وأما الذى يترك دائماً هى الأحقاد الدموية الأبدية، فهى جرائم تشبه جرائم الوندال. ولما هدأت آثار النفى، أضحى النفى ليس فقط إجراء محموداً، بل كذلك إجراء ضرورياً. لم يكن ميسوراً أن تحل العقدة، فكان لا بد من قطعها، ومثل هذه النتائج تقرن دائماً بالانقلابات المفروضة).

- ويعلق العلامة الدكتور لى، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع على آراء المفكرين والمؤرخين الإسبان بقوله: (إذا كان نفى الموريسكيين كما يقول مننديث إى بلايو، نتيجة محتومة لقانون تاريخى، وإذا كان قد غدا ضرورة فى عهد فيليب الثالث، فقد كانت ضرورة مصطنعة، خلقها تعصب القرن السادس عشر، وإذا كان وجود المدجنين، منذ أيام ملوك ليون وقشتالة وأراجون فى الأراضى الإسبانية، من الأمور المأمونة، وذلك فى الوقت الذى كان فيه زعماء إسبانيا النصرانية يشغلون بحروب أهلية مضطرمة، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية، وإذا كان فى وسع الملوك النصارى فى هذه العصور المضطربة، أن يركنوا إلى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم، فإن الضرورة السياسية للوحدة الدينية، بعد أن غدت إسبانيا دولة قوية موحدة، وغدا المسلمون طوائف ممزقة، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال المغرق الذى يخلفه التعصب، حتى دفعه توقد المزاج الإسبانى إلى نهايته المحتومة باكتمال لا نظير له. ولما قضت غطرسة الكردينال خمنيس العنيفة، على

ثقة المسلمين فى عدالة إسبانيا وشرفها، اتخذت الخطوة المحتومة فى طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة. . . ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء فى الداخل، حملوا بكل وسيلة وبكل بغض على السياسة الإسبانية، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح، وبهما فقط يمكن العمل على إرضائهم، وتحقيق رخائهم، وبث محبة النصرانية فى قلوبهم. وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف، تزيده سوءًا حتى غدوا إغراء دائمًا لاتصال كل عدو من الخارج، ومثارًا دائمًا لجزع السياسة الإسبانية. فلما اضمحلت قوة إسبانيا، وفقد حكامها الثقة بالنفس، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم، بالنفى والإبعاد، وقلما يقدم لنا التاريخ مثلا، كوفئت فيه السيئة بأمثالها، وطمت كوارثه، كذلك الذى ترتب على جهود الكردينال خمنيس بما يطبعها بطابع مضطرم).

ثم يقول: (على أنه مهما كان من فداحة الضربة، فقد كان الميسور تداركها بسرعة لو أن إسبانيا كانت تملك الحيوية القوية، التى مكنت أممًا أخرى من أن تنهض من كوارث أشد. إن انحلال إسبانيا لا يرجع فقط إلى خسارتها لجزء من السكان، بنفى اليهود والعرب المتنصرين، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه الخسارة؛ ولكن الخطب يرجع إلى ان اليهود والعرب المتنصرين كانوا من الناحية الاقتصادية أقيم عنصر بين سكانها، وكان نشاطهم معينًا لحياة الآخرين، وبينما كانت أمم أوربا الأخرى تنهض وتسير إلى الأمام فى مضمار التقدم، كانت إسبانيا وشعارها أن تضحى كل شىء فى سبيل الوحدة الدينية، تنحدر سراعًا إلى غمر البؤس والشقاء، وتغدو جنة للأحبار والقساوسة، وعمال ديوان التحقيق، تخمد فيها كل نزعة إلى الرقى العقلى، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجى، ويشل فيها كل جهد يبذل فى سبيل التقدم المادى. وقد كان من العبث أن تهمز ثروات العالم الجديد، إلى أيدى شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أى شعب آخر، وإلى أرض كانت مواردها عظيمة، مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم فى طليعة الأمم الأوربية ازدهارًا. ومهما كانت قيمة الخدمات التى أدتها إيزابيلا الكاثوليكية والكردينال خمنيس، فإن السيئ فى عملهما يفوق الحسن، لأنهما علما

الأمة (أن الوحدة الدينية هى أول غاية يجب تحقيقها، وقد ضحت فى سبيل هذه الغاية برخائها المادى ورقيها العقلى)[1] .

وأخيراً يجمل الدكتور لى خلاصة بحثه المستفيض فى مأساة الموريسكيين فى هذه العبارة الموجزة القوية؛ (عن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف، ولكنه أيضًا خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء، التى اتحدت لتنحدر بإسبانيا فى زهاء قرن، من عظمتها أيام شارل الخامس إلى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى).

- ويقول العلامة سكوت: (لقد كانت نتائج هذه الجريمة التى ارتكبت ضد الحضارة، سواء البعيدة منها والمباشرة، ضربة لإسبانيا؛ فقد عصفت بموارد عيشها، ودفع بها القحط إلى الخراب، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث إلى كثير من الأسر النبيلة، التى أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحارى، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شائعة، كان يغمرها الخصب الأخضر، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراع والصناع، وحل الجزاء المروع عقب مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالأمة التى ارتكبت فظائعها، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الخير).

ويقول الأستاذ محمد عنان المؤرخ صاحب كتاب نهاية الأندلس: ويمكن أن نلخص رأى النقد الإسبانى المعاصر فيما سمعته من العلامة الأستاذ مننديث بيدال، أعظم المؤرخين والنقدة الإسبان فى عصرنا، فقد حدثته وأنا بمدريد عن قضية الموريسكيين ونفيهم، فأدلى إلى بالآراء الآتية:

(لا ريب أن إسبانيا قد منيت من جراء نفى الموريسكيين بخسارة مادية لأنها خسرت بإخراجهم شعبًا مجداً عاملاً بارعًا فى الزراعة والصناعة، ولكن الواقع أن حركة الانقلاب البروتستانتى حملت إسبانيا على أن تتبع من جانبها سياسة كاثوليكية شديدة، وكان من جراء ذلك أن اشتدت فى معاملة الموريسكيين، ويمكن أن نصف هذه السياسة بأنها كانت عنيفة مغرقة.

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤٢٩).

ولم يكن نفى الموريسكيين خطوة موفقة، وكان أيضًا من آثار الحركة الرجعية الكاثوليكية. وما كان ملك قوى مثل فيليب الثانى ليقدم على اتخاذ مثل هذه الخطوة، ولكن ولده فيليب الثالث كان ملكًا ضعيفًا يعوزه الذكاء والحصافة وقد غلبت السياسة الدينية والكنيسة فى هذه المسالة. ويبدو خطأ هذه السياسة بالأخص من الناحية العنصرية، فإن العلامة ربيرا يعتقد مثلا أن الموريسكيين كان نصفهم على الأقل من الإسبان الخلص الذين اعتنقوا الإسلام فى عهود مختلفة ثم أرغموا على التنصير بعد سقوط غرناطة وصاروا موريسكيين.

ويسلم الأستاذ يبدال بأن نفى الموريسكيين كان من عوامل انحلال إسبانيا، ولكنه يرى من المبالغة ن يقال إنه السبب الرئيسى لهذا الانحلال. ثم يقول: (الواقع أن هذه مسألة معقدة، وأعتقد أن من أهم أسباب انحلال إسبانيا، عنف السياسة الكنسية المناهضة لحركة الإصلاح الدينى - البروتستانتية - وهو عنف لم يقع مثله فى أى بلد أوربى آخر بل انفردت به إسبانيا والكنيسة الإسبانية)[١].

- ويبدى دى مارليس الذى اتخذ مؤلف كوندى أساسًا لكتابه عن (تاريخ دولة المسلمين فى إسبانيا والبرتغال) حماسة فى تقدير تراث الأمة الأندلسية وما أصاب إسبانيا من جراء القضاء عليها، ويعلق فى خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين فى تلك العبارات الشعرية المؤثرة:

(وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكى المستنير، الذى أحيا بهمته وجده تلك الأراضى، التى أسلمتها كبرياء القوط الخاملة إلى الجدب، فدر عليها الرخاء والفيض، واحتفر لها عديد القنوات، ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته الفياضة فى السعود والشدائد معًا، عرش الخلفاء بسياج من البأس، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس، فى مدنه صرحًا خالدًا من الأنوار، التى كان ضوؤها المنبعث ينير أوربا، ويبث فيها شغف العلم والعرفان، والذى كان روحه الشهم يطبع كل اعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنيل،

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤٣٠).

ويسبغ عليه فى نظر الخلف، لـونًا غامضًا من العظمة الخارقـة، ودهانًا سحرياً من البطولة، يذكرنا بعصور هرمبر السحرية، ويقدم لنا فيهم أنصاف آلهة اليونان.

ولكن شيئًـا لا يدوم فى هذا العالم. فإن هذا الشعب قـاهر القوط، الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون، إلى أقصى الأجيال، قد ذهب ذهاب الأشباح، وعبثًا يسأل اليوم السائح الفريد، قفار الأندلس المحزنة، التى كان يعمرها من قبل شعب غنى منعم. ظهـر العرب فجـأة فى إسبـانيا، كالقـبس الذى يشق عبـاب الهواء، بضوئه، وينشر لهـبه فى جنبات الأفق، ثم يغيض سريعًا فى عـالم العدم، ظهورًا فى إسبانيا فملأوها فجأة بنشاطهم وثمار براعتهم، وأظلها كوكب من المجد شملها من البـرنيه إلى صـخرة طارق، ومن المحـيط إلى شـواطئ برشلونة. ولكن هوى يضطرم إلى الحرية والاسـتقلال، وخلقًـا متقلبًا يمـيل إلى الخفة والمرح، ونسـيان الفضـائل القديمـة، وميل نكد إلى التـمرد والثورة، يـثيره دائمًـا خيال مـلتهب، وشهوات وأطماع عنيفة، ونزعة إلى التغلب وغيرها، من عوامل الاضمحلال التى قد عملت شيـئًا فشيئًا، على هدم ذلك الصرح العتـيد، الذى شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد بن الأحـمر، وأفضت بالعرب إلى خلافات داخلية، قللت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء.

خرج مـلايين العرب من إسبـانيا، حاملين أمـوالهم وفنونهم، ثروات الدولة، فماذا أنشأ الإسـبان مكانهم؟ لا نستطيع أن نجيب بشىء، إلا أن حزنا خـالدًا يغمر هذه الأرض، التى كانت من قـبل تتنفس فيها أبهج الطبـائع. إن ثمة بعض الآثار المشوهة ما زالت تقـوم فى هذه البقاع الموحشـة، ولكن صرخة حقيـقية تدوى من أعماق هذه الأطلال الدارسة: الشرف والمجد للعربى المغلوب، والانحلال والبؤس للإسبانى الظافر).

- ويقول الأستـاذ لاين بول فى مقدمة كـتابة عن (العرب فى إسبـانيا): (لبثت إسبـانيا فى أيدى المسلمـين ثمانية قـرون، وضوء حضـارتها الزاهرة يبـهر أوربا، وازدهرت بقاعـها الخصبـة بمجهود الفاتحـين، وأنشئت المدائن العظيمة فـى سهول

الوادى الكبير، فلم يبقَ ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد، سوى الأسماء والأسماء فقط - وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون، دون سائر الأمم الأوربية، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم الرياضية والفلكية والنباتية، والتاريخ والفلسفة والتشريع، إلا فى إسبانيا المسلمة فكل ما يدعو إلى عظمة أمة وسعادتها، وكل ما يؤدى إلى رقى باهر وحضارة سامية، فاز به مسلمو إسبانيا.

ثم ذوت عظمة إسبانيا بسقوط غرناطة. وقد سطعت لمدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية، فوق الأرض التى كان ينعشها بحرارته. ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وإيزابيلا، وشارل الخامس، وفيليب الثانى، وكلومبوس وكورتيس وبيثارو، لتموت بموتها دولة عظيمة. ثم خفقت أعلام الحراب بسيادة ديوان التحقيق وسادت إسبانيا بعد ذلك ظلمة حالكة؛ فأصبح لا يعرف الأطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور.... وقضى على فنون إشبيلية وطليطلة وألمرية وعفت صناعاتها، وسمحت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الإسلام، وخربت المدائن الكبيرة، وذوت نضرة الوديان الخصبة، فحل البؤساء والدهماء واللصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان، ذلك مبلغ انحطاط إسبانيا بعد إقصائها للعرب، وهكذا يبدو البون شاسعًا بين أدوار تاريخها)(١) .

نقص العمالة برحيل الموريسكيين:

يشكل الوجود الإسلامى فى إسبانيا على الصعيد الاقتصادى ظاهرة لافتة للنظر فى رأى المتخصصين فى ظاهرة الهجرة، ذلك أنه يختلف فى ماهيته وآفاقه عن أى وجود مماثل فى أى بلد أوربى آخر. فالاستقرار المعاصر لـ «المورو س» أو «الموريسكيين» (المسلمون المغاربة فى اللغة الإسبانية) فى إسبانيا الجديدة، هو فى نظر هؤلاء «عودة» أكثر منه «هجرة».

فالموريسكيون الذين يركبون اليوم «قوارب الموت» أملاً فى حياة جديدة، كانوا قد غادروا قبل أربعة قرون ونيف البلاد ذاتها فى قوارب موت أيضًا، هربًا من

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص٤٣٢).

محاكم التفتيش الظالمة. ولئن كانت دوافع ركوب الموت مختلفة بين الأمس واليوم، إلى الجنوب خوفًا من التعصب، أو إلى الشمال هربًا من الفقر، فإن مصير الموريسكيين يبدو واحدًا في قساوته وضبابيته.

لقد جُرد الموريسكيون بعد سقوط غرناطة آخر الإمارات الإسلامية في الأندلس سنة ١٤٩٢ ميلادية من ثرواتهم وأملاكهم ليصبحوا بعدها الأفقر في البلاد، فيما كانوا الأثرياء والحكام قبلها.

أما الموريسكيون المعاصرون فقد جردتهم دولهم قبل بلوغهم الأندلس، من كل قدرة على امتلاك الحق والثروة، وأجبرتهم على التماس مجرد الكفاف في البلاد القديمة التي لم تتهيأ بعد لاستقبال غرباء فقراء قادمين من الضفة الجنوبية.

ولا بد لهذه القضية من دارسة متأنية تكشف عن أبعادها المختلفة حتى نرفع الحرج والضيق عن تلك الجماعة التي ظلمت قديمًا وحديثًا، فهل هجرة الخلف اليوم إلى إسبانيا موطن آبائهم كهجرة السلف يوم أن هربوا منها ومن الموت المحقق على أيدي المفتشين إلى دول الشمال الأوربي وإلى تركيا والشمال الإفريقي، فمن حيث العدد، لم يبلغ المهاجرون المسلمون إلى إسبانيا حداً يهددون معه طبيعة المجتمع الإسباني. فحسب الإحصائيات الرسمية يشكل الأجانب بصفة عامة أقل من ٢٪ من مجموع سكان البلاد، أي ما يقل عن المليون نسمة، ثلاثة أرباعهم تقريبًا من أبناء الأقلية المسلمة، نصفهم ينحدر من أصل مغاربي، والبقية يتوزعون على عشرات الجنسيات.

وعلى نحو ما ورد في تصريح لصحيفة «نيويورك تايمز» أدلى به عبد الحميد البيوقي رئيس جمعية العمال المغاربة في إسبانيا، «فإن ٩٥٪ من مسلمي إسبانيا هم من فئة العمال المهاجرين الفقراء، ٣٠٪ من بينهم تقريبًا يقيمون بشكل غير شرعي، فيما تتوزع الـ ٥٪ الباقية على مجموعة من الطلبة الذين يقيمون بشكل مؤقت، ومجموعة محدودة من رجال الأعمال والأطباء وأصحاب المهن الخاصة الأخرى، أصول غالبيتهم ترجع إلى بلاد الشام وفلسطين».

وقد هاجر غالبية العمال المسلمين إلى إسبانيا، خلال النصف الثانى من ثمانينيات القرن الماضى، وتحديداً بعد انضمام شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) إلى الاتحاد الأوربى سنة ١٩٨٦، وبداية نهوض الاقتصاد الإسبانى على كافة الأصعدة بفضل المساعدات الأوربية السخية التى استهدفت مساعدة مدريد على تحقيق نسب نمو عالية بما يقرب مستوى الإنتاج الاقتصادى فيها إلى المستوى الأوربى العام.

من هذا المنطلق ارتبطت هجرة الموريسكيين الجدد إلى إسبانيا، منذ البداية وبشكل بنيوى، بحاجة الاقتصاد الإسبانى المتأخرة قياسًابالحالات الاقتصادية فى أوربا الغربية، لليد العاملة الأجنبية، غير الكفوءة والرخيصة فى غالب الأمر، حيث بدت قطاعات البناء والإنشاء والتعمير والزراعة أكثر احتياجًا من غيرها لموارد بشرية غير متوفرة محلياً، وبالتالى أكثر استيعابًا لآلاف المهاجرين من الجنوب القريب الذى توقفت عجلة نموه الاقتصادى، فى التاريخ نفسه تقريبًا وتحركت فيه العجلة الاقتصادية الإسبانية أيضًا.

وكما هو معروف عن تاريخ النهضة الاقتصادية الإسبانية الحديثة؛ فقد ارتكزت عملية التنمية على القطاع السياحى بالدرجة الأولى، حيث لم يكن عدد السياح الذين يزورون إسبانيا فى بداية السبعينيات ٥ ملايين سنوياً، بينما بلغ العدد حاليًا ما يفوق ٥٠ مليون سائح كل سنة. وقد اقتضى تحقيق هذه الطفرة السياحية من المسؤولين عن الاقتصاد الإسبانى، توفير بنية أساسية سياحية ضخمة، اقتضت بناء آلاف الفنادق والمرافق والطرقات السيارة والمطارات، وكذلك إنشاء قطاع زراعى حديث يسد احتياجات ما يقارب المائة مليون نسمة بين سكان مقيمين وسياح، وهو ما يفسر النهضة الخارقة لقطاعى البناء والزراعة الإسبانيين، حيث يشتغل ٩٠٪ من المهاجرين المسلمين، الشرعيين من بينهم وغير الشرعيين.

وعلى الرغم من الانقلاب الكبير الذى شهده مستوى الدخل لدى الإسبان خلال العقدين الأخيرين فإن العنصرية البغيضة ما زالت تطل بقرنيها، إذ أصبحت اليوم إسبانيا عضواً فى نادى دول الرفاهية، فإن عقلية وأخلاق الشارع الإسبانى

ظلت فى الكثير من ملامحها مرتبطة بفترة العسرة «الفرانكوية» (نسبة للجنرال فرانكو ديكتاتور إسبانيا من بداية الثلاثينيات حتى ١٩٧٥)، وقد ظهرت العنصرية البغيضة خصوصًا فيما يتعلق بالنظرة للعرب والمسلمين، فقد ورث الإسبان الديمقراطية جل مساوئ عقلية احتقار وازدراء وكراهية «الموروس» التى هيمنت على عقول إسبان الديكتاتورية من قبلهم.

لقد شكلت الأحداث العنصرية التى شهدتها بلدة «إيل إيخيدو» الأندلسية فى بداية سنة ٢٠٠٠، مثالاً صارخًا على عدم تأثير النقلة الاقتصادية البينة التى عرفتها إسبانيا، وعملية التحول الكبير نحو الديمقراطية، على رؤية عامة الإسبان للمسلمين خاصة، ولمهاجرى الجنوب عمومًا. فقد عاش ما يناهز ٤٥ ألفًا من العمال الموريسكيين الفقراء، من بينهم ١٠ آلاف مقيم بشكل غير قانونى، خلال أحداث «إيل إيخيدو»، فى مطلع الألفية الثالثة، أياما عصيبة لا يمكن أن تحسب على هذا الزمن، كما وصف المتابعون، فقد كانت الأجواء خلالها أشبه ما يكون بتلك التى سادت إسبانيا زمن محاكم التفتيش، حيث حوصر المهاجرون المسلمون فى شعاب البلدة الإسبانية، بعد أن نهبت ممتلكاتهم القليلة وضرب وقتل الكثير منهم، وبقيت قوات الأمن ووسائل الإعلام الإسبانية دون حراك، وكأنها تفسح المجال للعنصريين لتحقيق أهدافهم.

لقد كشفت أحداث «إيل إيخيدو» للرأى العام الأوربى والدولى، إلى جانب تسليطها الضوء عن عنصرية جزء كبير من المجتمع الإسبانى، الأوضاع المعيشية المزرية التى يحيى فيها آلاف العمال المغاربة المسلمين، خاصة أولئك الذين يقيمون فى ولاية الأندلس الجنوبية التى تعتبر الأفقر قياسًا بباقى الولايات الإسبانية. فبالاعتماد على التقرير الاقتصادى والاجتماعى الرسمى الصادر عن الحكومة المحلية للأندلس، يعيش ٦٠٪ من مجموع ٤٥ ألف عامل مغربى يقيمون فى «إيل إيخيدو»، فى ظروف معيشية غاية فى السوء، حيث يفتقدون للماء الصالح للشرب وللسكن اللائق، كما يفتقدون كذلك للتأمين الصحى والرعاية الطبية.

كما يشير التقرير الرسمى نفسه، إلى أن أكثر من ١٠٠ ألف عامل موريسكى يعملون فى منطقة «كوستا ديل سول» الساحلية، ضمن شروط عمل قاسية، حيث يشتغل غالبيتهم فى المزارع وورش البناء دون عقود عمل قانونية، وبدخل يومى لا يتجاوز ٢٥ دولارًا فى اليوم، يبدو قياسًا بالدخل اليومى للعامل العادى فى المغرب دخلاً جيدًا، لكنه بالقياس إلى المستوى الأوربى دون مستوى الحد الأدنى المحدد قانونياً.

وتبرز هذه الحقائق الحالة القانونية المتخلفة لإسبانيا قياسًا بدول الاتحاد الأوربى الأخرى، «فالعمال الفقراء الذين يشكلون الغالبية داخل الأقلية المسلمة فى إسبانيا، كما يشير إلى ذلك عبد الحميد البيوقى رئيس جمعية العمال المغاربة، يفتقدون إلى المساواة مع نظرائهم الإسبان، خلافًا لما عليه الوضع فى بقية الدول الأوربية، كما أنهم لا يتحصلون فى غالبيتهم على مسكن جيد، ومحرومون من حق الملكية والتجمع العائلى وحقوق اجتماعية واقتصادية كثيرة».

وتشير الكثير من المصادر المهتمة بحقوق المهاجرين فى أوربا إلى أن العمال الموريسكيين، خصوصًا أولئك الذين تحملهم قوارب الموت ويقررون الإقامة فى إسبانيا بشكل غير قانونى، يعيشون فى أكواخ صفيحية مزدحمة، عادة ما تكون مملوكة لأصحاب المزارع التى تقوم بتشغيل اليد العاملة الأجنبية الرخيصة.

وكانت حادثة قد جرى الكشف عنها سنة ٢٠٠١ فى أرياف مدينة إشبيلية قد أزاحت الحجاب عن حالة «العبودية المقنعة» التى يحيا فيها عدد كبير من العمال الموريسكيين، حيث أظهرت تحريات لأجهزة الشرطة الإسبانية أن مالكة إحدى المزارع قد استعبدت ما يقارب من أربعين عاملاً موريسكياً، من خلال تشغيلهم بنظام السخرة فى مزرعتها، وإسكانهم فى أكواخ كانت تستعمل كزرائب للحيوانات، وتهديدهم بشكل مستمر بكشف أمرهم للشرطة بحكم إقامتهم غير القانونية.

لا يزال الحكم مبكرًا على ظاهرة الوجود الإسلامي في إسبانيا بحسب المهتمين بالأقليات المسلمة في الغرب، فبالإضافة إلى ما أشير إليه من صفات الفقر والضعف والعسف القانوني التي تميز حياة غالبية الموريسكيين الجدد، فإن حداثة هذا الوجود واتسامه بالمرحلية وارتباطه بالحالة التي يمر بها الاقتصاد الإسباني تجعله مفتوحًا على كافة الخيارات، وفي الاتجاهين المعاكسين، إلى الأمام وإلى الوراء.

وفيما يعتقد البعض أن الفقر المدقع الذي يعيش فيه غالبية أبناء الأقلية المسلمة من عمال موريسكيين، يعتبر أول وأكبر المعوقات التي تقف حائلا أمام تطور الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبرية، باعتبار المال قوام الأعمال، فإن آخرين يعتقدون، خلافًا لذلك، أن إقامة الموريسكيين الجدد لن تكون على الشاكلة التي مر بها الموريسكيون القدامى الذين أجبروا على ترك بلادهم خوفا من فرق التفتيش، فقد جاء الموريسكيون المعاصرون ليبقوا ولن تضطرهم الظروف المعيشية مهما كانت قاسية، على تركها مرة أخرى.

ويلاحظ المتابعون لظواهر اللجوء والهجرة، أن تأثير الموريسكيين الجدد على نمط الحياة في ولاية الأندلس أصبح بالرغم من فقرهم غير قابل للإلغاء؛ ففي المدن الأندلسية الإسلامية سابقًا، كإشبيلية وقرطبة ومالقة وغرناطة عادت الكثير من مظاهر الحياة الإسلامية إلى الظهور بعد خمسة قرون، وعاد بمقدور الموريسكيين على الأقل الإعلان عن عقيدتهم والتوجه إلى مساجدهم دون خوف من ملاحقة رهبان الكنيسة.

❁ ❁ ❁

الخاتمة (ونتائج البحث)

إن تاريخ العثمانيين ينبغى أن يعاد قراءته بمفهوم جديد حتى ندرك أهمية ذلك التاريخ ونعطى العثمانيين حقهم الضائع تحت وطأة أقلام الحانقين عليهم، والمطلوب أن يقرأ هذا التاريخ مع تاريخ الأمة الإسلامية باعتبار العثمانيين جزءًا منها بل جزءًا فعالا ومؤثرًا، ومن الخطأ البين أن يسلخ تاريخ تلك الدولة ويدرس بعيدًا عن المحيط الإسلامى للأمة الواحدة؛ إذ إن ذلك المحيط هو مسرح عمليات تلك الدولة، والذى شكل تاريخ أمتنا المسلمة قرونًا طويلة وتم فيه تفاعل المسلمون فى المشرق الإسلامى وخاصة دولة الخلافة العثمانية مع إخوانهم المسلمين فى الجبهة الغربية لأمتنا المسلمة، وقامت تلك الدولة بصراعات طويلة وممتدة لتقاوم موجات الحروب الصليبية التى باتت تترى على المشرق تارة وعلى المغرب والأندلس تارة أخرى، ولم يقو على مواجهتها ومجابهتها سوى الأتراك العثمانيين، ومن هذا المنطلق فإن موضوع هذا البحث (محاولة العثمانيين إنقاذ مسلمى الأندلس) لم يفهم ولم تدرك أبعاده إلا فى إطار تلك النظرة الشمولية لتاريخ الأمة الإسلامية الواحدة.

- إن الدولة العثمانية آنذاك كانت دولة إسلامية كبرى وقد احتلت مكانها الدولى عن جدارة واستحقاق، وقد بلغت أوج القوة بجيوشها الجرارة وأساطيلها الكبرى، وهيمنت على أكثر بقاع الأرض، إذ امتلكت من قوة الردع ما أدى إلى أن تهابها أعداؤها، فكانوا يخطبون ودها حينًا أو يتآمرون ضدها حينًا آخر. وفى الحالتين كانت تخرج ظافرة بفضل سلاطينها الأقوياء، وعلى الرغم من تلك القوة الحربية التى تميزت بها، فإنها لم تتعسف، ولم تظلم الشعوب، ولم تعثُ فى الأرض فسادًا، بل كانت متسامحة مع جميع الشعوب، ولا غرو فى ذلك، فهى حاملة لواء الإسلام، الذى يخفق بالرحمة والعدل، فما أبادوا الشعوب وقتلوا الأطفال والنساء كما فعل الإسبان مع مسلمى الأندلس، وكما يفعل اليهود فى فلسطين الآن، وكما عرفناه عن النصارى بتعصبهم الأعمى فى البوسنة والهرسك

وفى الصرب والجبل الأسود، حيث ارتكبوا جريمة إبادة شعب بأكمله، وقد تعلم العثمانيون ذلك التسامح من دينهم الإسلامى الحنيف، ومن حركة جهادهم فى سبيل الله، إذ نص ذلك الدين على وجوب التزام العدل والرحمة والتسامح مع الإنسان، وأدركوا أن جهاد الظلم وأهله واجب فى كل مكان، لتحرير البشرية، ولتكون كلمة الله هى العليا.

- وقد ثبت أن بعض سلاطين العثمانيين كانوا مجاهدين فى سبيل الله، وكان ولاؤهم الشديد لله ولرسوله ولأمة الإسلام، ومثالنا فى ذلك السلطان محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية والذى بلغت قوته العسكرية أوجها، ومع ذلك كان شديد الخوف من الله، كثير التقوى، فكان يأمر جنوده بالصيام قبل الهجوم على العدو لتذكو نفوسهم، ويأمرهم بالذكر والاستغفار ويخوفهم من ذنوبهم، لأن الذنوب تمحق النصر. وقد كان -رحمه الله- مثالا يقتدى للحاكم المسلم والقائد المثالى الذى يرعى مسئولية الإسلام والمسلمين، فبعدما فتح القسطنطينية كان متسامحًا مع النصارى، فسمح لهم بإقامة شعائرهم وأمنهم على كنائسهم وطلب منهم أن يختاروا فيما بينهم(بطريقًا) يرعى شئونهم وبذلك شعروا بالأمن والاطمئنان. فهل فعل ذلك الرجل ما فعله الإسبان بمسلمى الأندلس؟ وبما لاقوه على أيدى محاكم التفتيش والتى اقشعرت لها الأجسام وتقطعت لها نياط القلوب.

- ومن الفضل الذى لا ينكر هو محاولة سلاطين آل عثمان التخفيف من وطأة الحركة الصليبية التى ضغطت على المسلمين فى الأندلس بقدر ما استطاعوا ولكن على ما يبدو أن ضغط الإسبان كان شديدًا، ومقاومة أهل الأندلس كانت مقاومة ضعيفة، إذ ضعف سلطان العقيدة فى نفوسهم، وانتشر الترف الفاحش بين أغنيائهم، وبلغت المظالم أقصاها مع ضعفائهم كما تفشت المنكرات فى أنحاء كثيرة من الأندلس، فحق عليها القول، وتمت مشيئة الله كما اقتضتها سننه فى خلقه.

وكان من مجموعة السلاطين المجاهدين السلطان سليم الأول الذى تولى السلطنة عام ٩١٨هـ، وكانت الظروف الدولية آنذاك خطيرة ومعقدة، وقد شعر بحرج شديد عند سقوط دولة الإسلام فى الأندلس، على أيدى الإسبان عام

١٤٩٢م والتى صمموا بعدها على تصفية الوجود الإسلامى تمامًا، ومما زاد الأمر حرجًا وتعقيدًا دعوة البابا لتطويق العالم الإسلامى. وقد أثارت تلك الدعوة همم الإسبان والبرتغال لذلك الهدف، ومن ثم بات البرتغاليون والإسبان يهددون العالم الإسلامى لاستعماره ونهب خيراته، كما صاروا يهددون باحتلال المدينة المنورة ونبش قبر الرسول محمد ﷺ. وقد عجز حكام المماليك فى مصر والشام عن مقاومة هؤلاء الصليبيين المتعصبين، وأصبح الموقف حرجًا، ومما أدى الى إثارة العثمانيين حقّاً فى هذا الصدد، هو ذلك الاتحاد والتفاهم الذى تم بين البرتغاليين والصفويين الشيعة أعداء العثمانيين، فقد اتفقوا على إقامة حلف ضدهم،ومن هذا المنطلق سارع السلطان سليم ليعمل على جمع شمل الأمة المسلمة فى وحدة إسلامية وفى كتلة واحدة ضم إليها بلاد الشام ومصر تدعيمًا لقوة المماليك، وذلك للوقوف معًا فى وجه البرتغاليين، وليتمكن ذلك السلطان أيضًا من مراقبة نشاطهم فى البحر الأحمر، وحماية المقدسات الإسلامية فى مكة والمدينة.

ومما يذكرنا بفضل هذا السلطان العظيم (سليم الأول) أنه كان يقظًا لما يخططه الأعداء وكان بعيد النظر فى حماية المسلمين من مؤامرات اليهود الخبيثة. فيروى أنه بعد فتح مصر عام ٩٢٤هـ ـ ١٥١٧م أصدر فرمانًا يمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء، وواضح من صدور هذا الفرمان، أن اليهود كانوا يبغون الهجرة إلى سيناء واستيطانها، على أساس أنه يضم الوادى المقدس طوى الذى كلم الله سبحانه وتعالى فيه موسى عليه السلام تكليمًا. ومن ثم أصدر السلطان سليم الأول الفرمان الذى سد الطريق فى وجوه اليهود. ولما تولى ابنه سليمان المشرع عرش الدولة عام ١٥٢٠أصدر فرمانًا لاحقًا أكد فيه ما جاء فى الفرمان السابق.

وظل اليهود محرومين من تنفيذ ذلك الهدف حتى تولى الحكم سليم الثانى سنة ١٥٦٦م وكان منحرفًا وقد بدأت الدولة فى الاضمحلال فى عهده، وقد خلفه سلاطين ضعاف وكان أولهم مراد الثالث سنة ١٥٧٤ـ ١٥٩٦م، وقد استطاع اليهود فى عهده أن يحققوا حلمهم للإقامة فى سيناء فنزحوا إليها فى هجرات

متقطعة، وعلى فترات متقاربة، وكانت خطتهم تقوم في المراحل الأولى على تركيز إقامتهم في مدينة (الطور). وكان اختيارهم لهذه المدينة اختياراً هادفًا. فهذه المدينة تقع على الساحل الشرقي لخليج السويس[1] ولها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية، وكانت تقصده سفن قادمة من ميناء ينبع وجدة وسواكن والعقبة والقلزم والسويس. كما كانت المدينة ترتبط برياً بخطوط قوافل مع القاهرة والفرما[2]؛ وبذلك كان يسهل على اليهود إيجاد اتصالات خارجية فلا يصبحون في عزلة عن العالم، بل تستطيع السفن أن ترسو في ميناء الطور، تحمل أفواجًا من اليهود الجدد قد يقدمون من بلاد مجاورة[3].

ولعلنا ندرك من هذه القراءة مدى الخطر اليهودي المحدق بسيناء، ولعلنا مرة أخرى ندرك لماذا أصر اليهود في معاهدة (كامب ديفيد) على إخلاء سيناء من أي قوات عسكرية وفرض خطوط مراقبة من الطرفين. والمطلوب اليوم من الزعامة السياسية والعسكرية في مصر أن يعمروا سيناء بإصلاح الأراضي للزراعة وإقامة المصانع المتعددة وتشجيع الاستثمار فيها، وتسكين الشباب المسلم على جنباتها الطاهرة، ليشكل خط الدفاع الأول لمصر. وإن كان اليهود قد تركوا سيناء بموجب انتصارنا عليهم في العاشر من رمضان ووفقا لمعاهدة السلام الخادعة، ولكن ما زالت سيناء ماثلة أمام أعينهم وما زالت هي هدفهم الرئيس اليوم، ويذكر انه قبل أن يرحلوا من سيناء أقاموا نصبًا تذكارياً كتب عليه كما يقول الدكتور جمال عبدالهادي: (لن ننساك يا سيناء!)

وقد شهد عصر السلطان سليمان خان (سليمان الأول المشهور بالقانوني) صحوة فكرية لأمتنا الإسلامية، كان عمودها الأساسي الجهاد في سبيل الله، إذ تمكن ذلك السلطان من فتح بلجراد والمجر وجزيرة تونس وجعل من تلك الجزيرة قاعدة عسكرية تنطلق منها الأساطيل العثمانية لصراع الأوربيين في حوض البحر

(١) الدكتور عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ص٩٦٦ .
(٢) انظر المرجع السابق ص٦٦٧ .
(٣) (المرجع السابق).

المتوسط، وقد وصلت البحرية العثمانية أوج قوتها فى عهد ذلك السلطان العظيم، وقد التفت حوله كوكبة من أمراء البحر المسلمين والمجاهدين فى سبيل الله، أمثال عروج وأخيه خير الدين باربروسا، وحسن خير الدين باربروسا، وصالح رايس، وقلج على، وغيرهم كثيرون.

وقد تولى خير الدين باربروسا قيادة الأساطيل العثمانية، وأزعج بها قوى الصليبيين فى إسبانيا والبرتغال والحوض الغربى للبحر المتوسط، وقد تمكن ذلك الرجل من إدخال دول الشمال الإفريقى تونس والجزائر والمغرب فى وحدة مع النظام العثمانى المسلم، ولم تكن تلك الوحدة مع شعوب تلك البلاد قد فرضت عليهم قهرًا، وإنما كانت وفود تلك البلاد تذهب إلى السلطان سليمان يطلبون منه الغوث، وضم جهودهم إلى جهود الدولة العثمانية للوقوف ضد الصراع الصليبى الذى تقوده إسبانيا والبرتغال.

- وقد نجح خير الدين فى وضع قواعد عسكرية وبحرية فى الجزائر لتكون خطوطًا أمامية متقدمة تساعدهم للانقضاض على سواحل إسبانيا وإعادة فتح الأندلس، من أجل ذلك اهتم خير الدين بالحوض الغربى للبحر المتوسط اهتمامًا بالغًا لصد البحرية الإسبانية والبرتغالية، وإبعاد خطرها عن المسلمين فى الشمال الإفريقى، وحتى لا يتمكن الإسبان من تنصيرهم بالقوة .

ومما يؤسف له ذلك التشهير المهين الذى ألحقه الغرب المسيحى بعروج وأخيه خير الدين حيث اعتبروهما قرصانين من قراصنة البحار، والحقيقة غير ذلك تمامًا فقد كانا ومعهما كوكبة أخرى من أمراء البحر مجاهدين فى سبيل الله يعملون على إنقاذ المسلمين من الضرر اللاحق بهم من أى اتجاه، ويعملون على نصرة الجيوش والاساطيل العثمانية ضد الصليبية الغربية المتعسفة.

وقد حاولت الدولة العثمانية أن تكون علاقات قوية مع بعض دول الشمال الافريقى إلا أنها فشلت وخاصة مع الدولة السعدية، ولكن بعد انتصار تلك الدولة على نصارى البرتغال فى معركة وادى المخازن والتى شارك فيها العثمانيون بمدافعهم

الثقيلة وبعد هذا النصر تحسنت العلاقات بينهم، أما المغرب الأقصى فقد استعصى ضمه إلى العثمانيين.

وقد لعب خير الدين باربروسا دورًا عظيمًا فى مد يد العون والإنقاذ لمسلمى الأندلس المشردين؛ حيث استطاع أن ينقذ منهم عددًا كبيرًا يعد بالآلاف ونقلهم من أرض الأندلس إلى سواحل المغرب العربى وإلى تركيا وإلى أماكن أخرى متعددة.

وقد واصل الأسطول الحربى نشاطه على سواحل البحر الإيونى ثم البحر الأدرياتى فاستولى على أفلونة، ثم حاصر جزيرة كورفو وتصدى للأسطول الإسبانى بقيادة أندريا دوريا القائد الإسبانى البحرى المشهور والذى تفوق على العثمانيين فى أول الأمر، ولكن سرعان ما تفوق عليه خير الدين باربروسا، كما امتد نشاط الأسطول على سواحل ديلماشيا فى البحر الأدرياتى، ومضى خير الدين يستكمل الاستيلاء على جزر بحر الأرخبيل.

وفى عام ١٤٥٣م حقق الأسطول العثمانى انتصارًا بحريًا ساحقًا على الأسطول الإسبانى فى معركة بريفيزا التى كان يقودها أندريا دوريا سالف الذكر وقد اتحدت فيه أساطيل الإمبراطورية الرومانية وجمهورية البندقية والباباويه، وبهذا الانتصار العظيم اكتسب الأسطول العثمانى قوة ردع ورهبة فى نفوس أعدائه؛ إذ ترنح التحالف الصليبى بعد هذه الهزيمة البحرية مباشرة.

وبهذا النصر الساحق على الأساطيل الصليبية سالفة الذكر، خلا البحر المتوسط للأساطيل العثمانية، إذ بادر نشاطه للهيمنة على الحوض الغربى للبحر المتوسط، وقد حقق فى هذا الجزء نتائج عظيمة وانتصارات رائعة أزعجت جنوبى إيطاليا وصقلية وجنوب فرنسا وسواحل إسبانيا، وكان نتيجة ذلك أن اتحدت ثلاثة أقاليم إسلامية عربية مع القوة العثمانية وهى الجزائر وتونس وطرابلس، وأخذ الأسطول العثمانى يستعد للانقضاض على سواحل إسبانيا لإنقاذ مسلمى الأندلس، واستردادها للحظيرة الإسلامية. وكان من نتيجة ذلك أن اشتد الصراع الدينى بين الإسلام والمسيحية فى الشمال الإفريقى، وكان يقود الصراع المسيحى البرتغال

والإسبان، ويقود الصراع الدينى الإسلامى العثمانيون فى شمال إفريقيا، وقد أضفى البابا على هذا الصراع طابعًا صليبيًاً عنيفًا مما دفع العثمانيين إلى سياسة التوسع الإقليمى البحرى للاستيلاء على ممتلكات جمهورية البندقية وذلك ليخفف من وطأة الهجوم الصليبى على الشمال الإفريقى .

وكان من نتائج هذا الصراع أيضًا، أنه أظهر التعاون بين الأسطول الفرنسى والأسطول العثمانى ضد شارل الخامس فى عهد السلطان سليمان القانونى. وبذلك انفتحت جبهة حربية قوية للدولة العثمانية فى الحوض الغربى الذى يطل على سواحل فرنسا، وهذا يمكن الأسطول العثمانى أن يتخذ من الموانئ الفرنسية قواعد يحتمى بها، ومن ثم يتمكن من التسلل إلى إسبانيا لتحرير مسلمى الأندلس وإنقاذهم.

وإن كانت انتصارات البحرية العثمانية قد توالت فى عهد السلطان سليمان القانونى. إلا أنه مما يؤسف له أن تلك الأساطيل العظيمة قد ضعف شأنها بموت أمراء البحر المجاهدين من الكوكبة السابقة أمثال خير الدين باربروسا، وحل محلهم قواد ضعاف الهمم والحيلة من ناحية كما انشغلت الدولة بصراعات متعددة، اتسعت مساحاتها البحرية أمام الأساطيل العثمانية وانشغلت بصراعات حربية مع جيوش أوربا التى ما فتئت تصارع الجيوش العثمانية حتى أنهكت قوى الدولة من ناحية أخرى. ومن ثم بدأ ذلك الأسطول تتوالى عليه الهزائم، وقد ظهر هذا الضعف فى المعركة التى هزم فيها الأسطول العثمانى هزيمة ساحقة وهى معركة لابانتو عام٩٧٩هـ-١٥٧١م، وكانت هزيمة مخيبة لآمال العثمانيين، حيث اهتزت السيادة العثمانية بالبحر المتوسط، وكانت تلك الهزيمة نقطة تحول تم فيها انكسار الأساطيل العثمانية، وقد نتج عن ذلك طمع فرنسا فى دول المغرب الإسلامى، وبخاصة الجزائر، ويلاحظ أيضًا أن هذه الهزائم المتكررة التى لاحقت الأسطول العثمانى كانت بسبب توحد البحرية الصليبية لعدة دول غربية، تحالفت فيما بينها على مقاومة الأسطول الإسلامى العثمانى، وكانت تلك الدول تسمى (بالعصبة المقدسة) التى دعا إليها البابا بيوس، وقد تكونت تلك العصبة عام ١٥٧١من البابوية، وإسبانيا، والبندقية، وتوسيكانيا، وجنوه، وفلورانس،

وسافوى، ومانتو، وبارما، وفرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة[1]. وقد خرجت أساطيل تلك المدن معبأة بجنود كثيفة فكل سفينة تحمل ٥٠٠ بحار، وعددًا كبيرًا من المدفعية الثقيلة، ويقودهم نخبة قوية من قواد الأساطيل المدربين والمحنكين، وكان من جراء ذلك أن هزم الأسطول العثماني هزائم متكررة كما قلنا. وفى معركة نفارين البحرية واجه الأسطول العثماني أساطيل ثلاث دول أوربية كبرى، هى بريطانيا وفرنسا وروسيا، حيث أوقفوا نشاطه وحصروه فى عدة أماكن عاقت تقدمه أحيانًا.

وهكذا لم يتمكن الأسطول العثماني من تحقيق هدفه الذى جاء من أجله فى مياه حوض البحر المتوسط وهو إعادة فتح الأندلس، فقد كانت القوى الصادة له تفوق إمكاناته بكثير وهى إمكانات تتعلق بالقيادة، والمهارة الحربية، والخطط الإستراتيجية، والتموين، وغير ذلك من صفات افتقر إليها الأسطول العثماني هذا بالإضافة إلى ما كان يغزى تلك الأساطيل من تعصب صليبى كان ينخر فى قلوب قوادها فلم يعرفوا سوى الهلاك والدمار والافتقار إلى النزعة الإنسانية.

إن العثمانيين الذين هزهم ما سمعوه عن إخوانهم المعذبين فى الأندلس، والذين استغاثوا بهم، قد كانوا صادقين فى الاستجابة لهم وفى حملة الإنقاذ التى استعدوا لها استعدادًا طيبًا، استغرق أمدًا طويلا وبذلت فى سبيله جهودًا مضنية، حيث التقت أساطيل العثمانيين بأساطيل الإسبان والعصبة الغربية فى أكثر من لقاء، وقد تمكنت دول الغرب الأوربية مجتمعة من أن تحول بين قوات العثمانيين وتحقيق هدفها فى إنقاذ أهل الأندلس وإعادة فتحها، وقد سدت تلك الدول عليهم كل الطرق التى يمكن أن ينفذوا منها إلى إسبانيا، حيث دارت معارك صليبية فى حوض البحر المتوسط وسطه ومغربه، وتمت هيمنتهم الكاملة على مضيق جبل طارق، كما حاولت أسبانيا والبرتغال كبح جماح ولاة المغرب الإسلامى، حيث شغلوهم بمعارك متوالية جعلتهم لا يتمكنوا من ضم جهودهم مع جهود العثمانيين، كما كان بعد المسافات والديار هى الأخرى سببًا من الأسباب إلتى

---

(١) الدولة العثمانية عبد العزيز الشناوى ص٨٦٧.

أعاقت العثمانيين فى الوصول إلى إسبانيا، فقد كانت القيادة العثمانية فى أقصى الشرق وساحة العمليات العسكرية والهدف المنشود فى أقصى الغرب كما كان اتساع المسافة بينهم قد كلفتهم نفقات باهظة، من حيث التموين والنقل والمدفعية اللازمة وزيادة عدد قطع الأساطيل، كل ذلك كانت تكاليفه باهظة بسبب اتساع ساحة العمليات الحربية من أقصى الحوض الشرقى للبحر المتوسط الى أقصى غربه.

وإذا كان العثمانيون لم تصل أساطيلهم وجيوشهم إلى أرض إسبانيا لإعادة فتحها وإنقاذ المسلمين بها، وإعادتها إلى حظيرة الإسلام، فإن لها انتصارات فى عديد من الجوانب الأخرى مثل بعض المعارك البحرية الكبرى، كما أن لهم يدًا طولى لا تنكر، بعد هذا العناء الذى بذلوه فقد تمكن خير الدين باربروسا من إنقاذ الكثيرين من مسلمى الأندلس، فقد وجه إلى الأندلس ٣٦ بارجة وقد كررها سبع مرات، وتحمل فى كل مرة ١٠ آلاف حتى تمكن من نقل ٧٠ ألف موريسكى عام ١٥٢٩م.

إن سلاطين العثمانيين وجهادهم المبارك من أجل ذلك الهدف العزيز، قد بذلوا له ما فى وسعهم من طاقات على المستوى السياسى والمستوى العسكرى، ولكن لم يقدر الله لهم فتح الأندلس كهدف فى ذاته، ولكن أنجز على أيديهم أهدافًا أخرى جليلة أفادت أمتنا المسلمة فى عديد من النواحى، منها :

- إنقاذ ما يقرب من ٧٠ ألف موريسكى نقلهم خير الدين باربروسا من أراضى إسبانيا إلى الشمال الإفريقى أو إلى مصر أو إلى تركيا كما قلنا سابقًا.

- صانت عروبة دول الشمال الإفريقى تونس والجزائر والمغرب، وحافظت على عقيدتهم الإسلامية من محاولات التنصير التى قام بها الإسبان والبرتغال بمعاونة البابوية وهذا فضل عظيم يحسب للعثمانيين.

- أن العثمانيين قد استمعوا بعقول واعية وببصيرة متفتحة لشكوى إخوانهم المسلمين المعذبين فى أرض الأندلس من جراء محاكم التفتيش، وقد وعدوهم بمد يد العون إليهم، كما قام بعض الخلفاء العثمانيين بالاتصال ببعض حكام الغرب كدوق البندقية وحاكم فرنسا وغيرهما ليتوسطوا لدى نصارى إسبانيا وقشتالة ليخففوا الوطأة عن هؤلاء المسلمين.

- أظهر العثمانيون روح التسامح مع الشعوب الأوربية التى افتتحوها وعاملوا أهلها بكل رأفة ورحمة وقد خيروهم بين الإسلام ودفع الجزية، فمن رفض الإسلام فرضت عليه الجزية، وترك على ديانته، ولم يثبت فى تاريخهم أنهم أكرهوا أحدًا على ترك دينه أو عقيدته بل قاموا بحماية كنائسهم وبيعهم وأراضيهم نظير تلك الجزية، التى فرضوها عليهم وهذا عكس ما فعله الإسبان فى مسلمى الأندلس؛ إذ صمموا على تنصيرهم قسرًا متبعين العنف من قتل وتعذيب وتشريد، وقد بلغ تسامح العثمانيين مبلغًا كبيرًا مع أهل الذمة، فلك أن تتصور أن الأتراك قد فتحوا أبواب دولتهم لليهود الذين طردوا من الأندلس، وقد استقر منهم الكثيرون فى تركيا، وقد بلغ بهم الحقد غايته، إذ تآمروا مع حركة الاتحاد والترقى وسعوا إلى إسقاط الخلافة الإسلامية فى تركيا، وهؤلاء اليهود هم المعروفون فى التاريخ بيهود الدونمة.

- كما نعترف بفضل السلاطين العثمانيين فى تأمين حدود ديار الإسلام مصر والشام والعراق، وتأمين الأماكن المقدسة الإسلامية، وتأمين الحرمين الشريفين من أن تمتد إليها يد العبث والغدر ومحاولاتهم الآثمة بنبش قبر الرسول ﷺ.

إن الدولة العثمانية المسلمة التى أدت واجبها أمام الله وأمام شعوبها على خير ما يكون قد واجهت العديد من حملات التشويه والتشهير للنيل من مقدار تلك الدولة ومن سلاطينها المسلمين وحكومتهم الإسلامية. وقد شارك فى هذه الحملات، الحانقون على الإسلام من رجالات الحكم والسياسة والدين فى أوربا، كما أسهم فيها أيضا المؤرخون، والباحثون من اليهود والنصارى فى بحوثهم وكتاباتهم المتعددة، وترجع أسباب تلك الحملات ضد الدولة العثمانية، أنها كانت أول دولة إسلامية فى التاريخ استطاعت أن تفتح الجزء الجنوبى الشرقى فى أوربا. وكانت تحارب فى أول الأمر فى جبهتين فى وقت واحد: جبهة الأناضول للقضاء على الدول المسيحية والكيانات المسيحية المتناثرة وقتذاك فى شبه جزيرة الأناضول، وجبهة أخرى أوربية بعد أن عبرت جيوشها البحر إلى أوربا، وانتقلت من نصر إلى

نصر تكتسح الأقاليم الأوربية، وتنساب غربًا فى سهول المجر وتدخل عاصمتها بودابست، وتقترب من مشارف فيينا عاصمة النمسا.

وإذا كانت قد طويت صفحة الحكم الإسلامى فى الأندلس بعقد معاهدة غرناطة عام ١٤٩١م فإن الدولة العثمانية قد استبدلت بهذه الهزيمة انتصارات إسلامية مؤزرة على أرض القارة الأوربية، وحوض البحر المتوسط، وشمالى إفريقية، حيث نشب صراع صليبى عنيف حمل لواءه البرتغاليون والإسبانيون، وابتغوا من ورائه الاستيلاء على أقاليم شمالى افريقية وتحويل سكانها إلى المسيحية، ولكن وقفت تركيا لهم بالمرصاد وحالت دون تحقيقيهم لهذا الهدف.

هذه النتائج التى ذكرناها هى النتائج المباشرة المتعلقة بموضوع البحث من حيث تقييم دور العثمانيين فى إنقاذ مسلمى الأندلس.

ولكن الأهم من ذلك هى تلك النتائج المترتبة على النظرة الشمولية لحركة الأمة المسلمة بأكملها وحركة العثمانيين وجهادهم المستمر فى تاريخ الإسلام غير منفصل عن تاريخ حركة الأمة ونشاطها فى نظرة شمولية متكاملة، ومن خلال هذا المنطلق سيبرز ويتضح وفق تلك النظرة الشمولية أن للعثمانيين مزايا عديدة لا يصح أن نجحدها أو ننكر فضلها وبجانب هذه الإيجابيات والمزايا يوجد بعض السلبيات والثغرات. وإليك عرض تلك النتائج على صعيد النظرة الشمولية لتاريخ أمتنا المسلمة آنذاك:

أولاً: المزايا والإيجابيات:

١- توسعة رقعة الأرض الإسلامية، ويكفى أن نذكر فتح القسطنطنية والتقدم فى أوربا. لقد فتح العثمانيون القسطنطنية، إذ عجز المسلمون من قبلهم عن ذلك منذ أيام معاوية بن أبى سفيان -رضى الله عنهما- عام ٥٠هـ حتى تم الفتح على أيدى العثمانيين عام ٨٥٧هـ، أى أنه مضى أكثر من ثمانية قرون والمسلمون يعجزون عن

هذا الفتح، ويكفى أن نذكر حديث رسول الله ﷺ: «**لتفتحن القسطنطنية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[١] وتقدموا فى أوربا، وساروا فيها شوطًا بعيدًا، حتى وقفوا على أبواب فيينا وحاصروها أكثر من مرة، وهذه البلاد لم تطأها أقدام المسلمين من قبل، والمسلمون الموجودون فى تلك البقاع اليوم يرجع أكثرهم إلى آثار ذلك التقدم.

٢ـ الوقوف فى وجه الصليبيين على مختلف الجبهات، فقد تقدموا فى شرقى أوربا ليخففوا ضغط النصارى الإسبان والبرتغاليين ومن ورائهم أوربا عن المسلمين فى الأندلس، وان لم يكن هذا التقدم واضح الأثر لبعد الشقة، ولضعف المسلمين فى الأندلس آنذاك الذين لم يستفيدوا من الدروس التاريخية التى حلت بهم وبمن سبقهم فى الأندلس، وكذلك لضعف العثمانيين الذين لم تقو شوكتهم بعد، ولم ينتهوا من هجمات تيمور لنك، والإمارات الأخرى المجاورة لهم، كما أن أساطيل العثمانيين كانت لا تزال فى أول عهدها ولا يمكنها أن تخوض معارك بعيدة، وإن كانت الدولة العثمانية قد قدمت فى هذا المجال شيئًا فى البحر المتوسط إلا أنه كان محدودًا لا نستطيع أن نبرزه أو أن نعطيه أكثر مما يجب. وعندما زادت قوة الدولة العثمانية فى أيام محمد الفاتح، ودخل القسطنطنية عام ٨٥٧ كانت دولة بنى نصر فى غرناطة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وقد مزقها الخلاف بين الأمراء، واستنصار كل أمير بطاغية النصارى حتى تفرقت كلمتهم. وأخيرًا سقطت غرناطة عام ٨٩٨ أى بعد أربعين عامًا من فتح القسطنطينية.

وقد وقفت دولة العثمانيين فى وجه أكبر موجة للاستعمار الأوربى، وعندما سقطت غرناطة بأيدى النصارى، وتقرر طرد المسلمين من الأندلس، وسار الإسبان نحو الغرب فى سبيل الوصول إلى المشرق لحصار المسلمين، انطلق البرتغاليون أيضًا نحو الجنوب للغرض نفسه، والتفوا حول إفريقية ووصلوا إلى جنوبى الجزيرة العربية يحملون معهم الروح الصليبية، عندها وفى ذلك الوقت تمامًا ترك العثمانيون

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٥) والحاكم فى مستدركه عن أبى عبيدة بشر الغنوى الخثعمى.

مواقعهم فى أوربا واتجهوا نحو الشرق فقاتلوا الصفويين الذين يدعمون البرتغاليين، وطلبوا منهم تشكيل حلف للوقوف فى وجه العثمانيين، وامتدت ساحة القتال بين العثمانيين والبرتغاليين فى البحر الأحمر، وعدن، وحضرموت، وعمان، والخليج العربى وكانت كل جبهة يفتحها البرتغاليون كان العثمانيون يسارعون للوقوف فى وجههم ويحولون دون بقائهم بها،ويجب ألا ننسى فى هذا الصدد، أن السكان هم الذين كانوا يطلبون من العثمانيين حمايتهم أو يدعونهم لتسليمهم بلادهم من اجل الدفاع عنهم. وقد وصل العثمانيون فى دفاعهم عن ديار الإسلام إلى الهند حيث طلب المسلمون هناك دعمهم ومساعدتهم ضد الصليبين من البرتغاليين. وهكذا كان للعثمانيين آنذاك دور كبير فى إنهاء النفوذ البرتغالى من بلاد المسلمين.

كما أن الإسبان قد امتد نفوذهم فى البحر المتوسط بعد سقوط غرناطة،وبدأت هجماتهم على المرافئ الإسلامية والنزول فيها مثل طرابلس،تونس،والجزائر ووهران غير أن العثمانيين كانوا أيضًا قد امتد نفوذهم إلى بلاد الشمال الإفريقى براً بعد دخول مصر وبحراً بعد انضمام عروج وأخيه خير الدين باربروس إليهم وإعلان الأخير أن الجزائر ولاية عثمانية، ومنذ ذلك الحين وقف العثمانيون وجهًا لوجه أمام الصليبيين الإسبان.

ومن جهة الشمال انطلق العثمانيون إلى شمال البحر الأسود ودعموا التتار المسلمين ضد الصليبين من الروس، واستمروا على تلك الجبهة عدة قرون، وقد شملت مساحات واسعة امتدت من شرقى أوربا حتى بلاد الداغستان على شواطئ بحر الخزر الغربية وتجاوزتها أحيانًا إلى أواسط آسيا، حيث اشتد الصراع بين المسلمين والروس أيضًا. وبهذا يكون وقوفهم فى وجه الصليبيين المستعمرين من جهات كثيرة متعددة، أو أن جبهات فتحت عليهم وتصدوا لها من مختلف الجهات حتى أنهكت قواهم.

وقد يتبادر لنا سؤال من أرض الواقع آنذاك: لماذا لم يوفق العثمانيون فى أغلب المواقف بل حلت بهم الهزائم من كل ناحية وبخاصة فى الفترة الأخيرة من تاريخها؟

بلا شك أن العثمانيين قد بذلوا جهدهم كله، وعملوا بإمكاناتهم كلها، وعليهم السعى وليس بأيديهم إدراك النجاح والظفر، وإنما هو خارج أرادتهم، والمهم أن النية كانت صادقة والبذل كان قائمًا. والهزيمة ليسوا مسئولين عنها وحدهم، وإنما هى مسئولية المسلمين كلهم، أى مسئولية الأمة المسلمة جميعًا من حيث التعاون، والتكافل، والنفير العام، والإعداد الكامل، فنحن نتحمل جزءًا من هذه المسئولية ويجب ألا نلقى العبء على غيرنا، ونجرد أقلامنا وألسنتنا للنقد والتجريح وجلد الذات الإسلامية الواحدة لأننا أمة واحدة.

وقد بدأ العثمانيون جهادهم بقوتهم الذاتية فى أول الأمر حيث جمعوا قوات إماراتهم المنتشرة فى الأناضول والتى كان يزيد عددها على العشرين إمارة، فأصبحت قوة فى وجه البيزنطيين بعد أن كانت موزعة وفتحوا القسطنطينية، وتقدموا فى أوربا، وانتصروا على الروس، وأجلوا الإسبان عن أكثر المرافئ الإسلامية التى نزلوا فيها على سواحل البحر المتوسط، ومنعوا من تسرب النفوذ البرتغالى إلى الداخل، وكان لهم الباع الطويل فى إنهائه، وهذا كله عندما كانوا أصحاب قوة، ولكن تبدلت هذه المواقف عندما ضعفت قوتهم. فبدأت الانتصارات تنقلب إلى هزائم وتراجع، وربما نكون نحن العرب أحد أسباب الضعف الذى حل بالعثمانيين سواء أكان ذلك بالحركات الداخلية السرية والعلنية، أم بالافتتان بأوربا، أم بعدم دعم الدولة بشكل قوى، ولا أبرئ ساحة العثمانيين فى هذا الميدان، فقد فتن بعضهم بأوربا كما أصابنا نحن هذا الافتتان، وهبت على بلادهم روح القومية كما هبت علينا فأذلتهم مثلنا أو أذلت المسلمين جميعًا.

٣ـ ومن أهم أعمال العثمانيين أنهم عملوا: على نشر الإسلام، وشجعوا على الدخول فيه، وقدموا الكثير فى سبيل ذلك، وقد نجحوا إلى حد كبير فى كسب أكثر قبائل الشركس إلى الإسلام. إذ كانوا يشجعون جنودهم على الزواج من الفتيات الشركسيات لكسبهن إلى الإسلام ثم جذب آبائهن إلى ذلك، ورغم ما فى ذلك من بعض المخالفات المصلحية على الأقل إلا أن نجاحهم كان كبيرًا فى تلك الجهات، وقد أظهر الشراكسة تفهمًا كبيرًا، وأقبلوا على الإسلام، وتعلم القرآن

الكريم. كما نجحوا فى كسب قبائل الشاشان، غير أن نجاحهم كان أقل قليلاً مع قبائل القوشحة (الأوستين) وكذلك كسبوا مجموعات من تلك الشعوب المنتشرة بين البحر الأسود وبحر الخزر.

كما عملوا على نشر الإسلام فى أوربا فى البلدان التى وصلوا إليها، وإن كان نجاحهم قليلا إلا أنهم عملوا على إسكان أعداد من المسلمين فى تلك البلدان كى يؤثروا فى المجتمعات التى يعيشون بينها، وقاموا بالأمر نفسه فى المناطق الإفريقية التى دخلوها، والتى كانت بعض شعوبها لا تزال على الوثنية مثل بعض شعوب تشاد، والسودان، والصومال.

٤- إن دخول العثمانيين إلى بعض الأمصار الإسلامية قد حماها من بلاء الاستعمار الذى ابتليت به غيرها، على حين أن المناطق التى لم يدخلها العثمانيون قد وقعت فريسة للاستعمار باستثناء دولة المغرب التى لم تخضع للعثمانيين، ومع ذلك لم يدخلها المستعمرون إلا قبيل الحرب العالمية الأولى فالهند، وأندونسيا، وماليزيا دخلها المستعمرون من إنجلترا، وفرنسا، وهولندا كما دخل الروس إلى أواسط آسيا.

وكلما كانت الأمصار بعيدة عن قلب الدولة العثمانية أو قاعدتها فى الأناضول كلما كان الاستعمار أسرع إلى تناولها، وكلما كانت أكثر قربًا بقيت فى حماية العثمانيين نسبيّاً، ومثال ذلك الجزائر التى خضعت للاستعمار قبل تونس، وتونس قبل ليبيا التى تأخر استعمارها عن استعمار مصر آنذاك، وذلك بسبب موقع مصر الخاص بها، فقد جر عليها كثيرًا من المتاعب، وسبب الكثير من المشكلات مع المستعمرين وتأخر استعمار بلاد الشام والعراق بسبب قربها من الأناضول، فما دخلها المستعمرون، إلا فى نهاية الحرب العالمية الأولى، وهزيمة الدولة العثمانية، وخروجها من الساحة، أو بالأحرى حتى انتهت وزالت عن الخريطة مع زوال الخلافة الإسلامية، على أيدى رجال الاتحاد والترقى، الذين سعوا إلى إسقاطها بالتآمر مع الإنجليز عام ١٩٢٤م.

٥- ولعل من أهم الأعمال الجليلة أيضًا والتى صانت مكانة الأمة المسلمة

آنذاك، أن الدولة العثمانيـة كانت تمثل الأمصار الإسلامية وتنوب عنهـا، فهى مركز الخـلافة، ولا يوجـد سوى خلـيفـة واحد فى ديار المـسلمين، إذ لا يصح وجـود خليفتين أو أكثر فى آن واحـد، لذا كان المسلمون فى كل مكان ينظرون إلى الخليفة نظرة احترام وتقدير، ويعدون أنفسهم من أتباعه ورعاياه، وبالتالى كانت نظرتهم إلى مركـز الخلافـة نجد صـداها فى الأمصـار الإسلامـية كلـها، بل نجدها أيـضًا بين الجماعات غير الإسلامية التى تعيش كـأقليات فى دول غير إسلامية فعندما ألغيت الخلافة ثارت ثائرة المسلمـين فى كل بقعة فى العالم حـتى أطلق اسم الخلافة على كثير من الحـركات والمؤسسات، وخاصة فى جنوب شرقى آسيـا، ولا تزال الجامعة العثمانية فى حيدر آباد بالهند تحمل هذا الاسم حتى يومنا هذا.

فهـذا الإحساس بثـقل الخلافـة لم يأت من فراغ، وإنما عاشه المسـلمون تجربة واقعة، فكلما وجد المسلمون أنفسهم فى ضائقة، طلبوا الدعم من مركز الخلافة، بل إذا رغب أحد الحكام من غـير المسلمين نشـر الإسلام فى بلاده، أو فتوى عن أمر يتعلق بأحد رعاياه، طلب ذلك من الخليفة باعتباره المرجع الرئيسى والشرعى، وقد يتداعى إلى الذهن هنا طلب إمبـراطور اليابان من السلطان عبدالحمـيد إرسال عدد من علماء المسلمـين إلى اليابان لنشر تعـاليم الإسلام كمـا يروى الأستاذ محـمود شاكر فى موسوعته التاريخية.

وكانت الخلافة العثمانية تضم أكثر أجزاء البلاد الإسلامية فهى تشمل المنطقة العربية كلها باستثناء المغرب إضـافة إلى شرقى إفريقية وأجزاء من تشاد، كمـا تضم تركيا أكثر بلاد القوقاز مع ما شملته من بلاد التتار فى شمال البحر الأسود، وقبرص، وما أخذته من أوربا، وقد تكون مساحة تلك المناطق قد زادت على ٢٠ مليون كليومتر مربع، وما خرج عن دائرتها من الأمصار الإسلاميـة التى كانت يومذاك سوى جنوب شرقى آسيا والمغرب. (ومراكش) وأواسط آسيا، وايران، وبلاد الافغان[١].

٦ـ أما عن أسباب عداء الأوربيين للعثمانيـين فهو سبب رئيس عقدى لم يغفل

---

(١) محمود شاكر. مرجع سابق.

الأوربيون عنه أبدًا، إذ كانوا يقاتلون العثمانيين على أنهم مسلمون لا بصفتهم أتراكًا، ويقفون فى وجههم بحقد صليبى، إذ إنهم أحيوا الروح الإسلامية القتالية من جديد، وإنهم أثاروا الجهاد بعد أن خمد فى النفوس مدة من الزمن، كما رأى الغرب فيهم أيضا مداً إسلامياً جديدًا، بعد أن ضعف المسلمون ضعفًا شديدًا، وقد عز على أوربا أن العثمانيين قوة اخترقت عليهم بلدانهم من الشرق بعد أن عجز المسلمون سابقًا عن هذا، وقد قضوا على الدولة البيزنطية إحدى قواعد الدول النصرانية والتبشير المسيحى، وتقدموا فى بقية أوربا النصرانية التى كادت تركع أمامهم، ويرى الغرب فيهم أيضًا أنهم هم الذين وقفوا دون انتشار النصرانية لأنهم وقفوا فى وجه أتباعها فى كل مكان، وحاولوا دون امتداد التبشير ومد النفوذ الاستعمارى الصليبى وطلائعه من البرتغاليين، ومنعوا وصولهم إلى القدس وسيطرتهم عليها وعلى الأماكن المقدسة الإسلامية فى مكة والمدينة ،وحالوا دون تقدم الأحباش واتفاقهم مع أوربا صليبياً.

أما روسيا العدو الأكبر للعثمانيين فإنهم اعتبروا أن العثمانيين هم إخوان التتار، فى العقيدة، وإخوانهم فى العصبية، وهم مسئولون عما فعله التتار سابقًا سواء أكان ذلك قبل أن يدخلوا الإسلام أم بعد إسلامهم، وترى فيهم الآن دعمًا لأولئك التتار ومساعدة لهم، بل يحولون دون تقدم الروس فى بلاد التتار. كما يعتقد الروس أن العثمانيين أعداء ألداء لهم، فقد قضوا على الدولة البيزنطية مركز المذهب النصرانى الأرثوذكسى وقاعدته وحمايته، وهو المذهب الذى تدين به روسيا. وترى فيهم فاتحين للقسطنطينية وأنهم حوّلوها من مدينة نصرانية إلى مدينة إسلامية بل صار اسمها إستانبول (بلد الإسلام)، ومن أسباب العداء الأخرى أن العثمانيين يحولون دون تقدم الروس نحو الجنوب نحو المياه الدافئة حيث تتجه أنظار الطامعين كلها إلى تلك الجهات، وترى فيها الجنان التى ستدر عليهم المال والنصر والسياسة.

ومن أسباب العداء أيضا أنهم يملكون فى أيديهم مفاتح الطرق البحرية، وهى مضائق البوسفور والدردنيل، وترى فيهم سداً منيعًا يحول دون تقدم الروس نحو

الشرق فى بلاد التتار وفى أواسط آسيا حيث بلاد الاتراك وكلاهما من المسلمين، ويتلقون دعمًا من العثمانيين على أنهم مسلمون ذو قومية تركية واحدة، فالعثمانيون إذن أعداء عقيدتين، وأعداء سياسيتين فى نظر الروس،وإن كانت السياسة تنبع من العقيدة، ولولا العقيدة لوهن الجانب السياسى، وعلى هذا فالعداء بين أوربا عامة والروس خاصة عداء دينى قبل كل شىء،ولا يزال الأمر حتى الآن رغم تغير النظام الروسى جذرياً، وزوال الدولة العثمانية. غير أن الإسلام ما زال باقيًا وممتداً إلى يوم الدين رغم الحقد الصليبى.

٧- كانت للعثمانيين بعض الأعمال الطيبة والتى إن دلت على شىء فإنما تدل على صدق عاطفتهم وإخلاصهم للإسلام والمسلمين،مثل عدم قبول النصارى فى عداد جيشهم،وإعفاء طلبة العلم الشرعى من الجندية الإلزامية،وتعيين إمام لكل كتيبة منفصلة،ولا يزال أكثر هذه الأعمال قائمًا إلى الآن فى تركيا رغم العلمانية التى سلكتها الدولة التركية الحديثة منذ أيام مصطفى كمال وإلى الآن،ومن ذلك أيضا إصدار المجلة الشرعية التى تضم فتاوى العلماء فى القضايا المهمة التى تحدث فى نواحى الدولة المختلفة كلها.

- كما كان للعثمانيين دورهم فى بعض بلاد أوربا، إذ قضوا على نظام الإقطاع،وفتحوا السجون التى كانت تضم المسجونين إلى الأبد لغضب سادتهم عليهم أو لسبب تافه ليس بأفضل من ذاك.وأنهوا مرحلة العبودية التى كانت تعيشها أوربا حيث يولد الفلاح عبدًا وينشأ كذلك ويقضى حياته فى عبوديته لسيده مالك الأرض التى يعمل بها.

ثانياً: العيوب والسلبيات:

ما ذكرناه سابقًا كان أهم مزايا الدولة العثمانية المسلمة وإيجابيتها المتعددة وكما كان لهذه الدولة مزاياها فإن لها سلبياتها فى نواحى متعددة ولكن للإنصاف والعدل ينبغى ألا نحمل العثمانيين وحدهم تبعة هذه الثغرات والسلبيات، فالعالم العربى والإسلامى كله يتحمل مسئولية هذا التقصير باعتبار العرب والعثمانيين

وسائر المسلمين أمة واحدة، ولعل من أهم سلبيات الخلافة العثمانية، والتى كان لها أثر فى إضعاف الحكم ما يأتى:

١- إهمال اللغة العربية التى هى لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وهما المصدر الرئيسى للتشريع، وعدم معرفتها المعرفة الجيدة يسبب عدم الفهم الصحيح لأحكام الإسلام، وكان يجب الاهتمام بها اهتمامًا بالغًا، ولكن كان الاتجاه نحو اللغة التركية أكثر منه إلى اللغة العربية بصفة أن الخلفاء والحكام يجيدون التركية وهم من أبنائها، وفى هذا جهل لأن العربية لغة الإسلام، وصحيح أن بعض السلاطين أو الخلفاء سعوا وعملوا على إقامة المدارس باللغة العربية، واهتموا بالعلم الشرعى إلا أن ذلك كان دون المستوى المطلوب وأقل مما يجب أن يكون بكثير، وكان على الخلفاء أن يتعلموا هم اللغة العربية ويشجعوا عليها ومع عدم تعلم اللغة العربية قل الفهم الصحيح، وساد الجهل وخاصة فى الأمصار التى لا تتكلم العربية، فأدى هذا إلى الضعف والتأخر العلمى.

٢- فقدهم الوعى الإسلامى الصحيح؛ إذ كان كثير من المسئولين لا يعرفون من الإسلام سوى العبادات، لذا كانوا يحرصون عليها وعلى تأديتها، ويقيمون الاحتفالات ببعض المناسبات، وهذه الاحتفلات ليست واردة وقد لا يكون لها أصل فى الإسلام، كما أنهم كانوا يحرصون على الأذكار، ثم على الذكرالتقليدى للمتصوفة والانصراف أحيانًا الى ذلك انصرافًا تامًا، وهذا ما أدى إلى انتشار الطرق الصوفية غير الصحيحة شرعًا، ومع هذا الانتشار حدث التواكل وعدم السعى فى الأرض وإضعاف فكرة الجهاد فى سبيل الله، وعدم الإنتاج، والتكاسل عن مناهضة الأعداء وبسبب هذه الأمور بدأ الضعف ينخر فى الدولة.

٣- ومن السلبيات حرص العثمانيين على تغيير الولاة باستمرار وخاصة فى أواخر عهدهم، ويعود ذلك على حسب تقديرهم إلى أن الوالى إذا استمر فى ولايته مدة طويلة، فإنه يصبح على صلات وثيقة بالناس، وربما استغل منصبه هذا فى الحصول على بعض المنافع، كما أن نفسه قد تحدثه بالاستقلال بالولاية عن الدولة العثمانية، وقد اكتسبوا هذه التجربة، مما حدث لهم فى السابق، على أيدى

حكام الولايات الخاضعة للدولة والمترامية الأطراف وقد نتج عن عدم الثقة بالوالى، انتشار الفقر ورغبة المسئولين فى الحصول على المال. كما أدى إلى انتشار الفوضى وتراكم المشكلات؛ حيث إن الوالى الجديد لا يعرف شيئًا عن الولاية التى أتى إليها وربما لأول مرة فلا يستطيع أن يتعرف على السكان ومشكلاتهم، وأوضاعهم، وما يعانون، منه أو ما فيه صلاحهم، فاذا تم له ذلك واراد العمل والاصلاح فسرعان ما يتم نقله إلى ولاية ثانية، ويأتى آخر ليقوم بالدور نفسه، وهذا بطبيعة الحال يؤدى إلى عدم الإصلاح وإلى التأخر وسوء الأوضاع فى الإدراة عامة.

٤- ومن السلبيات أيضًا التى وقع فيها سلاطين العثمانيين وقد يشاركهم بعض الحكام المسلمين فى ذلك هو زواجهم من الأجنبيات الكتابيات وهذا الزواج جائز ولكن ليس فيه مصلحة وخاصة إن بقيت تلك الزوجة على دينها، فإن هذا الزواج فيه منافسة للمسلمات اللاتى يبقين بلا أزواج فكثر بذلك عنوسة البنات، وفيه أثر كبير على تربية الأولاد، التربية الإسلامية الصحيحة، وربما كانت هذه النساء ضرراً على الدولة لاتصال أبناء عقيدتها بها وأخذ ما عندها من أسرار الدولة وخاصة إذا كانت الحرب قائمة بين الطرفين، وأصعب الأمور إذا كان هذا الزواج من علية القوم، وربما كانت هذه النساء لا تستطعن التأثير على أبنائهن فى التربية لأنه يتربى فى مدارس إسلامية وعسكرية كما ذكرنا ويخرج بصورة لا يلتفت معها إلى أمه، وهو يعلم ماضيها، إلا أن هذا لا يمنع من إمكانية التأثير عليه فى بعض الجوانب، والحصول على بعض الأسرار، أو التأثير على بعض رجالات الدولة بصفتها والدة السلطان أو الخليفة. ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد بعث كتابًا إلى حذيفة بن اليمان رضى الله عنه، بعدما ولاة المدائن. (بلغنى أنك تزوجت امراة من أهل المدائن من أهل الكتاب، فطلقها)، فكتب إليه: (لا أفعل حتى تخبرنى أحلال أم حرام؟ وما أردت بذلك؟) فكتب إليه: (لا بل حلال، ولكن فى نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم) فقال: الآن فطلقها[1].

---

(١) الطبرى: ٦/ ١٤٧

٥- وأن الحكم الوراثى الذى سلكه العثمانيون فى الحكم غير مقبول من وجهة النظر الإسلامية، ولكن سبقهم إلى ذلك الأمويون، والعباسيون، وكلهم مخالف. وإن احتج بعضهم بصعوبة اجتماع أهل الحل والعقد. والمستوى الذى آلوا إليه، وصعوبة اختيار الخليفة، والظروف التى تعيشها الأمة والتى قد تعرضها لهزات عنيفة قد تبدو فى أثناء التطبيق، فالخوارج الذين بقوا يقاتلون الأمويين والعباسيين، وينتقدون الحكم الوراثى ساروا عليه فى كل دولهم التى أنشئوها سواء أكان ذلك فى المغرب أم فى المشرق، وسواء الأباضية منهم أم الصفوية، إذ وجدوا فى أثناء التطبيق خلافًا لما ينادون به نظرياً. ومع هذا فتبقى الحجة واهية، ولايمكن الاستناد عليها.

٦- إعطاء العسكريين أكثر من حقهم سواء أكانوا من الإنكشارية أم من السباهية فقد تسلطوا واستبدوا وبدءوا يتدخلون فى الحكم ففسد، وأصبحوا أداة فى وجه الإصلاح الحقيقى لما لهم من نفوذ وما يملكون من قوة، كما أصبحوا سبب الفوضى والمفاسد بسبب سوء تصرفاتهم.

٧- إن الضعف الذى آلت إليه الخلافة العثمانية وخاصة فى أواخر عهدها قد أطمع فيها أعداءها الأوربيين، فقامت أوربا كلها تحاربهم بروح صليبية فالروس من الشمال، والنمسا من الغرب، والإمارات الإيطالية، وفرنسا وإنجلترا فى البحار والمحيطات، وتنزلان جنودهما فى الموانئ الإسلامية والبلدان التى تخف عنها قبضة العثمانيين أو البعيدة عن مركز الدولة، وقد تختلف الدول النصرانية فيما بينها على اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية وفى توزيع تلك التركة فيما بينهم، ولكنها تتفق جميعًا ضد الدولة العثمانية وتقيم مؤتمرات عامة لاقتسام المصالح ومناطق النفوذ، وسلخ رقع من الأرض من أملاك العثمانيين وإرسال حملاتهم العسكرية على تلك البلاد مما أدى إلى ضعف الدولة، كما أدى فى الوقت نفسه إلى هزيمة المسلمين وكسر شوكتهم فى تلك الجهات التى جاءت إليها الحملات، وإلى انتشار المفاسد مع ما تدعيه هذه الحملات من أنها جاءت لنشر العلم، ومعاداة الجهل والفقر، والأخذ بيد السكان نحو الحضارة والمدنية وأبعادها عن التأخر والرجعية الذى كان بسبب الخلافة العثمانية، وقد ظهر ذلك واضحًا فى ادعاءات نابليون قائد الحملة

الفرنسية على مصر، على حين كانت دعوى الفرنسيين خاصة والأوربيين عامة على أن هذه الحملة كانت بداية التطور الحضارى فى مصر، وهذا ما سجلته أقلامهم، ودون ذلك وأكثر منه فى كتبهم المغرضة، ومن هذه المصادر المضللة استقت كتابات المؤرخين الحديثة والتى نشأت عليها الأجيال وتربت عليها معلوماتها للأسف الشديد.

واستغلت أوربا النصرانية هذا الضعف واختلاف الكلمة واختراق الصف الذى آلت إليه الخلافة العثمانية، فأوقدوا بينهم نار الحرب بدعم هذا أو تأييد ذلك، فإذا وجدت حركة إسلامية سليمة وجهت الجهود ضدها، ووقفت أوربا مع الأطراف المتنافرة فيما بينها والمخاصمة لها. ففى مطلع القرن الثالث عشر، وجدت ثلاث قوى فى العالم الإسلامى آنذاك تمثل ثلاث وجهات نظر:

كانت الخلافة العثمانية، وتمثل الاتجاه الإسلامى الاتكالى. والذى ظهر عليه الضعف، وكانت مصر محمد على الذى يمثل الانفتاح نحو أوربا، والسير نحو التحرر من قيود العقيدة تمثل الاتجاه الثانى. وكانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب هى الاتجاه الثالث وهو الاتجاه الإسلامى السلفى.

فعملت الدول الأوربية على أن يشن مركز الخلافة ومحمد على مجتمعين الحرب على الحركة الإسلامية فى الجزيرة العربية، حتى قوضته عام ١٢٣٣، ثم عادت فعملت على تقوية محمد على فضم السودان إليه ثم بلاد الشام، ثم أوقعت بينه وبين مركز الخلافة الذى بدا ضعيفًا، ثم خشيت أن تعود الحيوية إلى المسلمين فعملت مرة ثالثة على إضعاف شأن محمد على وإعادته إلى رقعته الأولى التى انطلق منها وهى مصر فقط.

هذا الضعف الذى حل بالخلافة فى أواخر عهدها جعل القبائل البدوية تطمع فيما جاورها، وتشن الغارات على المناطق الحضارية التى تقع على حدود باديتها، وقوى أمر الخونة وقطاع الطرق، واستأسد من لم يعرف الرجولة ما دام عدد من الأعوان يلتف حوله، ولا يفرقون بين الحلال والحرام. كما أوجد هذا الضعف الفوضى فى الإدارة حيث دخلت الرشوة إلى الدوائر، وأصبح للمحسوبيات دور،

وللمنتفعين سلطان، واختلطت المفاهيم حتى ضاع الحق فى ثنايا الباطل، وأصبح من الصعوبة بمكان أن تفرق بين النية الحسنة والقصد الخبيث، وهذا ما جعل بعض الرجالات الذين يريدون الإصلاح يرغبون فى التخلص من الحكم لما آل إليه من مظاهر الضعف ورغبوا فى التغيير.

وقد نتج عن ذلك أيضًا قضية شائكة خطيرة ألا وهى قضية القومية وقد وجد دعاة التجديد موقعهم بين دعاة القومية بل اختلطت عندهم المفاهيم الإسلامية مع العاطفة العربية فتارة يفسرون العربية بالإسلام، أو لا يفرقون بينهما، وتارة أخرى يبدو عندهم الأثر الإسلامى واضحًا، وهم قد عرفوا بذلك، وشهد لهم بالصلاح، وقد استغل دعاة القومية العلمانيوَن هذا الجانب العاطفى فى أولئك فقدموهم إلى الناس وأبرزوا منهم ما يريدون،وأخفوا ما يرغبون فظهروا بالمظهر القومى، وقلدهم الناس، وانطلق ركب القومية يحرك طوية النفوس، ويستغلهم حتى حدث هذا الشقاق، وبرز فى ذلك الوقت رجال خلطوا بين العمل الإسلامى والقومى أمثال عبد الرحمن الكواكبى، وعبدالحميد الزهراوى، وشكيب أرسلان وغيرهم.

وكان السلطان عبدالحميد الثانى يحرص على جمع الأمة وتوحيد الكلمة، ويريد الدعوة إلى الإسلام، وطرح فكرة الجامعة الإسلامية، ولكنه لم يشعر إلا والمركب قد تحركت من تحت أقدامه. وكان الهجوم ينصب عليه من كل جهة، هجوم صليبى حاقد، وهجوم يهودى شرس يدعم الأول، ويستند عليه، وقد واجه السلطان العثمانى عبدالحميد ذلك الهجوم بسبب وقوفه فى وجه اليهود الذين يريدون أن يؤسسوا لهم مستعمرات فى فلسطين، وقد رفض كل المغريات التى عرضت له، ووقف صامدًا فى وجه المحاولات والجهود التى بذلت له بل والتهديدات التى وجهت إليه،فانبرت له أجهزة الإعلام اليهودية، وسخرت معها الأجهزة الصليبية والتقت معها، فأزيح ذلك الرجل بانقلاب خسيس، فكان الخليفة المظلوم الذى سقط نتيجة الإعلام اليهودى وحقدهم الدفين، ووقعت الواقعة، وانتصر المستغربون، وتجرأت الأمة، ودخل الاستعمار إلى البلاد، وفشت بين الزعماء روح الإلحاد.

هذه هى السلبيات والإيجابيات في تاريخ الدولة العثمانية ولكن إيجابياتها كانت أكثر من السلبيات، ولا يمكن ادراك ذلك إلا بقراءة تاريخ الدولة العثمانية قراءة جديرة لا على أنه تاريخ عثمانى فقط ولكنه تاريخ أمة مسلمة واحدة، تفاعل المسلمون في مشارقها مع المسلمون فى مغاربها تفاعلاً إيجابياً أو سلبياً انعكس أثره على الأمة الإسلامية بأكمله.

ولعلنى لا أكون مبالغًا إذا قلت:

نظر الأوربيون إلى الدولة العثمانية على أنها دوله إسلامية حربية من الطراز الأول تروم تحويل دار الحرب إلى دار الإسلام[1]. ومن هنا نبتت حملات التشهير بالدولة سواء وهى فى أوج مجدها أو عصر اضمحلالها أو بعد زوالها. وقد امتدت هذه الحملات إلى ممتلكات الدولة فى أوربا وإلى ولاياتها العربية، وكل هذا بسبب نصرة العثمانيين للإسلام ورفع لوائه عاليًا خفاقًا على أيديهم ليبدد ظلام الجهل والتخلف الذى عاشت فيه أوربا خلال القرون الوسطى. فهل يستحق هؤلاء العثمانيون المديح أم التوبيخ والتشهير؟

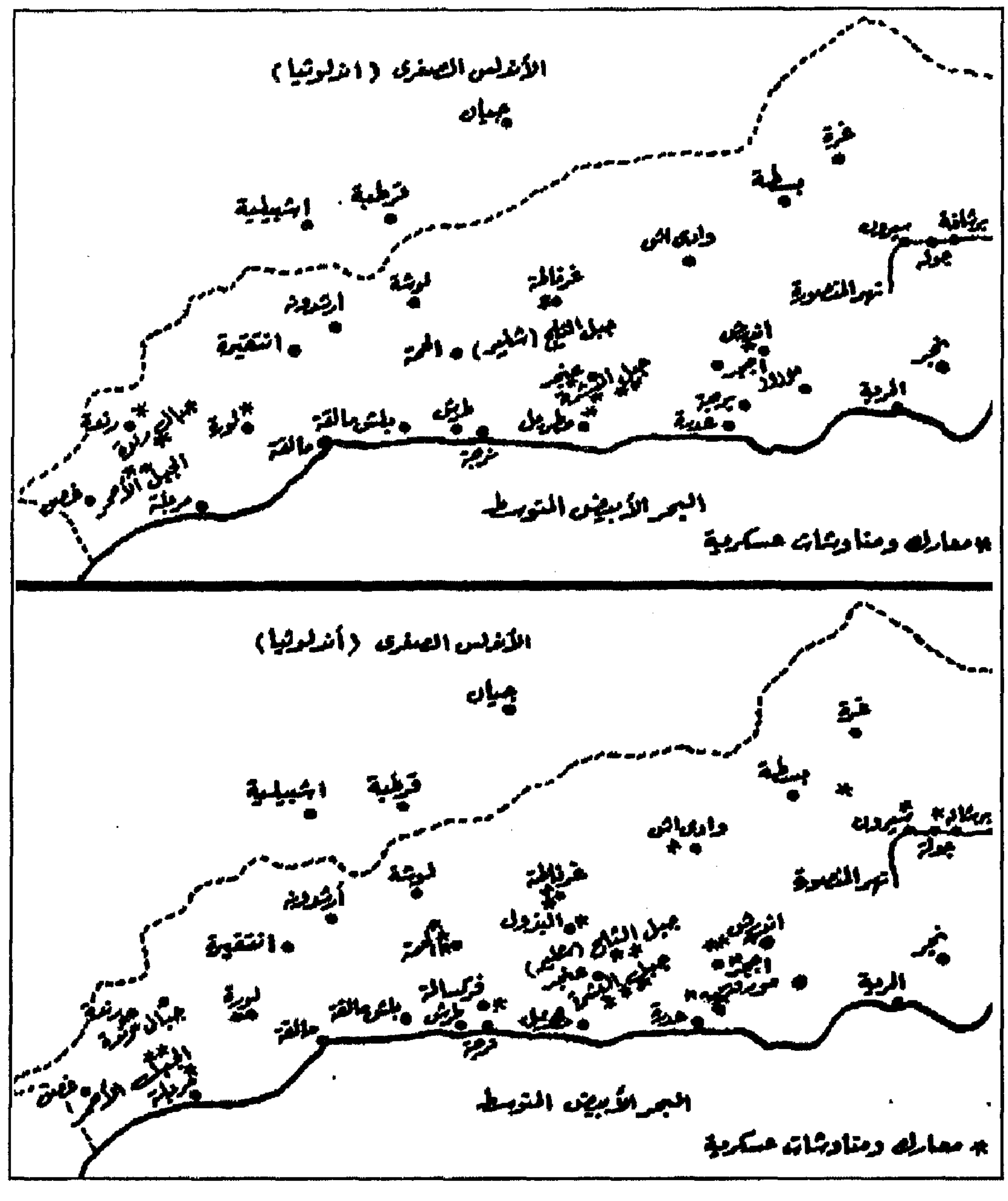
إن تركيا التى وقفت وقفة الحق لنصرة الشعوب المظلومة فى الأرض ومقاومة طغيان الملوك واستبدادهم فيما مضى فها هى اليوم لم تحد عن نصرة الحق، ويسير أبناؤها اليوم على درب الآباء والأجداد، فكانوا خير خلف لخير سلف. ولا نقول ذلك من فراغ لكن نقوله من خلال مواقفها المشرفة وسياستها الرشيدة ووقوفها اليوم بجانب الفلسطينيين وتبنى قضيتها فى المحافل الدولية، وتدعو فى صلابة إلى إنهاء عزلة الفلسطينيين فى غزة، وحسبنا فى ذلك ما تكبدته من استشهاد أبنائها وسفح دمائهم الذكية على سطح أسطول الحرية الذى جاء لكسر حصار غزة. فما أعظم وقفاتهم البطولية، وأنعم بهم من مجاهدين فى سبيل الله.

❁❁❁

(١) الدولة العثمانية دكتور عبد العزيز الشناوى مرجع سابق ج٢ ص٦٩٠

الخرائط والصور والوثائق

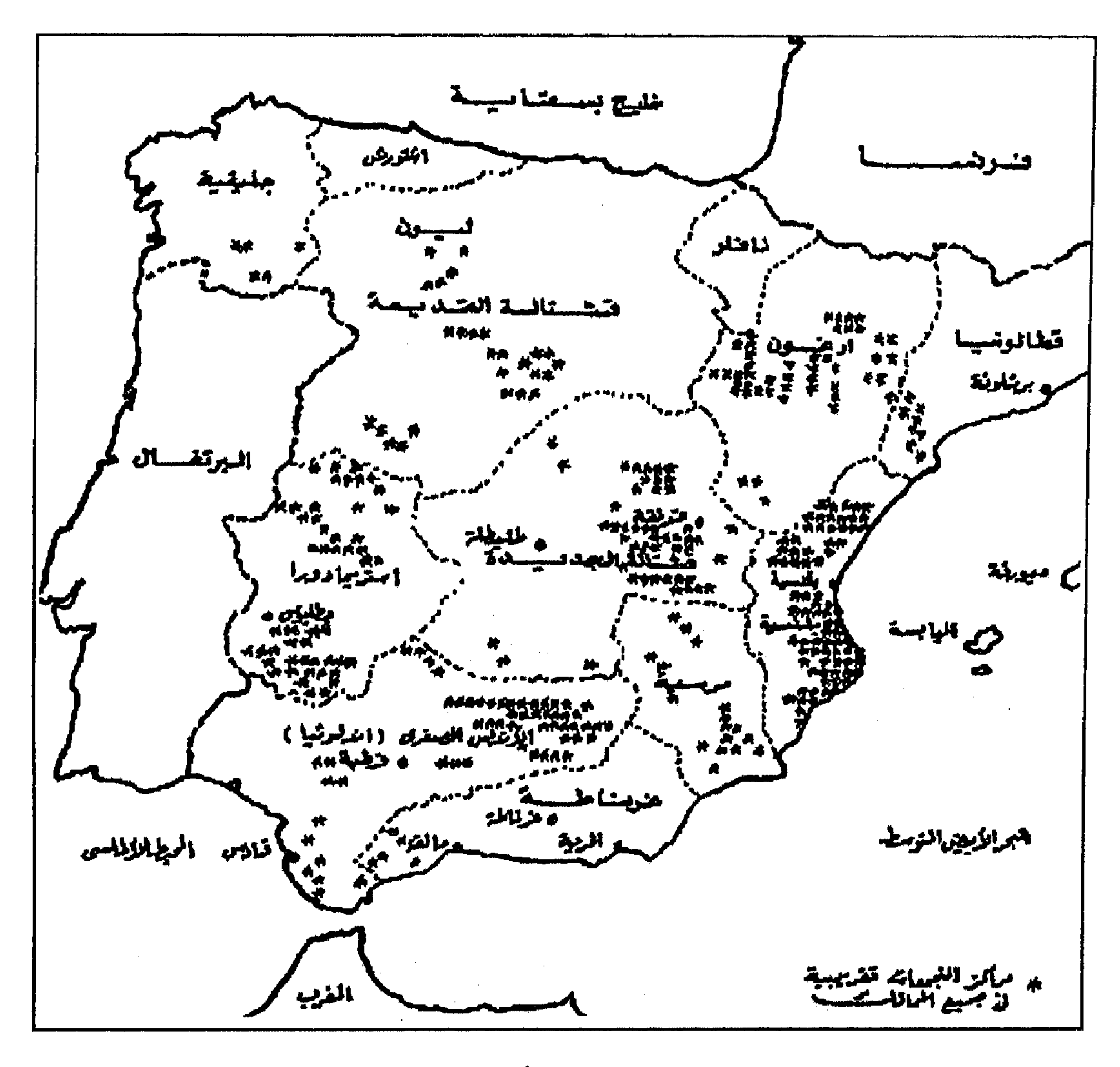
الثورة الأندلسية الأولى



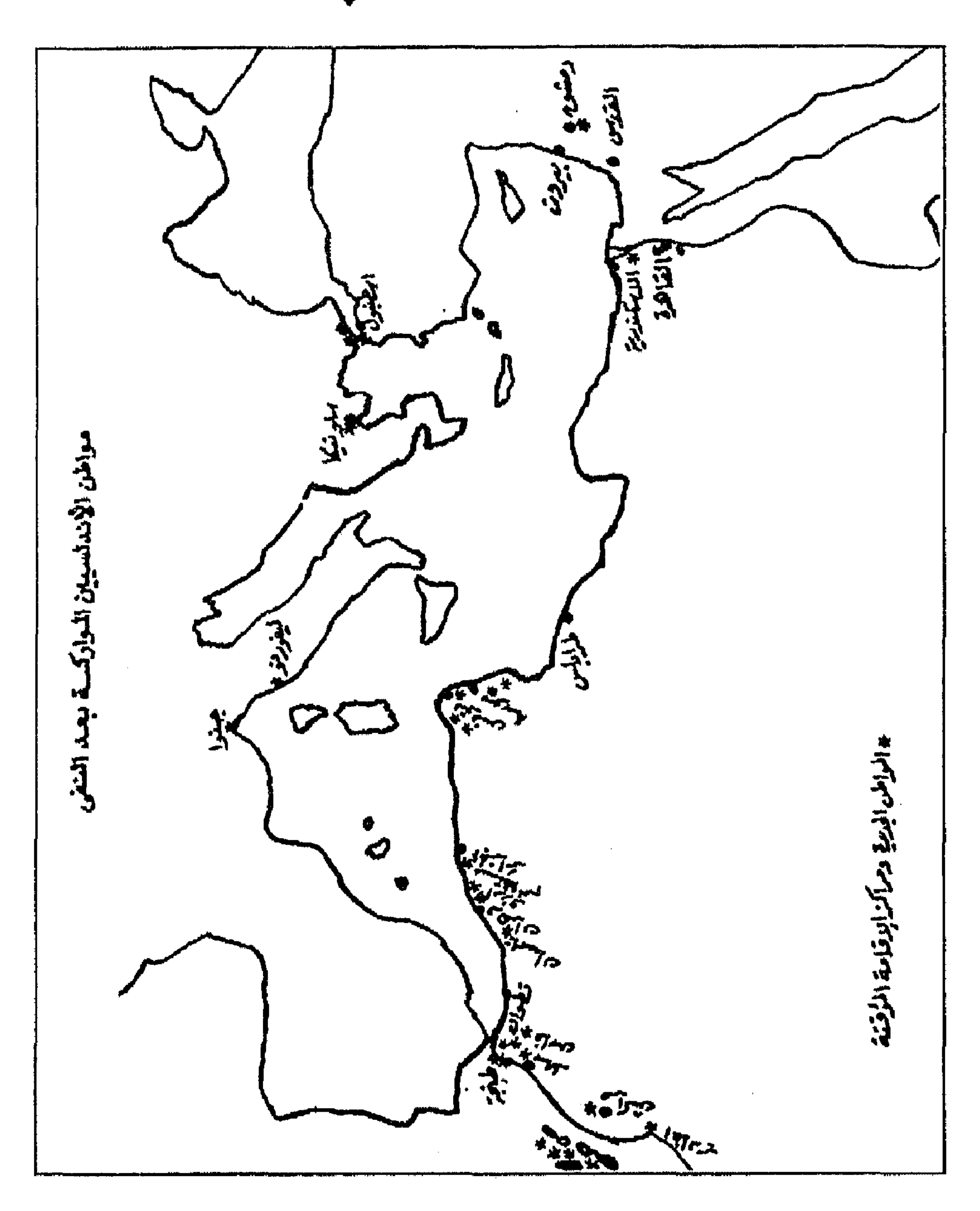
الثورة الأندلسية الكبرى

خريطة شكل (١) ثورة الأندلسيين الموراركة الأولى والثانية،

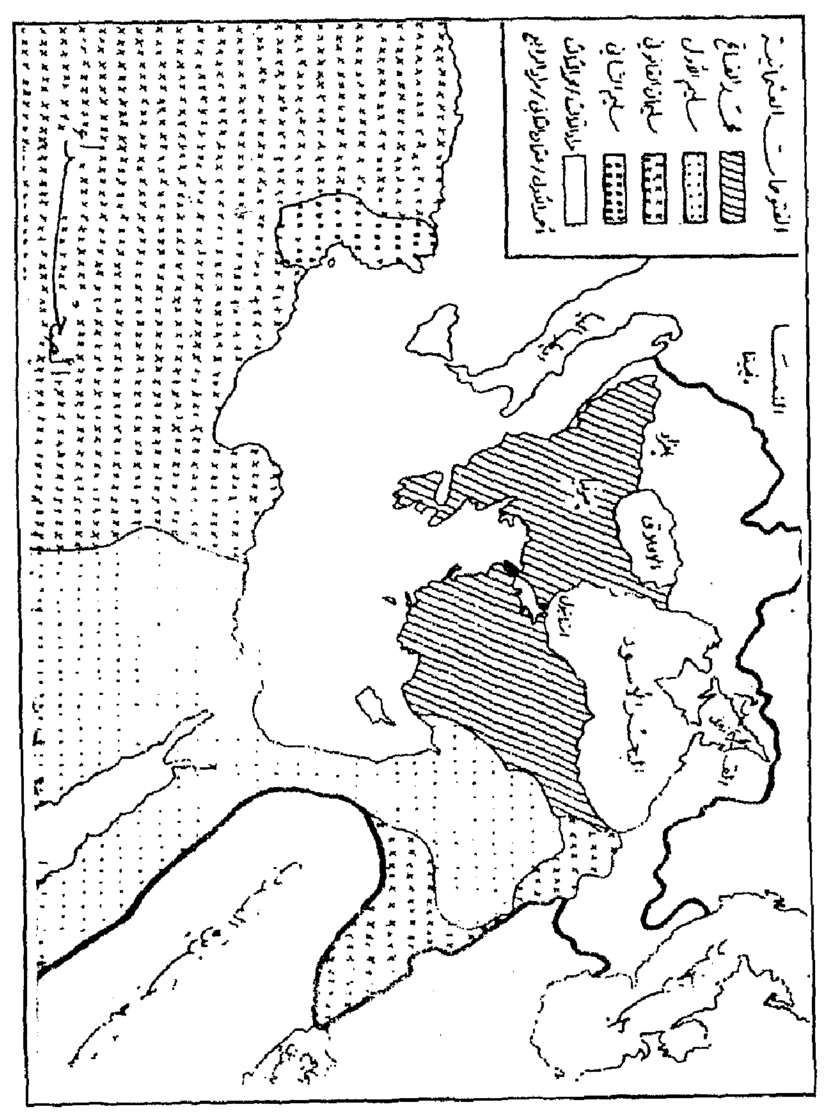
نقلاً عن كتاب الأندلسيون المواركة. عادل سعيد بشتاوى.



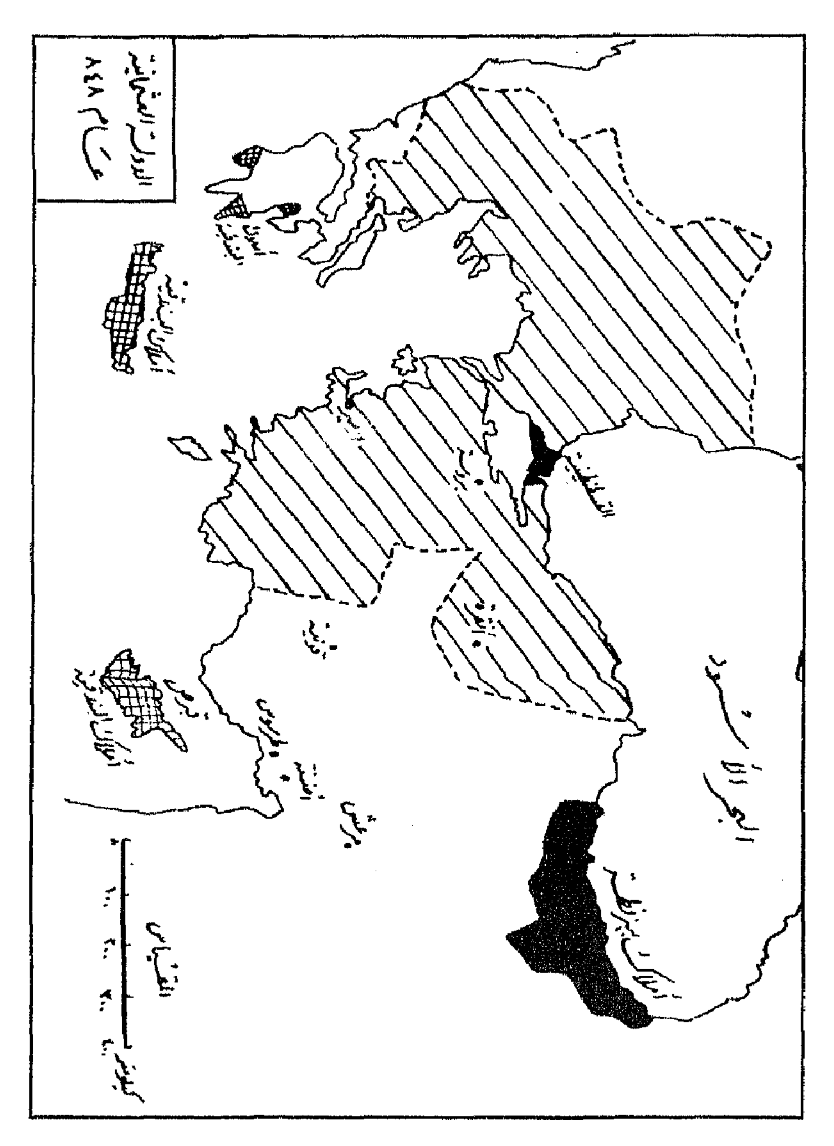
خريطة شكل (٢) مراكز تجمعات الأندلسيين الموراكة فى إسبانيا
وقشتالة نقلاً عن كتاب الأندلسيون الموراكة، عادل سعيد بشتاوى



خريطة شكل (٢) مواطن الأندلسيين الموراكة بعد النفى
نقلاً عن كتاب الأندلسيون المواركة، عادل سعيد بشتاوى

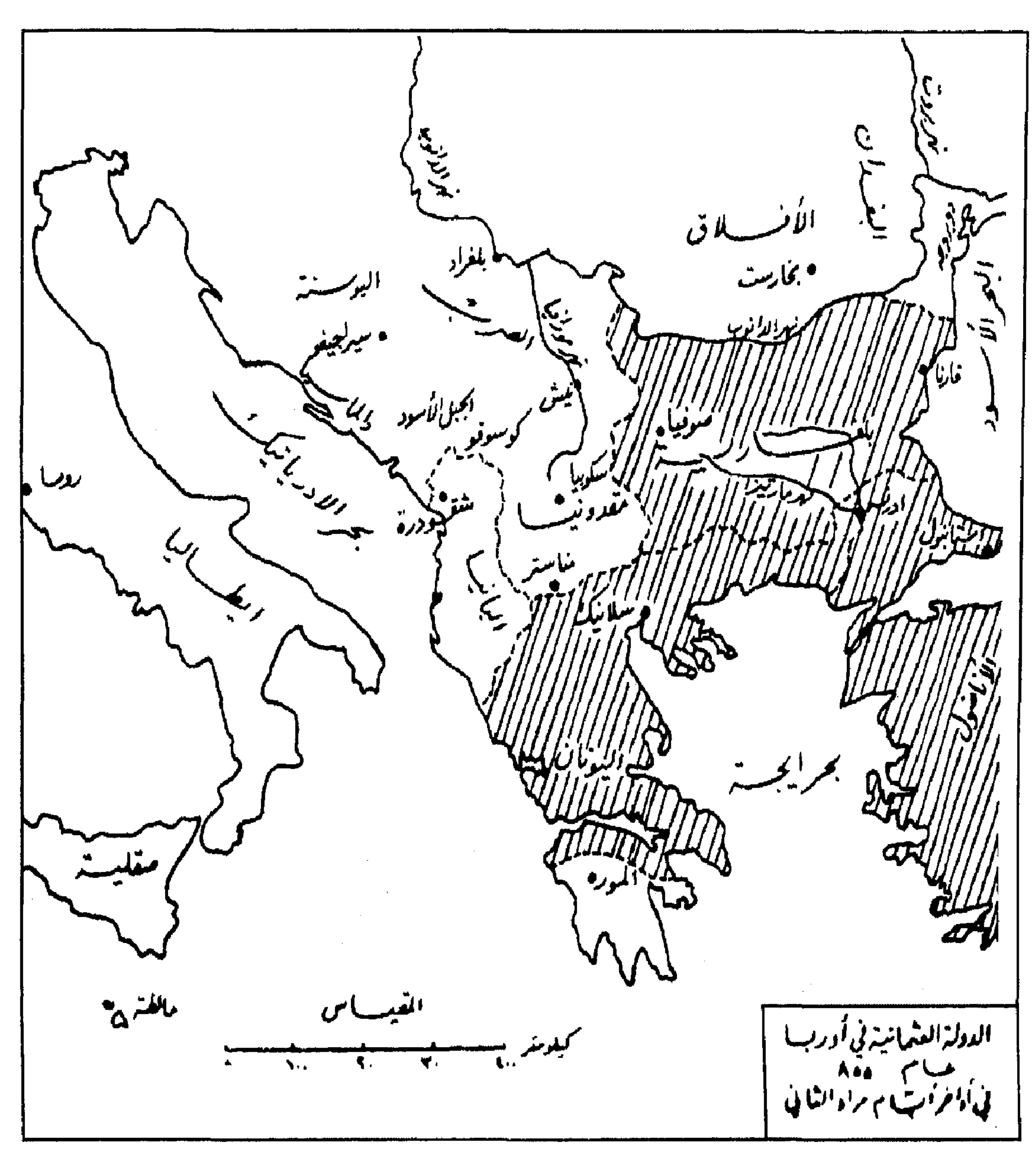


خريطة شكل (٤) الفتوحات العثمانية في عصور القوة
نقلاً عن كتاب التاريخ الإسلامي، محمود شاكر/جزء ٨



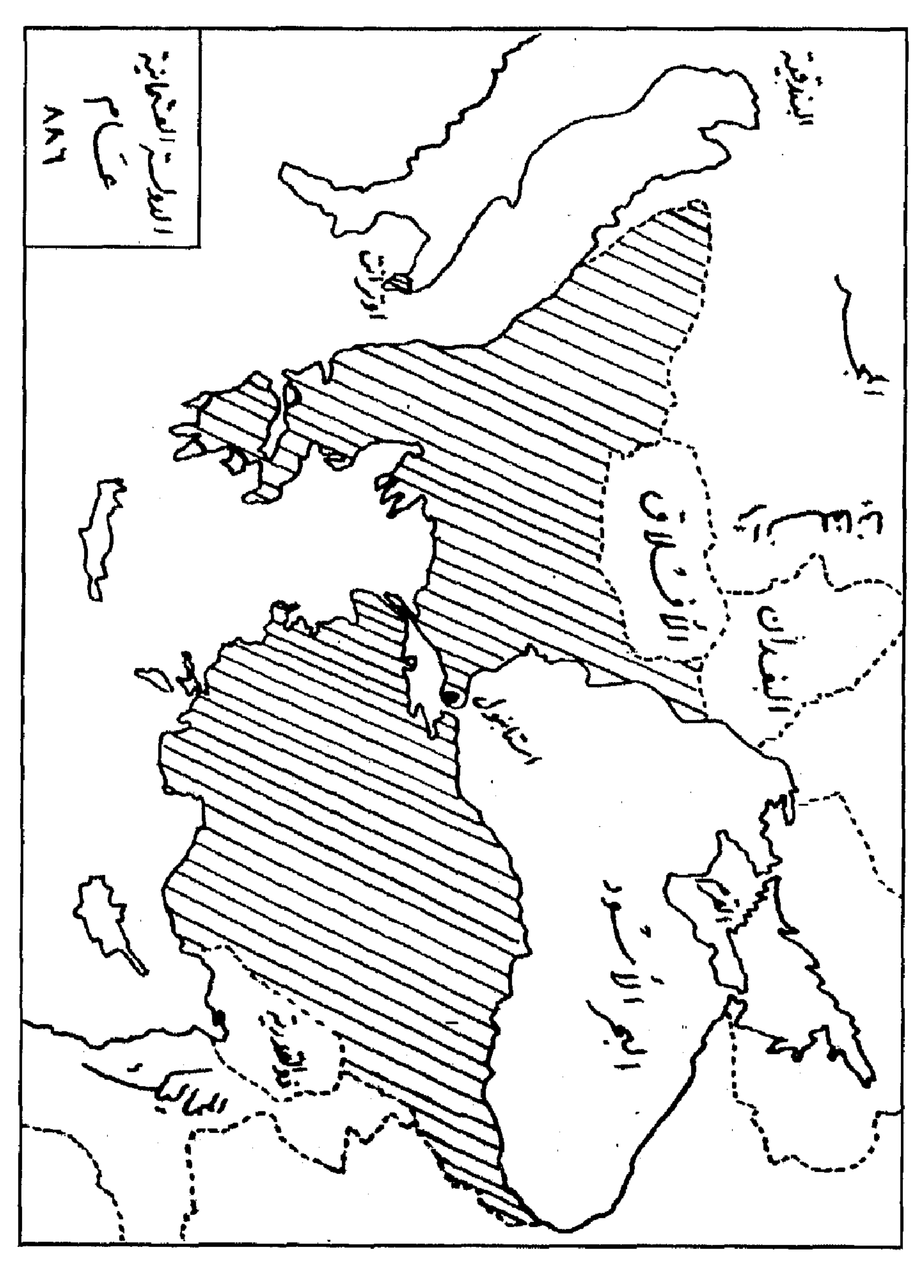
خريطة شكل (٥) اتساع الدولة العثمانية عام ٨٤٨

نقلاً عن كتاب التاريخ الإسلامي، محمود شاكر/جزء ٨



خريطة شكل (٦) اتساع الدولة العثمانية ٨٥٥

نقلاً عن كتاب التاريخ الإسلامي، محمود شاكر / جزء ٨



خريطة شكل (٧) اتساع الدولة العمانية عام ٨٨٦

نقلا عن كتاب التاريخ الإسلامى، محمود شاكر / جزء ٨



أمير البحر خير الدين باربروسا

صورة محفوظة بمتحف البرادو بمدريد، نقلاً عن كتاب نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين

محمد عبدالله عنان

ويرتدى فى الصورة ثوباً طويلاً أحمر، وعباءة بيضاء، وقلنسوة صغيرة حمراء، وله شارب طويل أشهب



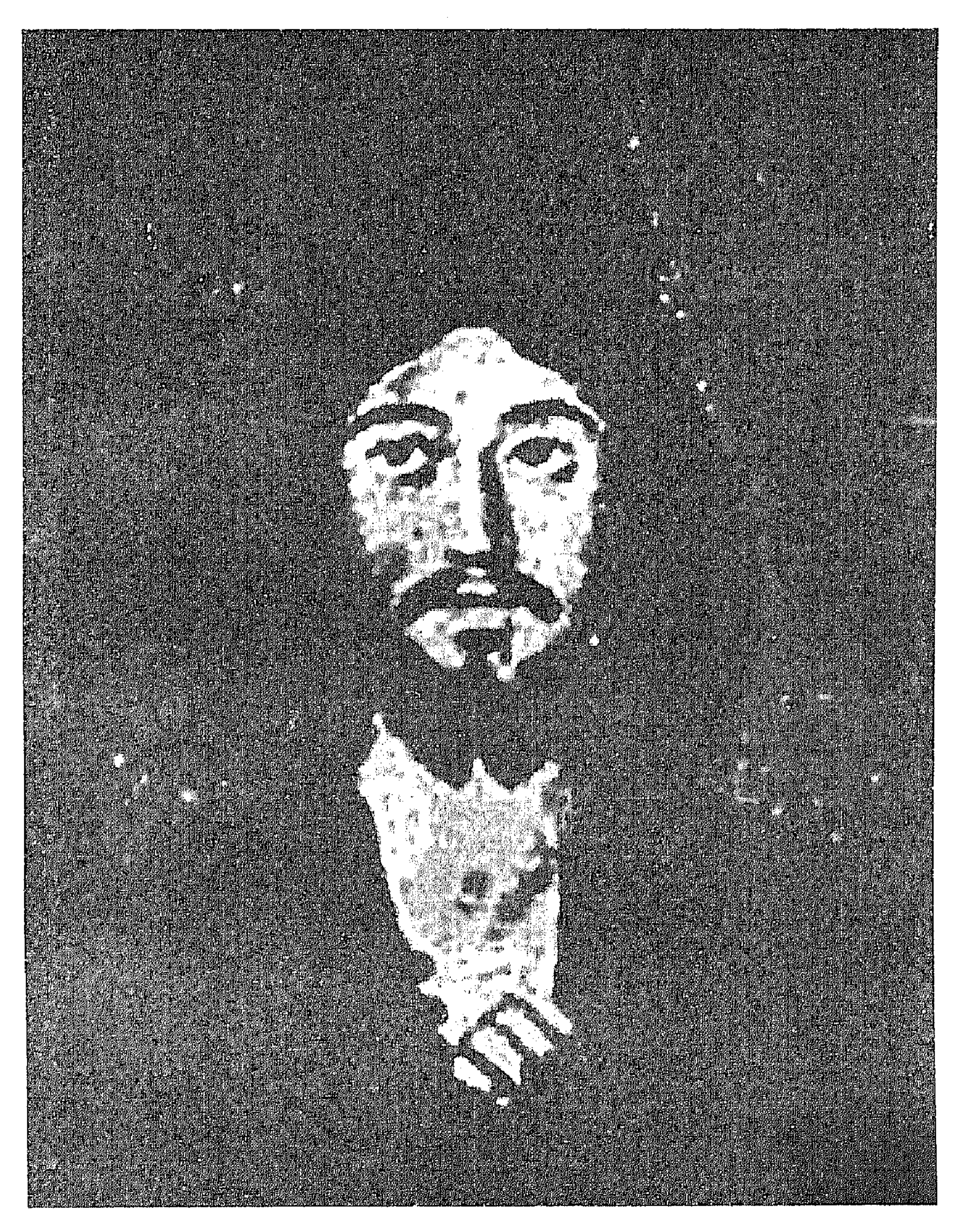
الملك فرناندو الخامس



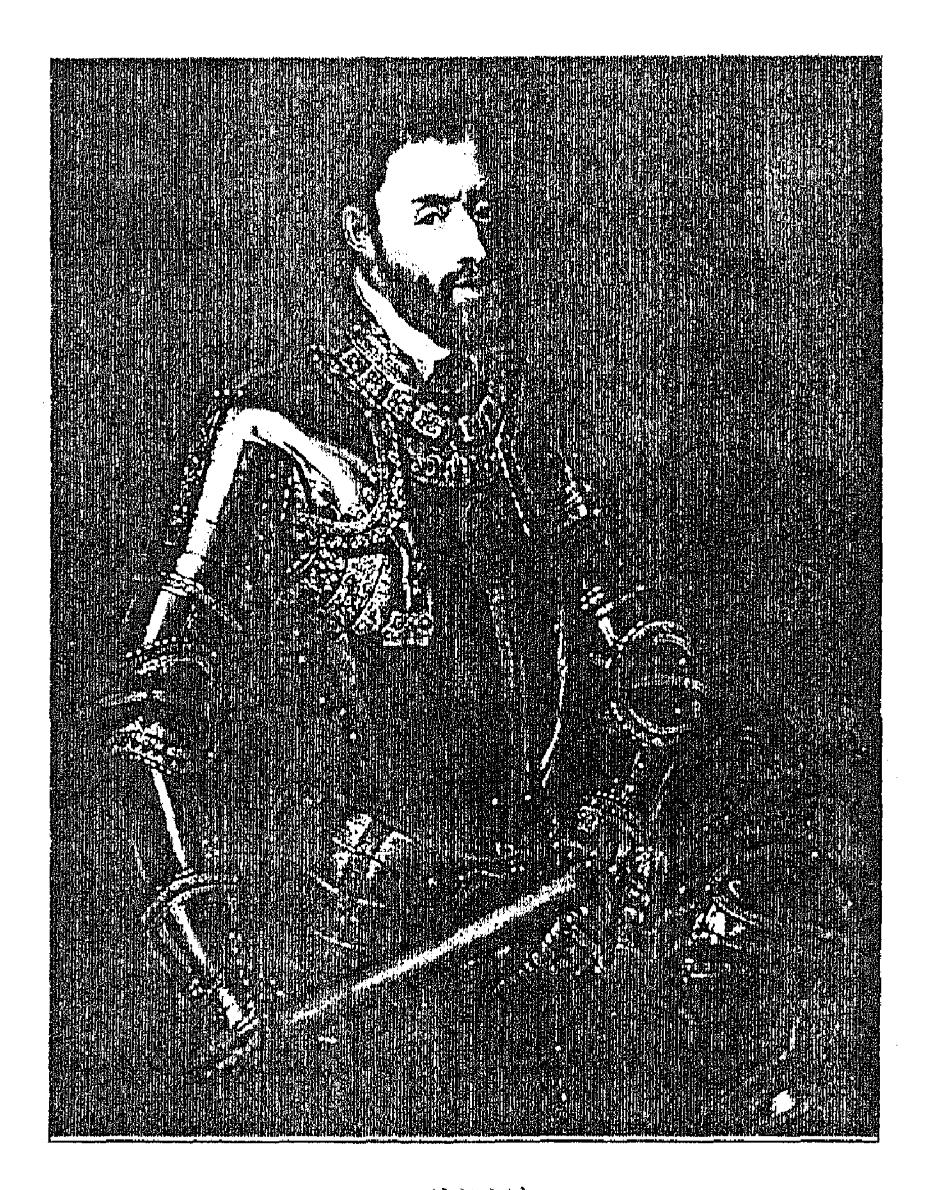
الملكة إيزابيلا الكاثوليكية



صورة أخرى لخير الدين باربروسا



الملك أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة

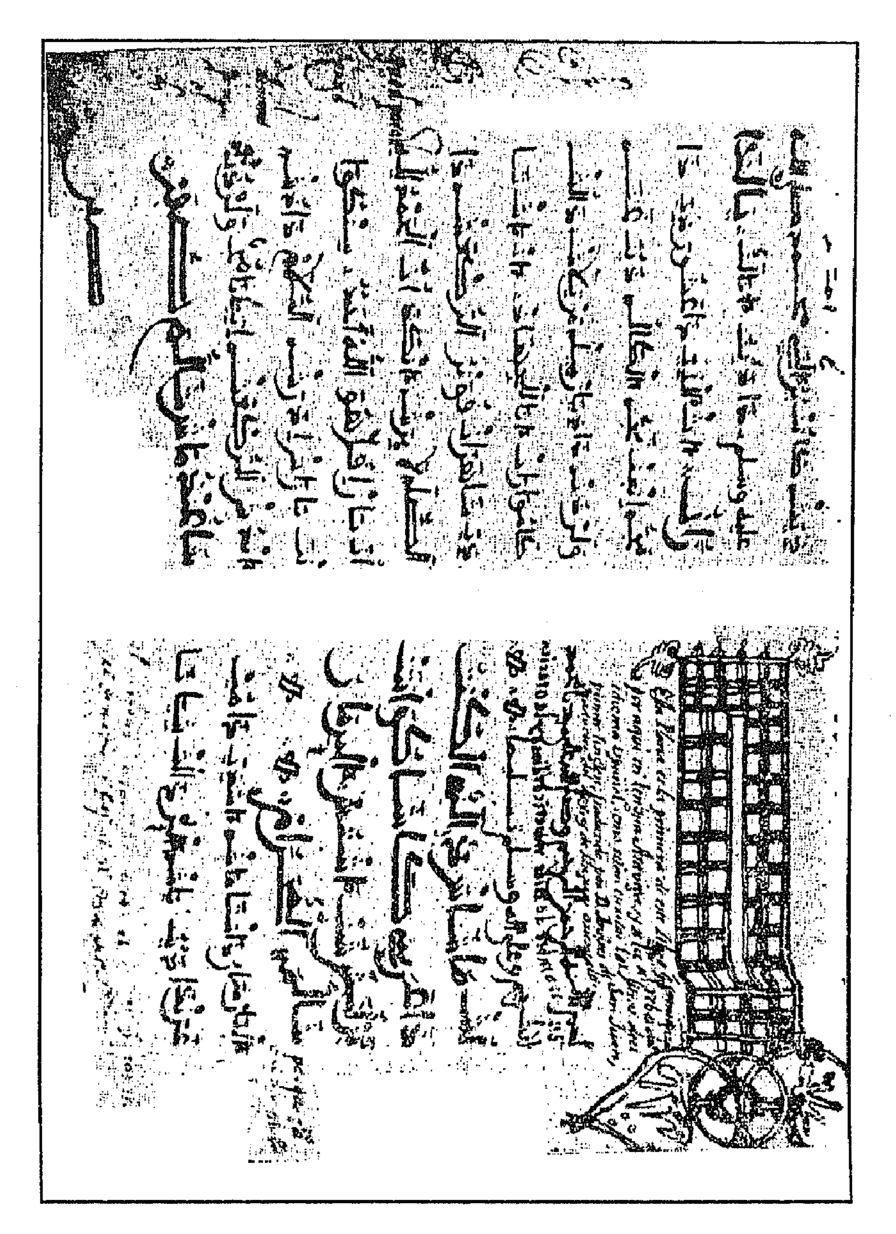


شارل الخامس

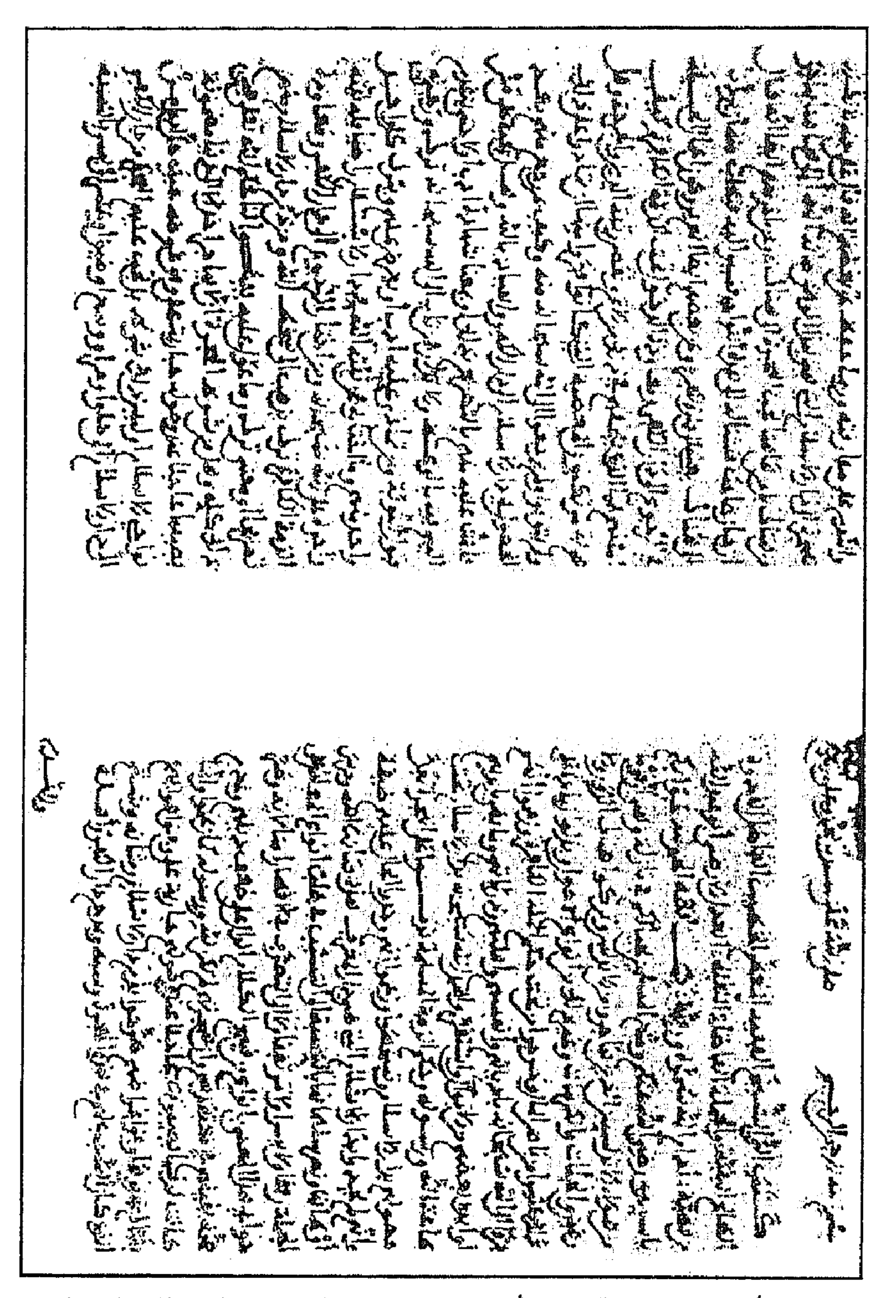


فيليب الثاني

صفحتان من كتاب التفسير مكتوب بالألخميادو ومحفوظة بمكتبة مدريد الوطنية رقم ٢٥٣٥، نقلاً عن كتاب نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، محمد عبد الله عنان



الصفحتان الأوليان من كتاب فى الأدعية مكتوب بالألخميادو وفى نهايته بالعربية الركيكة أنه كتب سنة ٩٧٧هـ (١٥٧٩)م ومحفوظة بمكتبة مدريد الوطنية رقم ٥٣٠٦ نقلاً عن عنان- مرجع سابق



صفحتان أوليان من رسالة «إسنى المتاجر فيمن غلب النصارى على وطنه ولم يهاجر»
وهى توجد ضمن مجموعة محفوظة بالأسكوريال رقم ١٧٥٨ الغزيرى
نقلاً عن عنان. مرجع سابق

الوثيقة رقم ١

رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١م

نقلا عن كتاب الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين للدكتور عبد الجليل التميمي

نص الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الكريم وعلى آله وصحبه، يقبل مواطئ الأقدام الشريفة التى ثراها،إذا مر بالعيون المردة أبراها،ورحاب الأكف الكريمة التى (كذا)[1] عطاها (كذا)، إذا مر بالأرض المملحة أثراها،أقدام شأنها السعى فى الخيرات والقربات، وأكف شأنها فعل الخيرات والمكرمات،أدام الله أيامها ونصر أعلامها، وأوطاء(كذا) ركابها أعناق الملحدين والمتمردين،وأنعشهم فى كل وقت بنصر وفتح مبين،نسأل (كذا) الله تعالى أن يجعله أركابًا لم يزل ممتطيًا مطايا السعد، محفوفًا بالسعود،قطبًا للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود، وأن يجعله دائمًا نسيم الخلافة العلية فى منصب الوراثة، وحائز الفضيلة السيئة من خدمة المساجد الثلاثة، وله ملك مصر وأنهارها،والشام وديارها، والحجاز وشرف مقدارها، وإلى حضرته مجتمع الرفاق من الآفاق،وإليها تحتج الأجسام بالرحلة والأفئدة بالأشواق،وعلى جميع تلك الحضرة العليا لمحاسن الدين والدنيا،انعقد الإجماع والأصفاق (كذا)، مولانا السلطان الملك الأشراف الأضخم الأرفع الأعرف الأعلم الأحلم الأرحم الأرأف (كذا)، الأجود الأكرم الأسمح الأعطف،قامع الملحدين وقاطع دابر الطغاة (كذا) والبغاة (كذا) والمردة والمفسدين،ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة، الفائز بشرف الدين والدنيا من الجهاد فى سبيل الله والسقاية فى المسجد الحرام والعمارة،مطهر البسيطة من دون فسادها،ومظهر آيات الرأفة والرحمة فى بلادها،سلطان الإسلام والمسلمين،عز الدنيا والدين وظل الله على الخليقة أجمعين السلطان بن السلطان بن السلطان،السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان،مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب أكرامه وأفضاله، وأدام نجم سعده المنير باهر الإشراق،وجعل سهم ضده الحقير لازم الإخفاق، وحفظ بشهب

---

(١) كلمة كذا مكانها كلمة ساقطة فى الأصل وقد استعاض عنها الدكتور عبد الجليل التميمى بهذه الكلمة. انظر الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٣٥– ٣٧.

أولياء مجده من مـردة النفاق، جميع الأقطار والآفاق، فهو الإمـام الهمام، والأسد البـاسل الضرغـام، الذى مهـد الله تعالى بدولتـه البلاد، وأمن ببـركة إيالتـه فى مسالكها وممالكها العباد، ومـزق به ثوب الفساد، وقطع بسيفه وأسنانه وبادرتى قلمه الأعلى ولسانه دابر أهل العـناد، فسعد الإسـلام بدولته، واعتـز دين الله العزيز فى مدته، وخـمدت نيـران البغى بسـعادته، وامـتدت الأمـانى وشمل الأمان بـحسن سيـاستـه، نسأل (كـذا) الله تعالى أن يصل لسـيدنا ومـولانا عادات (كـذا) نصره وتمكينه، ويريه قرة العـين فى دنياه ودينه وبعد: فـإن عبيـدك الفقرا (كذا) المسـاكين المنقطعين بجزيرة الأندلـس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وسـتون ألفًا منهم من رسـايهم بغرنـاطة وغيـرها خـمسـون والباقـى من عامـة المسلمـين، رافعـين شكواهم، وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، ولما هم فيه من مكابدة الكفار، ومـقاساة (كذا) التـضييق والأضرار، وجـو على الشرك آناء الليل وأطراف النهـار، وتحريقـهم إيانا بالنار قـد تكالب العـدو علينا، مـدد السوء والضـرر إلينا وأحاطت بنا الأعداء من جانب، ورمونا عن قوس واحد بسهم صائب، وطالب من الأيام، وعاشت فينا يد النكاية والإيلام، وخذلنا جـيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان، وقـد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجـاهد فى سبيل الله خـير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كـان بالجزائر، اجـتمـعت أهل الإسلام على إطاعـة مولانا ومـحبـته بالخـواطر والضمائر (كذا)، وانتظم الـعدل والشرع والأمان فى البادى والحاضر، فـاستغثنا به فأغـاثنا وكان سببـًا فى خلاص كـثير من المسلمـين، من ايدى الكفرة المتـمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشـال ويواحى تلمسان، فلما سـمع الكافر اللعين بذلـك ولم يقدر على منعنا بالسيـاسة والإهانة والحرق بالنـيران، علم أنا اختـرنا المصيبـة فى الأموال والأبدان وأثرنا ديننا على سـاير الأديان، فلما صدقـت الضمائر، وبلغت القـلوب الحناجر، خلف من عصبتنا واجتمـاع كلمتنا وتركنا أمولنا وأوطاننا وهجرتنا وفرارنا إلى بلاد

الإســلام لسلامــة ديننا، تحاير فى أمــره، وجــمع إليه أهل تدبيــره وحزبه، فــدبروا ومكروا وهل يحــيق المكر الســيئ إلا بأهــله؟ واتفق رأســهم المعكوس، وتدبيــرهم المنكوس، على قتال الجزائر، لئلا يبقى ببلاد المغــرب لأهل الإسلام ناصر، فعاقبهم الله بعقاب أصــحاب الفيل، وجعل كيدهم فى تضــليل، وأرسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا)، فجعلهم بسواحل البحــر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل، والآن اشــتد غضــبهم على أهل الإسلام، وهم يتــوسلون بالرهبان والأصنام، ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود ذو (كذا) الجلال والإكرام، وهم عازمين (كذا) على الجزائر، الله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر، يا مولانا سلطان البــرين والبحرين نصــركم الله، المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سـياج لأهل الإسلام، وعــذاب وشغل لأهل الـكفر والطغــيان، وهى مــوسومة باســمكم الشريف، وتحت إيــالة مقامكم المنيف وقــد أصبــحت القلوب المنكسرة بهــا عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة، وطراز رونقها المجاهد فى سبيل الله عبدكم الوزير الأجل خير الدين، الممــتثل لأوامر مولانا، وتتاج عز والدينا والدين، فــإنه أحيا هذا الوطن، وجــمــيع الــنواحى والسكن، وأرعب قلوب الــكفــار، وخــرب ديار المردة والفجار، وأظــهر نظام السلطنة العثمــانية وأحكام مولانا نصره الله حــتى تزينت بها الديار والأمصــار، فنرغب ونطلب من مولانــا نصره الله فيــما يراه من إرســاله لهذا الوطن أن رءا (كذا) مولانا صلاح (كذا) فى ذلك فيــكون ذلك غاية الإحسان لجميع أهل الإسلام وقهر ونكاية لحزب الشيطان، وقــد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى (كــذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإســلام لا زال بالعز موصوف (كذا) وبالبهاء والنصر محفوف (كذا) بأن يغيثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشاء (كذا) إلى الجزائر، فإنه لهذا الوطن نعــم ناصر وجميع أهل الشرك منة خايف وحاير (كذا)، والسلام التام على المقام الشريف العالى ورحمة الله بتاريخ أوائل شهر شعبان أحد شهور سنة ثمانٍ وأربعين وتسعمائة.

نقلاً عن كتــاب الدولة العثمانيــة وقضية الموريسكيــين الأندلسيين للدكتــور عبد الجليل التميمى.

وثيقة رقم ٢
رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين سنة ١٦١٤م

النص التركي للرسالة

افتخار الأمراء العظام العيسوية محمد كبراء الفخام فى الملة المسيحية مصلح المصالح جماهير النصرانية ساحب أذيال الحشمة والوقار صاحب دلائل المجد والافتخار ونديك دوزى ختمت عواقبه بالخير وأصلح الله تعالى شأنه توقيع رفيع همايون واصل أو ليجاق معلوم أولاكه مقدما ولايت أسبانية ده ساكن أولان مدجل طايفه سندن سليمان وعلى نام مسلمان مدجللر دركاه معلمامه عرض حال صونوب بوندن أقدم مسلمان مدجل طائفه سندن بعضيلرى قالقوب ممالك محروسمه داخل أولوب لكن حالا مزبورلردن بعضيلرى أيده أولوب دريادن كلمكه خوف ايدوب واقتدار لرى داخلى أو لمغه قرة أيله ونديلك طرفندن ممالك محروسمة كلوب داخل أو لمق مراد لرى أولوب ونديك طرف ندن ممالك محروسمة كلمك أوزره أولان مسلمانره دخل وتعرض أولنميوب أمين وسالم مرور وعبور ايتدرمكز رجا ايلديلر ايمدى سز قديم الاياملن سدة سنية، سعادت مدار وعتبه عليه كردون اقتدار مزه خلوص قلب وحسن اعتقاد ايله وعرض اخلاص واختصاص ايده كلمش دولت عليه مزك خير خواهى أولوب بومقوله استانه، سعات اشيانه مزه متعلق خدمت لرده معاونت ومظاهرت ايده كلد كلز عز حضور فائض النور مزده محقق وظاهر أولدوغى اجلدن طائفة مزبوردن حاليا سزك ولا يتكز دهب أولان مسلما نلره أجازت ويريلوب قره طرفندن أمين وسالم بروجانبه أرسال وأيصال ايتمكنز بابنده نامة همايون سعادت مقر وغمز يازيلوب ارسال أولنمشدر كركدركه:

وصول بولدقده قـديم الأيامدن أستانه سـعادن أشياء ودودمان مـخلد الاركانمزه أولان خلوص محبت وداد وصفاى عقيدة اعتقاد كوز موجبنجه ذكر أولنان مسلمان مدجل طائفة سى اسبانية دن قـالقوب ممالك محروسة مزه كلوركن ونديك ولايتنه أوغـراد قلرنده منازل ومـراحلده ومـعـبـر لرده كندو لرينه وطوار لرينه وأسـبـاب وارزاقارينه عهد وأمانة مخالف برفـردى دخل وتعرض اتدوميوب أمين سالم ممالك محروسة مزه ايصال

أيليه سز شـمديت دكين حسن اهتمـام كز ظهوره كتـورلدوك اجلدن بوفقرانك دخى سهولت اينه دار الامان اولان ممالك محروسة مزه لرينه مساعدة كوز ظهورى وتحصيل رضاى اقتـضاؤه بادى وأساس مصائحة ومعاهدة نك اسـتحكام وامتدادى أولا جغنده اشتباه يوقـدر اكاكوره تقيد كوستروب عـرضى الحال ومرفه البال روانه قلمرينه سعى واهتمام أيليـه سز تحريرا فى أواسط جمادى الأولى سنة ثلاث (كذا) وعشرين وألف.

مقام قسطنطينية المحروسة

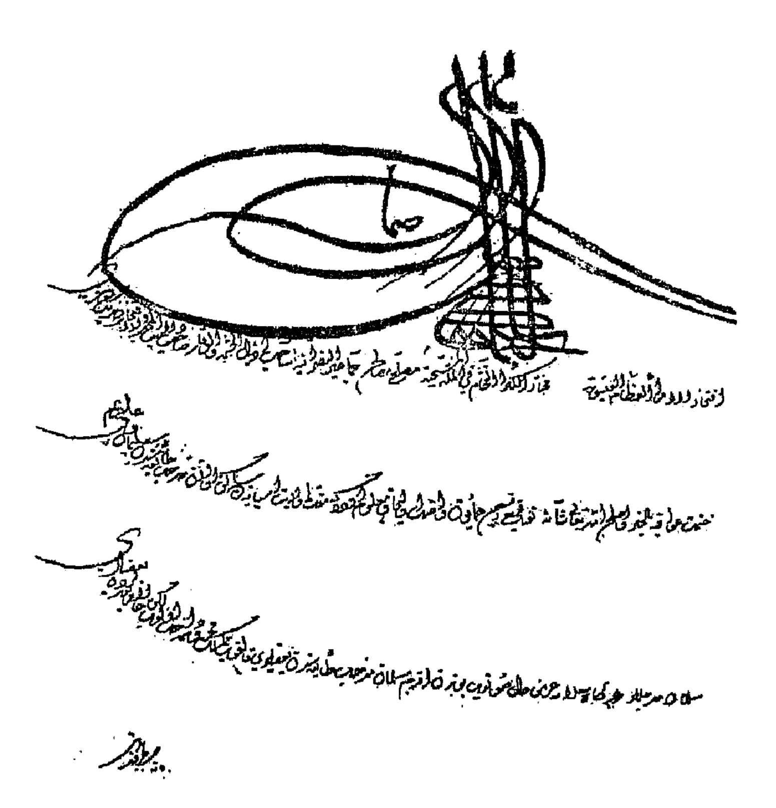
نقلا عن كتاب الدولة العثمانية

وقضية الموريسكيين الأندلسيين

للدكتور عبد الجليل التميمي



وثيقة رقم (٣)
رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين سنة ١٦١٤م



الشكل رقم (٢) رسالة من السلطان أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين سنة ١٦١٤م.

تعريف الرسالة:

افتخار الأمراء العيساوية مختار الكبـراء الفخام فى الملة المسيحية، مصلح مصالح جماهير النصـرانية، ساحب أذيال الحشمة والوقار، صاحب دلائل المجـد والافتخار دوج doge البندقية ختمت عواقبه بالخير وأصلح الله تعالى شأنه.

نحيطكم علمًـا بهذا التوقـيع الرفيع الهمـايونى بأن سليمان وعلى وهمـا طائفة المدجلين (المدجنين) القانطين بالأندلس، قد رفعا إلى أبوابنا العالية عرضًا أعلما فيه

أنه قد ورد سابقا إلى الممالك المحروسة طائفة من المدجلين المسلمين كانوا قد غادروا بلادهم وأنه لايزال منهم هناك أناس يريدون القدوم علينا عن طريق البر ليدخلوا الممالك وهم يرجون أن لا يتعرض لهم ولا يتدخل فى شأنهم أحد، إذا ورد هؤلاء المسلمون عن طريق البندقية إلى الممالك المحروسة، فلتسمح بمرورهم وعبورهم بالأمن والسلامة.

نظرًا إلى أنكم ممن يريد الخير لدولتنا العلية وما زلتم تظهرون الإخلاص والولاء من قديم الأيام آلة سدة سعادتنا وعتبتنا العالية، عدو الأفلاك، عن نية خالصة وطوية حسنة فإنه واضح وجلي لدى حضرتنا العزيزة الفائضة الأنوار، أنكم كنتم وما زلتم تقومون بأمثال هذه الخدمات وتقديم المعونة لسدة سعادتنا السنية، ونظرًا لكل هذا فقد حررنا وأرسلنا إليكم هذا الكتاب الميمون الهمايونى لتجزوا من هو الآن ببلادكم من طائفة المسلمين أن يعبروا عن طريق البر إلى ممالكنا آمنين سالمين.

وبناء على خلوص محبتكم ووددادكم وصفاء عقيدتكم لهذه الأبواب السعيدة المشيدة الأركان من سابق الأيام والأزمان، إذا ما ورد هذا الكتاب إليكم، أن توصلوا إلى ممالكنا المحروسة كل ما يريد القدوم عليها من طائفة المدجنين المسلمين الذين خرجوا من إسبانيا وحلوا بولاية البندقية، فلا تسمحوا لأحد أن يتدخل فى أمورهم أو يتعرض لهم ولا أرزاقهم وأموالهم ودوابهم خلافًا للعهد والأمان (بيننا)، وهذا أثناء مرورهم بالمنازل والمراحل والمعابر ليصلوها آمنين سالمين، وقد سبق واتضح لنا حتى الآن حسن اهتمامكم، وتيقنوا أن مساعدتكم لهؤلاء المساكين بدخولهم بلادنا التى هى دار الأمان وسيلة لتحصيل رضانا الميمون وسبب لتحكيم بنيان المصالحة وتمديد المعاهدة، فاهتموا واسعوا، بناء على هذا أن يمروا ويعبروا راضين عن حالهم» مرفهى البال.

تحريرًا فى أوسط شهر جمادى الأولى سنة١٠٢٣هـ

مقام قسطنطينية المحروسة

نقلا عن كتاب الدولة العثمانية

وقضية الموريسكيين الأندلسيين

للدكتور عبد الجليل التميمى

وثيقة رقم (٤)

رسالة السلطان سليمان القانونى إلى حاكم فاس محمد السعدى

(. . . هذا مثالنا الشريف العالى السلطانى وخطابنا المنيف السامى الخاقانى، لا زال نافذًا مطاعًا بالعون الربانى والصون الصمدانى، أصدرناه إلى الجناب العالى الأمير، الكبير، الأكرمى، الأفخمى، الأكلمى، الأرشدى، الاعدلى، الهامى، الماجد النصيرى، الذخيرى، الحسبى، النسبى، نسل السلالة الهاشمية، فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصابة العلوية، المخفوف بصنوف لطايف عواطف الملك الصم، حاكم ولاية فاس يومئذ الشرف محمد دام علوه وزاد سموه. . . . .

أصدرنا هذا المثال الشريف العالى إلى جنابه العالى، نخصه منا سلامًا بتكميل صلاة (الصلات) المحبة بالتحيات الطيبات، وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزكيات وبعد: فإن الله جلت قدرته، وعظمت مشيئته، منذ أقامنا فى دولة هائلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها، وسيادة سائدة كالشمس وضحيها، وسعادة ساعية كالقمر إذا تليها، وخصنا خلافة جليلة عضد الإيمان بها منصور، ومنحنا سلطة ساعد الإسلام بها مرفوع، لا جرم وجب علينا، وتحتم على ذمتنا أداء (شكر) هذا اللطف الجسيم، والإحسان العميم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وكان أبدًا دأبنا ودائمًا عادتنا الاهتمام بإجراء الشرع المبين، وإنفاذ كلام سيد الأولين - عليه الصلاة وعلى آله أجمعين، والقيام بإطفاء نايرة الكفر والطغيان، وطى الظلم والعدوان، ونشر العدل والإحسان، ولما بلغ سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه، ومال إلى جانبى العنف والاعتساف، ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف، وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين، لذلك بدلناهم غيره، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك

حضـرتنا العلية، وخلاصـة خدم أعتـابنا الجليلة، أمير الأمـراء الكرام، كبيـر الكبراء الفخام، ذى الجـلال والإكرام، والاحترام صـاحب الفرد والاحتشـام، المختص بمزيد عناية الملك الأعلى صـالح باشا، دام إقبـاله لفرط شهامـته وشجـاعته، وكـمال دينه وديانته، فوضنا إليه تلك الديار، وأمرنا بإقامة الشراع (الشرع) الشريف المتين، وإحياء تواقر سيـد المرسلين، وصون الرعايا، وحفظ البـرايا الذى هم ودائع الله تعالى، وأن يكون مع أهالى الإسلام على أكمل اتحـاد، وأجمل اتفاق، مجداً فيـما يتعلق بالدولة والدين، وقـيام نامـوس سلطاننا المتين، مـثابراً على دفع أعـداء الدين وقمع الكـفرة الفجرة المتـمردين، على أن أقصى مراد حـضرتنا العلية إحيـاء مراسم الإسلام، ثائرة الكفرة والمتمـردين اللئام، وذلك المرام يكون باتفاق أمراء الإسـلام، واتحاد أمناء شرع سيد الأنام، ويتم به النظام، ولا يفنى لآثارهم فى الشهور والأعوام. وأمرناه أيضاً أن ينظر إلى أحوال المسلمين بنظر الإشفـاق والمراحم، وينظر بينهم بكمال العدالة وحسن المكارم؛ ليكونوا فى أيام دولتـهم العـادلة آمنين مطمـئنين لا خوف عليـهم، ولا هم يحزنون. ولا بد لكم أن تحسنوا المجاورة، وتذهبـوا طريق حسن المعاشرة، مع كونكم أولاد سيد الأنبياء، وأحفاد سيد الأصفياء، سمعنا عدلكم وإنصافكم، وبكمال التقوى وصـفات الكمـال اتصافكم، ولـذلك الشأن كـتبنا إليكـم منشوراً يوجب مـضمـونه المصافات ويشفى مكنونه أن تكون المودة فى أقصى الغـابات، ولك أن تنبئوا بأخباركم صحتكم الغالية إلى أعتابنا العالية.

تحـريراً فى أوائل شهـر محـرم سنة تسع وخـمسـين وتسـعمـائة، الموافق يناير (١٥٥٢م) بمقام أدرنة.

كمـا بعث السلطان سليمـان القانونى بخطاب آخر إلى حـاكم المغرب محـمد الشيخ السعدى، يمنحه بخلع الخطاب عبـارة عن مرسوم سلطانى، قال فيه: (هذا مثالـنا الشريف. . . إلخ، أصدرنا إلى الجناب العالى، حـاكم فاس يومئذٍ وتـتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزكيات، وبعده.

فـإن الله جلت قـدرته، وتعـالت عظمـتـه، منذ أقـامنا فى دولـة هائلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها، وسيـادة سائدة كالشمس وضحيها، وإمضاء

سنن الأولين والآخرين، ومظاهرة حماة الدين ومجاهدين الكفرة المتمردين وأنت من أولاد سيد المرسلين، وقائد الغر المحجلين - صلوات الله عليه وسلامه - وقد سمع سيادتنا العلية حسن إقدامك، وكمال دينك وديانتك وخلوص طويتك، وصفاء سيرتك، وقيامك فى الذب عن المسلمين، وقمع أعداء الدين؛ ولذلك لشأن حباك إحساننا الشريف العالى السلطانى، ورعاك جزيل فضلها السامى الخاقانى، فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سنية، لتكون صلة للمحبة منا، وسببا لنسج المودة بيننا على أن أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالى الإسلام، وحماة دين النبى ﷺ فى أيام دولتنا العادلة فى أكمل الراحة، وأجمل الاستراحة، آمنين مطمئنين، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إن شاء الله تعالى.



الوثيقة (٥)

مرسوم السلطان العثمانى بتقليد صالـح رايس مقاليـــد الولاية

بعث السلطان العثمـانى مرسومه إلى العلماء، والفقهـاء، وسائر رعايا الجزائر، يعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية، وقد جاء فى ذلك المرسوم ما يلى:

(.. هذا مرسـومنا... أرسلنا إلى العلماء، والفضـلاء، والفقهـاء، والأئمة، والخطبـاء، وجمـيع العلمـاء، والقواد، والـنقبـاء، وسائر رعـايانا بولاية الجـزائر الغربية، زيد توفيقهم، يتضمن إعلامهم أن صدقاتنا العالية، ومعتمد دولتنا القانية، أمير الأمـراء الكرام.... صالح باشا دام إقبالا، بولاية الجـزائر؛ فوضنا إليه تلك الأرض، وأمرناه بإحياء السنن والفروض، والرعايا أهل الإسلام ثمة فى أيام دولتنا العادلة فى أكمل الراحة، وأجمل الاستراحة، آمنين مطمئنين، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فليكونوا مع أمير الأمراء المشـار إليه على أحسن حال وأكمل اتفاق، مراد حـضرتنا قيـام قاموس الشرع القـويم، والصراط المستـقيم، وإحيـائه مراسم الإسلام، وطريقة سيـد الأنام، وحفظ العباد، وصون البلاد، وقـمع الكفرة الفجرة بكل نادٍ، وتقـبلوا ذلك واعتـمدوه، والله تعـالى هو الموفق بمنه ويمنه، والعـلامة الشريف حجة بمضمونه.

تحريرًا فى أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة، الموافق يناير ١٥٥٢ م.

أ- وثيقة من الدولة العثمانية إلى مسلمى إسبانيا والجزائر:

تعريب الوثيقة:

لقد أرسلتـم إلى سدة سعـادتنا عرض حـالكم وكيف أن الكفـار الضالين ذوى الشعارات المضـللة يتآمرون على المسلمين ويمنعـونهم من التخاطب باللغـة العربية ويكلفون زوجاتهم بما يخـالف الشرع الحنيف، مقترفين الظلم والاعـتداء تجاههم،

ويوجد الآن عشرون ألفًا من الرجال غير أن عدد الأشخاص الذين لا سلاح لهم وصل إلى مائة ألف كما هو مقرر وثابت، وفى صورة وصول هذا المقدار من السلاح إلى الجزائر، فإن ذلك من شأنه أن يقوى من عزيمة الناس وقد أخبرتمونا أنكم أنزلتم بالكفار الملاعين هزائم عديدة والحمد لله الذى يجعل أهل الإسلام ينتصرون دومًا على الكفار الضالين. وكل ما حدث ذكرتموه وقررتموه فى عرض حالكم مفصلا، قد وصل إلى علم سيادتنا، وأن كل ما يتعلق بكم قد بلغ إلى شريف وشمول علم سلطاننا الذى يحرص دومًا على إظهار الاهتمام والعطف لجانبكم.

إلا أنه فى هذا الظرف بالذات وبالقرب من ممالكى تقع جزيرة قبرص والتى يرجع الفضل إلى أجدادى العظام منذ زمن بعيد لعقد معاهدة أمان معها، غير أن الكفار أصحاب الجزيرة نقضوا ذلك العهد.. باعتدائهم على كل أهالى الإسلام وسائر طوائف التجار عندما تخلص نيتهم للتحول والطواف ببيت الحرام وزيارة قبر حضرة الرسول سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، مقرين بذلك العصيان والطغيان.

قد اعتمدنا وتوكلنا على عناية الله، واستنجدنا وتوسلنا بمفخرة الموجودات، ذى البركة العميمة صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك استعنا بأصحابه البررة الشرفاء رضوان الله عليهم أجمعين، وفى الربيع السعيد نتيجة لتلك الآثار عزم سلطانى وقرر الاستيلاء وفتح الجزيرة المذكورة إذ حق جلالته السامية بين فى ذلك. وإذا تيسر فتح الجزيرة المذكورة بسهولة وأصبحت فى قبضتى وتحت تصرفى وصار أهالى الإسلام كما هو الحال فى الماضى يقومون بتكاليف الشرع الحنيف وعموم الزائرين والتجار أصبحوا آمنين وسالمين، عندها يقوم الأهالى بالدعاء لدوام الدولة وثبات مجدها وكذلك فى الدعاء لرفعتى وأنه لتحقيق ذلك هيأنا عددًا من السفن الضخمة والعساكر المنصورة ووجهناها إلى الجزيرة المذكورة بدون أى تأخير، وإن شاء الله يكون فى عزمنا ونيتنا توجيه أسطولى المظفر إلى تلك الجهة، إذ ذلك من الأمور

المهمة الأساسية، وأننا الآن فى حالة استعداد وتحضير. وقد وجهت أمرًا همايونياً مؤكدًا إلى بيلرباى الجزائر فسيقوم هذا الأخير على تقديم جميع المساعدات والإعانات إليكم وذلك لما أظهرتموه من همة إسلامية وغيرة فى الدفاع على الدين المبين وعدم ترككم له، وهذا على الرغم من الحروب والقتال مع الكفار أذلهم الله إذ إنكم أبديتم كل أنواع الإقدام والشجاعة، وحتى يكون النصر ميسرًا لنا فى ذلك الجانبى فإن العلماء والصلحاء وسائر أهل الإسلام لن يتخلوا عن الدعاء لنا بذلك وأن لا تبخلوا عن إعلامنا دائمًا بأحوالكم وأوضاعكم فى تلك الجهة(١).

سلم هذا الأمر إلى الشاويش خليل فى ١٠ ذى القعدة ٩٧٧هـ.



(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلس. للدكتور عبد الجليل التميمى. مرجع سابق. ص٢٥

وثيقة رقم (٦)

رسالة إلى السلطان بايزيد

أما السلطان بايزيد الثانى فقد وصلت إليه رسالة وبها قصيدة من أحد الموريسكيين يصور له مأساة المسلمين ويستنجده لنصرتهم وإنقاذهم. فوصلته هذه الرسالة: [1].

(الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها وأذل عداتها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محيى العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب، والعجم، والترك والديلم، ظل الله فى أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين وسلطان البحرين، حامى الذمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، كهفنا وغيثنا، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونًا بالانتصار، مخلد المآثر والآثار، مشهور المعالى والفخار، مستأثرًا من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل، فى الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر فى هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية، مختصه بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من بأسها، ما يروى صدور السحر والصفائح والسنة السلاح، بأذلة نفائس الذخائر فى المواطن التى تألف فيها الأخاير مفرقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهاد، وكانت ضمن الرسالة أبيات القصيدة يمدح فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد، ويدعو للدولة بدوام البقاء قائلا:

سلام كريم دائم متجدد ... أخص به مولاى خير خليفة

سلام على مولاى ذى المجد والعلا ... ومن ألبس الكفار ثوب المذلة

---

(١) الدولة العثمانية. د. على الصلابى ص ٢٠٩.

سلام على من وسع الله ملكه   وكايده بالنصر فى كل وجهة

سلام على مولاى من دار ملكه   قسطنطينية اكرم بها من مدينة

ثم تبين الأبيات بعد ذلك وتوضح شعور المسلمين المتنصرين نحو الدولة العثمانية وتقدم شكواها للسلطان العثمانى فيقول شاعرهم ويستفيض فى شرح مأساتهم وتغيير دينهم:

شكونا لكم مولانا ما قد أصابنا   من الضر والبلوى وعظم الرزية

غدرنا ونصرنا وبدل ديننا   ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة

وكنا على دين النبى محمد   نقاتل عمال الصليب بنيه

ثم يطلب الموريسكيون تدخل السلطان بايزيد لإمدادهم وإنقاذهم مما هم فيه وأن يتوسط لدى السلطان فى روما[1]:

سألناك يا مولاى بالله ربنا   وبالمصطفى المختار خير البرية

عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا   لعل إله العرش يأتى برحمة

فسل بابهم أعنى المقيم برومة   بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة

وما لهم مالوا علينا بغدرهم   بغير أذى منا وغير جريمة

ويشير المسلمون المتنصرون إلى أن سلطان مصر قد توسط لدى المسيحيين ليخففوا عنا ولكنهم لم يغيروا شيئًا وظلوا فى تشددهم وتعنتهم:

وقد بلغت إرسال مصر إليهم   وما نالهم غدر ولا هتك حرمة

وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا   رضينا بدين الكفر من غير قهرة

ومع هذا العذاب وتلك المحنة الشديدة فقد صمموا على البقاء على دينهم الإسلامى الحنيف:

---

(١) الدولة العثمانية. د. على الصلابى ص ٢١٣.

والله ما نرضى بتبديل ديننا ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة
إن زعموا أنا رضينا بدينهم بغير أذى منهم لنا ومساءة
فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا أسارى وقتلى تحت مذلة ومهنة

وينهى الشاعر قصيدته بأن يجدد الاستغاثة بالدولة العثمانية ويرجو منهم إنقاذهم وإجلاءهم من تلك البلاد[1]:

فها نحن يا مولاى نشكو إليكم فهذا الذى نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعًا عن أرضهم بأموال للعرب دار الأحبة
فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا على الكفر فى عز على غير ملة
فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم ومن عندكم نقضى لنا كل حاجة
وثم سلام الله قلته ورحمته عليكم مدى الأيام فى كل ساعة[2]

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق ص ٢١٥.
(٢) (انظر رسالة أهل الأندلس بعد استيلاء النصارى عليها وتعذيبهم للمسلمين إلى السلطان بايزيد. المكتبة الوطنية بالجزائر رقم ١٦٢٠ نقلا عن الدولة العثمانية للدكتور. على الصلابى مكتبة العلوم والحكم ص٢٠٩ - ٢١٥، وانظر أيضًا كتاب النوازل الكبرى فى التاريخ الإسلامى. للدكتور. فتحى زغروت (محنة المرويسكيين واستنجادهم بالعثمانيين) من ص ٥٠٨ - ٥١٥.

مراسيم السلطان العثماني إلى ولاة وأهالي وعلماء الشمال الإفريقي

الوثيقة رقم ١
مرسوم السلطان العثماني إلى أهالي طرابلس
الترجمة العربية للمرسوم

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني أرسلناه إلى العلماء الفضلاء والفقهاء والخطباء والأئمة وجميع الرعايا والبرايا بطرابلس العرب (كذا) زيد توفيقهم يتضمن أعلامهم أنه قد سمع بسيدنا السنية تعرض الكفار خذلهم الله تعالى دائمًا لتلك الأماكن المباركة والمواطن المبجلة وسكانها وكذلك أهالي الإسلام ثمة، على أن عزمنا الشريف كان مصروفًا دائمًا لتلك الديار المباركة واستخلاصها لأجل استراحة الرعايا والبرايا أهالي الإسلام، وقد يسر الله تعالى ذلك وصارت الأماكن المباركة من عداد ممالكنا المحروسة.... من الرعايا والبرايا مثل رعايانا مصونين محفوظين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأنتم كذلك داخلون في سلك خدام أعتابنا الجليلة وممالك دولتنا القاهرة الفائقة ولأجل حفظ تلك الديار المكرمة وصونها والدفاع عنها أرسلنا من أعتابنا الجليلة إلى تلك الديار أمير أمرا وقاضيًا لإجراء أوامر الشرع الشريف المطهر والقانون المقرر، ولتكون الرعايا والبرايا في أيام دولتنا الراقية على أجمل حال وفراغ بال مشغولين بمكاسبهم ومعايشهم، ألسنتهم رطبة بالأدعية الصالحة في صحائفنا الشريفة، هذا وفي السنة الماضية كان قد اتصل بمسامعنا الشريفة تهيؤ سفن الكفار خذلهم الله تعالى وقصدهم إلى تلك الديار العظيمة الآثار، وعند ذلك جهزنا من أعتابنا الجليلة لحفظ تلك الديار ودفع الأذى والضرر: أهالينا سفنًا مملوه (كذا) بعساكرنا المنصورة مشحونة بالآلات والعدد، فلما سمعوا بذلك الكفار تفرقوا وانهزموا وعلم بذلك مملوك حضرتنا الجليلة القبودان دام إقباله، وانقضى موسم البحر لا جرم رجع المشار إليه الى أعتابنا الجليلة والآن قد تسمع لسدتنا السنية قصد الكفار المذكورين

خذلهم الله تعالى وتوجه عزيمتهم. . . . . إلى تلك الديار وعند ذلك أمرنا بتجهيز سفن مشحونة بالآلات والعدد والمقاتلين وإرسالهم. فمرسومنا الشريف المطاع وأمرنا المنيف الواجب الاتباع أنه إذا جاء الكفار إلى تلك الديار قبل قدوم مراكبنا المذكورة وعساكرنا المؤيدة المنصورة إليكم، حينئذ على ما هو مقتضى شجاعتكم ومركوز فى جبلتكم الحسنة وحسن إسلامكم وغيرتكم وحميتكم لدين الإسلام مع أمير الأمراء وسائر عساكر الإسلام وحماة دين النبى عليه السلام، لسانكم واحد ووجهتكم واحدة بحيث لا يتمكن أحد من أولئك الكفار المخذولين لمضرة أحد المسلمين. . . . . . تلك الممالك المصونة لترفع ظلمه. . . . أولئك الكفرة الفجرة عن المسلمين بتلك الديار العظيمة الآثار غيرة وحمية للدين القويم ومعاونة لأمة سيد الأولين والآخرين، وأما إرسال أمير الأمراء إلى تلك الديار فمراد حضرتنا العلية أن تكون الرعايا وسائر المشايخ والأعيان فى أحوالهم وقلاعهم ومساكنهم ساكنين بحضور القلب لا يتعدى على أحد فى ملكه ولا قلعته على أنه إن كان أحد من أمير الأمراء وسائر العساكر ثمة عارض أحد من قبله وقلعته بعد إتمام هذه الأحوال تعرضوا ذلك لدى أعتابنا العلية لتقابل منه (؟) بفعل ذلك تعلمون ذلك وتعتمدون والله تعالى هو الموفق بمنه صورة منها الى مشائخ عربان طرابلس والى العلماء والصلحاء. . . . . . وإلى المشايخ: شيخ المحاميد، شيخ المكارجة، شيخ الجوارى، شيخ الزبانية، شيخ ورقله، شيخ العرفان، شيخ مسلاته، شيخ تاجورة، شيخ مصراتة، شيخ خيلتين، شيخ طعنون، شيخ تاورغة، شيخ جربه[1].

(١) هذه الوثيقة مأخوذة من (مهمة دفترى بأرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول، وتعتبر من أهم مصادر تاريخ الدولة العثمانية ابتداء من منتصف القرن السادس عشر، وقد أخذناها من كتاب الدكتور عبد الجليل التميمى: الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين).

صورة المرسوم باللغة التركية

شكل رقم 4 . رسالة من الباب العالي الى اعيان طرابلس الغرب.

ا. د. و. ا. مهمة دفتري رقم 3 ، ص 08.

نقلاً عن كتاب الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين

الوثيقة رقم ٢

خطاب السلطان العثمانى الى أهالى تونس

هذا مثالنا العالى الشريف السلطانى وخطابنا المنيف السامى الخاقانى حصن بالعون الربانى والمن الصمدانى أصدرناه إلى الجناب العالى الأمير الكبير الأكرامى الأفخمى الأمجدى الأرشدى الأكملى الأعدلى العونى الغوثى الأوحدى القصدى الهمامى الماجدى الأصيلى العريقى، نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية طراز العصابة العمرية المحفوف بعناية الملك الصمدانى الحاكم يومئذ بولاية تونس أدام الله سعده وأنجح قصده فوضح لعلمه أنه قد سمع بسيدتنا السنية تعرض الكفار خذلهم الله دائمًا واستيلاء يدهم البتراء على ولاية طرابلس وما ضاهاها من تلك الولاية وهتكهم حرمات المسلمين واستخدامهم لهم، وقد كان عزمنا الشريف مصروفًا لفتح تلك الديار واستخلاصها من أيديهم نصرة لأهالى الإسلام وعزة لدين سيد الأنام صلوات الله وسلامه عليه واسترقاق للرعايا والبرايا مثل رعايانا مصونين مرعيين محفوظين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولأجل ذلك أرسلنا الى الولاية من أعتابنا العلية أمير أمرا وقاضيًا وأمرناهما بإجراء الشرع الشريف المطهر ودفع الأذى والضرر عن أهالى تلك الأماكن المبجلة والمواطن المباركة لتكون الرعايا والبرايا خصوصًا العلماء والفضلاء والفقهاء وأعلام الدين المبين فى دولتنا الفائقة ومعدلتنا الراقية على أجمل حال وفراغ بال مشغولين بمعايشهم، ألسنتهم رطبة بأنواع الأدعية الصالحة فى صحائفنا الراقية.

هذا وفى السنة الماضية كان قد اتصل بمسامعنا الشريفة تهيؤ سفن الكفار أحلهم الله دار البوار وقصدهم تلك الديار، وعند ذلك جهزنا من أعتابنا الجليلة لدفعهم وقمعهم سفنا مملوءة بعساكرنا مشحونة بآلات القتال والعدد. فلما سمع بذلك الكفار ولوا الفرار ولم يلبثوا ساعة من نهار وانقلبوا صاغرين وتفرقوا وانهزموا خاسرين. ولما علم بذلك مملوك حضرتنا العلية أمير الأمراء الكرام القبودان بأعتابنا

الجليلة بيالة دام إقباله وزاد إجلاله وانقضى موسم البحر لا جرم المشار إليه إلى أعتابنا العلية، ثم الآن قد سمع بسدتنا السنية قصد الكفار المذكورين خذلتم الله تعالى وتوجه عزيمتهم الغير موجهة إلى غير تلك الديار لا جرم أمرنا لردهم وقمعهم ومقابلتهم ومقاتلتهم وقلعهم بتجهيز سفن مملوءة بالعساكر المنصورة والآلات والعدد ولا غرو أنكم أنتم وآباؤكم من قبل المجاهدين والمدافعين. . . . . . وحماة دين سيد المراسلين بتلك الأراضى.

فمثالنا الشريف إليكم أنه إذا جاء الكفار إلى تلك الديار قبل قدوم مراكبنا المذكورة ووصوله لتلك الديار حينئذ تتدبروا على ما هو مركوز جبلتكم الحسنة وطريقكم المستحسنة ودينكم وديانتكم وشجاعتكم وشهامتكم معاونة ومعاضدة لأهالى الإسلام وأمر خير الأنام مجدين ومجتهدين فى دفع حضرة أولئك الكفرة والفجرة ووهى كيدهم، لئلا يقع والعياذ بالله من أولئك الكفرة بحسن تدبيركم ولطف رأيكم خسارة لأهالى تلك الولاية المباركة وما هناك من البقاع والقلاع، وعلى أن قيامكم فى هذا الأمر المهم وانتدابكم لدفع ذلك الضرر الملم إنما هو لله ولإعلاء كلمة الله ولدفع مكيدة أعداء الله، وهذا هو مقصدنا (كذا) الأعظم وسبيلنا الأقوم دائمًا (. . . . .) لقيام شوكة الإسلام ومقاصده أمير سيد الأنام لتكون الرعايا والبرايا فى أيام سدتنا الفايقة على أحسن الانتظام وأكمل القيام آمنين على أنفسهم وآمالهم إن شاء الله تعالى، ورضاؤنا منه نصره المتين والغلبة على الكفرة أعداء الدين، والله تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه إن شاء الله تعالى. تحريرًا فى أواسط شهر ربيع الأول من ٩٦٧[1]، وقد أرسلناه من فائض أنعامنا إلى الجناب العالى خلعة سنية، فليلبسها داعيًا لدولتنا الفائقة والله تعالى هو المسئول ومنه القبول بمنه ويمنه.

❀❀❀

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ٣

مرسوم السلطان العثمانى إلى أهالى فاس ومراكش

هذا مرسومنا الشريف العالى السلطانى وأمرنا المنيف السامى الخاقانى لا زال نافذًا مطاعًا فى المشارق والمغارب، أرسلناه الى العلماء والفضلاء والصلحا (كذا) وجميع الأمراء والكبراء أهالى الإسلام بإقليم فاس وديار مراكش وبلاد سوس وسائر توابع تلك الأرض المباركة وفقهم الله تعالى نعلمهم أنه لايخفى أن والى تلك الولاية وحاكمها سابقًا الشريف محمد انتقل بالوفاة، وصارت تلك الولاية فى يد ولده عبدالله. لكن اهالى تلك الديار الجليلة لم يكونوا لفعله من الشاكرين ولسره من الذاكرين، على أن من أولاد الشريف محمد المزبور افتخار الأمراء الكرام مختار الكبراء الفخام الأميرى الكبيرى الأكرامى الأفخمى الهمامى الماجدى الأصيلى الحسنى السنى المحفوف بصنوف عواطف الملك المهيب(؟)وأهالى تلك البلدة ويطلبونه ولولاء عليهم يريدونه وتنصيبه فى تلك الولاية يحصل لأهاليها الأمن والأمان ومزيد الرفاهية. . . . . . (؟) الاطمئنان فلا جرم قبل تاريخ هذا المنشور العالى والدى المرحوم المغفور له سلطان الغزاة والمجاهدين سلطان سليمان خان أسكنه الله فى عرف الجنان المشار إليه أميرًا لتلك الولاية وأنعم مرسومًا شريفًا فأرسل المشار إليه ذلك المرسوم إلى سدتنا العلية يطلب تجديده فأعطيناه من سدتنا السنية منشورنا السنى الخاقانى. فمرسومنا الشريف المطاع وأمرنا المنيف واجب الاتباع أن تكونوا مع فخر الأمراء المشار إليه على أحسن حال وأكمل اتحاد لرأيه السديد مطيعين ولفكره الصائب منقادين، لسانه لسانكم ووجهته وجهتكم تقلبكم وقالتكم (كذا) لدخوله تلك الديار له صلوات الله عليه وسلامه. على أن أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالى أحسن الإسلام. . . . . من الأيام شرقًا وغربًا بعدًا وقربًا فى أيام دولتنا الفائقة على أحسن حال وأجمل مآل، آمنين

مطمئنين فـرحين ومستـريحين لا خوف عليهم ولا هم يحـزنون، والله تعالى هو الموفق المعين بمنه ويمنه والعلامة الشريف...... بمضمونه. تحريراً فى أوائل صفر سنة خمس وسبعين وتسعمائة[١].

❁ ❁ ❁

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ٤

كتاب السلطان العثمانى الى أهل مراكش

الحمد لله الذى بسط أمنه لعباده ونظر إليهم بعين رأفته ووداده وجعل منهم الفائزين الذين جاهدوا فى الله حق جهاده والذين قلوبهم يشد بعضهم بعضًا بجوده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأولاده، وبعد فهذا كتابنا الشريف السلطانى وخطابنا المنيف السامى الخاقانى أصدرناه إلى الجناب العالى الأميرى الكبيرى الأكرامى الأفخمى الأمجدى الأرشدى الهمامى الماجدى الأكملى الأعدلى النصرى (كذا) العونى الغوثى الواحدى العضدى الأصيلى العريضى الحسبى النسبى نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية المحفوف بصنوف لطايف الملك الحاكم يومئذٍ بولايت (كذا) مراكقوش (كذا) السيد عبد الله أدام الله سعده وأنجح قصده يعرف مضمونه الميمون أنه ورد إلى أبوابنا العالية خلق الأمراء الكرام ذخر الكبراء الفخام ذو القدر والمجد والاحترام المختص بمزيد عناية الملك المالك أخوكم عبدالله أدام الله تعالى علوه مظهر الإخلاص والعبودية والانتماء (كذا) وملجاء (كذا) بكنف حمايتنا ومختصا لأبوابنا العلية السنية، ويكون هذا الإخلاص مؤديًا لإصلاح ما بينكم يزيل الشقاق من بينكم ومستلزمًا لانتظام أحوال جمهور الأنام ومتضمنًا رفاهية الخواص والعوام، فيعين له لانتعاشه بعض ما فى يدكم من الممالك التى تحت حوزة حكومتكم وانتقل إليكم من آبائكم الكرام حتى الآن لا يكون بعد اليوم فى ما بينكم من القتال والجدال والليام ويكون الرعايا والبرايا الذين هم ودائع الله فى تلك الأماكن فى غاية الأمن والأمان والرفاهية والاطمئنان بحيث يظهر فى هذا الشأن مرضات (كذا) الله تعالى لاتباع أوامر الله تعالى، حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. خصوصًا إنكم مع المشار إليه أخوان وبحمد الله تعالى أنكم من أهل الإسلام وغير

ذلك من السادات العظام، ولا ينبغى بينكم من البـغى والعدوان فلا جرم لا يخفى كـذلك على علمكم أنكم من قـديم الأيام وسوابق الأعـوام ممن أظهر الإخـلاص والمودة نحو عتبتنا العلية الخاقانية وفرط محبتك أهل جنابنا العالى السلطانى فلأجل إخلاصك ينبغى (أن) تعين لأخواتك (كذا) المشار إليه شيئًا من الممالك الذى انتقل إليكم من آبائكم الكرام وتحت تصـرفكم فى هذا الآن (كذا) ليـقوت (كـذا) المشار إليه وترعى حق الأخوة فيه ويزيل ما بينكم من الشقاق والعناد وتكونوا مجدين فى حفظ البـلاد وصون العـباد، ويكون الرعايا والبـرايا آمنين فى أوطانهم منشـرحين بحيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والله تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه إن شاء الله .جرى ذلك فى أواسط جمادى الأولى ٩٧٦ (١).



(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ٥

مرسوم السلطان العثمانى إلى العلماء فى الجزائر

هذا مرسومنا الشريف العالى السلطانى وخطابنا المنيف السامى الخاقانى أرسلناه إلى العلماء الصلحاء والشرفاء وسائر أهالى الجزائر دام توفيقهم يعرف مضمونه الميمون أنه ورد من جانبكم لحضرتى قيد مما صدر من الأمراء الكرام أمير بولايت (كذا) جزائر سابقًا محمد باشا ابن صالح باشا ومن كتخذايه من الحروف (كذا) والظلم وأخذوا فى يد رعايانا هناك من المال وغير ذلك جميع ما حصل منهم لاهالى الجزائر ثمة عرض لدى حضرتنا السنية مفصلا، وجعل هنا محمد باشا المشار إليه جزاؤه وأما كتخدا وما وجد عنده من المال وغيره أرسلناه إلى الجزائر جملة ليؤخذ بحسب الشرع الشريف منهم حقوق العباد فى أيام عدالتنا الفائقة وكذلك أرسلناه فى ذلك الشأن حكمًا آخر موجه (كذا) إلى أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذى القدر والمجد والاحترام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى أمير الأمراء بولايت (كذا) الجزائر على باشا دام الله إقباله لأن يرد لأهالى الجزائر المزبورون منهم بالظلم والعدوان حتى يأخذ منهم كل ذى حق حقه، وأقصى مراد حضرتنا الجليل أن يكون الرعايا والبرايا الذين هم ودائع الله تعالى فى أيام دولتنا الفائقة فى غاية الأمن والأمان والرفاهية والاطمئنان فرحين مستريحين فى أوطانهم مواظبين على الأدعية المقبولة والأثنية المباركة فى آناء الليل وأطراف النهار، والله تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه إن شاء الله تعالى. جرى ذلك وحرر فى أواخر جمادى الأولى ٩٧٦ [١].

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ٦

مرسوم السلطان العثمانى إلى أهالى تونس

هذا مرسومنا الشريف العالى السلطانى وأمرنا المنيف السامى الخاقانى قد أرسلناه إلى مفاخر الأماجد والأعيان أولاد سعدية وتوابعكم دام مجدكم ينهى إليكم نه لما وردت على أعتابنا العلية المكاتب من أعيان ولاية تونس المشتملة على عرض خلوصكم لعتبتنا العالية وشكرانهم على فخر الأماثل والأقران رمضان زيد مجده الذى أقيم مقام أمير الأمراء الكرام قبودان على باشا دام إقباله الجزائر الغرب سابقًا والتماسهم تقليد الولاية إليه وتفويض جميع الأمور إليه وتحميلها عليه، قبلنا التماسهم لكن ما قلدنا هبل ألحقنا الولاية المذكورة بلواء على باشا المشار إليه وقررنا رمضان المومئ إليه فى وكالته قائمًا مقام إيالته، وفوضنا محافظة تلك البلاد وضبط العساكر وترفيه قلوب العباد وغيرها مما يتعلق بصيانة عرض الدولة والدين وإجراء أحكام الشرع المبين، فالمأمول منكم أن تكونوا مع الوكيل المشار إليه على أمجد اتفاق وأكمل اتحاد، لسانكم واحد، وجهتكم واحدة مجدًا وسعيًا فيما يتعلق بالدين والدولة وقيام ناموس سلطتنا المتين مع مزيد الاعتبار وتمام الجد والاهتمام، بحيث يظهر من جدكم المشهور وسعيكم المشكور اطمئنان البلاد وحراستها وحفظ الولاية والعباد. على أن نظرنا الشريف العالى دائمًا أبدًا إلى تلك الأرض المباركة وإلى أهاليها وسد أمور أسافلها وأعاليها وأقصى مراد حضرتنا العلية أن يكون الرعايا والبرايا خصوصًا سكان تلك الأرض بالطول والعرض ألسنتهم رطبة وأكفهم مبسوطة مبتهلين بأنواع الأدعية الصالحة والأثنية المقبولة وإن تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه، ٢٣ شوال ٩٧٩ (١).

---

(١) المرجع السابق.

وقد أرسلت نسخة من هذا الأمر الشريف إلى كل من:

- سيد أبو الطيب بتونس.......- علماء وصلحاء والمرابطين والقياد والشيوخ بالقيروان وسوسة ومنستير والحمامات وبلد الجريد ونفطه وتوزر وسوسة والجزائر - كذلك إلى ولد سفيدليه؟ولد بليار؟ وإلى كـوكو والكتخدا عرب أحمد، بتاريخ ٢٥ شوال ٩٧٩[١].

❁❁❁

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ٧

مرسوم السلطان العثماني إلى قائد الجيوش بالجزائر

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف الخاقاني لا زال نافذًا بالعون الرباني ومطاعًا له بالمن السبحاني قد أرسلناه إلى فخر الأعيان ذخر الأقران قائد جيش الجيوش سليمان زيد مجده ينهى إليه أن أمير الأمراء الكرام بولاية جزائر الغرب سابقًا قبودان على باشا دام إقباله قد عرض منك خلوص الطوية لسدتنا السنية وحسن معاشرتك مع جيوش الإسلام ومثابرتك على إتمام الأمور المهام وبذل السعي والاجتهاد بخلوص الفؤاد في أمر الجهاد، وورد أيضًا إلى عتبتنا العلية من أعيان ولاية تونس المحمية فلا يخفى عليك أن تلك الديار كسائر ممالكنا الجلية الاعتبار والعساكر المنصورة فيها كجندنا الملازمين لسدتنا السنية بل هم أعز عندنا من هؤلاء قدرًا وشرفًا، من حيث إنهم يواظبون الجهاد ويحرسون البلاد عن فساد المفسدين وأضرار أعداء الدين لأن أقصى مراد حضرتنا منها ومن كان فيها من رعاياها وعلمائها وصلحائها وفقرائها وضعفائها أن يكونوا مصونين مأمونين بأنفسهم وأموالهم وأهلهم وعيالهم ومساكنهم ومواطنهم من مضرة العدى وفساد المفسدين في أيام عدالتنا، مرفهين مطمئنين مواظبين على الدعاء بالخير لدولتنا الباهرة ودوام سلطتنا الزاهرة ولأجل هذا ألحقنا تلك الولاية بلواء المومئ إليه وقررنا الوكيل المزبور على وكالته قائمًا مقام إيالته فعليك أن تتخذ وتتفق معه أكمل الاتفاق، وتكون معه دائمًا على أجمل الوفاق فيما يتعلق بصيانة عرض الدولة والدين وإجراء أحكام الشرع المبين وترفيه قلوب المؤمنين ودفع فساد المفسدين ورفع مضرة أعداء الدين المتين، ويعاشر مع العشائر حسن المعاشرة ويعامل مع العساكر ويظاهر أقوى المظاهرة ويعين بالعساكر وبالزواد (كذا) والذخائر أن استعان هو منك، بحيث يتحقق عند الداني والقاصي ولدى كل مطيع وعاصٍ، وكأنكم نفس واحدة عارية من سوء الشقاق والاختلاف والولاية محروسة الجوانب والأطراف

بكمال الوفاق والائتلاف، إذ ذلك ذريعة لإصلاح أحوال الخواص والعوام ووسيلة لإعلاء كلمة الإسلام والسلام، والحمد لله وحدة والصلاة والسلام على من لا نبى بعده.

حرر فى ٤ شوال ٩٧٩[١] وسلم ٢٥شوال ٩٧٩.

نسخة من هذا الأمر إلى سليمان قائد الجيش.



(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ٨

مرسوم السلطان العثماني إلى العلماء في الجزائر

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا السامي الخاقاني لا زال نافذًا فى المشارق والمغارب أرسلناه الى العلماء والشرفا والصلحا(كذا) والمشايخ وأعيان الناس عبر تيه الجزائر وجميع الرعايا وكافة البرايا ثمة، بتضمن أعلامهم أن مدينة الجزائر وما تبعها من جملة ممالكنا المحروسة وخلص انتظامها وصون أهاليها وأقصى مراد حضرتنا الجليلة وغاية إرادتنا السنية أن يكون رعايانا هنالك فى أيام دولتنا العادلة آمنين مطمئنين منشرحين فرحين آمنين على أنفسهم مضبوطين فى جميع أحوالهم ثغورهم مسدودة بسد سديد وقلاعهم مصونة بالأمن والأمان وأفئدتهم وألسنتهم رطبة بالدعاء الصالح لدوام دولتنا الفائقة مدا (كذا) الدهور والأزمان وعن ذلك الشأن قلدنا أمور تلك الممالك المحمية أولئك الأقاليم المحروسة، قلدنا أمور تلك الممالك المحروسة وصلابته وكمال عزمه وشجاعته وحسن تدبيره وكياسته فوضنا إليه ضبط تلك الأقاليم وصونها والاهتمام بها وحفظ البلاد وصون العباد، ودفع المحن والرزايا عن جميع الرعايا وإحياء شرائع الدين المتين وإجراء قوانين سيد المرسلين ليكون أهالى الإسلام وأمت (كذا) خير الأنام فى تلك الأراضى المباركة فى ظل ظليل وعدل جميل تحت كنف حماية سلطتنا السنية وفى زمن خلافتنا الفائقة عن إيمانهم وعن شمائلهم محفوفين بأكمل الراحة مرفهين وأجمل الاستراحة منعمين آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

٢٩ شوال ٩٧٩[1].



(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ٩

مرسوم السلطان العثمانى إلى قائم الأعمال فى تونس

رمضان زيد

هذا مرسومنا الشريف العالى السلطانى ومثالنا المنيف السامى الخاقانى لا زال نافذًا مطاعًا بالعون الربانى قد أرسلناه إلى افتخار الأماثل والأعيان رمضان زيد مجده القائد تونس القائم أمير الأمراء الكرام قيودان على باشا دام إقباله وإلى كل من يكن قائدًا بهده ثمه ينتهى إليه قد أصدرت مراحمنا الجليلة السلطانية وظهرت عواطفنا الجميلة الخاقانية فى مفاخر الصلحاء الساكنين مراجع الفضلاء الصالحين الشيخ أمور بن عبد القدير الصوصورى والشيخ محمد الغريانى والشيخ محمد الفاسى المتوطنين ثمة، فأمرنا بأن لا يدخل أحد من الولاة والحكام والقوائد والأكراء الكرام وغيرهم ممن فى يده حكومة على الأنام، فى الزوايا المكانية بأيديهم وتحت تصرفهم المنتقلة إليهم أحد فى ذلك الباب ويكون كل منهم فى أيام سلطتنا السنية المحمية مصونًا مرفهًا مطمئناً تحت حكومتنا وظل عدالتنا البهية فيدعونا بالخير فى أبرك الأمكنة والأقطار وأشرف الأزمنة والأعصار بالعشى والأبكار والليالى والأسحار، والسلام والحمد لله وحده والسلام على من لا نبى بعده.

نسخة من هذا الأمر وجهت إلى:

- الشيخ سيدى أحمد البرورى، قائد القيروان.
- القائد رمضان.
- بيلر باى الجزائر.
- الشيخ سعيدى محمد الغريانى المستوطن مدينة القيروان.

- الشيخ محمد الفاسى المستوطنين بلدة ريغة المحمية من أعمال ولاية جزائر الغرب صانها الله عن آفات. . . . . . فأمنها أن يكون كل منهم معافى سلم هذا الفرمان إلى جعـفر جاويش من الديوان ليرسل إلى الباشـا فى غرة ذى القعدة ٩٧٩ [1].

❁❁❁

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ١٠
مرسوم السلطان العثمانى إلى الأمير أحمد الحاكمى أحد الولاة

هذا مرسومنا الشريف العالى السلطانى وأمرنا المنيف السامى الخاقانى لا زال نافذًا بالعون الربانى قد أرسلنا إلى الميرى الكبير الأكرامى العالى، إلى النضيرى (كذا) المختص بمزيد عناية الملك الصمد الأمير أحمد الحاكمى يومئذ بولاية (. . . . . . .) دام سعده ينهى إليه أنه قد أصدرنا عواطف الجليلة السلطانية وأظهرنا. . . . . الجميلة الخاقانية فى حق مملوك حضرتنا العلية وخلاصة خدام سدتنا السنية أمير الأمراء الكرام أحمد دام إقباله وقلدناه ولاية الجزائر الغربية وما تبعها إياه وفوضنا إليه جميع ما يتعلق بولاية الولاية المحمية لكمال الاعتناء لدينه وديانته، وفرط شجاعته وشهامته وحسن تدبيره بالرأى الصائب وتداركها (كذا) الشاقب أمرناه بإجراء ما اقتضاه الشرع المبين وإحياء مراسم الدين المتين وضبط الرعايا والممالك وحفظ البلاد والمسالك وأن يكون معكم على أكمل الاتفاق والاتحاد وأجمل المعاشرة وأخلص الوداد حيث يكون لسانكم واحدًا وجنانكم متحدًا فيما يتعلق بصيانة العرض والدين وإقامة (. . . . .) الشرع المبين، ويظهر من حسن اتحادكم المبرز، ويحصل من سعيكم المشكور الأمن والأمان فى البلاد والرفاهية والاطمئنان فى قلوب العباد. على أن نظرنا الشريف العالى السلطانى لا يخلو من أن يتعلق بمحاسن الإشفاق (؟) وأن يتألق بمكارم الأخلاق إلى تلك الأرض بالطول وبالعرض وإلى أهاليها وصلحائها ومواليها وأسفالها وأياليها إذا أقصى مراد حضرتنا العالية أن تكون تلك الولاية المحامية وأهاليها مطمئنين مرفهين مصونين من تعدى الأعداء اللئام فى ظل عدالتنا ما دام الليالى والأيام والشهور، ألسنتكم رطبة بالأدعية الصالحة لدوام دولتنا وقيام حشمتنا السامية إلى قيام الساعة وساعة الصيام (كذا)، والحمد لله وحده والصلاة على من لا نبى بعده. ٢٩شوال ٩٧٩[1].

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ١١

مرسوم السلطان العثماني إلى أبي الطيب

هذا مرسومنا الشريف العالي وخطابنا المنيف السامي الخاقاني الى الشيخي الأكرامي الأفخمي الأمجدي الأرشدي الشيخي أبو الطيب يعرف مضمونة الميمون أنة لا يخفى على علمكم أن الله جلت قدرته وعظمت مشيئته منذ إقامتنا فى دولت هائلة (. . . . . . .) وسيادة سايرت كالشمس وضحاها وسعادة ساعية كالقمر أذا تلاها جليلة عضد الأيمان مرفوع، ومنحنا سلطنت (كذا) سنى (. . . . . .) فلا جرم وجب علينا وتحتم على ذمتنا أداء شكر هذا اللطيف الجسيم والإحسان العميم ذلك، فعند الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وكان أبدًا رأينا ودائمًا عادتنا إجراء الشرع المبين واتفاق سنن سيد المرسلين عليه الصلاة وعلى آله وصحبه أجمعين، والقيام فى إطفاء نائرة الكفر والطغيان ونشر العدل والإحسان، ثم لما أن ولاية (كذا) تونس قد فتحت بعناية الله تعالى وانضمت إلى ممالكنا المحروسة ونظرنا الشريف العالى دائمًا إليها وإلى انتظام أمور أهاليها لا جرم عينا أمرية أمرائها خلاصت (كذا) مماليك حضرينا الجليلة أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام حيدر باشا دامت معاليه اعتمادنا على حسن سيرته وسريرته وصفاء عقيدته وديانته نصبنا بولاية تونس المحمية وفوضنا إليه أمورها جليلة وخطرها، على أن من يخدم أعتابنا الجليلة بحسن الطوية وصفا عنايتنا الفائقة وأنت كذلك اعتمادنا على وفور عقلك كمال دينك وديانتك وحسن إسلامك وفريد إطاعتك وإخلاصك فمرسومنا الشريف المطاع وأمرنا المنيف الواجب الاتباع أنه إذا قدم مملوك حضرتنا العلية أمير الأمراء المشار إليه إلى الديار وباشر فى حفظها وحراستها والنظر فى أمورها تكون أنت أيضًا على مقتضى إخلاصك لأعتابنا العلية معه على ما يراه وجيهًا ومناسبًا باذلاً مقدورك فى ما يتعلق بالدين والدو(لة) وإصلاح أحوال الرعية ليظهر من سعيك المشكور وجدك المشهور تجارة لن تبور، هذا هو المأمول منك.

فإن عرض لأعتابنا الشريفة أمير الأمراء المشار إليه حسن اهتمامك وفريد إقدامك فى أمور الدين والدولة وصلاح الأمة، حينئذٍ يشاهد من جانب سدتنا السنية أنواع الاعتزاز والإكرام وتكون مرعيًا من عتبتنا العلية بالرعاية الكاملة لأن أقصى مراد حضرتنا الوريقة الخاقانية أن يكون جميع أهالى الإسلام تمر فى أيام دولتنا العادلة فى غاية الأمن والأمان ونهاية الرفاهية والاطمئنان ويكونون مستريحين منشرحين فى أوطانهم وفى ثغورهم آمنين، بحيث لا خوف عليهم ولا هو يحزنون والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد لا نبى بعده.

١٥محرم ٩٨١[١].



(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ١٢

مرسوم السلطان العثماني إلى أعيان تونس

هذا مرسومنا الشريف العالى السلطانى ومثالنا المنيف السامى الخاقانى لا زال نافذًا بالعون الربانى ومطاعًا بالصون السبحانى قد أرسلناه إلى مفاخر الأماثل من أعيان ولاية تونس المحمية عن العاهات والبلية ينهى إليهم أنه لما شرفنا الله تعالى بخطاب وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده وفضلنا على كثير من عبادة وفوض إلينا تعمير البلاد وتدمير الكفر وأصحاب البغى والعناد فوجب علينا أن ندبر فى تلك الأمور أحسن التدبير ونقطع بعناية الله القدير دابر القوم الظالمين بالاستئصال والتدبير أحضرنا فى هذه السنة المباركة سفنًا كثيرة الأعداد مشحونة بصنوف الأجناد وضروب أدوات الحروب وآلات الجهاد الغزاء (كذا) مع أشرار الكفار المتوطنين فى سواحل البحار وفوضنا رئاسة هؤلاء العساكر إلى مفخر مماليكنا الأكابر أمير الأمراء الكرام إلى قبودان فلج على باشا، وفق الله تعالى لما يحبه وما يشاء وألزمنا عليه إتمام تلك الأمور لحسن اعتمادنا عليه فى سعيه المشكور، وجعلنا يده بفضل الله قوية البطش بقوة عضد سلطتنا القاهرة ليرهب المخالفون خشية سطوه صولتنا الباهرة وأقمناه، مقامنا، فيعمل برأيه الثاقب ودبر (كذا) بتدبيره الصائب حسبما تقتضيه الحال فى المشاجرة والقتال وصممنا إرساله فى فصل الربيع من جنابنا الرفيع إلى ولاية تونس المحمية صانها الله عن كل البلية، فإذا وصل إليكم بجنودنا المنصورة ودخلوا فى تلك الولاية المعمورة فعليكم أن تدبروا أحسن التدابير فى أمور الذخائر لهؤلاء العساكر والنصرة لهم بجنود الإسلام فى دفع مضرة الأعداء اللئام فى البر(. . . . .) وعن صميم القلب بالدعاء الخير وأن يطيعوا له أخلص الإطاعة وتمتثلوا بما أمره وتجيبوا لما دعاه بأصغر الإجابة، فمن أطاعه فقد أطاع لحضرتنا ومن خالفه فقد عادى لدولتنا، فإن استعان منكم أعينوا وتعاونوا بما أمرتم من ادخار الذخائر وأدوات القتال وتجهيز العساكر وغيرها، فنسأل الله السلام

والنصر لعساكر الإسلام فإذا تم أمر الكفار بعون الله الملك القهار نصبنا فيها أميرًا من جنابنا الكريم على ما صدر منكم فى الرضا فيه والتسليم، حتى يكون الرعايا والبرايا الذين هم ودائع الله تعالى آمنين على أنفسهم وأولادهم وعيالهم ومضبوطين ومنتظمين فى جميع أحوالهم، ولا يخلو من أن ننظر العناية دائمًا وأبدًا إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده.

٨ذى الحجة ٩٨٠[1].

وجهت نسخة من هذا الفرمان إلى كل من:

سيدى أبى الطيب الحصارى وقائد الجيش سليمان وقاضى تونس.

❁ ❁ ❁

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ١٣

مرسوم السلطان العثمانى من الباب العالى إلى الحاكم بولاية فاس

الترجمة العربية للرسالة

هذا أمرنا (٢٦) الشريف العالى السلطانى لا زال مطاعًا له ونافذًا بالعون الربانى قد أرسلناه إلى جناب الأميرى الكبير الأعدلى . . . . . . الألطاف مبارك أرسلناه إلى الجناب العالى الأميرى الكبيرى الأكرامى الأمجدى الأرشدى الأكملى الأعدلى النصرى الذخرى (كذا) العونى الغوثى الوتدى (كذا) العضدى الهمامى الماجدى الأصلى العربى الحسبى النسبى، نسل السلالة الهاشمية وفرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية لأمراء الأشراف المطاع له الحاكم العادل بولاية فاس المحمية بحماية ملك الناس، ينهى لعمله الكريم أنه قد ورد كتابه الذى حلى بالدر النظيم إلى سدتنا السنية السلطانية وعتبتنا العلية رياض منظومة ومنثورة وألفيناه متضمنًا ومحتويًا على ما منّ الله العليم ويسره للمعز الكريم من نصر المؤمنين وقهر الأعداء المشركين، وإعلاء كلمة الدين المتين وإجراء أحكام الشرع المبين، وبذل المقدور فى معاضدة أهالى ولاية أندلس المحمية حماها الله عن العاهات والبلية، حيث هبت نسمات النصر على جيوش الإسلام فقيل يا خيل الله اركبى، وبأيد (كذا) النصر اكتبى وقام الحرب على ساق وأضحى كل الأعداء إلى حتفه يساق وهجرت السيوف الإسلامية لاعتماد (كذا)، وأقسمت أنها لا تقر إلا فى الرءوس (كذا) والأسنة أشرعت وألت. . . . . . . أنها الا . . . . تروى ظماءها (كذا) إلا من دماء النفوس وغير ذلك من غرض الإخلاص لسدتنا السنية وإنهاء الاختصاص لتبعتنا العلية فقد فهمنا جميع ما فيه وأطلعنا على كل الإسلام، حيث سلكت ملكت وأين جنحت من بلاد الكفر أسرت وفتحت وظفرهم على حرب المشركين الذين ذعير (كذا) من هيبتنا دانيهم وقاصيهم، أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم فالمأمول منكم أن تكون المودت (كذا) بيننا مرصوص البنيان وبينان المحبة متينًا (؟) الأركان يرفع مبانى العدل والإنصاف، ويقلع أساس الجور

والاعتساف ويبذل جهدكم فى إعلاء أعلام الشرع القويم ورفع ألوية الدين المستقيم وفتح أبواب البر على البرايا ونصيب أعلام الرعاية واصطياد القلوب باشتباك العواطف وانقياد النفوس بأزمة العوارف (؟) حيث أنام الأنام (كذا) حسن حمايتكم وأقيم الأقوام فى ظل رعايتكم، فوصلوا إلى ما نالوا فى أيام دولتنا ونالوا ما أملوا من حضرتنا فيدعو لصحائف سلطتنا ودوام دولتنا وثبات......

دائمًا أبدًا سرمدًا بصفاء الطوية وخلوص البال ما دارت الأيام والليالى والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده.

جمادى الأول ٦٨١[1].

المرسوم باللغة التركية

الشكل رقم ٤ ، رسالة من الباب العالى الى الحاكم بولاية فاس .
أ. ي. و. أ. مهمة دفتري رقم 22 ، ص ١

رسالة من الباب العالى إلى الحاكم بولاية فاس نقلا عن كتاب الدولة العثمانية السابق ذكره

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ١٤

مرسوم السلطان العثماني إلى علي بن عابد في القيروان

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني أرسلناه إلى الشيخ الكبيرى الأكرامى الأمجدى الأرشدى الأوحدى أمين الملة معتمد الدولة الشيخ على بن عامر دام مجده يعرف مضمونه الميمون أنه لا يخفى عليكم بأن الجد والاجتهاد فى أمر الجهاد والشفقة على العباد من الحاضر والباد (كذا)، وتخليص الممالك والولايات وإنقاذ الأنفس من المهالك والورطات مسلكنا الشريف الجميل وسمتنا اللطيف الجليل وليس بفعل الله تعالى افتقاره ولا بغية وما فى ضميرنا إرادة ولا منية سوى رفاهية العالم ولحما (كذا) يدينه (كذا) قلوب بنى آدم فلا يخفى عليكم أنه قد استمع واتضح بعلمنا الشريف العالى ما صدر منكم، ونشأ من جنابكم قبل هذا من مزيد الجد والاجتهاد، وحسن الطاعة والانقياد وتمام المتابعة لأعتابنا العلية بالمعمورة والمعونة لحدودنا القوية المنصورة بقلبكم وبقالبكم، هذا هو المأمول منكم بيض الله وجهكم يوم تبيض وجوه الصادقين، لا جرم قد أرسلنا إلى تلك الجوانب كذلك عمارتنا المنصورة مع عساكرنا الغزاة، فلتكونوا كذلك مع ما أنتم عليه من قبل ومن بعد كما هو مركوز فى جبليكم الحسنة وطريقتكم المرغوبة المستحسنة من المعاونة والمظاهرة لعساكرنا المترودة (كذا) (ولعلها المترددة) باذلاً مجهودكم صادقًا مقدوركم مع كمال الجد والاجتهاد لمعاونة حماة الدين المتين وقطع دابر القوم الكفرة العندة المتمردين، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] ومضمونة الشرد (كذا)، وغاية المطلوب والجدوى لأن عزمنا الشريف العالى السلطانى دائمًا إلى الغزو فى سبيل الله والجهاد بأعداء (كذا) الله وإطفاء نائرة الكفرة خذلهم الله ومرادا رادتنا العلية الشهنشاهية أن يكون الرعايا والبرايا فى أيام دولتنا الفائقة العادلة آمنين ومطمئنين تحت ظل كنف حمايتنا، ثغورهم مسدودة بسد سديد وقلاعهم مصونة ومدنهم محفوظة بالأمن

والأمان وألسنتهم رطبة بالدعاء الصالح لدوام دولتنا العادلة (على) مر الدهور والأزمان ومنشرحين فرحين بحيث لاخوف عليهم ولا هم يحزنون والله تعالى هو المعين بمنه ويمنه، ٢١شوال ٩٨١[1].

وجهت هذه النسخة من هذا الفرمان إلى:

شيوخ القيروان................وإلى سيدى محمد باى.

❁ ❁ ❁

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ١٥

مرسوم السلطان العثماني إلى الأمير أحمد حاكم زوارة

هذا مرسومنا الشريف العالى السلطانى ومثالنا المنيف السامى الخاقانى مبارك أرسلناه إلى الجانب الأميرى الكبيرى الأرشدى الأفخمى الأمير أحمد حاكم زوارة دام مجده ينهى إليه أنا قد صممنا الجهاد مع الكفرة ودفع مضرات أرباب البغى والعناد، وتوكلنا على عون الله تعالى وحسن توفيقه وعناياته وتوسلنا بكرامات سيد الأنبياء ومعجزات عليه السلام وعلى آله وصحبه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، وجهزنا السفائن المملوءة بأنواع آلات الحرب والقتال وأصناف أدوات الضرب والنزال، وأملينا (كذا) كلها بأبطال الرجال المبارزين لإعلاء كلمة الدين المبين ثم أرسلناه إليكم مع مملوك عتبتنا العالية الشأن القائد سليمان زيد قدره الخلعة الفاخرة، فإذا وصل إليكم كتابنا الشريف وحكمنا المنيف فعليكم أن تلقاها بالتعظيم والإجلال وتلبها شاكرًا على نعماء الله المتعال، وأن تظهر ما أضمر فيكم من الشجاعات (كذا) والجلالة فى المحاربة لدفع المضرة و(. . . . .)، وأن تحضر الذخائر الوافرة (ة) والزوائد المتكاثرة لعساكرنا المنصورة باطاف الله المبرورة الواردين على تلك الديار لدفع شرور أشرار الكفار، فإذا ورد عليكم أمرنا الشريف وحكمنا المنيف بعد هذا وطلب منكم الذخائر للعساكر الجليلة المآثر ادفعوها إلى من طلب منكم بأمرنا الشريف وتعاونوا بالعساكر وأدوات القتال.

وجهت هذه النسخة من الفرمان إلى:

جناب حاكم ولايت (كذا) عباس

١٥ذى القعدة ٩٨١[١].



(١) المرجع السابق.